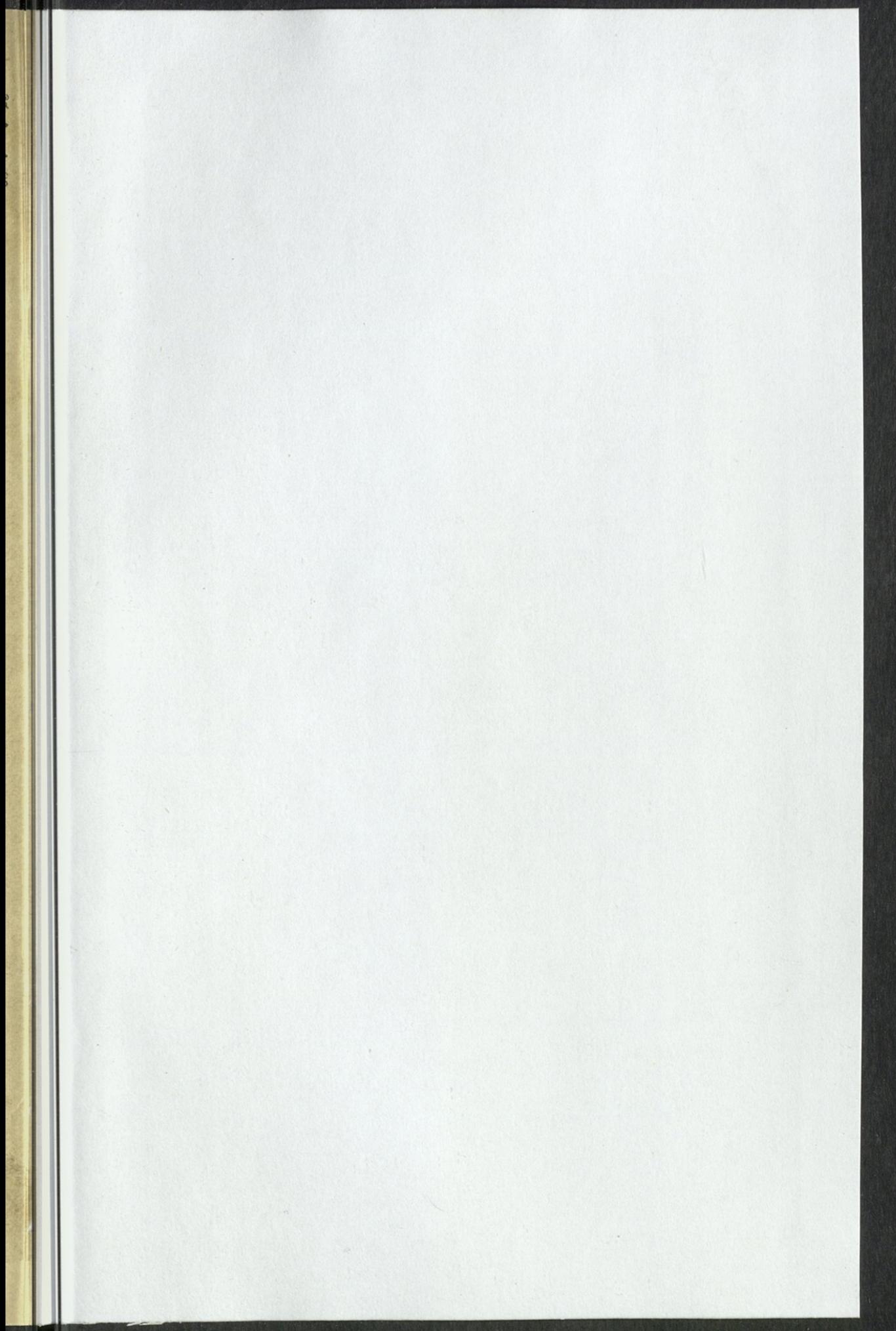


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



John Brown



كتاب

٩٦٢
B985.A
V.1

صدره من مدارك أرض مصر تاريخ

الامة القبطية

1918 (وكنيستها)

تأليف السيدة اول. ببشر الانجليزية

المجلد الاول

« ثمن جميع المجلدات اربعون غر شاما صاغا »

(طبع على نفقة صاحب جريدة مصر)

سنة ١٩٠٠ افرنجية الموافقة سنة ١٦١٦

طبع بطبعة مصر بالفوج

مقدمة المؤلفة

سجدة

ان الغرض الذي لاجله وضعت هذا الكتاب التالي هو الابحاث التي وصل اليها
جهور المؤرخين والباحثين فيما يتعلق ببقية الامة المصرية القديمة او هم الاقباط وهو
يقتدى من تاريخ دخول الديانة المسيحية هذه البلاد لحد الان ، وتاريخ هذه الامة
متزوج من اوله لا آخره باقوام كثيرة مختلفة اغارت على البلاد وملكتها من روما و
واروا وعرب واكراد وشراكسة واتراك وغيرهم وهم الذين اذلوا المصريين وجعلوا
بلادهم مستباحة لهم . ولقد اسفر بحث الباحثين المدققين على ان اعتقاد المصر بغير
الاصليين الباقيين الى الان هم الاقباط المسيحيين لا المسلمين وهم الذين عنيدت انا
بعد عناء كثير وشغل متواهل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهل على القراء ومعرفة
اصفهم واسمائهم وديانتهم بدون تعجب

والذى حدى بي الى هذا العمل هو اولاً رغبتي في افاده الطلاب بتاريخ هذه
الامة القديمة وثانياً اقامته مدة عشرين سنة في القطر المصري اذ قدرت ان اطوف
جائهة في اكثر القرى والكفور حيث رأيت فيها المسيحيين الاقباط لازالوا على عهدهم
الاول من التمسك بالعقائد والنقايد القديمة المنقوله عن الاباء الاولين - حيث مهنت
من افواه البسطاء حكايات وروايات عما كان ياصر بين من الجند والسودد مما اثناته
البحث وآكده العلم . ولقد تعبت كثيراً في الوقوف على الازمنة الصحيحة واستقول
انني في عصمة في عملي هذا ولكنني يمكن ان يكون اكثر من غيره ضبطاً وائقاناً . فاذا
قام احد غيري وكتب تاريخاً اصح من هذا فلا ريب ان معظم الفضل ينسب الي
لانني السابقة في حلبة هذا الميدان وكنت قد وضعت جدولآ يحتوي امم كل ملك
وزير او امير او خليفة او سلطان او بطريرك له علاقة مصر او ملك عاليها ولكنني

رأيت نشره لا يفيد القراء كثیراً الطوله فافتصرت على نشر جدول البطاركة فقط .
ولا ريب في ان القراء سيفدون اخته صاراً كثیراً في الاربعه القرون الاولى
فيما يختص بالامور الالاهوتية ولكنهم سيشكر ونبي كثیراً لانبي توسع لهم في
ذكر حوات نحو ١٩٠٠ سنة تبتدئ من حكم البطالسة لحد الان
ولست اخفي عن القاريء الحيرة التي وقعت فيها في اخبار بعض الحقائق
التاريخية التي كنت اشك في صحتها لانها كتبت بابدي اناس لا اشك في تحيزهم
ووجود ضلوع لهم مع الذين كتبوا عنهم كتاب تاريخ القرن السابع مثلاً الذي كتب
اكثره جماعة المسلمين عن المسلمين انفسهم ولكن على اي حال فان تاريخ الكنيسة
القبطية اجمالیاً لا يقل في الفخر والتجدد عن تاريخ كنيسة اخرى غربية بل قد يذري
باكبرها ، فانه اذا كان الانكليزي مثلاً يفخر بجده كنيسته وقد يسمها فيليب عليه
ان يتذکر انه في المسيح لا فرق بين اليهودي واليوناني ولا تمييز بين العبد والحر .
كذا لا يعرف المسيح يونانياً او رومياً انكليزياً او مصرياً بل الجميع يعتقدون امامه
يوم القيمة ويقدمون حساباً عما جنته ايدهم . اذَا فالعبرة ليست بالكنيسة او
بالجنسية بل بالایـــان والاعمال

اما تاريخ الكنيسة القبطية وحدتها فقد كتبه كثيرون من اباء ائمـــ رجالها الاولين
بداء بكتابته سويرس اسقف الاشمونيين (ميركز ملوى بمديرية اسيوط) في النصف
الثاني من القرن العاشر واتـــه ميخائيل اسقف طانيس لحد سنة ١٢٤٣ وقد بقى
نسخة واحدة من هذا التاريخ هي الان موجودة في باريس ولم يعنـــ احد بترجمتها
إلى احدى اللغات الاوروبية وقد اخذت هذا التاريخ من عدة مؤلفات كثيرة بينها
كتابان قبطيان عظيمـــا القيمة اعتمدـــت عليهما في اكـــثر الحقائق التي نقلتها
هذا ولا يسعـــي الا الثناء الكثير على حضرات مرقض بك سميـــكه الذي ساعـــد في
كتابـــا في وضع هذا الكتاب والاستاذ فولـــر بالكتـــبخانة الخديوية ولقرنـــي الذي
اخـــذ بيده ومهـــد لي سبل الصعوبات الجمة التي اعـــرضتني في طربـــي ولا زلت مدـــدونـــة
(الامضاء)

﴿ ج ﴾

فهرست المجلد الأول

وجهه

١	مجيئ القيصر الى مصر	الفصل الاول
١٤	مجيئ المسيح	» الثاني
٢٣	كرازة ماز مرقص	» الثالث
٣٣	بطريوك واحد وسبعة قياصرة	» الرابع
٤٣	رواد النيل في القرن الثاني	» الخامس
٥٢	المدرسة اللاهوتية الاولى	» السادس
٦٢	اوريجانوس	» السابع
٩٦	اضطهاد ديشيوس للمسحيين	» الثامن
١٢٢	اضطهاد فالريان للمسحيين	» التاسع
١٤٦	مار آمون ومار انطونيوس	» العاشر
١٥٥	الجهاد في سبيل الحرية	» الحادي عشر
١٧٩	تاريخ الشهداء	» الثاني عشر
١٩٦	جدال اريوس	» الثالث عشر
٢٠٨	البدعة والاشتقاق	» الرابع عشر
٢٣٣	غريغوريوس وجورجيوس من كيدوكية	» الخامس عشر
٢٥٨	أوبية اثناسيوس ووفاته	» السادس عشر
٢٧١	انتحار الامة المصرية	» السابع عشر
٢٨٥	آخر اسقف آريوي في الاسكندرية	» الثامن عشر
٣٠١	سقوط هيكل سيراپيس	» التاسع عشر
٣١٨	الاخوة الطوال القامة	» العشرون
٣٢٩	الحادي والعشرون سينيتيوشن التوريني	» الحادي والعشرون





صاحب جريدة مصر
(الذي وقف على طبع الكتاب)

اذا قرأ القارئ تاريخ الامة القبطية التي عنت بوضعه هذه السيدة الانكليزية الفاضلة يرى انها امة لم ير لها نظير بين امم الارض في المصائب التي تراكمت عليها من سيف ونار واضطهاد وعداب وحروب داخلية وخارجية وثورات اهلية وغارات دينية وغير هذه البلايا التي لو حاقت واحدة منها بأقوى امم الزمان لما بقي لها في عالم الوجود وجود. ان القاريء الفطن اذا انعم نظره في هذه النكبات التي حلت بهذه الامة الاسيفة مدة عشرين قرناً لا بد وان يشفق عليها ويرثي لتضليلها الحاضر ويرى انها قاومت الدهر بقوة تخالف القوة المحدودة في الناموس

ال الطبيعي

ولا مراء في ان الامة القبطية الحاضرة بما عرف عنها من الذكاء الحارق والفطنة الموروثة تستفيد من تاريخها هذا فائدة لا تجدها في غيره اذ تقف على حقيقة ما فيها باجل بيان ويتجلى لها مجدها القديم الذي انهار وضاع فتعمل على استرجاعه وتعرف قوته آباءها وسُؤددتهم فتسعى في اعادته وازاحة الستار عنه

و معلوم للقراء ان هذا التاريخ يمتاز عن غيره من التواريχ الأخرى
 التي كتبت عن الامة القبطية في انه صحيح دقيق لم يترك شاردة إلا و سجلها
 في باطنها فضلاً عن انه كتب بروح خالية من الغرض أو الجبن الذي اضع
 أكثر الحقائق التاريخية في التواريχ الأخرى التي لها علاقة بالقرن السابع
 كما شهد بذلك كل من قرأ التواريχ التي ظهرت مؤخراً بشأن هذه الامة
 فإنه يجد روح الخوف من لا شيء يرف على كل صفحة من صفحاتها
 هذا وكما قد عزمنا على اصدار هذا التاريخ في مجلدين ولكن لطوله
 وكبر حجمه وتشوق الناس الى قراءته اصدرناهذا المجلد بعد تقسيم الاصل
 الانكليزي الى اربعة مجلدات سيبرز الثاني والثالث والرابع منها بالتالي
 عن قريب

ونحن واثقون في ان اقبال الادباء عليه يكون بوازاة اهميته وفائدةه
 هذا ولا يسعنا إلا امتداح غيرة وهمة حضرة النشيط اسكندر
 افندى تادرس احمد موظفي نظارة الداخلية الذي عني بترجمة هذا الكتاب
 بالدقّة التامة واحكم تطبيق الترجمة على الاصل كما شهد بذلك النابغون في
 اللغة الانكليزية من ابناء أمتنا القبطية الذين راجعوا الترجمة بامعان
 وحكموا بصحتها نفع الله بمثله وامثلهم الامة والوطن

تادرس شنوده المنقبادي



* * * جدول بطاركة الكنيسة القبطية * * *

اسماء البطاركة	سني جلوسهم	اسماء البطاركة	سني جلوسهم
مار مرقس	٤٥ ب م	ديمان	٣٥
انياوس	٦٢ «	انسطاسيوس	٣٦
ايليوس	٨٢ «	اندرونيكس	٣٧
سردو	٩٥ «	بنيامين الاول	٣٨
بيريوس	١٠٦ «	اغاثو	٣٩
يسطس	١١٨ «	بحنا الثالث	٤٠
يومينوس	١٢٩ «	اسحق	٤١
مرشيون	١٤١ «	سمعان الاول	٤٢
سيلاديون	١٥٢ «	اسكender الثاني	٤٣
اغريينوس	١٦٦ «	قصماص الاول	٤٤
بوليانيوس	١٧٨ «	تاوضروس	٤٥
ديمتريوس الاول	١٨٨ «	مخائيل الاول	٤٦
هراكلاس	٢٣٢ «	مينا الاول	٤٧
ديونتيوس	٢٤٦ «	يوحنا الرابع	٤٨
مكسيموس	٢٦٤ «	مرقس الثاني	٤٩
ثيوناس	٢٨٢ ٠	يعقوب	٥٠
بطرس الاول	٣٠٠ ٠	سمعان الثاني	٥١
اخيلاس	٣١١ ٠	يوسف	٥٢
اسكender الاول	٣١٣ ٠	مخائيل الثاني	٥٣
اثنasioس الاول	٣٢٦ ٠	قصماص الثاني	٥٤
بطرس الثاني	٣٢٣ ٠	شنوده الاول	٥٥
بيوثاوس الاول	٣٨٠ ٠	مخائيل الثالث	٥٦
توفيلس	٣٨٤ ٠	غبريل الاول	٥٧
كيرلس الاول	٤١٢ ٠	قصماص الثالث	٥٨
ديسفورس الاول	٤٤٤ ٠	مكاريوس الاول	٥٩
بيوثاوس الثاني	٤٥٧ ٠	طومانيوس	٦٠
بطرس الثالث	٤٧٧ ٠	مينا الثاني	٦١
اثنasioس الثاني	٤٩٠ ٠	افرام	٦٢
يوحنا الاول	٤٩٧ ٠	فيلوثاوس	٦٣
يوحنا الثاني	٥٠٧ ٠	زخارياس	٦٤
ديسفورس الثاني	٥١٧ ٠	شنوده الثاني	٦٥
بيوثاوس الثالث	٥٢٠ ٠	خرستودلوس	٦٦
تيودوسيوس ١	٥٣٦ ٠	كيرلس الثاني	٦٧
بطرس الرابع	٥٦٨ ٠	مخائيل الرابع	٦٨

اسماء البطاركة	سفي جلوسهم	اسماء البطاركة	سفي جلوسهم
٦٩ مكاريوس الثاني	سنة ١١٠٢ بـ م	٦٩ مخائيل السادس سنة ١٤٧٥ بـ م	٩٢
٧٠ غبريال الثاني	١١٣١	٩٣ يوحنا الثاني عشر ١٤٨١	٩٣
٧١ مخائيل الخامس	١١٤٥	٩٤ يوحنا الثالث عشر ١٥٢١	٩٤
٧٢ يوحنا الخامس	١١٤٦	٩٥ غبريال السابع ١٥٢٦	٩٥
٧٣ مرقس الثالث	١١٦٦	٩٦ يوحنا الرابع عشر ١٥٧٠	٩٦
٧٤ يوحنا السادس	١١٨٩	٩٧ غبريال الثامن ١٥٨٥	٩٧
٧٥ كيرلس الثالث	١٢٣٥	٩٨ مرقس الخامس ١٦٠٢	٩٨
٧٦ انطسيوس الثالث	١٢٥٠	٩٩ يوحنا الخامس عشر ١٦١٩	٩٩
٧٧ غبريال الثالث	١٢٦٩	١٠٠ متي الثالث ١٦٢٩	١٠٠
٧٨ يوحنا السابع	١٢٧١	١٠١ مرقس السادس ١٦٤٦	١٠١
٧٩ ثودسيوس الثاني	١٢٩٤	١٠٢ متي الرابع ١٦٦٠	١٠٢
٨٠ يوحنا الثامن	١٣١١	١٠٣ يوحنا السادس عشر ١٦٧٦	١٠٣
٨١ يوحنا التاسع	١٣٢١	١٠٤ بطرس السادس ١٧١٨	١٠٤
٨٢ بنiamين الثاني	١٣٢٧	١٠٥ يوحنا السابع عشر ١٧٢٧	١٠٥
٨٣ بطرس الخامس	١٣٤٠	١٠٦ مرقس السابع ١٧٤٥	١٠٦
٨٤ مرقس الرابع	١٣٤٨	١٠٧ يوحنا الثامن عشر ١٧٧٠	١٠٧
٨٥ يوحنا العاشر	١٣٦٣	١٠٨ مرقس الثامن ١٧٩٧	١٠٨
٨٦ غبريال الرابع	١٣٧١	١٠٩ بطرس السابع ١٨٠٩	١٠٩
٨٧ متي الاول	١٣٧٥	١١٠ كيرلس الرابع ١٨٥٤	١١٠
٨٨ غبريال الخامس	١٤٠٩	١١١ ديمتريوس الثاني ١٨٦٢	١١١
٨٩ يوحنا الحادي عشر ١٤٢٧	١٤٢٧	١١٢ كيرلس الخامس ١٨٧٥ (وهو البطريرك الحالي)	١١٢
٩٠ متي الثاني	١٤٥٣		
٩١ غبريال السادس	١٤٦٧		



الجزء الأول

الفصل الأول

﴿ مجيء قيصر إلى مصر ﴾

قد يتوجه المرء أن تاريخ قرن واحد مما لا يعتد به كثيراً في حياة
أمة يقدر عمرها بالقرون لا بالسنين ويقتضي لتشييد معبدها الأعظم
أكثر من النبي سنة ولتداعي دعائه إلى السقوط نحو مثل هذا الامد أيضاً
من الزمان ولكن الحقيقة أن في ظرف مائة سنة فقط زار مصر ثلاثة زائرين
تغيرت فيها كافة أحوالها ومظاهر حياتها المثلية تغيراً كلياً مدة أجيال
مديدة . وبيان ذلك أنه فيما بين السنة الثلاثين قبل الميلاد والسنة الستين
بعده شهدت مصر مجيء أوغسطس قيصر أول ثم مجيء السيد المسيح

ثم مجيء مار مرسقس الانجيلي

أما القيصر الذي في عهده ضمت مصر القديمة إلى المملكة الرومانية
 فهو أوغسطس قيصر الذي جاء عنه في العهد الجديد بأنه « امر بان تكتب
جميع المسكونة » وكان وقوع مصر في قبضة يده في السنة الثلاثين قبل

التاريخ المسيحي بفعلها ولولاية رومانية ولو لم يكن الرومان منذ بداية اصرهم
إلى نهايتها إلا طائفة أجنبية يحتقرها المصري ويبغضها ولكنها تخافها وينحني
يأسها على عكس ما كان بينه وبين اليونان الذين سبقو الرومان إليها . على
أن مصر لم تعتبر قط أقلياً رومانياً بحصر اللفظ بل كانت أشبه شيء بمن ترق
خصوصي للإمبراطور القابض على زمام السلطة الرومانية بحيث كان
لا يجوز لأحد ما من أعضاء مجلس شيوخ الدولة أن يطأ أرضها

أو يقيم بها

ولاجل الاحتياط باطراف موضوع تاريخنا سنبحث في هذا النصل
بالإيجاز حالة مصر التي كانت عليها قبل الفتح الروماني أي قبيل دخول
النصرانية إليها بزمن قليل فنقول :

كان سكان مصر لذلك العهد يؤلفون على الأجمال من ثلاثة طوائف :
اليونان واليهود والمصريين ومن هؤلاء يؤلف العدد الأكبر والسود
الاعظم أما الآن فلا يبلغ عدد الأقباط في نفس بلادهم (وعني بالأقباط
المصريين الذين لا تتشوب جنسية لهم شائبة الاختلاط) نصف ما يبلغ عدد
اليهود المستوطنين بديار مصر وقت الفتح الروماني . والسبب في زيادة
هذين العنصرين الأجنبيين هو استمرار مهاجرة اليونان واليهود إلى
هذا القطر مدة حكم البطالسة عليه إلى درجة أصبح فيها كل فريق
منهما حيئه عبارة عن أمة أجنبية مستقرة في البلاد ممتازة بلغتها وشريعتها

عن سواها

أما اليونان فكانوا مع طول عهدهم بمصر وتناسليهم ونحوهم بين
مائتها وسالمها اجيالاً عديدة لا يزالون يضعون انفسهم في منزلة الزلازل
والفاتحين ولا يرضخون لسيادة الرومان وقياصرتهم الا ظاهرياً غير ان
الباء والجيمية الحربية التي كانت شعاراً لأجدادهم اصبحت لهذا العهد فيها
اثراً بعد حين ولم يبق لهم ما يشغلهم من الشؤون الا المتاجر والأشغال
الادبية وكانوا يقيمون في مدنهم الخاصة بهم وهي في الغالب عبارة عن
مراكز تجارية محصنة يعيشون فيها احراراً هازئين بـ كامهم من الرومان
كأنهم لم يرصنوا لنيرهم الا لأن ذلك أقرب الطرق للوصول الى ما
يتغرون به من الثروة واليسار وبهذه الحالة كان القليل من الجنود الرومانية
يكفي لبقاء المملكة المصرية برمته في حالة الطاعة والخضوع
وكان الاسكندرية أم المدائن اليونانية في مصر أو هي باريس
العالم القديم باسره . وكانت بطليموسية وهي مدنهما الآخر في هذا
القطر أكبر مدن الصعيد وقت افتتاح الرومان لمصر ولا تكاد تقل
في الامتنان عن مدينة ممفيس المصرية . أما هايو بوليس مدينة العلم القديمة
ومدرسة مصر الجامحة ومقصد الطلاب من قدماء فلاسفة اليونان فكانت
قد اصبحت في ذلك الحين قاعاً صفصفاً لا ترى فيها سوى بعض أطلال
بالية يقال أنها بقايا الدور التي سكنها افلاطون وغيره من فلاسفة اليونان
وكان على الضد من ذلك مدينة بابايون مفتاح الجنوب التي وضع
الفرس أساسها وأخذت في الاستلمن والنفو حتى بلغت من الامتنان مبلغاً عظيماً

الى أن جاء الرومان فزادوا في عظمتها بتشريد الحصون والمعاقل وانشاء
المباني الواسعة بها

ومن اقدم مواطن اليونان في الديار المصرية مدينة نوكراتيس
وكان فيها مدرسة جامعة شهيرة بقية ابوابها مفتوحة الى اواخر القرن
الثاني بعد الميلاد

اما مدینتنا طيبة وايدوس فكانتا كلتاها قد انحطتا الى درجة قرية بسيطة .
واما قورينة وهي مسئمرة يونانية تابعة لمصر منذ اكثر من مائة سنة
ومعتبرة جزءاً منها فكانت لا زالت زاهية بمدرستها الجامعة عاصمة
تجارتها الواسعة وقد استمرت كذلك الى نهاية القرن الرابع بعد المسيح
الحالة الدينية — كانت الطوائف الثلاث متمسكة كل بدينها الاصلي
غير ان اليهود والمصريين كانوا اشد تمسكاً وتعصباً من اليونان الذين
شاع بينهم وقى نكران الالوهية ونبذ معتقداتهم الدينية وعدم
الاكتరاث سواء باصر معبوداتهم او امبراطرهم . وكان الملك بطليموس
سوتير قد حاول ايجاد معبود يشترك رعایاه من مصريين ويونانيين
في عبادته فابتني في اسكندرية هيكل سيرابيس العظيم واقام فيه
تمثالاً هائلاً من صنع مدينة سينوب باقليم بافيا جونيا اتخذه اليونان
ومصريون كنایة عن الآله هادس واطلق عليه اولئك اسم (يلونون)
وهو لاء اسم (اسارابي) اي او زيرس المخفى ثم لم يمض عليه قرن
بعد ذلك حتى غلت كلمة سيرابيس التي هي تحريف (اسارابي)

فصارت علماً عليه . وهذه العبادة كانت الجامعـة الوحيدة بين اليونان والمصريين غير أنها مع كل ذلك لم تعد اسوار اسكندرية حتى زمن دخول النصرانية إلى بلاد مصر

اما ديانة المصريين القديمة فكانت قد اندرست منذ عهد

طويل وحل محلها مجرد عبادة الحيوانات . وكأن تلك المعاني الروحية والاصول الادبية التي كان لها اشد تأثير على عقول الملوك وفلاسفة الازمنة الفاغرة قد فارقها ولم يبق منها أثر الا ما كان مستثراً طليّ حكاية لا تعقل او خرافه لا تصدق واصبحت البهائم والطيور التي لم تكن في الاصل على ما يظهر سوى علام على الاقاليم المختلفة او شعاراً متخدناً للدلالة على كل منها موضوع عبادتهم الان كاملة في السر والعلن وكانت سبباً لمنازعات ومنافسات شديدة كثيرة ما أدت لاصلاء نار حرب داخلية بين اقليم وآخر وكان هذا من اقوى عوامل تشتت شمل الامة وتجزئها عن الاتحاد والوقوف في وجه اي عدو كان ولو اجنبياً عنها . وكان المعبود الاعظم في مدينة ممفيس الثور أبيس وفي اومبوس التمساح وفي او^كسيرين تكون نوع مخصوص من سمك النيل وفي مدينة سيوط الذئب وفي سينوبوليس الكتاب وهلم جرا مما يطول شرحه . نعم ان كثيرين من الكهنة والخواص كانوا لا يزالون يعتقدون بالله واحد في ثلاثة اقامـم وانه الفاعل لـكل خير وان بقية الآلهـة ليست الا عبارـة (رمـز) عن مظاهره وتجلياته المتعددة غير ان هؤلاء

كانوا يتربعون على العامة والسوقه ويعتبرونهم احقر من ان ي踏入لوا
في منافساتهم بشأن الطيور والحيوانات التي حلت محل الدين عندهم . وكان
لهم مثل يضر بونه في هذه الاحوال يظهر منه انه كان لا زال في المصرىين
لذلك العهد من لا يعتقد بظواهر الدين ولا يعتبر التمسك بشعائر وتقالييد
الدين الخارجية شيئاً بالنسبة للايمان الصحيح مع عيشة الثقوى وهذا هو

المثل « ليس بالكتان الا يض وقص الشعر تكون تقوى ايس »
وكان المصرىون يمارسون كثيراً شكلأً مخصوصاً من الرياضة الروحية
يظهر انه يلزم في الغالب حالة الامة اذا صارت الى درجة سافلة في معنقدتها
فمن ذلك مزاولتهم استحضار ارواح الموتى في نظير جعل يأخذونه من
الطالب واستجواب تلك الارواح على ما يلقى عليها من الاسئلة وكذلك
استعمال التكلم من الباطن واستخدام ذلك في مثل ما ذكر من الاغراض
ولا يخفى ان هذا الفن بي معروفاً في مصر على الدوام

اما فيما يتعلق بالصناعات فلنذكر او لا ان المصرىين في ذلك الوقت
كانوا قد عادوا لضرب العملة في بلادهم واستمرروا على ذلك عدة قرون
حتى قبيل تولي كلاوديوس قيصر وتعتبر الجموعة الكاملة من هذه
النقود من اثمن الآثار لدى المؤرخين . ثم انهم كانوا يستخدمون العبيد
وال مجرمين والاشقياء في استخراج الكمييات الوافرة من محاجر البرفير
ومعادن الزمرد التي اندثرها بعد ذلك حتى لم يخطر على البال وجودها
اصالة الى ان اكتشفت ثانية في ايامنا هذه . وكانت في مصر ايضاً معامل

ومصانع طائرة الصيت في جميع أنحاء العالم المتmodern وقتئذ . ففهـما ما كان
خاصاً بـتركيب الأدوية والعـقـاقـير وـأـنـوـاعـ الـاصـبـغـةـ . وـمـنـهـ مـعـاـمـلـ الـورـقـ
والـحـرـيرـ والـزـجاجـ هـذـاـ فـضـلاـ عـنـ شـهـرـتـهـاـ فـيـ الـحـاـصـلـ الزـرـاعـيـ . وـكـفـىـ
دـلـيـلـاـ عـلـيـهـاـ اـنـ مـصـرـ كـانـ تـقـدـمـ إـلـىـ سـادـتـهـاـ الـرـوـمـانـ مـنـذـ توـلـيـمـ عـالـيـهاـ
مـقـادـيرـ جـسـيمـةـ جـدـاـ مـنـ الـحـنـطـةـ فـيـ كـلـ عـامـ . وـكـانـ الـمـصـرـيـوـنـ لـذـلـكـ اـلـاـيـنـ
يـصـطـنـعـونـ مـنـ الـورـقـ ثـمـانـيـةـ اـنـوـاعـ مـخـتـلـفـةـ ثـمـ اـخـتـرـعـواـ نـوـعـاـ تـاسـعاـ مـنـهـ فـيـ
عـهـدـ كـاـوـدـيـوـسـ قـيـصـرـ فـسـمـوـهـ باـسـمـهـ أـكـرـاماـ وـتـعـظـيمـاـ لـهـ . وـكـانـتـ تـصـنـعـ
الـكـمـيـاتـ الـوـافـرـةـ اـيـضاـ مـنـ مـنـسـوـجـاتـ السـكـتـانـ وـالـقـطـنـ وـكـذـاكـ مـنـ
نـيـنـ العـنبـ وـلـكـنـهـ كـانـ لـاـ يـضـاهـيـ اـنـبـذـةـ الـيـونـانـ وـإـيـطـالـياـ فـيـ جـوـدـتـهـ .
وـكـانـتـ تـسـتـخـرـجـ اـيـضاـ بـصـرـ الـجـمـعـةـ (ـالـبـيـرـاـ)ـ وـيـشـرـبـ الـمـصـرـيـوـنـ مـنـهـاـ
مـقـادـيرـ وـافـرـةـ وـلـاـ تـزالـ تـصـنـعـ إـلـىـ يـوـمـنـاهـذـاـ غـيـرـاـ زـرـاعـةـ الـكـرـوـمـ قدـ بـطـلتـ
بـرـمـتـهـاـ تـقـرـيـباـ لـهـذـاـ عـهـدـ لـاـسـبـابـ سـنـائـيـ عـلـىـ ذـكـرـهـاـ بـعـدـ

اما عن سودان مصر الذي كان في عهد الفراعنة وبعض ملوك
البطالسة محتواً على اقاليم تعتبر من اهم اجزاء المملكة المصرية فلم يكن
لمصر منه قيد شبر باقياً حينما افتحتها الرومان بل لم يكن وقتئذ يرد الى
اصوان مما يليها جنوباً اي شيء كان من بضائع ذلك السودان ومحاصيله
عن طريق النيل واصبحت حاصلات افريقيا الجنوبية تأتي بها السفن
الى ميناء بيرنيس بحراً فقط . ثم بعد ان تم فتح الرومان لمصر لم يتيسر
لهم مطلقاً توسيع نطاق فتوحاتهم الى ما يجاوز وادي حلقا بل كثيراً

ما التزموا ان يعبروا حدتهم الجنوبي الى الشمال من حلفا . وزد على ذلك انه في عهد اوغسطس قيصر ارسلت كنداكة ملكة الحبشة جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الف مقاتل الى مصر لشن الغارة عليها فظفر هولاء الاحباش بالجنود الرومانية في جزيرة الفتتين (أنس الوجود) واصوان وجزيرة اصوان (فيلا) ولسكنهم تقهقرت بعد ذلك من امام القائد الروماني جاؤوس فاقتفي اثرهم الى ان دخل مدينة بناءة عاصمة مملكتهم ظافراً منصوراً ومن ثم قفل راجعاً الى مصر

ولنرجع الى الكلام عن شعوب مصر فنقول : لا شك ان عدد اليهود كان يبلغ مليوناً من النفوس تقريباً وقت افتتاح الرومان لمصر فان مهاجرتهم اليها استمرت عدة قرون منذ قام يوحنا بن قاريج واخذ بقية يهودا مع ارميا النبي وباروخ بن نيريا وأئى بهم رغمًا عن معارضة ارميا الى ارض مصر الى تحفنيحيس ومجدل ونوف وارض بثروس خلت عليهم بمصر مصائب كثيرة كما تباء عن ذلك ارميا . غير ان ذلك لم يكن ليوقف تيار المهاجرة بدليل انه بعد ثلاثة عشر سنة من ذلك التاريخ اي عقب اغارة الفرس على مصر وانتقالها لليونان من بعدهم كان عدد اليهود فقط الذين عذبهم من الرق بطليموس فيلاديلوس يبلغ في مصر مائة وعشرين ألفاً وهؤلاء طبعاً هم الذين كانوا أخذوا اليها رغم انفسهم في اثناء حروب ابيه مع ملك سوريا ولكن لا شك انه كان يوجد بمصر الوف غيرهم من اليهود الاحرار الذين قصدوها طوعاً واختياراً منجددين اليها بما

اشتهر عنها من وفرة خيراتها وحسن نظام حكومتها بحيث لا يصح لنا
 مطلقاً الحكم بان المائة وعشرين الفاً المذكورة آنفاً كانت عبارة عن
 جميع اليهود القاطنين بمصر في زمن بطليموس فيلادلفوس . وفضلاً
 / عمما تقدم فإنه في عهد بطليموس فيلومتر التجاء اويناس بن حنانيا
 رئيس الكهنة الى مصر وأذن له الملك بتشييد الهيكل الذي اشتهر
 بعد ذلك باسم هيكل اويناس بمدينة ليونتو بوليس بقسم عين شمس
 باقليم بوباستس فزادت بذلك اسباب الرغبة من اليهود في الجيء الى مصر
 والتوطن فيها حتى انه في زمن الفتح الروماني كان موطن السواد الاعظم
 من اليهود مصر بقسم عين شمس (هليوبوليس) أو بمدينة الاسكندرية
 حيث اختصوا منها بقسمين كاملين من اقسامها الخمسة
 وكان افراد كل من طائفتي اليونان واليهود الاجنبية متمتعين
 بجميع الحقوق المدنية والسياسية أما المصريون ابناء البلاد فكانت محرومة
 عليهم هذه المزايا فلا يتقاضى اليهودي مثلاً او اليوناني الا امام قضاعة
 من ابناء جلدته اما المصري فيحراكه الاجنبي . وقد سعى يونان اسكندرية
 في سلب الحقوق المذكورة من اليهود ايضاً مدة وجود اوغسطس قيصر
 بالديار المصرية فردهم خائبين غير انه لم يجد حيلة في ما رأه من احتقار
 اليونان والمصريين كالمهما لتلك الطائفة واذرائهم بها ولم يسعه الا الصمت
 على ما تعوده اليونان من اهتمام حقوق ابنائها ومنازعتهم في مالهم
 وفي عهد الامبراطور كاليفولا كانت اسكندرية عبارة عن ميدان

حرب متسع الارجاء بين اليونان واليهود اذا ضر اليونان التشفى والانتقام
 من هؤلاء بان أخذوا على أنفسهم اكره اليهود على العمل بموجب امر
 اصدره هذا الامبراطور يقضى باقامة تمثاله في جميع المعابد الموجودة
 بالملكة واداء العبادة له . ولم ير اليونان طريقة لازاما عدائهم بالرضوخ
 لهذا الامر البحار بهم ومناصبهم الشر والعداء على الدوام وكان فلاكوس
 الوالي الروماني اذ ذاك معضداً لليونان فترتب على ذلك اضطهاد اليهود
 اضطهاداً شنيعاً جداً واتفق حينئذ ان اغرياً ملك اليهود قدم الى
 الاسكندرية وشاهد تلك الحالة المريعة فابلغ الامر الى كالينولا وتألف
 معه حتى نال منه امرأً بعزل الوالي وأذن في حضور وفد من اليونان
 وآخر من اليهود ليعرضوا الامر عليه في رومية وكان زعيم الوفد اليهودي
 فيلو الشهير بعلمه وآدابه ونادرته عصره في الفضل والكمال وكان رئيس
 الوفد الثاني أبيون احد ابناء الاشراف من اليونان وهو اسكندرى
 الاصل والمحتد وكان من فطنة اليونان انهم قصرروا شکواهم على امر واحد
 وهو ان اليهود امتنعوا عن اداء العبادة لتمثال الامبراطور . فلما مثلوا امامه
 وسائلهم كالينولا في ذلك لم يسع اليهود ان ينكروا فقضب وابى ان
 يسمع منهم قولاً بعد ذلك فعادوا يتعررون باذيا لهم غير انه لحسن احظ
 لم تطال حياة الامبراطور كالينولا اذ مات عقيب ذلك بزمن قليل وتولى
 الملك بعده كلوديوس قيصر وفي عهده التزمت الطائفة المهدنة والسلم
 اما اسباب هذا العداء بينهما فلا ريب انه من اهمها فوز اليهود

مع حقارتهم على اليونان في معظم الامور التي كان هؤلاء يفتخرن
 ببنسبتها اليهم واحتضانهم بها . فقد كان اشهر علماء الاسكندرية وكتابها
 لذلك العهد من اليهود وكانت مدارس الاسكندرية ولو اخذت منها
 عما كانت عليه في عهد البطالسة لا تزال مشهورة في جميع انحاء المسكونة
 غير ان اسماء كبار فلاسفتها ومعلميهما اصبحت عبرانية لا يونانية وناهيك
 بفيلاو اليهودي فخر العلم والعلماء بتلك المدينة في القرن الاول للميلاد
 وكانت عائلة فيلاو هذا في الطبقة العليا بالاسكندرية من حيث مركزها
 الادبي والمالي . اما الرجل فكانت ولادته بصر عقب الفتح الرماني
 بمدة وجيبة والظاهر ان هذا البيت كان مقرباً بالمعاملات المالية من
 أولئك الامبراطرة الظافرين منذ نشأته . فان الاسكندر اخا فيلاو ورأس
 تلك العائلة كان رئيساً لاحدى المصالح بالاسكندرية وموكلأً على اشغال
 انطونيا اخت امرأة طيباريوس قيصر وكان يقرض اموالاً طائلة للملوك
 اغريبها اليهودي وقيل انه صاهره بان زوج ابنته بابتي الملك . وكان
 للاسكندر ابن ثالث يدعى طيباريوس ترك الديانة الموسوية ونصب بعد
 ذلك والياً على مصر
 وكان فيلو في اثناء هذه المشاغل اهتماماً عائداً على يدهم بالارباح
 الطائلة واجاه البريض منكباً على مزاولة العلوم الفلسفية والدينية
 والادبية مشغلاً بها عن كلما سواها فاذا مسست الحاجة يوماً الى تدخله
 في شؤون المدينة او دنهه الاموال الى التقدم للدفاع عن ابناء جلدته

هض هرصة الشهم الهمام وقام بالواجب عليه خير قيام موعداً ببطون
 الاوراق عبارات اسفه على مفارقة الحابر والاقلام واستبدال لذة العزلة
 بخوض بحر السياسة العجاج . والظاهر انه كان في زمن شيخوخته قد
 اعتاد الخلوة في أوقات معلومة مع جماعة المتصوفين الذين ابقي لنا
 عنهم ذلك التعبير البديع في مؤلفه المسمى (الحياة الفكرية)
 اما مدينة الاسكندرية فبدأت بالانحطاط مذ سرى الفساد في ملك
 البطالسة . ولو جرى قياصرة الرومان بعد ذلك على خطة ثلاثة
 ملوك الاول من الدولة بطليموسية وكانت قد عادت بذلك الاسكندرية الى
 مجدها الاول ولكن تغيير الدولة جاءها ضغطاً على ابالة وذلك ان اوغسطس
 قيصر تعمد خرابها بانشائه عاصمة جديدة دعاها نيكوبوليس كان موقعها
 الى شرق الاسكندرية على مسافة ثلاثة اميال ونقل اليها كمنة المدينة
 الاصلية بالقهر والاكره ولكن اراده اليونان وطبيعة الاحوال كانتا
 اقوى من ارادته اذ لم تكتمل تملك العاصمه الجديدة حتى خيم عليها
 عنكبوت الخراب وتداعت اركانها لاستوطنه وهكذا بقيت الاسكندرية
 بعد الفتح الروماني واستمرت زمناً بعد المسيح ايضاً وهي المدينة الاولى
 في العالم باسره بدون استثناء رومية او اثينا وما على الذي يبغى التتحقق
 من ذلك سوى ان يتفتت الى خريطة الاسكندرية القديمة كما هي مرسومة
 باحد الكتب الافرنكية الحديثة المسماة « دليل مصر » ثم يقارن بينها
 وبين المسافة التي تشه لها الان المدينة الحالية المتخذة لنفسها ذلك الاسم

الشهر . وكانت القصور الباذخة والهياكل الفخيمة تشغل ربع مساحة الاسكندرية في السنة الاولى من التاريخ المسيحي وكانت ميّتها الشهير تان تستملان على ما لم تسعه اية مينا اخرى في العالم من السفن وتجارتها الخارجية تفوق على صادرات ايطاليا كلها . وكانت دار التحف والآثار قد شيدت بعد ان احرقها جيش يوليوس قيصر ثم بني بها متحف آخر في عهد كلو狄وس قيصر وسمى باسمه . وانشئ بها ايضاً قصر بهي لاقامة القياصرة الرومانيين وسمى (سيزاريوم) اي مسكن القياصرة . وكانت مكتبة هيكل سيرايس الحصين تحوي زهاء ٧٠٠ الف مجلد كلها مشحونة بغير حكمة المصريين وعلومهم . وكما كان لليونان المتحف وللمصريين المهيكل كذلك كان يتفاخر اليهود بكنيساتهم الاعظم الذي يعتبر من اجمل المباني وانضمها

هذه بوجه الا يجاز كانت حالة البلاد والناس الذين اتي ليملاك عليهم القيصر الروماني . فهل لا عرف ياترى انه قبل موته يدخل مصر ملك آخر يخضع لسلطته اليوناني والروماني واليهودي والمصري على السواء وان اسمه يزيع ويُشيع في كل زمان ومكان حيثما لم تصل السطوة الرومانية ولم يتعدد صدى نفوذها

فِي الْمَلَكَةِ وَلِيَقْتُلَهُ فَيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّهُ لِيَطْهَرَ مُعْذَنَاتِهِ . يَرِدُ
الْعَصْلُ الشَّانِي لِتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لِيَسْأَلَ فِي مُؤْمِنَاتِهِ
 لِيَقْتُلَهُ فَيُسَافِرُ إِلَى الْمَالَكَةِ فَيَقُولُ لَهُ أَنَّهُ لِيَنْكِسَ
 إِلَى الْمَكَانِ فَيَخْتَارُ إِلَيْهِ بِحِجَّيِّهِ الْمَسْيَحَ إِلَى مَصْرَ

أَنَّ الَّذِي يَزُورُ مَدِينَةَ لَندَنْ وَيَقْنَدُ عَادِيَاتِهَا يَجِدُ بَيْنَ آثَارِهَا صُورَةً
 تُسَمَّى «سَنَةُ الرَّبِّ» وَهَذِهِ الصُّورَةُ تَمَثِّلُ الاحْتِفالَ الْعَظِيمَ الَّذِي كَانَ
 يَقِيمُهُ الْمَصْرِيُونَ لَاهْتَمَمُوا فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ التَّارِيخِ الْمَسِيحِيِّ مَا كَانَ
 شَائِعًا فِي مَصْرَ شَيْوَعًا وَاسْعَاً . وَكَانَ تَرْتِيبُ هَذَا الاحْتِفالَ كَمَا يَلِي : يَسِيرُ
 أَوْلَأَ الْمَغْنُونَ ثُمَّ يَتَّبِعُهُمُ الضَّارِبُونَ عَلَى الْأَعْوَادِ وَبَيْنَ هَذِينَ فَتَيَاتِ حَسَنَاتِ
 يَضْرِبُنَ بالطَّبُولِ وَالدَّفُوفِ وَتَقْدِمُ هَذِهِ الْمَوْكِبُ السَّامِيِّ الْأَلَاهِيَّةُ إِذَا يُسِيرُ
 مَحْمُولَةً عَلَى أَكْفِ الشَّرْفِ وَالْفَخَارِ وَمَعَهَا ابْنَاهُ هُورُسُ جَالِسًا عَلَى رَكْبَتِهِ
 وَحِينَ مَرُورُ الْأَلَاهِيَّةِ فِي هَذِهِ الْمَوْكِبِ يَأْتِي النَّاسُ بِعِرْضَاهُمْ عَلَى جَانِبِ
 الطَّرِيقِ كَيْ يَنْالُوا الشَّفَاءَ وَالْعَافِيَّةَ . وَكَانَتْ تَبَاعُ صُورَ الْأَلَاهِيَّةِ لِيَسْتَعْمِلُهَا النَّاسُ
 كَسْتَعْوِيدِ وَطَلَابِمِ وَاقِيَّةً مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَضُرٍّ . وَفِي وَسْطِ الصُّورَةِ الْمُمْثَلَةِ
 هَذَا الاحْتِفالُ يَرِي النَّاظُورُ رَكْبًا حَقِيرًا قَدْ انْزُوَى جَانِبًا لِيُفْتَحَ الطَّرِيقُ
 لِمَوْكِبِ الْأَلَاهِيَّةِ الْحَافِلِ وَهَذَا الرَّكْبُ مُؤْلَفٌ مِنْ امْرَأَةٍ وَطَفْلَهَا رَاكِبَيْنِ
 حَمَارًا أَنْهَكَهُ التَّعبُ وَخَلْفَهُمَا زَوْجٌ هَذِهِ الْأَمْرَأَةُ وَهُوَ رَجُلٌ دِيفِيٌّ
 يَسِيرُ رَاجِلًا وَقَدْ اضْنَاءَ الْكَلَالِ وَطُولُ الشَّقَةِ

اما هاتيك الآلهة وتلك الابهة والعظمة والجلالة الملازمة لها
 فقد اندرست وبادت الان مع كل آثارها واصبح الكل نسيجاً منسياً
 وأمست هي كلاماً اطلاقاً باليه واما اسم ذلك الطفل فلم ينزل ولن ينزل
 مكرماً مشرفاً في جميع أنحاء المعمورة وهو يسوع المسيح مخلص العالم
 وانا لا نرى في تمثيل الحادثة السالف ذكرها ما يوجب الريب
 في صحتها البتة . فان يوسف لا يأتي طبعاً بولده وامرأته من بيت لم
 الى مصر الا عن طريق الصحراء مجتازاً القنطرة ومنها الى عين شمس
 ثم ببايلون التي يرجع انه قطعاً مدة اقامته بالديار المصرية . وقد كان
 هيكل اليهود الاعظم الذي شاده اويناس بالقرب من عين شمس الى
 الشمال الشرقي من ببايلون لا يزال قائماً لذلك العهد غير انه لا يوجد
 ما يدل على ان يوسف وعائاته اقاموا به ولعل السبب ان يوسف كان
 له اقارب او اصحاب ببايلون فسكن حيث كانوا . ومما يؤيد هذا القول
 ان قال ذكر هيكل اويناس في جميع الروايات المصرية القديمة المشحونة
 باخبار الآيات والعجبات التي حصلت في كل مكان وطأه قدم السيد
 له المجد في ارض مصر مثل خبر سقوط الاصنام في عين شمس حالما
 اُتي بالصبي يسوع الى هيكلها على ما ورد في معظم النسخ القديمة من كتب
 الانجيل المعروفة بالابو كريفا (اي التي لا تعتمدتها الكنيسة المسيحية)
 كذلك النبع الذي لا يزال يشاهد الى هذا العهد بقرية المطيرية الى
 جنوب اطلال عين شمس القديمة وقد جاء عنه في اقدم الاحاديث

أن العذراء غسلت فيه ثياب الصبي ابنها حينما جلسَت لستريح بجانب الطريق وقد أضناها التعب في آخر أيام السفر ثم إنها بعد ذلك واصلت المسير حتى وصلت بـ بـايـلـون فالـقت بـهـا عـاصـا التـرـحال وـاستـراـحت من مشاق السفر

اما مدينة بـايـلـون هذه فـانـا هي بـابل المـصـرـية ولكن شهرة سـمـيتها بـابل الـأـسـيـوـيـة وما كان لها من الصـيـت الطـائـر والـسـمـعة الفـاقـعـة قد قـضـى عـلـيـها بـعـاـلا تـسـتـحـقـه من خـمـول الذـكـر وـانـطـفـاء الـخـبـر حتى ان كـثـيرـين من عـلـماء التـارـيخ الـأـورـوـبيـن لا يـدـرـون عـنـها شـيـئـاً عـلـى الـاطـلاق . وقد الفـاحـشـة الـأـنـكـلـيز (دـين فـرار) في هذه الـاثـنـاء مـؤـلـفـاً حـدـيـثـاً لم يـرـدـ فيـهـ عنها اـكـثـرـ من هذه العـبـارـة « بـايـلـون مدـيـنة حـقـيرـة فيـشـالـافـريـقيـا » كـأـنـ لم تـكـنـ دـعـواـها بـزـيـارـة بـطـرس الرـسـول ايـها دـاعـيـاً لـزيـادـة الـالـتـفـاتـاتـ اليـهاـ والـاعـتـنـاءـ باـمـرـهاـ اـكـثـرـ مـاـ اـبـداـهـ هـذـاـ اـنـكـاتـبـ . على ان من يـمـعـنـ النـظـرـ فيـ مؤـلـفـاتـ الـأـوـائلـ قبلـ انـ تـسـدـلـ السـلـطـةـ الـاسـلـامـيـةـ حـيـجابـ ظـلـمـهـاـ يـينـ مـصـرـوـاعـينـ اوـرـوـباـ تـيـنـ لهـ منـ اـهـمـيـةـ تـلـكـ المـدـيـنةـ ماـ يـنـافـيـ عدمـ اـكـترـاثـ المؤـلـفـينـ الـحـدـيـثـيـنـ بـاـمـرـهـاـ الىـ هـذـاـ الحـدـ (١)

هـذـاـ وـقـدـ اـخـتـلـفـ المؤـرـخـونـ فيـ اـمـرـ منـشـاءـ بـايـلـونـ . فـقـالـ دـيـوـدـورـسـ المؤـرـخـ انـ اـسـرـىـ الـبـابـلـيـيـنـ الـذـيـنـ اـخـذـهـمـ منـ آـسـياـ رـعـمـسـيـسـ الثـانـيـ

(١) انه في نفس مدة حكم الاسلام كان مؤرخو الـأـورـوـبيـنـ كلـما تمـكـنـواـ منـ مـعـرـفـةـ شيءـ عنـ مـصـرـ سواءـ كانـ باـسـابـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـيـةـ اوـ غـيـرـهاـ وـذـكـرـوهـ بـمـؤـلـفـاتـهـمـ لاـ يـذـكـرـونـ مـلـكـهـمـ الاـ باـسـمـ « سـلـطـانـ بـايـلـونـ » دونـ مـمـفـيـسـ اوـ القـاهـرـةـ

(سيزوستريس) ملك مصر واستعبدهم فيما بعد شقوا عصا الطاعة اخيراً واحتلوا قلعة هابنن^(١) على شاطيء النهر تجاه مدينة منفيس الى الشمال منها - وشنوا غارة شعواء على البلاد المجاورة لهم فدروخوها ولم ينكروا عن القتال حتى عفى رعمسيس عنهم وامنهم خضعوا له واخلدوا الى السكينة بباباته لهم املاك الجهة التي احتلوها لتكون مستعمرة خاصة بهم فشيدوا هنالك مدينة دعوها بابلون (او بابل) على اسم عاصمة بلادهم الاصلية^(٢)

وكتب يوحنا اليهودي من نكيوس في القرن السابع بعد المسيح في عرض كلامه عن القلعة التي انشأها الامبراطور تراجان في بابلون ما يأني :

« وكان نبوخذ نصر قد بنى بهذا المكان قلعة قديمة دعاها قلعة بابلون وذلك حين استيلائه على مصر بعد ان نفي اليهود اليها عقب هدمه اورشليم وكانوا قد رجموا بنيّ الرب في طيبة بارض مصر وبذلك ارتكبوا اثماً على اثم . وقد قدم نبوخذ نصر الى مصر بجيش جرار وحاربها لان اليهود الساكدين فيها عصوا عليه وسمى القلعة بابلون على اسم عاصمة بلاده اشور » (انظر ارميا ٤٦ : ١٣ - ٢٧)

ولاشك ان هذه القلعة القديمة هي التي ذكرها سترابون الجغرافي

(١) قد سعى الاستاذ سايس الشهير هذه القلعة (اكربيا هو) ولينذكر القاريء ان اكثير المدن العربية القديمة لها اسمان

(٢) ان العلامة سمث في قاموسه عن جغرافية اليونان والروماني يقول ان بابلون المصرية هي الى شمالي الفسطاط وهذا خطاء كما لا يخفى على اللييب

الرومني في اثناء وصفه لرحلته الى مصر عقب افتتاح الرومان ايها
بوقت قصير . والى شمالي هذه القلعة على بعد بضع مئات من الادرع
بنيت قلعة الامبراطور تراجان التي لا تزال اسوارها المزدوجة
ظاهرة الى هذا اليوم وكان بناؤها بين سنة ١٠٠ و ١١٧ م .
ومما يتשוק القاري لمعرفته ما يتناوله القوم من الروايات عن اقدمية
سكنى اليهود في بايلون هذه . فان بين آثارها الان كنيساً لهم يتصل
تاریخه بعهد مجيء المسيح بصرف النظر عن توالي ترميمه وتتجديده المرات
المديدة بل قد زعم بعضهم ان اصل بنائه كان في ایام ارمیا النبي . وهكذا
ما ذكره عنه المقریزی في خططه قال : « ان موقع كنیس السورین
(او اليهود) بقصر الشمع (ينصر العقيقة) ^(١) وهو قديم جداً وقد
 نقش على عارضة بابه كتابة قديمة بالعبرانية جاء فيها ان الشاه كان في
سنة ٣٣٦ للاسکندر اي قبل خراب هیكل اورشليم للمرة الثانية على
يد تیطس بخمس واربعين سنة او نحو ٦٠٠ سنة قبل الهجرة ^(٢) .
وتوجد في ذلك الکنیس نسخة من التوراة اجمع كل اليهود بان
عزرا النبي كتبها برمتها » اه

(١) ان مصر القديمة او العتيقة هو الاسم الذي يطلق الان على المدينة التي بنيت على اطلال بايلون القديمة بعد ان دمرتها النيران في القرن الثاني عشر ولم يبق لهذا العهد من بقايا بايلون سوى سور تراجان والجزء الذي سكنه المسيحيون واليهود من تلك المدينة ويحيط به ذلك السور الى الان

(٢) لا ريب في ان المقریزی نقل التاريخ المقوی على ذلك الباب بمحنته وهو سنة ٣٣٦ للاسکندر لكنه أبهم في حسابه اذ المعلوم ان خراب اورشليم كان في سنة ٦٩ - ٧٠ بعد المسيح وهو يوافق سنة ٦٢٢ قبل الهجرة .

هذا وقد بقيت نسخة التوراة التي ذكرها المقرizi محفوظة
 في محل الى خمس عشرة سنة مضت من عهدها هذا وكانت مخبأة في
 موضع مقدس بالكنيسة المذكور وكتبت اللعنات على كل من يمد
 يده اليها ولكن بعض اليهود أفتشي ذلك السر لغير ابناء الملة فسكن
 من ذلك انه في غيبة الموكلين بحراسته دخل اثنان من المفرمين بالآثار
 القديمة الى الكنيس وكسرا المخاء الذي كان الدرج داخله ولم يعبأ
 باللعنات وتمهيدات المرأة التي كانت تتوسل عن الحراس واجههما ان
 يفتحا ذلك الدرج . غير انه مع تقادم العهد به على تلك الحالة من
 الانفراد كان قد توصل اليه ثعبان دخل من صدع في الخشب فعش
 في المخاء المحفوظ في الدرج كما دلت على ذلك ما وجد من بقايا جلد
 الثعبان فيه . وقد التصقت اطراف الدرج بضها بعض التصاقاً متيناً بما كان
 يفرزه ذلك الثعبان من لعابه في تلك المدة بحيث ان صاحبينا الاثريين المذكورين
 لم يجدا طريقة لفتح هذا الدرج مالم يزقاه ارباً فعدلا عن ذلك وعادا
 مقتنيين بعظم قدميته وفي نيتها ان يعودا مرة اخرى وبدلًا جهداها
 في فتحه . فلما عادا الى الكنيس المرة الثالثة وجد ان الحراس قد تبهوا الى
 ما حصل فبادروا بنقل الدرج الى مكان امين بالقاهرة وقد وضعوا في
 محله نسخة حديثة يعرضونها الان على الزائرين بدعاوى انها النسخة
 الاصلية . ثم عقب ذلك ان هدم الكنيس القديم برمتته وبني في موضعه
 مجمع جدد يد انه مع كل ما طرأ على ذلك محل من التغيير والهدم والبناء

كان اليهود يحافظون اشد الحافظة على بقعة يزعمون أن فيها القبر الذي
 يضم عظام ارميا النبي
 وعلى كل حال فقد ثبت بادلة عديدة انه كان في مصر مستعمرة
 من اليهود قبل ميلاد المسيح وفي وقت ميلاده وانهم كانوا يعتبرون تلك
 البقعة من بايلون المصرية اعتبارا خصوصياً ويميزونها على غيرها من
 الاماكن . ثم ان السواد الاعظم من تلك المستعمرة قد اعتنق الديانة
 المسيحية في اوائل ظهورها وأبدل المجتمع بكنيسة من ذلك العهد فلما
 حدث الانشقاق بين الكنيسة اليونانية والكنيسة المصرية في سنة ٤٥١
 بـ . م تبعت كنيسة اليهود للملكيين اي الروم فلما تقاص ظلهم هجرت
 تلك الكنيسة واهملت وتداعت الى الخراب فأخذها المصريون وهي على
 تلك الحالة وبقيت من ثمت باليديهم الى ان التجأ اليها ميخائيل الثالث
 (بطريرك الكنيسة الملكية) في النصف الاخير من القرن التاسع
 بعد الميلاد بعد ان قبض عليه الحكم الاسلامي واشترط عليه اموالاً
 طائلة يدفعها اليه في مهلة اربعة شهور والا امر بقتله واثارة الاضطهاد
 على ابناء كنيسته
 ولما رأى اليهود بايلون البطريرك ميخائيل في هذه الضيقه وكانوا
 يرغبون كثيرا في اعادة تلك البقعة الى يدهم اتهزوا بهذه الفرصة وطلبوها
 منه ان يبعهم اياها فرضي بالصفقة وقبض الثمن ودفعه في الجزية المطلوبة
 فداءً عنه وعن كنيسته . اما اليهود فظلو من ذلك العهد الى الان واضعين

يدھم على ذلك المكان وسواء كان القبر الذي به هو قبر ارميا حقيقة ام
 لا فلا ريب انهم يكرمون تلك البقعة ويعتبرونها اعتباراً عظيماً
 وعلى مقربة من كنيس اليهود الآنف الذكر توجد داخل اسوار
 القلعة الرومانية ايضاً كنيسة تكاد تكون الوحيدة في القطر من حيث
 كثرة رغبة السائرين فيها واقبالهم عليها من كل فج نظراً لما اشتهر
 عنها من الانباء والروايات القديمة وهي في الحقيقة عبارة عن كنيستين
 سفلی وعلیها فالكنيسة العليا مكرسة على اسم القديس ابا (١) - او ابو سرجه
 ولم تشيء الا في القرن السابع للميلاد بعد ان هجرت القلعة عساكر الروم
 وخلت منهم كلية وربما لم يكن ذلك حتى اوائل القرن الثامن . اما الكنيسة
 السفلی القائمة على سطح الارض الاصل قبل ان يرتفع ارتفاعه الحالي
 بعد بناء القلعة فهي على صغرها قديمة العهد جداً وقد أصبحت الآن
 كسر داب للكنيسة العليا . وقد جاء في الروایات القديمة عن هذه الكنيسة
 انها بذلت في عصر الرسل لتكون علامة على البقعة التي كانت قائمة فيها
 الدار التي سكنها المسيح مع ابويه مدة اقامته في بابلون . ويعاب على
 الظن ان طبقة الطلاء الحالية التي على جيطان المكان والاعمدۃ الصغیرۃ
 المرتكن عليها السقف غير قديمة العهد جداً ولكن الكنيسة عینها يصلح

(١) « ابا » کلمة مصرية قديمة معناها « أب » وتحرفت « ابا » في اللغة القبطية الحديثة
 وقد حلت محلها الآن کلمة « ابو » العربية وعم استعمالها . اما کلمة « مار » التي يستعملها
 الاقباط لقديسيهم فهي كلدانية الاصل ومعناها « رب » — اصلها ماري اي ربي
 والكنيسة التي نحن بصددها قد كرست باسم القديسين سرجيوس وباخوس وهو شهيداً
 عظيماً . ولم يرد ذكر باخوس مطلقاً لانه اسم آله الحمر عند اليونانيين القدماء .

بلا شك اعتبارها أقدم وأصغر كنيسة في الوجود . وقد لا يتسع للانسان معرفة مساحة الكنيسة بالضبط نظرًا لأنها يالردم على جانبيه الغربي والشرقي ولكن طول الكنيسة بحالتها الراهنة يبلغ نحو ٢٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً . ولا تزال معمودية الكنيسة بجانب اليمين مستعملة إلى هذا العهد وما يذكر مع الاسف الشديد ان الجهلاء من الاقباط الذين في يدهم هذا الاثر الجليل يعلوون عقول السائرين الذين يذهبون افواجاً لرؤيه بخرافات وحكايات عقيمة عن يوسف ومريم العذراء . وقد تعرف هذه الكنيسة بـ كنيسة العذراء

واعلم انه في ايام مجيء المسيح له المجد الى هذا المكان كان موقع هذه النقطة على شاطئ النيل تقريباً ولم يكن سور العظيم المتداعي لاسقوط الآن قد انشئ بعد بل كان ذلك القسم برمته من بابيلون عبارة عن حارة اليهود بها ولا وجه لاريب مطلقاً في صحة الرواية القائلة بسكنى يوسف ومريم في ذلك المكان مدة اقامتهما في بلاد مصر أو معظم تلك المدة . ولكن اختلف الباحثون من شرقين وغربين في تقدير مدة بقاء السيد في ارض مصر فذهب بعضهم الى انها ستة اشهر فقط وقال آخرون انها ما بين سنتين واربع سنين الى ست



الفصل الثالث

ـ كرازة مرقس الانجيلي ـ

سنة ٤٥ بـ م

قد ثبت بالاجماع ان مؤسس كنيسة مصر هو القديس مرسس الانجيلي غير ان السنة التي جاء فيها الى مصر لاول مرة لم يتفق على تعينها اتفاقاً تاماً . والظاهر ان مار بطرس الرسول رافقه الى بابلدون وهنالك كتب رسالته الاولى للامم كما اشار الى ذلك في آخر تلك الرسالة . نعم ان الباحث لا يستطيع ان يأتي بدليل قاطع على ان بابل المذكورة في رسالة بطرس هي بابلون المصرية فضلاً عن ان مؤرخي الغربيين كثيراً ما حاولوا ان يثبتوا أن المدينة التي اشار اليها بطرس هي بابل اشور او انه استعمل هذا الاسم مجازاً للدلالة على مدينة رومية . غير ان العدالة توجب علينا ترجيح القول الاول بدليل كون الاقرب الى الصواب هو ان بطرس الرسول كتب رسالته من مدينة مشهورة مأهولة باليهود وكانت ملحة لسيده كبابلون المصرية لا انه كتبها من مدينة مقفرة لا داعي يدعوه الى التوجّه اليها بنوع مخصوص كبابل اشور اخارة عن دائرة حدود المملكة الرومانية . ثم انه من الجهة الاخرى بعد علينا التصديق

يان بطرس الرسول استعمل الكلمة بابيلون مجازاً للدلالة على رومية متشبهاً في ذلك بموقف سفر الرؤيا المشهور بغموض عباراته . على أنه في الاعصر الأولى من التاريخ المسيحي قلماً كانت الكنائس الغربية تعرف شيئاً عن بابيلون المصرية (١) إذ كانت بلاد مصر ممثلة في عينيها بلقبة كنيسة الاسكندرية . وعلى هذه الكيفية نسي لا هو يتو الغرب كل شيء عن بابيلون المصرية أو غيرها من مدن مصر عقب انتقال الكنيسة المصرية عن الكنيسة اليونانية سنة ٤٥١ ب . م حتى ان كل ما صادفهم عن بابيلون المصرية في التواريخ المسيحية القديمة كانوا يستدونه بلا تردد إلى بابل الآسيوية . وأسباب هذا الخلط بين المدينتين تأصل فيهم الاعتقاد بصدور الرسالة السالفة ذكرها من بابل اشور كما سبق القول

اما مار مرسق نفسه فقد ذكر في التواريخ المصرية انه ولد باقليم الحمس مدن الغربية (پستابوليس) (٢) الواقع على حدود النظر المصري من الجهة الشمالية الغربية وكان يعتبر جزءاً من مصر وقطعة من املاكه منذ

(١) بل ان الحدثين ايضاً من مؤان في الغرب لا يزالون يجهلونها . فقد ورد ذكر بابيلون في كتاب « قاموس السير المسيحية » لعلامة سميث نقلاً عن مؤرخ قديم ولكن الناقل سرد الحكاية وهو يخال فيما يظهر ان الكلام مختص ببابل الاشوري مع اذ براجعة العبارة الاصلية تجزم بأنه يعني ببابيلون المصرية وهذا النص المشار إليه « ان هيلاريون بارج بيت لم ومعه اربعون راهباً فساروا اربعة ايام متواتلة لا يذوقون طعاماً الا في المساء وفي اليوم الخامس وصلوا الى (بيلوزيوم) وهي مدينة على فم الفرع الشرقي للنيل فقابلوا ادرا كوتبيوس ومنها توجهوا الى بابيلون لمشاهدة فيلو »

(٢) ان هذا الاقليم يحتوي على خمس مستعمرات يونانية — وهي المعروفة عند الاقباط بالخمس مدن الغربية — وهي سيرين (القيروان) وببتوليس (او برقة) وارسينو (او تيوخيرا) وبيروس (هسبيريدس) وابولوسيا ولذا أطلق عليه اسم الحمس مدن واستمرت خاضعة لمصر بعد حكم الرومان يمدة طويلة

عند بطليموس الأول . ويقال ان مار مرقس من عائلة كانت ذات ثروة ويسار بذلك الأقليم فسلطت عليها بعض قبائل البدو الرحيل ونهبت اموالها وامتعتها حتى اصبحت فقيرة حقيرة وكان ذلك قبل ولادة مار مرقس او في زمن طفولته وكان ابوه يدعى كريستوبوليس وكان سلفاً لبرنابا وقد هاجر الى فلسطين واستوطن بقانا بالقرب من مدينة اورشليم ثم تمت الصلة بين هذه العائلة وبطرس الرسول بواسطة النسب وهكذا أرضع مار مرقس لبان التعليم المسيحي منذ نعومة اظفاره .

ويرجح ان زيارته الاولى لمصر كانت في سنة ٤٥ ب . م (١) والظاهر ان بطرس الرسول كان صرافقاً له في هذه الزيارة كما اسلفنا وكان مجيمهما الى مصر في قافلة كاهي طريقة السفر في تلك الايام فسارا من سوريا عن طريق الصحراء الى هليوبوليس (عين شمس) ومنها الى بابلون . وبعد ان مكثا فيها مدة افترقا فعاد مار بطرس الى فلسطين من حيث آتى وانفذ مار مرقس الى الاسكندرية والخمس مدن الغربية كاروزاً ومبشراً ولا يبعد ان قسماً كبيراً من الجليل مار مرقس كتب مدة اقامتهما معاً ببابلون للاستعانة على عمل التبشير في مصر بواسطة مرقس

ويروى ان اول من اعتنق الديانة المسيحية في مصر على يد مار

(١) قال يوسيفوس المؤرخ ان مار مرقس اتى الاسكندرية في السنة الثانية من حكم اقلوديوس قيصر اي سنة ٤٣ ب . م . وفي تاريخ الاسكندرية انه جاءها سنة ٤٠ ب . م . والذى يراجع الحوادث المذكورة في سفر اعمال الرسل يجد ان جعل سنة ٤٥ تاریخاً لجعیء مارقس الى مصر اقرب الى الحقيقة من سواها .

مرقس دجل اسکاف من الاسکندرية اسمه انيانوس^(۱). والذی رأى اسوق الاسکافية في مصر وحواليهم الرطبة المظلمة من الداخل وقد علقت على ابوابها صفوف الاحدية من حمراء وصفراء وتحتها تلك المقاعد الضيقة وحولها العمال يتشارعون بمحادثة المارة - لا يصعب عليه ان يتصور حالة مار مرقس في بدء كرازته وما اعقبها من البحث والمناقشة مع بائي الاحدية . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها أن مار مرقس صنع آية مع اوانيانوس ويرجح انه شفاه من مرض عضال كان لا يرجي شفاءه منه فاكرمه اوانيانوس على هذا الصنع الجميل وأخذه الى منزله ضيفاً مدة من الزمن ثم اعتنق الديانة المسيحية على يده فاقتدي به في ذلك خلق كثير . وما رجع مار مرقس الى فلسطين وكان ذلك في الغالب قبل نهاية ستة ٤٩ ب.م وسم اوانيانوس اسقفاً على الكنيسة الجديدة ومعه ثلاثة قسوس وبسبعة شمامسة

وفي سنة ٥٠ ب.م اجتمع بطرس ومرقس في فلسطين ليحضران مجمع اورشليم . وبعد ذلك بقليل قصد برنبأ وبولس ان يجولا للتبشر والكرازة فطلب برنبأ من مرقس ان يرافقه في رحلتها وكانت نتيجة ذلك ما نعلمه من افتراق الرسولين وتوجه برنبأ مع مرقس الى قبرس والى هنا لا يذكر عنهما شيء في سفر اعمال الرسل ولكن يرجح كثيراً ان مار مرقس ذهب حيث ذهب الى القورينة (سيرين) ثم عاد مارا بالخمس

(۱) قد يصعب ضبط هذا الاسم لاختلاف هجائه في عدة نسخ

مدن النزيرية الى الاسكندرية ويؤيد هذا الرأي بعض تلميحات وردت عرضياً في العهد الجديد وكذلك ما ورد في التواريخ المصرية من ان مار مرقس أسس خمس كنائس اخرى بين زيارته الاولى والثانية الى الاسكندرية ومن ضمنها كنيستي القرينة ولبيا

هذا ولا ندرى اذا كان مار مرقس بارح الديار المصرية مرة اخرى بعد ذلك ام لا . اما كونه توجه الى دوميا مع مار بطرس فهذا اذا صح لا يمكن ان يكون الا في او اخر ايام ذلك الرسول . على ان المؤرخين القدماء باجمعهم لا يؤخذون من كلامهم عن مار مرقس سوى انه بقي في الاسكندرية منذ عودته اليها الى آخر حياته

ويقال انه في هذه الانباء شيدت الكنيسة الاولى في الاسكندرية بمكان يقال له بوكاليا واقع على شاطيء البحر وان بوكالياهذه قد صارت فيما بعد ابروشية آريوس المهر طوقي الاكبر . ولكن وبعد كثيراً ان تكون الكنيسة التي استحوذ عليها آريوس هي التي بنيت في ايام مار مرقس لانه يصعب التصديق بقاؤها بعد ان توالي الاضطهاد على المسيحيين مع هدم الكنائس وتخريب اماكن عبادتهم مدة ثلاثة قرون الاولى . اما سبب تسمية ذلك الموضع ببوكاليا او بوكاليس فهو على ما ذكره استرابو المؤرخ ان البقعة المذكورة كانت قبل امراعى للماشية ومن ذلك اشتق اسم المكان

هذا ويوجد بين المؤرخين القدماء اختلاف في نحو سنتين او ثلاث

فيما يختص بحوادث مار مرقس وقد تسبّب عن ذلك اختلافهم أيضًا في تاريخ نياحته ولكن الأقرب إلى الحقيقة والارجح أن وفاته كانت في السنة الثانية من ملك نيرون اعني في أوائل سنة ٦٢ ب.م ودليل ذلك أن عيد الآلهة سيرابيس كان يقع يوم ٢٥ أبريل من السنة وكان من أكبر الأعياد عند وثني مصر . فاتفق أنه في سنة ٦٢ ب.م وقع هذا العيد في يوم أحد ويقال أن مار مرقس جاهر وقضى بتقييّح هذه العبادة وتحريم الاحتفال بالعيد باعتبار أنه عبادة وثنية فاهاج بذلك سخط الوثنيين في مدينة الإسكندرية وكان قد شق عليهم ماراؤا من سرعة انتشار الديانة المسيحية حينئذ وابتدائت الفتنة بين المسيحيين والوثنيين في يوم السبت الذي يتلوه العيد فلم يأت مساء اليوم حتى قبض الوثنيون على مار مرقس وربطوه في عنقه بحبيل وجروه وطافوا به في شوارع المدينة إلى أن جاء الليل وخيم الظلام فاصدوه في السجن وهناك ظهر له ملاك الرب في رؤيا فقواه وشدد عزائمها . ولما أصبح يوم الأحد عاد الوثنيون إلى السجن فاخذوه مكتوفاً وطافوا به حول المدينة في موكب الآلهة سيرابيس إلى أن أسلم الروح وبموته انتهت آلامه ودفن في كنيسة بوكاليا ومن ذلك العهد كانت لا تنتخب بطاركة الإسكندرية على قبره الجيد واستمرت هذه العادة متبعة قرونًا عديدة بعد ذلك

أما الكنيسة القبطية المصرية التي هكذا اسسه مار مرقس فقد حافظت إلى الان على نظماتها وطقوسها الأصلية أكثر مما حافظت آية كنيسة

اخرى من عهد مؤسسها الى هذا اليوم فهى اذاً أقل الكنائس اختلافاً
 عما كانت عليه حين نشأتها . وفيها بقية سلسلة المراتب الكنوتية الثلاث
 متصلة بغير انقطاع الى يومنا هذا وهي الاسقفية والقسوسية والشوشية
 غير انها لسوء الحظ قد وقعت في الفخ الذي هوت فيه بقية الكنائس
 المسيحية وذلك انها بعد بضعة قرون من عهد تأسيسها فرضت العزوبة
 على بطريركها واساقفتها بطرق الالزام ولكنها لم تستطع بذلك عن
 القاعدة الاصلية الى درجة تعميم هذا الالزام على طبقات الاكليروس
 الصغرى كافضل ثمارها بل جعلت الزواج لهم سنة لا تزال مباحة الى
 اليوم كا هي عند الاكليروس اليوناني ايضاً على عكس ما جرى عايه
 كنيسة الكنوتية والاكليروسها على وجه العموم
 ثم ان الكنوتية القبطية قد حافظت ايضاً من عهد نشأتها على الاسرار
 السبعة الكنوتية ولكنها تعتبر ان اثنين منها فقط خروريان للاخلاص
 وهما المعدودية والشهاء الرباني . على انها في القرنين الثالث والرابع كانت
 على الدوام تؤجل عماد الاشخاص الى الساعة الاخيرة من حياتهم . وتوجد
 الى هذا اليوم عادات كثيرة في الكنائس الغربية منقولة في الاصل عن
 قدماء المصريين في عهد نشأة الكنوتية القبطية . فمن ذلك مثلاً الحلة
 البيضاء (التونية) التي تلبس وقت الخدمة الكنوتية فاما هي عبارة
 عن جبة الكستان البيضاء التي كان يلبسها كاهن ايزيس . ومنها جزء
 من الشعر من وسط الرأس فقد كان ايضاً العلامة المميزة لكونه المصريين

القدماء . ومنها استعمال الخاتم في اكليل الزواج وكان المصريون القدماء يستعملون حلقةً من معادن مختلفة بدلاً من العملة قبل صك النقود عندهم . فلكان اذا عقد للرجل على امرأة بسها ساعة العقد خاتماً من الذهب علامة على انه من تلك الساعة جعلها شريكة له في ثروته فاستمرت هذه العادة عند المصريين بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ثم نقلتها عنهم الكنيسة المسيحية برمته

والظاهر ان الصيامات دون غيرها من موضوعات الكنيسة القبطية هي التي كثر فيها التغيير عن الحالة الاصلية بيد ان هذا التغيير لم يطرأ الا من حيث الزيادة في عدد الاصوام وفي صرامتها وشدتها اما القاعدة الاصلية بغض الطرف عن تنواعها فل كانت تقضي ان رجال الكنيسة بأسراها يصومون اربعين ساعة متواتلة من يوم الجمعة الحزينة الى يوم احد القيامة وذلك عبارة عن الزمن الذي يطئون ان السيد المسيح نزل فيه الى الجحيم . ولكن في اواخر القرن الثاني كان صوم الأربعين ساعة قد بدل باربعين يوماً في معظم الكنائس النصرانية ويقال ان الذي جعل الصوم الكبير في مصر اربعين يوماً هو اباديمتريوس الذي رسم بطريق الاسكندرية سنة ١٨٩ ب.م. على ان الكنيسة المصرية قد توسيت في اصومها تدريجياً بعد ذلك حتى اصبحت وهي تصوم الان اكثر من نصف السنة تقريراً واليك البيان : اربعون يوماً قبل عيد الميلاد وخمسة واربعين يوماً وهو الصوم الكبير قبل عيد الفصح وكثير

من الناس يصومون أيام الآحاد من تلك المدة فتبلغ بذلك خمسين يوماً . ثم أربعين يوماً عد الخمسين وهو المسى بصوم الرسل ثم ثلاثة أيام في فصل الربيع وهي المعروفة بصيام نينوى او يونان وخمسة عشر يوماً في شهر اغسطس وهو صيام العذراء ثم يوم الجمعة من كل أسبوع لغاية الساعة التاسعة . هذا على ان الصيام عند المصريين ليس في الحقيقة بالامر المبين الذي يستخف به فانهم لا يقتصرؤن فيه على الامتناع عن اللحم والسمك بجميع انواعهما فقط بل يتمنعون ايضاً عن اللبن والبيض والسمن والزبدة وكل ما يعتبر ذو حياة حيوانية من الكائنات عموماً ولذا تكون أغذتهم مدة صومهم قاصرة على انواع الفاكهة والبقول النباتية او المطبوخة بالماء او بالزيت والارز والخبز البسيط وباقى الاطعمة النشوية . وبعض العائلات لا تأكل شيئاً الا الساعة الثالثة بعد الظهر في ايام الصيامات . وفي بعض اقاليم مصر يخزن البعض منهم الخبز في اول الصيام دفعه واحدة فقط فيبلغ من الجفاف والصلابة مبلغاً بحيث لو وضعت شيئاً منه في اللبن الساخن مسافة نصف ساعة لما لازم بعض اللبن . وكثيراً ما خارت قوى الشعب واضنائهم المهزال لطول مدة الصوم حتى لقد يسر على الواحد منهم ان يقوم حيثئذ بجميع اعماله المعتادة . على ان القبطي فضلاً عما ذكر لا يحل له ان يأكل في المساء ما لا من الطعام كما يفعل المسلم الذي لا يصوم من سنته كائناً سوى ٢٨ يوماً تقضى فيها نهاره على الاغلب نائماً وليله آكل شارباً ولذا لا يبعد ان

تكون نتيجة هذه الصيامات الطويلة القاسية من جملة الاسباب التي
 اضعفـت عزـم الاقبـاط وحطـت من قواهم حتى لقد مضـت عليهم الى
 الآـن قـرون عـديدة لم يـشنوا فيها غـارة واحـدة دـفاعاً عـن حرـتهم واستقلـلـهم !!!
 ثم انه من المؤكـد بعد البحـث ودقـة التـحري انه في القرـن الاول
 لم يكن بين المـسيحيـين في مصر رـهـان ولا رـاهـبات . غير انه في منتصف
 القرـن الثـانـي اقتـبـست من الـديـانـة الـوـثنـية الـمـصـرـية عـادـة العـيشـة الـأـنـفـرـادـية
 والـخـلوـة لـاجـل التـنسـك والتـضـرـع والـصـوم والـصـلاـة عـوضـاً عـن اـتـامـ مـواـجـبـ
 الـحـيـاة الـطـبـيـيـة ثم اـنـشـرـت هذه العـادـة من مصر الى العالم المـسيـحـي باـسـرهـ
 تلك هي حـالـة الـكـنـيـسـة الـقـبـطـيـة الـتـي اـسـسـها ماـرسـقـسـ وـظـلتـ عـلـيـهـاـ
 في الـبـاسـا والـضـرـاء تقـاسـي الشـدائـدـ والـضـيقـاتـ وـتـحـمـلـ الـمـظـالـمـ والـاضـطـهـادـاتـ
 حتى يـوـمـناـ هـذـا حيث يـمـرـ بـهـاـ الـوـافـدـونـ الىـ مصرـ منـ الغـربـيـينـ لـهـذـاـ
 الـعـهـدـ فـيـتـجـاهـلـونـ وـجـودـهـاـ تـارـةـ اوـ يـهـزـأـنـ بـهـاـ طـورـاـ نـظـرـاـ مـاـ آـلتـ اـلـيـهـ
 منـ الـهـوـانـ وـالـذـلـ . ولـكـنـ مـهـلاـ فـسـتـرـىـ فـيـماـ يـلـيـ منـ صـفـحـاتـ هـذـاـ
 الـكـتـابـ تـارـيـخـاـ يـزـرـيـ بـتـوـارـيـخـ اـعـظـمـ الـكـنـائـسـ الـمـسـيـحـيـةـ مـقـاماـ وـشـائـناـ
 وـسـيـأـتـيـ يـوـمـ فـيـهـ يـجـلسـ رـأـسـ الـكـنـيـسـةـ لـلـقـضـاءـ بـحـسـبـ عـدـلـهـ لـاـ بـحـسـبـ
 فـكـرـ الـإـنـسـانـ وـفـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ يـسـمـعـ قـوـلـهـ «ـوـيـكـوـنـونـ لـيـ قـالـ رـبـ الـجـنـوـدـ
 كـلـ الـذـينـ يـخـافـونـ اـسـمـيـ فـيـ الـيـوـمـ الـذـيـ اـجـمـعـ فـيـهـ جـوـاهـرـيـ»

الفصل الرابع

﴿ بطريرك واحد وسبعة قياصرة . سنة ٦٢ ب . م ﴾

هذا هو الثاني من بطاركة الكرسي الاسكندرى واسمه ايانوس وغاية ما ينبعنا عنه التاريخ انه اخلف مار مرقس على كرسى الاسكندرية سنة ٦٢ ب م وساس الكنيسة بحكمه وفترة مدة ٢٢ سنة وفي اثناء رئاسته تولى على العرش الامبراطوري الروماني سيدة امبراطرة على التابع وهم نيرون الظالم (وكانت وفاته بعد ست سنوات من تاريخ تولي ايانوس كرسى البطريركية) ثم جالبا اوثيو وفيفيليوس وفسباسيان ونيطس ودومتيان وكان الوالي الروماني على مصر في سنة ٦٢ ب م بابيليوس الذي اخلف طيباريوس اسكندر منذ سنة ٥٦ ب م والظاهر انه كان ذا عنانية واهتمام باصر البلاد التي عينها على منها قبل المملكة الرومانية . فانه الف تاربخا للديار المصرية وا يكن عبشت به ايدي الضياع ولم يبق منه الا آن لسوء الحظ شيء . وقد اخذ ديونيسوس المؤلف الشهير الذي كان مديرًا لدار الآثار المصرية وزيرًا . ولكن يظهر ان بابيليوس لم يكن مع ذلك حبوباً من المصريين بدليل ان الامبراطور جالبا الذي تولى الامبراطورية بعد نيرون عزله على الفور وعين مكانه طيباريوس يوليوس اسكندر ابن

اسكندر الوالي الاسبق وابن اخ فيلو اليهودي (انظر الفصل الاول) فكان طبياريوس وانيانوس متدينين من حيث الجنسية والوطن غير ان الاول كان على ما يظهر قليل التمسك بدينه اليهودي كما كان ابوه من قبله . ويوجد لهذا العهد بالواحة الكبرى نقوش خلدت ذكرى المنشور الذي اصدره طبياريوس هذا لرفع ما كان يشل كاهل المصريين من المظالم والغارم التي كان قد فرضها عليهم نيرون . فمن ذلك تأكيد هذا الوالي لرعاياه المصريين بعدم اكراه احد منهم في المستقبل على قبول وظيفة التزام الخراج في الاقاليم وعدم الغاء البيوع بحججه مدحونية المشتري للحكومة الامبراطورية وابطال عادة سجن الاحرار من الرعية بسبب عدم الوفاء بدين على احدهم لا آخر ما لم يكن المدайн هو الحكومة او الخزينة الاميرية اما لغة هذا المنشور فكانت كغيره من الاوامر والمنشورات اللغة اليونانية وهو امر يدل دلالة واضحة على انه بالرغم عن تسلط الرومان على مصر كل هذا الزمن لم يعتر احوالها ادنى تغيير عما كانت عليه قبلهم فلم تكتسب اللغة اللاتينية ادنى شيوخ بين المصريين ولا اقتبسوا هم شيئاً من العوائد الرومانية ولا يخفى ان هذا من الغرابة عما كان . غير ان اذا دققنا النظر في ذلك نجد ان تلك المملكة الرومانية العظيمة التابعة لها مصر لم تكن رومانية الا بالاسم فان القياصرة الاول الذين كانوا رومانين حقيقة لم يفهمهم من امر مصر سوى ما يتعلق بتوسيع نطاق خراجها ثم ان عرش المملكة اصبح من بعد القرن الثاني هـ فـ لا طياع

ذوي البأس من اخلاط مختلفي الجنس من يونان وافريقيين وببرجر وسورين لا يعنهم طبعاً شأن رومية الا باعتبار كونها مظهراً خارجياً لرونق ملوكهم وشوكه اقتدارهم . هذا وسيظهر لك فيما يلي ما كان لتغيير عاصمة الملكة الرومانية من التأثير على الملكة عموماً والقطر المصري وببلاد الشرق خصوصاً

اما اوثو وفيفيليوس اللذان تعاقباً على كرسي القياصرة بعد جالبا فلم يتركا اثراً يذكر لها في مصر لقصر مدة حكمهما . وكان فسباسيانوس الذي خلفهما يحارب حينئذ كقائد في فلسطين فصمم على ان يكون قيصر وكتب اولاً الى طياريوس اسكندر والي مصر يقول له ان الجيش هنا قد باعني الامبراطورية فهل لي ان اعتمد على عضدي في هذا الا مر وعلى يدمة الجندي في مصر . فلبى طياريوس الطلب على الفور واقرت مصر بالامبراطورية لفسباسيانوس بالاجماع مع علم اليهود فيها بالحرب العوان التي كانت قائمة وقتئذ بينه وبين ابناء جلدتهم في فلسطين وتنكيله بهم اشد تنكيل ولعل في ذلك ما يوجب الاستغراب . على ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير الذي دافع عن يوباطا (احدى مدن فلسطين) دفاع الابطال حين محاصرة الرومان ايها - كان قد اصبح بعد سقوطها في يدهم من اخص اتباع فسباسيانوس واعظمهم تمسكاً بعروة الاخلاص والولاء له وبقي فسباسيانوس مدة في بيروت استراحت في اثناءها فلسطين

من اوضاع الحرب والجهاد حتى ورد اليه البناء المبشر بان القائد الذي ارسله الى رومية لكي يستلم زمامها بالنيابة عنه قد تم له الامر على ما يشتهي ويختار . فبارح اذ ذاك بيروت قاصداً مدينة الاسكندرية للاقامة بها بعض الزمن صارفاً نظره عن رومية موقتاً اعتماداً ولا شك على وجود ابنه دوميتيان بها وقيامه مقامه في ادارة الاحكام . فلما قدم فسباسيانوس الى الاسكندرية هرع علماؤها وحكامها لمقابلته بكل مظاهر التعظيم والجلال وكان بالاسكندرية يومئذ ثلاثة من مشاهير الفلاسفة وهم يوفراطيس الافلاطوني وديون الملقب بضم الذهب وابولونيوس الفيثاغوري الشهير الذى وضعه فيلوستراتس في مصاف الانبياء والمرسلين في الرسالة التي كتبها تاريخاً لحياته بعد موته وشبهه فيها ظاهرياً بفيثاغورس فيما - وف ومراده في الحقيقة تشبيهه بالسيد المسيح نفسه كما لا يخفي على من امعن النظر فيها ولا حظ الفرض من تأليفها على نسق الانجيل المقدسة وكان ابولونيوس ملازماً للقيصر فسباسيانوس طول مدة اقامته في الاسكندرية وخدمه خدمات جليلة باستهالة قلوب الاسكندرية اليه الى درجة انهم اصبحوا يعتقدون فيه القدرة على شفاء الامراض ب مجرد لمس المريض كما كان الجاهلية يعتقدون في ملوكهم قديماً . فقد روى تاسيتوس المؤرخ ان رجلين احدهما كفيف البصر والآخر اكتع اليه طرحاً فسيهما تحت قدمي فسباسيانوس وهو سائر في أحد شوارع الاسكندرية متسللين اليه ان يلمسهما حتى ينالا منه الشفاء . فسخر

القيصر بهما أولاً غير أن ما رأه من تظاهر اطباء الاسكندرية حينئذ من مشاركتهم العامة في هذا الاعتقاد جعله على اجابة الطلب والظاهر ان عمليته لم تُخَبَّ اذ قد شهد اصدقاؤه الامبراطور ان الرجلين شفيفا بهذه الوسيلة

وكان فسباسيانوس يتظاهر بشدة الميل الى ديانة المصريين فلم يتأخر عن زيارة هيكل معبدهم سيراً بيس واستطلاع انبائه عن مستقبله ومستقبل مملكته وعلق كثيراً بالاسكندرية فمكث بها بضعة شهور بعد ما انفذ ابنه تيطس الى فلسطين ثانية لانهاء الحرب مع اليهود ولكن اهل الاسكندرية كانوا سريعي التقلب فلم تدم محبتهم لفسباسيانوس طويلاً لا سيما وقد أثقل الرجل كاهلهم بالضرائب عوضاً عن ان يغدق عليهم الانعامات كما كانوا يأملون منه . وما زاد الطين بلة انه صرفة طالب صاحباً له بدين كان قد وفاه به فذاع خبر ذلك في المدينة حتى بلغ من بعض العوام ان اتخذوا الامر موضوعاً للنحک والسخرية به فلما علم فسباسيانوس بما كان من ذلك استشاط غيظاً وحنقاً وامر في الحال بضرب جزية قدرها ستة افلas (وهو مقدار الدين الذي كان له) على كل فرد من اهل المدينة تأدیباً لهم على هذه الجرأة . بيد انه لم يلبث ان صفع عنهم اجابة لتوسلات ابنه تيطس الذي كان احسن منه سياسة وتدبروا ولكن هيبة ان تعود بذلك محبة الشعب الى ما كانت عليه أولاً فرحل فسباسيانوس عقب ذلك الى رومية ولم ينتظر نهاية الحرب في فلسطين كما كان ينوي

فلما كان فصل الخريف من سنة ٧٠ ب.م وردت الاخبار بعد طول الانتظار منبهة بسقوط مدينة اورشليم . وقد بلغ عدد الاسرى الذين اخذوا من اليهود بسقوطها ٩٧ الف نسمة سقطوا جميعهم ارقاء ليعملوا في معادن مصر بالاخص . وكان لمسير هذا الجيش الكثيف وراء تيطن الطافر منظر تنفطر له الاكباد لا سيما وقد تبعهم العدد الغفير من سكان اورشليم التعيسة حيارى اذلاء بلا مأوى ولا زاد يبتغون ملجاً وملاذا بارض مصر آملين أن يتقيا هنالك في ظل اخوانهم الاغنياء ومن ذلك العهد أخذ اليهود في المهاجرة من بلادهم الى مصر افواجاً افواجاً ولكنهم لم يلبثوا ان اقلقو بافعالهم خواطرون يرود الاسكندرية الذين باتوا في خوف على انفسهم منهم بما اثاروا من الشغب والهياج على الحكومة الرومانية والمحاهرة بتعيين اخوانهم المصريين على خصوصهم لها واستسلامهم الى سلطة القيسار صاغرين وحضهم ايامهم على القيام للحرب والكافح دفاعاً عن حرتهم ووطنهم الذي اصبح قاعاً صفصفاً . ولا بدع اذا كانت الدعوى الى هذا الجهاد لم ترق في اعين اليهود مصر الاغنياء المترهفين لما يعلمون من انهم يكونون هم الخاسرين على كل حال بلا محالة اذا اشرروا راية العصيان ولذلك لما رأوا تفاقم الشر من اولئك المهاجرين (وكانوا يلقبونهم بالاشقياء) عقدوا جمعية من اكبر اليهود الاسكندرية قرروا فيها ان راحتهم وسلمتهم توقفان على القاء القبض على هؤلاء المحرضين وتسليمهم ليد الحكومة حتى بذلك ينفوا عن انفسهم

شبهة الاتحاد معهم على ما ينون من العصيان والثورة . وبناء على هذا
 القرار قبض على نحو ٦٠٠ نفس دفعه واحدة من هؤلاء المتفانين في
 حب وطنهم بعد ان هرب منهم خلق كثير الى الارياف أمسك معظمهم
 في ما بعد وأعيدوا الى الاسكندرية حيث اذيق الجميع انواع العذاب
 لكي يحملوا بين الطاعة والولاء للامبراطور فسباسيانوس ولكنهم
 رفضوا ذلك باجمعهم حتى الاطفال منهم مفضلياً الموت على فقد الاستقلال
 والحرية وهكذا قتلوا عن بكرة ابيهم . والظاهر ان هذا هو السبب
 فيما يشير اليه المؤرخون المسيحيون الاول بقولهم أن مدة رئاسة البطريرك
 انيانوس لم تكن مدة سلام وأمان وان كان هؤلاء المؤرخون لم يذكروا
 ادنى تفصيل عما كان له من الشأن في اثناء تلك الاضطرابات والقلاقل
 على ان لهيب الثورة بين اليهود اندلع وقتل بسرعة حتى وصل ايضاً الى
 القورينة حيث قام رجل حائط يدعى يوناثان منادياً فيها بالحرب لانقاد
 الوطن محراضاً على ذلك الطبقة الوسطى من ابناء جلدته دون الاغنياء على
 ما قاله يوسفوس المؤرخ . فلبي كثير منهم دعوه وساوا في جيش منهم
 كثير العدد ولكنه قليل العدد فاصداً ديار مصر معتمداً على معونة
 سحاوية تأييدهم فتساعدتهم على الفوز في مشروعهم . غير انهم لم يكادوا
 يبرحون حدود القورينة حتى افتشى اخوانهم الاغنياء سرهم الى كاتلوس
 والي هذه المقاطعة غدرأً وخيانة منهم فاقتني هذا اثرهم على القور الى ان
 ادركهم فهزمه شر هزيمة وفر لهم ايدي سبعاً وقد عق الوالي عن قتل

يومان المذكور زعيم هؤلاء الثنائيين ولكن على شرط ان يبوج
 له باسماء اليهود الذين وعدوه بالانضمام اليه حينما يتم له الامر .
 فكاشفه يومان باسماء عدد كبير من اغنى وأقوى رجال اليهود
 في القورينة والاسكندرية ورومية ولا ندري اذا كان فعل ذلك
 وفاء بالشرط على ما تقتضيه الدهمة او رغبة منه في الانتقام لنفسه
 من خانوه وغدروا به من ابناء ملته وعلى الحالتين كانت النتيجة ان ثلاثة
 الاف رجل من اغنياء اليهود في القورينة فقط سيفوا للذبح بلا تحقيق
 ولا بحث بأسباب هذه الحادثة وصودروا في املاكهم واموالهم حسبما
 رواه يوسفوس اما بقية من اباح باسمائهم يومان من يهود الاسكندرية
 ورومية فقد رفع كاتلوس امرهم الى الامبراطور وكانت عاقبتهم ذلك انه امر
 للحال بقفل هيكل اليهود في مصر وان لا يسمح لهم باقامة المبادرة العمانية
 فيه وبذلك كسرت شوكتهم وخفضت كبرياؤهم الى الحضيض
 وقد كان هذا الهيكل اشاره الفخر والاعجاب لديهم مدة ٣٣ سنة
 ينافسون به هيكل اورشليم القديم الذي خرب بخراها . فـ الدهر اليه
 يده بالاذى فباد خبرهم بمصر كما انه تناول باليد الاخرى بقية مجد اخوانهم
 يهود فلسطين حتى اصبح الفريقان سوأفي الذل والهوان . ومن هذا الحين
 تجرد اليهود عن امتيازاتهم الوطنية فـ لاً وان لم يجردوا منها شرعاً
 فصاروا مثل المشربين الاصليين في معاملة الحكومة لهم . وكما ان
 هيكل اورشليم قد صيره تمطس بحيث لم يبق فيه حجر على حجر كذلك

هيكل اويناس قد اصبح و مكانه الان اففر مما كان يوم قال الملك بطليموس
 في يوم تر لا اويناس نفـه « عليك بازالة تلك الاطلال الباقيـة من هيـكل
 ليونتو بوليس حتى تبني هنا المـلك ما تـريد » يعني يبني هيـكلـا لـليـهـود و هـو
 الذي نـحن بـصـدـدهـ . و لم يـبـقـ من آثار هذا الهـيـكلـ لـلـآنـ سـوىـ آـكـامـ
 من التـرـابـ قـائـمةـ فـيـ وـسـطـ تـلـكـ الـأـرـاضـيـ الـمـخـصـبـةـ تـشـوـهـ نـضـارـةـ وـجـهـهاـ
 وـجـالـ مـنـظـرـهاـ وـهـيـ مـحـاطـةـ بـجـدـرـانـ سـورـهـ المـزـدـوجـ لـمـ تـرـلـ قـائـمةـ عـلـىـ اـرـفـاعـ
 قـلـيلـ مـنـ سـطـحـ الـأـرـضـ الـجـاـوـرـةـ لـهـاـ وـبـهـاـ مـنـ قـدـمـيـنـ إـلـىـ خـمـسـةـ اـقـدـامـ عـمـقاـ
 مـنـ الشـقـافـةـ وـقـطـعـ الـخـزـفـ اـمـاـ الـاحـجـارـ فـقـدـ اـخـذـهـاـ الـمـسـلـمـوـنـ عـلـىـ مـرـورـ
 الـأـيـامـ وـالـسـنـيـنـ حـتـىـ لـمـ يـبـقـ مـنـهـاـ حـجـرـ وـاحـدـ وـانـماـ بـقـىـ اـثـرـ ذـلـكـ الهـيـكلـ
 الـمـصـرـيـ الـقـدـيمـ الذـىـ كـانـ بـنـاؤـهـ مـنـ عـهـدـ رـعـمـسـيـسـ الـثـالـثـ وـهـوـ عـبـارـةـ
 عـنـ كـتـلـةـ كـبـيرـةـ جـداـ مـنـ الصـوـانـ مـعـ قـطـعـ مـنـ الـمـرـسـ الـأـيـضـ شـوـهـتـ
 فـيـ ذـلـكـ الـمـكـانـ سـنـةـ ١٨٩٣ـ بـ.ـ مـ .ـ غـيـرـ انـكـ اـذـ ذـهـبـتـ اـلـآنـ اـلـىـ
 ذـلـكـ الـكـثـيـبـ الـقـائـمـ فـيـ تـلـكـ الـأـرـاضـيـ الـزـرـاعـيـةـ حـيـثـ يـتـطاـيـرـ الـمـهـدـدـيـنـ
 الـأـثـلـامـ وـالـحـزـونـ وـحـيـثـ الـمـقـلـقـ النـاصـعـ الـبـيـاضـ يـتـبـخـرـ بـيـنـ الـخـضـرـةـ الـزـاـخـرـةـ
 - لـرـأـيـتـ مـرـكـبـاتـ النـقـلـ الـتـيـ حلـتـ اـلـآنـ مـحـلـ الـجـمـالـ تـغـدـواـ وـتـرـوحـ
 مـشـحـوـنةـ بـنـفـسـ تـلـكـ الشـقـافـةـ الـبـاـقـيـةـ ذـاهـبـةـ بـهـاـ اـلـىـ حـيـثـ تـسـيـحـقـ لـتـسـتـخـدـمـ
 فـيـ بـنـاءـ اـمـاـكـنـ وـدـورـ جـديـدـةـ بـحـيـثـ لـاـ يـبـقـىـ بـعـدـ قـلـيلـ مـنـ الزـمـنـ اـدـنـيـ
 اـشـارـةـ اوـ عـلـامـةـ عـلـىـ هـيـكلـ اوـينـاسـ الـمـارـ ذـكـرـهـ

اما حـالـةـ الـمـصـرـيـنـ الـأـصـلـيـنـ فـيـ عـهـدـ فـسـبـاسـيـانـوـسـ وـتـيـطـسـ فـصـارـتـ

الى احسن مما كانت عليه قبلهما وذلک بحسن ادارتها وعنايتها بشؤون
اھالي المماکة . فقد ذهب تیطس نفسه الى ممفيس في موکه الرسمی
لحضور الاحفال بتکریس الثورابیس لما عزز المصريون على اقامته معبوداً
بعد سلفه المتوفی . وقد تم في اثناء ملک فسباسیانوس بناء هیكل نیف
النخیم بمدینة لا توبولیس (اسنا) بعد ان عمل فيه العاملون مدة مئین
من السنین كا هي العادة في بناء المیاکل المصرية . وقد جاء هذا الاثر
الجمیل محاکیاً بفخامتہ وحسن زخرفه افضل المباني التي شیدها المصريون
في عهد وصول فی العمارۃ والهندسه قة الكمال عندهم وقد خر اسم
فسباسیانوس في المخل الخصص لذكر المعبد الذي بني الهیكل على اسمه
فوق واجهة الباب

وبعد وفاة تیطس تولی الامبراطورية الرومانیة دومتیانوس قیصر
وفي عهده أرسل جوفنال الشاعر الروماني المشهور لقيادة فرقہ عسکریة
من الجیش في مصر وكان قد بلغ من الكبر عتیاً فمات عقیب وصوله اليها
بیهد ان سئمت نفسه البقاء فیها بعیداً عن الاهل والاوطن . وقد کتب في
غضون هذه الرحلة رسالة عن المصريين اکثر فيها من الانتقاد على اهل
الريف منهم ولا سیما ما يتعلق بحیواناتهم المقدسة

وفي اثناء حکم دومتیانوس هذا تنایح البطریرک آینانوس وخلفه ایلیوس
على کرسی البطریرکیة . ثم انه في عهد الامبراطور نیرفا الذي اخلف
دومتیانوس رفت عن يہود مصر الفریبة الشخصية التي كانوا يؤدونها

منذ ايام البطالسة ومقدارها نصف شاقل عن كل فرد غير ان الضريبة
عادت ففرضت عليهم ثانية في عهد احد القياصرة الآتي ذكرهم فيما
بعد . اما حالة الدنیسه المصرية مدة حكم هؤلاء الامبراطرة فكانت
على ما يرام من الامن والسلم عاملاً ناصيحة آخذة في الامتداد والانتشار
بسرعة عظمى

الفصل الخامس

رواد النيل في القرن الثاني . سنة ٩٨ ب . م

تولى الحكم بعد دومنيانوس الامبراطور تراجان وكان في اوائل
حكمه مشغولاً جداً باحوال اوروبا ومع ذلك تم في عهده مشروع عان
خطيران في مصر او لماتجديد الخليج بطليموس الذي يصل النيل بالبحر
الاحمر وكان قد اهمل وانهارت جوانبه فرممته تراجان وزاد في طوله
كثيراً حتى اوصله الى بابلون بعد مروره بمدينة عين شمس . ولا ريب
في انه هو الخليج الحالى بعينه وانهار مرم صرة ثانية وزيد في طوله قليلاً
(نظر التحول النهر عن مجراه) في عهد الفتح الاسلامي . والمشروع
الثاني بناء قلعة ببابلون العظيمة وهي المعروفة بقايها الان باسم «قصر الشمع»
وهو لهذا العهد يشتمل على ستة من اقدم السكنائس المسيحية بالقاهرة .

اما عند انشاء القلعة فلم يكن داخل اسوارها الا كنيسة واحدة وهي
 المعروفة الان بباب سرجة . هذا وللحظ القاريء ان قلعة تراجان هذه
 هي غير القلعة القديمة التي ذكرها استرابو المؤرخ وكان موقعها الى الجنوب
 من قصر الشمع بالقرب من دير بابيلون الحالى
 ولا حاجة هنا الى ذكر الرسائل التي دارت بين بلبى الاديب
 الروماني والامبراطور تراجان عن احوال المسيحيين في ذلك العصر
 اذ لا مساس لها بسيحي مصر فضلاً عن ان شهرتها تتنى عن الذكر .
 اما سياسة تراجان مع المسيحيين فكانت غالباً سياسة تساهل وتسامح غير
 ان استشهاد القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في ايامه يعتبر نقطة
 سوداء في تاريخه . وفي السنة الثامنة عشرة من ملك تراجان عادت
 المذااعات والمنافسات بين اليونان واليهود في الاسكندرية وتفاقم الخطب
 حتى آل الامر الى قيام اليهود عموماً على الدولة الرومانية وشهر هرمي العصيان
 عليها في مصر وقوريته خاول لوپوس الوالي الروماني ان يقمع ثورتهم فلم
 يتغلب على الثنائيين و كانوا تحت قيادة رجل يدعى لوكاس من اليهود في قوريته فبقي
 بهذا الاقليم مدة سنتين يحارب الرومان ويعشو في الارض فساداً حتى
 أصبحت هذه المقاطعة الاسيئة تئن من احوال تلك الحرب الداخلية الى
 ان انفذ الامبراطور اخيراً القائد مارسيوس توربو بجيش جرار الى مصر
 لحاربهم وبعد قتال عنيف جرى في عدة مواقع انهزم اليهود شر هزيمة
 وقتل الوف منهم وجردوا عقيب ذلك من امتيازاتهم الوطنية تجريداً

شرعياً وبذلك ضاعت آمالهم وخابت احلامهم فيما كانوا ينتظرون
من عودة الملك اليهم ومن ذلك العهد أصبحوا يعتقدون الديانة المسيحية
أفواجاً أفواجاً

وبعد هذه الحرب الاصلية بعدها وجيزة مات الامبراطور تراجان
وخلفه ادريانوس الذي شرع في السنة الرابعة من ملكه يطوف الولايات
الرومانية متفقداً بنفسه جميع أنحاء مملكته . فلما حل ركابه الامبراطوري
القطار المصري سار صعداً في النيل ومعه انطينوس صديقه الحميم وهو
غلام اوربي ذو جمال باهر . واتفق ان انطينوس لاقى مئته في أثناء هذه
السياحة النيالية ولم تعرف الى الان اسباب وفاته الحقيقة غير ان الرواة
يزعمون انه قدم نفسه باختياره ضحية عن سيده وولاه الامبراطور
وتفصيل ذلك انه في أثناء عودة الموك الامبراطوري من الوجه القبلي
رآكباً تلك القوارب النيالية مزداناً بالزخارف والاعلام وفيها اجواف
الموسيقى تعزف بسماتها الشجيبة المطربة وبها من دواعي الحظ والانس
ما يشرح الحاطر ويسر الناظر – كما حصل في احتفالات الملوك والمعظاء
في النيل قبل ادريانوس وبعدة بالآف من السنين – نفاج الامبراطور شيء
من الخوف والكآبة وهو محاط ببابا السرور والحبور الآنف ذكرها
كانها حدثة نفسه ان سروره وغبطته قد بلغا درجة عظيمة قد تستوجب
حسد الآلهة له عليها وانه لا بد لنسكين تأثيرها من تقديم ضحية مهمة
ترضيها والا حل به الحراب والدمار عاجلاً . ففكر انطينوس الذي كان

يحب مولاه حبأ يرخص موه كل غال وفطن بفراسته الى سبب حزن
 سپده مما رآه من خوفه واضطرابه فسار في الحال الى اتمام ما خطر بباله
 بان القى نفسه في النيل معنناً انه لما كان على يقين من ان منزلته شند مولاه
 فوق كل شيء هانت عليه الحياة حبأ بدوام سعادة ذلك المولى . هذا ومعلوم
 شند قراء التاريخ ما اصاب ادريانوس من الحزن المفرط باوت حبيبه وكيف
 انه اصدر اوامر بوجوب اعتباره بمنزلة الالهة وقد اسس مدينة في
 المكان الذي بذل انتينوس نفسه فيه لاجله وسماها مدينة انتينوس
 تذكاراً له وهي التي صارت بعدئذ عاصمة لصعيد مصر اما الان فلات
 محلها قرية صغيرة تدعى البرشا (بمديرية المنيا) . وقد اطلق ايضاً اسم
 انتينوس على نوع من زهر البردي المصري اكتشفه وقتئذ الشاعر
 بنكراتيس الاسكندرى وقدمه للامبراطور عند رجوعه من سياحته
 وهو يمتاز عن الزهر المعروف لهذا النبات بكونه وردي اللون ليس
 بالازرق ولا بالايض . ومن كان بالاسكندرية من مشاهير الكتاب
 في ذلك الوقت غير بنكراتيس السالف الذكر ابو لونيوس ديسكولوس
 النحوي وكانت له مؤلفات عديدة ضاعت كلها تقريباً ولم يبق منها
 سوى مجموعة في آداب المصريين وآخرى تشمل على حكايات خرافية
 ومنهم ابيان المشرع الروماني الشهير وكان قد صرف سدة سنوات
 في رومية ثم كتب تاريخاً رومانياً بعد عودته لوطنه
 وفي سنتي ١٣٢ و ١٣١ ظهر يهودي آخر اشتهر باسم البار كوشبا

(ومعناه ابن النجم أو كما فسره بعضهم ابن الكذب) ورفع راية العصيان على الحكومة الرومانية في فلسطين وصادف عمله بعض النجاح في أول الأمر فسار للانضمام إليه جيش من يهود مصر وإليها ثم اشتباك القتال بينه وبين تينيوس روفوس الروماني والي اليهود واستظرر عليه العصاة فاستدعت الحكومة الرومانية القائد سفيروس من بريطانيا لمحاربته وجرت بينهما حروب دموية استمرت نحو أربع سنين وانجحات أخيراً

عن انهزام العصاة وتبديد شملهم

وفي سنة ١٣١ أيضاً زار ادريانوس مصر مرة ثانية ورافقته في هذه الزيارة امرأته الملكة سابينا ومعها زمرة من نساء الأمراء وعقيلات الكباراء والأعيان وركب النيل معهن مرة أخرى اجابة لاتصال الملكة سابينا منه الفرجة على تمثال ممنون الشهير بصوته الموسيقى وهو أحد التماشيل الهائلة التي بصحراء ثيبة شيده الملك امونحوتب الثالث في هيكل خاص لم يبق شيء من آثاره الان لعظم قدمه . فلما زارت الملكة ذلك المكان رأت التمثال في حالة ارداء مما هو عليه الان نصفه الاعلى ساقطاً ملقى على الأرض قطعاً ولم تسمع ذلك الصوت يخرج من شفتيه اذ وقفت بجانبه يحف بها اعضاء معيتها ممتظرة حدوث هذه الجبيهة وقت شروق الشمس على التمثال . غير ان مجرد اظهار استثناء الامبراطور من الكتمنة بهذا الشأن كان كافياً لصدور تلك النغمات الموسيقية الرخيمة من التمثال في صباح اليوم الثاني وتشنيف آذان الملكة واتراها بسماعها . وقد نقش عدة من

في معية الملكة اسماءهن على قاعدة التمثال كايفعل السياحاليوم . وكتبت
 احداهن هي جوليا بالبيلا (ابنة كلوديوس بالبيلوس الذي ولـ مصر في
 عهد نيرون وألف تاريخاً لها) اياتاً من الشعر على اسفل التمثال ذكرت
 فيها نسبها الذي يتصل بانطيوخوس ملك كوماجين (احدى مقاطعات سوريا)
 وزيارة لها مع الامبراطور وقريته . ومكث ادريانوس هذه المرة
 بمصر نحو اربع سنوات كانت اكثراً اقامته فيها بالاسكندرية . وفي اثناء
 زيارته المرة الاولى لمصر (سنة ١٢٢) توفي البطريرك بريموس واخلفه
 يسطس الذي قيل انه احد الذين عمدهم مارمرقس وكانت نياحتة قبل
 زيارة ادريانوس الثانية انصر بسنة واحدة وخلفه على كرسي البطريركية
 يومينيس وقلما يعرف عنه شيء

ومن الاشاعات المتواترة ان المسيحيين في الاسكندرية ذاقوا اعداب
 الاضطهاد مدة حكم تراجان ثم في عهد ادريانوس ايضاً غير اننا لم نعش على
 ما يؤيد ذلك في التواريخ التي يوثق بصحتها ولكن من المحتمل كثيراً ان
 من المسيحيين من اضطهدوا باعتبار كونهم يهوداً في ایام العصيان الذي
 حصل مدة هذين الامبراطورين حيث كان ينظر اليهم غالباً في القرف
 الاول والثاني كاهم شيعة يهودية متطرفة تخشى شرها . وفضلاً عما تقدم
 فقد كانت مصر على الدوام مصدراً للهراطقة من ذوي العقول المضطربة
 حتى انه في مدة زيارة ادريانوس لمصر المرة الثانية كانت انقسامات
 المسيحيين وتعدد مدارسهم بالاسكندرية قد وصلت الى درجة

يلتمس معها العذر لذلك الامبراطور فيما وقع فيه من الابهام وسوء الفهم
بشأن حقيقة امر المسيحيين والدين المسيحي . فقد كان كربوكرايس
وباسيليوس وفالنتينيان وجميعهم مصربيو الجنس يتفتنون وقئد في الباس
القواعد الدينية ثوب المجاز والرعن مجتمعين في اذاعة تعليمهم ومذهبهم
بالاسكندرية . نعم قد عد هؤلاء الثلاثة بعد موتهم من المهاطقة ولكن
لا يوجد برهان صريح على أن الكنيسة حكمت على أي منهم بالهرطقة
في أثناء حياته وربما كان ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بالحقائق الجوهرية في
الديانة المسيحية وإنما أثروا أنهم كانوا يحاولون مزج أسرار الديانة الوثنية
المصرية وشوامض رموزها بقواعد الایمان المسيحي البسيطة . ولا دليل
في أنه قد كان الأولى بهم عدم التعرض للخوض في مباحث التوحيد
والتشليث وامر خلق العالم وتركيبه وما اشبه من المطلب العويصة بل
حيذا لو امكن تخصيص الاشتغال بمثل هذه المسائل بمن تدربوا على
من اوتها فقط من ذوي الفكر السليم الذين حصلوا على التربية المؤهلة
لذلك كما كانت العادة عند كهنة المصريين القدماء على ما ارشدتهم اليه
حكمتهم ونجابتهم . على اننا لا نخالف ما يبلغ ادريانوس من امر الدين المسيحي
لذلك العهد الا نتيجة افكار هؤلاء المتطفلين كما يظهر من الخطاب التالي
وهو بنصه (١) : -

« من ادريانوس قيصر الى سرفيليانوس القنصل — سلام

(١) يعزي بعضهم هذا الخطاب لنمير ادريانوس ويقولون انه كتب قبل هذا الاوان بقليل

«اما بعد فان مصر التي اطنبت لي في مدحها ايها الزيز قد وجدت
 اهلها على درجة عظيمة من الحفنة والطياشة ونلة الزم يصدقون كل ما
 يقال ويطيرون مع كل دفع تهـب . فالذين يعبدون سيرا بيس مسيحيون
 والذين يدعون انفسهم اساقفة ^(١) المسيح عبيدل سيرا بيس . وانك لا
 ترى رئيساً لليهود او ساميـاً او شيخاً للمسيحيين الا كان رياضياً وعرافاً
 ومشعوذـاً . بل ان البطريرك نفسه لما جاء الى مصر ^(٢) قال عنه بعضهم
 انه يعبد الالـ سيرا بيس وقال آخرون انه يعبد المسيح . اما المصري من
 حيث طباعه فهو مثال الى المشاغبات والقتن غير حقوـد اما من حيث
 مجموع افراده فهو شعب وافر الثروة آخذ باسباب النجاح فلما ترى فيه
 رجالاً عطلاً عن عمل يرتفـق منه ما يقوم بحاجة مهـاشـه . فبعضهم يصبـ
 الزجاج وبعضهم يصنع الورق وبعضهم ينسج الكتان وهـلـم جراً بـحيـثـ
 انك ترى الاعـرج والاعـمى حتى الاـكتـعـ منـهـمـ يـشـفـلـونـ اوـقـاتـهـمـ فيـهاـ يـلـامـ
 اـحـواـهـمـ منـ الـاعـمالـ الصـنـاعـيـةـ هـرـبـاـ منـ الـكـسـلـ وـالـبـطـالـةـ . اـمـاـ الـهـمـ
 فـهـوـ «ـلـاـ شـيءـ» وـهـوـ الذـيـ يـعـبـدـهـ المـسـيـحـيونـ وـالـيهـودـ وـكـلـ الـامـمـ عـلـىـ
 السـوـاءـ وـاـنـيـ لـاـ تـنـيـ لـوـ كـانـ هـذـاـ الشـبـ أـطـيـبـ اـخـلـاـقـاـ مـاـ أـرـىـ كـمـ هوـ
 شـائـنـ الـأـفـرـادـ فـيـ اـمـةـ كـبـيرـةـ كـثـيـرـةـ الـعـدـدـ كـالـامـةـ الـمـصـرـيـةـ يـجـدرـ بـهـ انـ
 تـكـوـنـ صـاحـبـةـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ فـيـ بـلـادـهـ اـمـاـ اـنـاـ فـقـدـ مـنـحـتـمـ كـلـ شـيءـ وـرـدـدـتـ

(١) لم يكن في مصر اساقفة غير البطريرك الى زمن ديمتريوس اما الذين كانوا تحت يدـ
 البطريرك فكانوا كهنة وشمامسة فقط ولكن انـيفـ الكـهـنـةـ الـذـينـ كـانـواـ مـعـ الـبـطـرـيرـكـ فيـ
 الاسكندرية كان لهم امتيازات خصوصية كما هي عادة الذين يخدمون في الكنائس الكـبـيرـيـةـ .

(٢) يعني لما ذهب الى مصر قاطبة تميزاً لها عن مدينة الاسكندرية

اليهم امتيازاتهم القديمة بل زدتهم عليها زيادة تذكر بالشكر « اه
 على ان ادريانوس قد صار فيما بعد أعرف كثيراً بحقيقة الدين
 المسيحي مما كان وقت كتابة خطابه هذا و كان ذلك عقيب مطالعته رسالتين
 قدمتا له في اواخر عمره من تاليف بعض الامة المتقدمين في ايضاح حقيقة
 النصرانية والول الديانة المسيحية . قيل وكان صاحب احدى الرسالتين
 ومهديه اتوادراتوس وتنسب الثانية لايرستيدس غير انه يبعد عن الظن
 ان الاول منهما عاش الى زمن ادريانوس بدليل قوله في رسالته المذكورة
 (حسبما رواه يوسفوس الذي قرأها بنفسه) ما ذكره « از بعض الاشخاص
 الذين صنع فيهم ربنا يسوع المسيح آيات الشفاء لا يزالون احياء » ولذا يكون
 الارجح ان مقدم الرسالة لا دريانوس كان احد اعضاء الكنيسة المسيحية
 بايذنا او الاسكندرية او رومية . واذا ثبت ذلك فلابد لازم الجمجمة بين توادراتوس
 هذا واسقف اثينا المسمى بهذا الاسم المعاصر لادريانوس . أما ارسليستيدس
 مؤلف الرسالة الثانية فكان فيلسوفاً مسيحيّاً من مدينة اثينا وقد امكن
 العثور على رسالته في احد المدافن المصرية من عهد قريب بعد ان ظلت
 مفقودة عدة قرون

ثم ان آثار المذهب الاغنوسطي كانت ظاهرة وقائمة حتى على بعض
 المصكوكات المستعملة في عهد الامبراطور ادريانوس حيث تنوّع اشكالها
 وكثرة عددها الى درجة لم يسبق لها مثيل في عهد غيره . فكان لكل مركز
 وأقليم في القطر المصري نقود خاصة به منها ما كان منقوشاً عليه بعض

رموز المذهب الاغنوسطي ومنها ما رسم عليه بعض التماثيل المصرية
ومنها ما يمثل رأس انطينوس المتأله (الذى افتدى مولاه). هذا وقد
اشاع بعضهم ان ادريانوس شيد في اواخر عمره هياكل بدون اصنام او
تماثيل على نية تكريسها العبادة المسيح فيما بعد . وقد لا يخلو هذا القول من
صحة فيما يتعاقب باشيهيد تلك المعابد ولكن لا دليل يقول عليه في ايات
تلك النية لادريانوس . وقد توفي هذا الابراطور بعد مبارحته الديار
المصرية بثلاث سنوات وبموته كانت نهاية ~~ما~~ ونهاية مدة الاف
واربعمائة وستين سنة الثانية المقدرة لدور الشعري اليهانية وفي نهايتها توافق
افتتاح السنة المدنية مع السنة الدينية عند المصريين

الفصل السادس

المدرسة اللاهوتية الاولى . سنة ١٣٨ ب . م

كانت فاتحة حكم انطونيوس في مصر اعادة مساحة جميع السكك
العسكرية في هذه البلاد فعرفت من ذلك الوقت بخطاط انطونيوس
وكان عدد هذه الطرق ستة — ثنتان منها تران ببابيلون الاولى آتية من
بلاد النوبة (اونوبيا) وهي التي بعد اجتيازها ببابيلون تمر في وسط
الاقاليم التي يقطنها اليهود حتى تصل إلى كايسيما . والثانية التي تمر من

مفيس الى بيلوزيوم مجتازة النيل عند بابيلون . وقد انشأ انطونينوس
 ايضاً ميدانًا لسباق الخيل ببرية الاسكندرية وزاد على عدد ابوابها اثنين
 جديدين هما باب الشمس وباب القمر . ثم مما يدلنا على ان الديانة الوثنية
 القديمة كان بـالذلك العهد بقية من الحياة ما تهم في مدة حكم هذا الامبراطور
 ايضاً انشاء هيكل جديد في الواحات الكبرى باسم (امون نف)
 المعبود المصري . وهنالك رواية لا نرى موجباً للارتباط في صحتها ولذا
 ثبتها هنا وهي انه في عهد الامبراطور انطونينوس ايضاً - اي نحو سنة
 ١٥١ ب.م - عزم القديس فرونطونيوس على ترك العالم زهداً في
 الدنيا وملاذها فجمع اليه جماعة من الاخوة وسار بهم الى وادي الطرون
 (في مديرية البحيرة) وهنالك قضوا بقية حياتهم بالنسك والتعبد في
 بعض الكهوف الصخرية فكان ذلك عبارة عن تأسيس اول دير مسيحي
 وفي سنة ١٦١ ب.م توفي الامبراطور انطونينوس وخلفه مصر قس
 اوريлиوس الذي كان قد تبناه في حياته . وكان هذا الامبراطور قد درب
 على مبادئ الفلسفة الرواقية بواسطة استاذه ديوغنتيوس فبني شديد
 التمسك بها واشهر خصوصاً بانكاره المعجزات والاحلام . وفي مدة حكمه
 كان القتل امراً محتوماً على كل من اعترف بالدين المسيحي او اتهم به
 فكان المسيحيون في اوقات الاضطهاد يساقون للمحاكمة ك مجرمين
 لا متناء لهم عن عبادة الآلة الكاذبة او بمحاجة انهم كفرة ماحدون لا
 يؤمنون بالله . وقد كتبت حينئذ عددة رسائل دفاعاً عن الدين المسيحي

وال المسيحيين منها رسالة ثانية للقديس يوستينوس مارتيروس ومنها رسالة
 الى ديوغنتيوس مهذب مرقس اورياليوس اجمع الناقدون على استحسانها
 والاعجاب بها بل احلها الجم الغفير من المسيحيين المزيلة الثانية من
 الاعتبار بعد رسائل العهد الجديد القانونية . وقد بقي الناس عدة قرون
 معتقدين بصحة نسبة هذه الرسالة الى يوستينوس ايضاً غير ان ابحاث
 العلامة كورتوز -المذيعة اسفرت عن الحقيقة في هذا الشأن وهي ان
 كاتبها رجل اسمه ابروسيوس من اكابر بلاد اليونان كان قد اعتنق
 الدين المسيحي فاهاج ذلك عليه ذويه ووجوه وطنه . على ان اعتاب
 يوستينوس وامبروسيوس هذه لم تأت بفائدة تذكر فان الاول مات
 شهيداً في رومية بين سنتي ١٦٦ و ١٦٧ وكان قد استشهد قبله ببعض
 سنين مار بوليكاريوس في ازمير وبعد ذلك في سنة ١٧٧ أهلقت بلادنا
 ورفيقاتها في مدينة ليونس . هذا والظاهر ان يوستينوس لم يأت مصر
 الا مرة في حياته كابر طريق غير ان مدينة الاسكندرية لم تكن حينئذ
 في حاجة الى المزيد من مشاهير الاكاديمية والعلماء المسيحيين سواء كانوا
 هرطقة او من ابناء الكنيسة الجامعة بدليل ما ظهر من ثمرة اعمالهم
 في ذلك الحين باضمام كثيرين من اشراف الوثنيين وأكابرهم الى احضان
 الكنيسة المسيحية . فمن هؤلاء اثناعشر اسقفيه الفيلسوف الانثوي وكان
 يشغل وظيفة عالمية مهمة بالمتاحف الاسكندرية ويعتبر من اساطين الديانة
 الوثنية بالاسكندرية وكان كغيره من الفلاسفة الافلاطونيين كثير البحث

في امر الديانة المسيحية طمعاً في كشف اغلاطها واذهار فسادها فانكب على درسها باجتهاد عظيم وكانت النتيجة الطبيعية انه اعتنق الديانة المسيحية وقد استمر بعد ذلك على لبس رداء الفلسفه ولم يمتنع عن وظيفه التدريس بيد انه اصبح من اعظم انصار النصرانية وَاكْبَر المدافعين عنها . واما كتبه لهذا الغرض رسالة عنونها الى مرسقس اوريليوس وكو . ودس ويغان ان تاريخها بين سنتي ١٧٧ و ١٧٦ ب . م

ومن معاصرى أننانوراس في ذلك الوقت كاوديوس بطليموس العالم الجيوجرافى الشهير وكان ايضاً فلكيماً ماهراً تخرج من مدرسة الاسكندرية الرياضية ومن تاليه كتاب في الالحان الموسيقية وجدول يحتوى على ارصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة سابقة لعهده . وقد اتم معظم هذه الارصاد في بابل اشور وآكم بالاقرها في بابلون المصرية كما يظهر من اسماء اماكن خطوط الطول والعرض التي ذكرها

وبعد قمع ثورة اليهود التي حدثت سنة ١٣٥ ب . م استتب السلم وسد الماء وفأخذت الديانة المسيحية تمتد في مصر امتداداً عظيماً حتى كان من ذلك انه في اواخر هذا القرن تأسست المدرسة المسيحية الشهيرة المعروفة بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وان كان تاريخ افتتاحها واسم مديرها الاول لم يزال غير معروفين حق المعرفة . على انه من سوء الحظ ايضاً اننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ حكم مرسقس اوريليوس في مصر بل غایة

ما اتصل اليانا في سنة ١٧٢ ب. م جاهرت الجنود المصرية بالعصيان على القائد الروماني خاربهم الجنود الرومانية تحت قيادة افيفوس كاسيوس وبعد عدة وقائع عنيفة استظهر عليهم . ثم ان افيفوس هذا طمحت انتظاره بعد ذلك الى الامبراطورية فنادى بنفسه امبراطوراً سنة ١٧٥ فتأهب مصر اوريليوس الى قتاله وسار اليه بجيش اخر ولكن قبل وصوله الى مصر وردت اليه البشائر بان الجندي الروماني فيها قام على القائد المذكور وذبحه هو وابنه معناً بذلك عودته للطاعة والولاء . فاستمر مصر في سيره الى ان بلغ الاسكندرية فكث بها زمناً نال فيه من رضاء اهلها وثناء فلاسفتها وعلمائها ما لم ينله امبراطور قبله وذلك بحمله ودماثة اخلاقه . والظاهر انه في اثناء هذه الرحلة قدم لاناغوراس الى الامبراطور وسألته السالفة الذكر اما في اثينا او بالاسكندرية ولم نسمع بعد ذلك بحصول اضطهاد بصر في مدته مع ان الاضطهاد وقع في ليونس في السنة التالية

ثم اننا في السنة الاولى او الثانية من حكم الامبراطور كومودوس الذي اخلف اوريليوس على الملكة الرومانية نوى بنتينوس متقدماً رئاسة المدرسة اللاهوتية . والظاهر ان بنتينوس هذا ومعاصره اكييمنوس الاسكندري الذاعن الصيت كانا كلابها تلميذين لاناغوراس المار ذكره وكانا كباقي مسيحيي مصر الاولين متضلعين في علوم القدماء وحكمتهم كتضلعهما في كل الحقائق والمبادئ المسيحية الصحيحة . وكان

بطريرك الاسكندرية في ذلك الوقت انبأ يوليانيوس الذي تبوأ الكرسي البطريركي بعد اغريانيوس في سنة ١٧٩ ب.م وهي السنة الاخيره من ملك مرقس اوريليوس

ويروى في امر رسامته خلفه انه لما احسن يوليانيوس بدنو اجله ظهر له ملاك الرب في رؤيه او في حلم واعبره ان الرجل الذي يأتي بهديه من العنب في اليوم التالي يكون هو الذي اختاره الله خلفاً له على كرسي البطريركية . فلما كان الغد جاءه الرجل واذا به شاب لا علاقه له بالاكيروس مطلقاً بل هو فلاح مصرى امى متزوج وقد احضر معه عنباً من محصول كرمته . فلما قيل له انه انتخب ليكون بطريركاً توسل بضراعة ملتمساً اعفاءه من حمل هذه المسئولية المهاطلة فلم يلتفت الى طلبه وتمت رسالته بالقوة الجبرية على ما قيل . فلما رأى ذلك اخذ للحال في اجهاد جميع قواه توصلاً الى اصلاح نفائص تربيته الاولى ففتح الله عليه بشيء كثير من العلم والحكمة حتى اصبح من اعظم احبار ذلك العصر واستمر بطريركاً مدة ٣٤ عاماً حدثت فيها عددة حوادث مهمه . و اول عمل اتاه هو انه ارسل بنتينوس لنشر الدين المسيحي ببلاد الهند^(١) . وكانت قد اتته رسالة من تلك البلاد النائية ياتمسمون بها من بطريرك الاسكندرية (وهي اذ ذلك اشهر مدينة في العلم والفلسفة) ان يرسل اليهم معلماً للإيمان

(١) ليكن معلوماً عند المقاريء الكريم انه في القرن الثاني للمسيح كانت اكبر البلدان المتاخمة للهند تعرف بهذا الاسم . غير انه يظهر من عدة قرائن ان المقصود هنا بالهند هو الاقطار الهندية الحقيقية .

يعادل علمه تقواه . فعرض البطريرك ديمتريوس الامر على
 بنتينوس فقبله هذا بكل رغب وذهب بنفسه لمباشرة هذا العمل
 تاركاً لا كليمينضس رئاسة المدرسة اللاهوتية الى ان يعود هو اليها .
 قيل وقد وجد عند الهنود نسخة من انجيل متى باللغة العبرانية كانت
 موضوع اجلالهم وتعظيمهم ويقولون ان مار برثماوس هو الذي آتى
 بها الى اقطارهم الهندية ويظن مار جيروم ان بنتينوس جاء بهذه النسخة
 الى الاسكندرية . هذا ولم يعرف كم مقدار الزمن الذي صرفه بنتينوس
 في بلاد الهند لهذا الغرض وانما المعلوم انه حين رجوعه منها تولى رئاسة
 المدرسة اللاهوتية ثانية وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٩٤ ب . م على الارجح
 اذ انه من شهادة المؤرخين قد ادرك زمن ساويرس الامبراطور وهذا
 ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ ولكن لم يعش بعد سنة ١٩٤ المذكورة
 بدليل انه لما حدث الاضطهاد سنة ٢٠٣ كان اكليمينض حيئذ مستقلاً
 برئاسة المدرسة اللاهوتية منذ بضع سنوات
 ولقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة انتشار الديانة المسيحية
 لذاك العهد فدببت الغيرة في عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها .
 فكانت خزائن مكتبة الاسكندرية في ذلك الوقت تحتوي على نسخ
 من جميع مؤلفات اليونانيين والمصريين ومع ذلك كان السعي على قدم
 وساق في تكثير مجلداتها وزيادة التاليف الجديدة فيها تخصص قسم من
 النساخ لكتابة ما يملئ عليهم المؤلفون الاحياء واشتغل قسم آخر بنسخ

ما امكن العثور عليه من كتب المؤلفين وال فلاسفة الوثنيين الذين درجو بذلك
 يقصد تسهيل انتشارها حتى يطلع الطلاب عليها . وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ
 مبلغاً عظيماً حتى اصبحوا ابارة عن جيش صغير كانوا اتبعوا حالتهم وظيفتهم يقسمون
 الى قسمين هما ارباب القلم السريع لكتابات الاملاء وناسخو الكتب وكان ثلاثة
 من اعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين في ذلك الحين وهم اينيوس
 ويليوس بولوكس وكرون مصر بين مولودين بمدينه نوكرايس .
 وقد بقي من مؤلفات الاول كتاب واحد عنوانه «محادثات الفلاسفة»
 وفيه وصف شائق حالة الهيئة الاجتماعية في الاسكندرية لذلك العهد .
 اما يوليوس بولوكس فلم يكن الا من اهل النقد الشفاهي ولكن
 كرون صنف تاريخاً في ملوك مصر وكنته فقد برمته ولما يصلنا شيء
 منه لسوء الحظ . ومن الكتب المعروفين في عهد الامبراطور كومودوس
 لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات وكان سكرييراً او كاتب يد الوالي
 الروماني حينئذ . ومن الفلاسفة الوثنيين ايضاً شلسوس البيوري اشهر
 برسالة له ضد الديانة المسيحية التي عممت وزاد انتشارها اكثر من الدين
 الموسوي والديانة الوثنية الاصلية في مصر غير ان رسالته فقدت كثيراً
 ولم نعرف من محتوياتها الا ما جاء في رد اوريجانوس عليها . وقد كتبت
 في بحر تلك المدة عدة كتب اخرى في هذا الباب ولكن من الحقائق
 المقررة التي لا يشوبها ادنى دليل ان الديانة المسيحية فضلاً عن اجتنابها
 زمام العلماء في جميع أنحاء العالم المتقدم حينئذ وانقياد ثلاثة من اعظم

الرجال — هم ديمتريوس وبنتينوس وأكليمنطس — لا وامرها وخدمتها في مدينة الاسكندرية فقط فقد كانت آخذة في التغلب بسرعة غريبة على الاديان الاخرى في القطر المصري حتى انه لما كان بطريرك الاسكندرية هو الاسقف الوحيد في مصر لحد ذلك العهد رأى ديمتريوس حينئذ انه من الضروري تعيين ثلاثة اساقفة آخرين للاقاليم البعيدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية قطيع المؤمنين . ثم من اوضح الادلة على اضمحلال الديانة المصرية القديمة تلك المرائي المحزنة التي اشأها صاحب كتاب هرسوس الابكر اذ قال : —

« صحيح ان مصر هيكل الدنيا ومعبود الوجود ولكن لما كان من الواجب على الحكيم ان يتدبّر في مصير الامور ليعرف عوائقها وما تقتضي اليه فاعلم اذاً انه سيأتي وقت يظهر فيه للمصريين كأن عبادتهم وتقواهم قد ذهبت سدى وان ديانتهم المقدسة أصبحت لغوًّا اذ يرجع اللاهوت من الارض الى السماء وتصبح ارض مصر مهجورة وتنسى خالية من الدين والتقدّم بعد ان كانت مستقر الاوهية لأن البلاد متى أصبحت في قبضة الاجانب تهمل امور دينها وتتسن فيها الشرائع ضد التقوى والمتقين وتفرض القصاصات على المتدينين . فتensi هذه البلاد المقدسة ملائى بالعبادة الوثنية مشحونة بهياكل الاصنام وقبور الاموات . فواحسر اباه عليك يا مصر اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل ديانتك فلا يؤمن بها الا عقاب والخلاف وسيوف لا يدوم لك سوى

تالك القوش المحفورة على اعمدة مبانيك الشاهقة الفخيمة لتشهد باعمالك
البارة التقوية . سيرحتلك وآسفاه عليك قوم من الحثين او الهنود او آية
قبيلة اخرى متوجهة فيغادرك الاهوت الى السماء ويهرج الله والانسان
مصر . هلم فاسمع ما اقوله لك ايها النهر المقدس وع ما سأبئك
به مما سيحل بك . تمتليء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء حتى
يفيض على شطوطك ويصير عدد الاموات الذين تتبعهم أكثر من
عدد الاحياء والذي لا يبقى حيَا لا يعرف انه مصري الا بلغته فقط اذ تكون
اعماله كاعمال المتخوضين » اه

وفي ذلك الوقت شعرت الكنيسة بضرورة الشروع في ترجمة
حياة السيد المسيح الى اللغة المصرية المعروفة الآن باللغة القبطية وقد
تم لها ذلك غير ان هذا الانجيل الذي كان يناسب للمصريين ضاع
منذ زمان طويل حتى انه ليصعب الان معرفة اي الاناجيل الاربعة
كان هو بل قد اصبح من المرجح الان استدلالاً من بعض شذرات
وصلت اليانا باللغة اليونانية ان الانجيل المذكور لم يكن ترجمة وانما هو
مجموعة ادخل اليها شيء من العقائد المصرية القديمة بحيث اصبحت
لا يصح اعتبارها ولذا قرر اوريجانوس وجبريل انه من الكتابات
المزورة ومع ذلك فقد نشر هذا الكتاب حينئذ في البلاد بكل حرية
وبدون ادنى معارضة من تلك الكنيسة المسيحية المثقفة بالعلوم
والمعارف . على ان زمن السلام لم يدم طويلاً لتالك الكنيسة الفتية اذ

باغتها عاجلاً الاضطهاد الاول الذي حصل لامسيحيين في برا مصر

الفصل الرابع

* اوريجانوس . سنة ١٩٣ ب.م *

قانا فيما سبق انه في اوائل حكم الامبراطور ساويرس كان
ا كليمونضس الاسكندرى رئيساً للمدرسة اللاهوتية في الاسكندرية
(وانما عرف بالاسكندرى تميزاً له عن سميته اكليمونضس الروماني)
اما اسم هذا الرجل الشهير فهو تيطس فلافيوس اكليمونضس وفيه اشارة
الى وجود بعض الصلة بالعائلة الامبراطورية غير اننا لا نعرف شيئاً أكيداً
عن مولده وان كانت قد غلت عليه النسبة الى الاسكندرية . وقد ارتد
عن الديانة الوثنية بعد ان صرف بعض سنوات في السياحة والدرس والمطالعة
وتلمنذ بعد ذلك لبنيتوس وصار صديقه الحميم وقام مقامه مدة غيابه
ببلاد الهند في الرئاسة على المدرسة اللاهوتية وعین بعد موته رئيساً لها
وفي نحو ذلك الوقت ايضاً تمت رسامته كاهناً جريأاً على عادتهم في ان
هذه الرئاسة تكون لكافن وانما يستثنى من ذلك اوريجانوس الذي لم
يدرج في سلك الكهنوت الا بعد ان فصاله عن المدرسة المذكورة

اما شهرة اكليمنض فلم تتحصر في طول باعه في التعليم والتدریس فقط بل كان طائر الصيت جليل السمعة ايضاً بما كان له من التأليف والتصانیف المعنبرة وقد حفظ منها الى يومنا هذا خمسة مؤلفات عدّا عن عدد عظيم من بقایا كتب مختلفة. اما الحقيقة المظہمی التي كان هو من اول دعاتها وتفنن في اظهارها على جملة طرق واسالیب هي ان الدين المسيحي وارت الماضی وترجمان المستقبل . وانه ليس بنباء غریب في تاريخ الكون او مناقض للحوادث والأنباء السابقة بل هو اتمام كل اعلان او وحي او نبوة حصلت وتفسیر وايضاح لسلک كتاب أنزل ولكل قول او مبدأ نطقته به افواه العلماء والحكماء وارباب العقول الثاقبة سواء كانوا من اليهود او الامم او اليونان او المصريين . وكان اكليمنض لا يقتبس ادلته واستشهاداته على الدوام من العهدين القديم والجديد فقط بل من الاسفار الغير موحى بها ايضاً مثل سفر ابن شيراخ ويهودیت ومن الكتب المسيحية التي لا تمت بر من اجزاء الكتاب المقدس كرسائل برنابا ورسائل اكليمنض الروماني وعظات مار بطرس ورسائل هرمس المسماة بالراغي وانجيل العبرانيين . وكان يعتبر الكتابتين الاولتين متساوین للرسائل

القانونية

غير ان اوقات المهدئ والسكنينة لم تدم طويلاً في مصر بعد ان تمنعـت بها البلاد ببعين عاماً وهي المدة التي انقضت منذ عصيان اليهود الى بدء ظهور الاضطهادات ضد المسيحيين وفي خلالها كانت الديار

المصرية قد أصبحت برمتها تقريباً مسيحية فلما تولى الامبراطور ساويرس عرش السلطنة الرومانية وجه اهتمامه في بادئ الامر الى اخضاع الذين قاموا يزاحمونه من كل فج في ا أنحاء الامبراطورية وكان قليل العناية الى ذلك الوقت با مصر وشأنها مظهراً الميل والرضا نحو المسيحيين حتى انه كان يمتن منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه . ثم لا ندري ما السبب الذي حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذي كان أميل شعوب مملكته الى الدعة والسكينة وانما الذي نعلم انه ما لبث ان سحق شوكة الحوارج حتى اصدر امراً في سنة ٢٠٢ بـ ٠ م يحرم فيه على رعاياه الدخول في الديانة المسيحية او في الدين اليهودي في مستقبل الايام

وبعد اصدار هذا الامر قدم الامبراطور لزيارة بلاد مصر وتجول في ا أنحاءها حتى وصل مدينة طيبة جنوباً والظاهر ان ما شاهده هناك من استفحال سلطة الدين المسيحي وتمدن المسيحيين وكثرة عديدهم جعله يوجس خيفة منهم على السلطنة الرومانية نفسها فكان انه بعد وصوله مصر ازداد واضطهاد شدة وصرامة ولم يكف الا بعد رجوعه بمنتهي . وكان في مصر حينئذ وال اسمه ليتوس بذل غاية جهده في تنفيذ اوامر مولاه حتى عم واضطهاد في ا أنحاء القطر المصري كله الا ان الضربة القاسية اصابت الاسكندرية بنوع خاص لانها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية . ومع ان البطريرك ديمتريوس ظل ساكن الجاش ثابتاً في

مركزه الا انه أمر بايصاد المدرسة اللاهوتية موّقاً واعقب ذلك ان
 تشتت شمل التلامذة ولازموا بيوتهم وكذلك اكليمنضس اركن الى
 الفرار من هذه البلاد لكي يخلص نفسه من غائمة الاضطهاد ، وهاش
 ديمتريوس مدة بعد ذلك الا انه لم يتمكن من نشر مؤلفاته اثناء حياته
 فنشرت بعد نياحته . اما عن المدة التي عاشها بعد الاضطهاد وما تم له
 فيها وكيف مات فلا يعرف شيء عنها يستحق الذكر
 والذي يتضح قائمة اسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلاً
 جداً ولو انها لم تصل اليانا كاملة مع انه في الاضطهادات الاخرى لا
 تجد اكثراً من واحد او اثنين من اهم الشهداء . ومن الذين اشتهروا في
 هذا الاضطهاد فتاة اسمها بو تامينا التي تذكر كلما ذكرت غضاضة الشباب
 ونضارة الجمال وذاع صيتها الشدة ما قاسته من العذاب وذلك لكي
 يضطروها ان تنكر الديانة المسيحية وترتد عنها ولكنها بقيت متمسكة
 بiamها الوطيد الى ان اودعت لهب النار مع امها مارسلا . ولم ينته عمل
 هذه الصبية عند موتها بل ان ما اظهرته من الشجاعة والثبات في
 احتمال الآلام والعذاب اثر تأثيراً عميقاً في الضابط المكلف بتنفيذ الحكم
 عليها فلم يلبث بعد موتها ان سلم نفسه بارادته لاحكمومة كسيحي فازيلت
 رأسه من على جسمه وهذه احدى نتائج الایمان القويم الذي سيخلد
 ابو تامينا جليل الذكر وجميل الاثر . ومن اغرب ما نقله الراؤون
 بالاجماع ان النساء في مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن اعداً اليها

بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب . وبين الرجال الذين ذاقوا كأس هذا الاضطهاد كان ليونيدس الذي شهرته ذاعت لأنّه كان أبياً لأوريجانوس ولا يعرف عنه شيء بخلاف ذلك مع أن بعض المؤرخين قالوا أنه كان اسقفاً فإذا صح ذلك فقد يتحمل انه كان من ضمن الأئقة الذين عينهم ديمتريوس للإقليم إلا أنه كان متزوجاً وله سبعة بنين أكبرهم أوريجانوس الذي كان عمره بين ١٥ و ١٦ سنة عند ما أُلقي القبض على أبيه وكان هذا قد اشتهر قبله في الإسكندرية بأنه من النجّاب تلامذة مدرستها اللاهوتية واذ كاهم كما أنه تحلى أيضاً بصفات حسن السلوك ومتانة الإيمان حتى أصبح يشار إليه بالبان ولذا صار موضوع سرور والديه ومطعم انظار الله وذويه . ولما قبض على أبيه ليونيدس كان هو غائباً عن المنزل كما يظهر من قرائن الاحوال فلما آت وجّد أمّه وأخوته الصغار في يأس وقطوط شديدة وقد يمكن للفطن أن يتصور حاسات هذه الام التعيسة التي لم تكدر تنهي من سرد هذا الخبر المحزن لاوريجانوس حتى اعلن لاحال رغبته في تسليم نفسه للحكومة والالتحاق بابيه طمعاً في نوال مجد الاستشهاد ولكن دموع الشفقة والحنان التي كانت تحدّر من عينيها كالسيل المهر وتوسلاتها إليه ليعدل عن عزمها عاقداً برهة عما كان ينوّه خصوصاً وإن الشمس كانت قد مالت للمغيب ولما جن الظلام وثقل أوريجانوس بالنوم دخلت امه الاسيفه إلى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدتها عنه فصار حينئذ كسيجين

عندها لم تطلقه الا بعد ان وعدها وعدا ثابتا باز لا يتركها الا اذا دعته
 الضرورة الشديدة لذلك وعليه اطاع ابن عوامل قلب والدته فارسل
 جواباً لابيه المسجون يرجوه فيه ان لا يتاثر لذكر ابراهيم ولا يفكرون بهم
 او في مصير امورهم بل يصرف همه في ما يؤول اليه أمره الشخصي .
 وثبتت ان يوسا يبوس جمع مجموعة تحتوي على نيف ومائة مكتوب
 سطرتها يدا اوريجانوس في مثل هذه الظروف تشجيعاً للمضطهدين
 ولكن عبشت بها ايدي الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التي ذهبت
 طعاماً للنار مع المكاتب التي حرقـت في مصر وفلسطين
 اما عن ليونيدس ابي اوريجانوس فآخر خبر عنه ان قد قطعت
 رأسه وضمت املأـه جانب الحكومة . ولذا اصبح اوريجانوس صفر
 اليدين لا سنيد له وعلى عاته ام يـولـها وصبية ستة يـربـهم ولكن قـيـضـ
 الله له سيدة من ربات الثروة واليسار — لا يعرف اسمها — بذلت كل
 ما في وسعها لتدافع عن المسيحيين في الوقت الذي كانوا فيه يتراوحون
 بين عاملي الخوف والاضطراب في الاسكندرية . ويـستـدلـ منـ بـقاءـ
 اسم هذه السيدة في طي الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة
 انها لم تكن مسيحية ولكنها فتحت خزائـنـها وبيـتهاـ ليسـ لـاعـضاءـ الـكـنيـسةـ
 الـارـثـوذـوكـسـيةـ فقطـ بلـ وـلـهـراـطـقـةـ ايـضاـ سـوـاءـ فيـ مـصـرـ وـانـطاـكـيهـ
 وـظـلتـ نـارـ الـاضـطـهـادـ منـدـلـعـةـ بـضـعـ سـنـوـاتـ فيـ اـنـاءـهاـ لمـ يـصـبـ
 اـورـيجـانـوسـ بـسوـءـ وـسـبـ ذـلـكـ كـوـنـهـ اـشـهـرـ عـنـهـ اـنـهـ تـحـتـ كـنـفـ تـلـكـ

السيدة المشار إليها وذلك انه بعد استشهاد أبيه لم يبق في المكان الذي
اختبأ فيه طويلا بل خرج منه كا يخرج الاسد من عرينه وذهب
وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين صاقت بهم رحبات السجون
وكان يخدم كلّا منهم بقدر جهده منشطاً ايامهم ليظلوا على ايمانهم ثابتين
ولوجر لهم هذا كأس المنون . فسر البطريرك ديمتريوس من عمل هذا
الشاب الباسل وشجعه في الاستمرار على الدرس والمطالعة كما انه اوجد
له ايضاً تلامذة في اوقات الخطر هذه لتدريسيهم وكانت تصرف لهم
مرتباتهم من الاووال المخصصة لدار القراء والمعوزين . ومع ان
هؤلاء التلامذة لم يمكنهم الائتمام في المدرسة نفسها مبدئياً الا انه لم
يمض طویل زمان حتى التق كل تلامذتها حول هذا الشاب الذي صار
فيما بعد من نوابغ متخرجيها . وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة
الحالة التي كان عليها المصريون اثناء هذه الاضطهادات ولكن يظهر ان
احوالهم لم تكن على و Tingة واحدة بل كانت تختلف باختلاف الظروف ففي
بعض الاوقات كان المسيحيون يشعرون ويتشاجرون عند ما يلقى
القبض بجأة على الرجال والنساء منهم و يؤخذون على غرة من الاماكن
التي يقطنونها وكثيرون منهم يذبون عذاباً آليماً ثم يتجرعون كأس الحمام
في لحظة من الزمن وبعضهم يتكون في السجون حتى يصيّهم الضنى والنجول
وكأنوا احياءاناً يعاملون بعنجهى القسوة والصرامة كما يشاء المكلفوون بحراستهم
واحياناً يرافق بهم قليلاً فيسمح لهم بمقابلة اصدقائهم والت الكلام معهم بما يخفف

السجن ويزيل المهم نوعاً ييد ان مجرى الاعمال الاعتيادية كالبيع والشراء
 والرياضة وغيرها بقيت على ما هي عليه في الاسكندرية وكان المسيحيون
 يخطرون ذهاباً وجائمة بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى
 يجيء دورهم او ما الذي يحل بالمسجونين منهم . ولم يكونوا يستطيعون
 التفوه بخبر الاهمساً في الاذان فكان الواحد منهم يقول لصاحب « هل
 سمعت ان فلاناً قبض عليه سجن وقيل انه لا يعود يفلت » وكقول
 بعضهم « لقد اصبتنا بخسائر لا تقدر فما العمل » ولم يزل الامر كذلك
 حتى اختفى خبر الكثيرين واصبحت السجون مكتظة بهم حتى اذا لم
 يبق فيها مكان اعدم من فيها لا يجاد محل لغيرهم . كل هذا والبطرك
 الفلاح الشيخ ديمتريوس والشاب المذهب العالم اوريجانوس وكثيرون
 غيرها من اولي الشجاعة والایمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو
 الآخرين بكل ثبات وسكون جاش وكانوا ينتقلون من مكان
 الى آخر دون ان يجسر احد ويمد يده اليهم بسوء مع انهم كانوا
 محفوظين باخطار جمة . ولم يك طويلاً حتى القى القبض على خمسة من
 التلامذة الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على اوريجانوس وبعد
 ان قضوا اياماً مرة ذاقوا فيها من الاهانة القاسية والسجن الاليم ما تنوء
 تحته اجسام الرجال تجرعوا غصص المنون لأنهم رفضوا ان ينكروا
 ايمانهم بانفة وشهامة . وكان بين هؤلاء الشبان الخمسة بلوطارخوس وهو
 شقيق لتأيذ آخر اسمه هرقلس الذي فر من الذين امسكوه بطريقه

وقدر له ان يعيش حتى يكون رئيساً للمدرسة اللاهوتية ثم بطيريقاً للاسكندرية . وكان اوريجانوس مع بلوطارخوس عندما قبضوا عليه لانه كان صديقه فلم يتركه برهة بل ظل مراقباً له الى آخر لحظة من حياته فلما قدم بلوطارخوس للاعدام اندفع اوريجانوس كالسهم يخترق الجم المزدحم وتقدم نحو صديقه بلوطارخوس ليقبله قبلة الوداع الاخيرة وهو بين السيف والنطع بينما كان الرعاع المتجمرون هناك يضجعون ويصخبون طالبين القبض عليه ايضاً ورجمه بالحجارة ولكنـه نـكـنـ من الفرار فلم يقفوا له على أثر . اما باقي هؤلاء التلامذة الخمسة فهم ساويرس وقد أحرق بالنار وهيراكيديس وهرون وقد قطعت رأساهما وآخر اسمه ساويرس ذاق العذب الواناً قبل ان يريحه السيف منه

وبعد مضي ستين على هذه الصفة اضطر البطيريق ديمتريوس ان يعين اوريجانوس نهائياً رئيساً للمدرسة اللاهوتية التي كانت لا تزال مائمة تحت رئاسته منذما بدأ الاضطهاد . فهذا التعيين جعل اوريجانوس مبغوضاً جداً من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون اليه شذراً بعين ملؤها الكره والغيظ فاحس ديمتريوس بذلك وشعر بمقدار الخطير الذي يتحقق باوريجانوس ولذا وضع حراسة قوية لحمايةه من الاذى الذي كان يتظر ان يصييه من الاوباش الذين كانوا يقصدون القبض عليه في احد الشوارع لا ان تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية . قال يوسفيوس يصف الحالة التي كان فيها اوريجانوس « ان عوامل

الا ضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم و حتى القوم عليه اصبح شديداً
 حتى ان اهالي الاسكندرية عن بكرة ايام لم يستطعوا احتماله ولا الصبر
 على انتقاله من منزل الى آخر وجولاته في كل ناحية مرشدًا و مشجعاً
 الجم الفقير الذين هدأهم الى الاعان الصحيح والدين القويم » . ومن
 الغريب ان هؤلاء السنبلة الرعاع بدأء فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب
 المهم الذي سحرهم بأعماله بينما كان يستخف بهم كلام ليس ازدراه
 و سخريه بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سلس . قال ابيفانيوس
 انه في يوم ما امسك اولئك الزعاف اوريجانوس بينما كان سائراً في
 الطريق وحملوه بين ضميج القوم الى هيكل سيراً بيس الشاهق و اضطروه
 اضطراراً باه يضع القلنسوة ^(١) على رأسه والبسوه الحلة البيضاء (التونية)
 التي يلبسها كاهن هيكل سيراً بيس ومن ثم اخرجوه خارج الهيكل
 واصعدوه على قمة الطيارة الكبرى التي في اعلى السلم و حينئذ امروه ان
 يوزع سعف النخل على عبدة الاوثان الذين كانوا مجتمعين كالنجحول وهم
 يسخرون به ويصفقون له بالاكف من الاسف . فلم يتاخر اوريجانوس
 ان مد يده و اخذ اغصان النخل و قدمها لاشعب المتجمهر و صرخ بصوت
 كالرعد قائلاً « هلموا خذوا هذه الاغصان . لكن ليس برسم الاوثان .
 بل باسم رب يسوع المسيح خالق الانسان » — حفظاً ان هذا المنظر
 لمن اعظم المرايا سروراً لا يواطف الحية في مثل هاتيك الايام المظلمة

(١) هذه اشارة كان يلبسها الكهنة الوهنيون في تلك الايام وليس من خصائص المسيحيين

المضطربة — منظر ترى فيه ذلك الهيكل العظيم يناطح السحاب وحوله
 من الاسفل ردهة ملائكة باسافل القوم من كل جنس وطبقة وهم
 يضحكون ويصيحون بصوت كهzym البرق كما شاهد امثالهم في وقتنا
 الحاضر عند الاحتفال (بالمحمل) — ترى ايضاً طيارة السلم الشامخة مزدحمة
 بالوثنيين المترفين يحملون الاغصان المقدسة وفي وسطهم صورة ذلك
 الشاب الباسل كأنها القمر في ليلة حalkة وهناك ضوء الشمس يسطع
 على حلته الناصعة البياض فينعكس على تلك الاعين الشريرة فيبرها
 كما كان ينعكس فضله على افؤدتهم فيسحرها واوريجانوس وافق كالاسد
 يتسم عن ثغر نقى وبيده سعف النخل يشير به على هذا الشعب لينبههم
 الى الدعوة التي يدعوهم اليها وهي عبادة المسيح بدل سيرابيس . وكان
 صوته الجھوری يرن في الاذان وسكنون جاشه وثباته حيرا الاذهان
 اما اوريجانوس هذا فكان علامه دهره في حقائق الديانة المسيحية
 عند ما تقرر تعيينه رئيساً للمدرسة اللاهوتية كما انه كان متضلعًا في
 العلوم والمعارف التي شب على درسها واستيعابها . والذى اوصله الى
 هذه الدرجة من المعرفة والعلم هو انه قبل بدأته هذا الانطهاد درس
 كثيراً هو وجماعة من الشبان المسيحيين في المدرسة اللاهوتية درساً
 مدققاً ثم في المدرسة الوثنية التي كان يديرها مونيوس ساکوس من
 اشهر علماء الاسكندرية وكبار استاذتها . قال يوسيوس في هذا
 الصدد « ولما رأى اوريجانوس ان التلامذة الذين عهد اليه البطريرك

ديمتريوس امر تعليمهم قد اخذوا يزدادون ويكتاًرون ارتئى ان استمراره في درس العلوم الطبيعية والدروس الادبية لا يتلائم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أُسنـد إلـيه تعـليمـهم ولـذـا لم يـلـبـث ان ترك مدرسة الفلسفة الـوـثـنـيـةـ السـابـقـةـ الذـكـرـ وـاعـتـبرـهاـ عـدـيـةـ الجـدـوـيـ وـانـ درـوـسـهاـ سـحـابـةـ تـحـجـبـ الـاـنـوـارـ السـاطـعـةـ الـتـيـ يـأـخـذـهـاـ مـنـ عـلـمـ الـلاـهـوتـ»
 ولكنـهـ لمـ يـتـبعـ خـطـةـ الـاـفـرـاطـ وـالـتـفـرـيـطـ مـرـةـ وـاحـدـةـ بلـ بـقـيـ يـطـالـعـ ماـ سـطـرـهـ الـاـقـدـمـوـنـ مـنـ عـلـمـ الـمـفـيـدـةـ بـجـدـ مـتـوـاـصـلـ وـفـيـ هـذـهـ الـمـدـةـ اـخـذـ يـبـعـ كـلـ كـتـبـهـ الـمـدـرـسـيـةـ الـقـدـيمـةـ وـجـمـيعـ النـسـخـ الـتـيـ كـتـبـهـ بـيـدـهـ مـنـ مـكـتبـةـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـعـلـيـهـ اـتـفـقـ مـعـ رـجـلـ باـعـهـ هـذـهـ الـكـتـبـ الـوـثـنـيـةـ بـرـمـتـهـ عـلـىـ
 انـ يـدـفعـ لـهـ اـرـبـعـ بـارـاتـ^(١) يـوـمـيـاـلـيـقـتـاتـ بـهـاـ فـيـ حـيـاتـهـ .ـ فـهـذـاـ فـكـرـ كـاتـ
 مـبـدـاءـ خـطـةـ سـارـ عـلـيـهـ اوـرـيـجـانـوـسـ فـيـ مـاـ بـعـدـ قـاعـدـتـهـ الغـيـرـةـ الـرـوـحـيـةـ الـتـيـ
 تـسـوقـ الـاـنـكـارـ الـذـاتـ وـتـكـرـيـسـ الـنـفـسـ وـهـيـ خـطـةـ اـتـبـعـهـ اـكـثـرـ الـمـصـرـيـنـ
 الـمـتـدـيـنـ فـيـ هـاتـيـكـ الـاـيـامـ وـتـطـرـفـوـ فـيـهـاـ حـتـىـ حـرـمـوـاـ كـلـ بـحـثـ وـتـنـقـيـبـ
 فـيـ الـاـمـوـرـ الـعـالـمـيـةـ .ـ وـلـمـ كـانـ اوـرـيـجـانـوـسـ قـدـ اـشـتـهـرـ بـالـحـدـقـ وـالـتـوـاضـعـ
 وـرـقـةـ الـجـانـبـ فـلـمـ يـصـبـ بـتـلـكـ الـمـصـيـبـةـ الـتـيـ وـقـعـ فـيـهـاـ اـكـثـرـ الـاـتـقـيـاءـ مـنـ
 الـمـصـرـيـنـ وـهـيـ الـاـلـتـجـاءـ إـلـىـ الصـحـارـىـ وـالـقـفـارـ وـالـاـبـتـعـادـ عـنـ الـعـالـمـ بـحـجـةـ
 التـبـلـ وـالـزـهـدـ اوـ هـوـ مـوـتـ الـاـحـيـاءـ بـلـ انـ ذـكـاءـهـ وـمـوـاهـبـهـ السـامـيـةـ جـعـلـتـهـ
 مـفـيدـاـ اـكـثـرـ بـاـخـتـلاـطـهـ مـعـ الـآـخـرـينـ الـذـينـ هـمـ فـيـ حـاجـةـ إـلـيـهـ اـكـثـرـ مـنـ

(١) كانت الباردة عبارة عن قطعة نحاسية تساوي مليمين تقريباً

احتياج الدير له الا انه لم يبق كامل القوى بمعنى انه اسلم نفسه لعوامل
 الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطائه وندم على ما فعله من اذلال جسمه
 وود لو امكنه استرجاع قواه ولكن لم يفدى الندم ولم ينفع الاسف فظل
 ضعيفاً منهوكاً والذى يراجع تاريخه يعجب جداً من الطريقة التي اتبعها
 كما انه يعرف السبب الذى اضعفه واضنهانه في انه اجهد نفسه ليتم كل
 فرائض العهد الجديد واوامره حرفيأً حتى امتنع من اقتناه ثوبين معاً
 في وقت واحد وكان يسير حافياً شتاء وصيفاً وكان يأكل الخبز ويشرب
 الماء فقط ويأدم بيكول خضراء غير مطبخة اسوة بافقر فلاح مصرى
 وكيف عن درس الدروس الادبية والعلمية التي كانت اعظم ما تسر به
 نفسه ولم يزد حرفاً واحداً على الاصل في ترجمته لسفر من الاسفار
 المقدسة – كل هذا ولم يكن اوريجانوس الا شاباً في عقوبات الصبا
 وريان العمر تقاويم الشهوة الطبيعية فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه
 من يقاوم ارادته البشرية حتى انه لما كانت تضطربه واجباته في ايام الاضطهاد
 الى الدخول وسط العائلات وارشادها لطريق السداد ومناقشة الجنسين
 النسيط واللطيف ساعات متواتلة كان يتالم ويرتعب خوفاً من الوقوع
 في تجربة وقد ان يصد نفسه بعزم شديد عن اي عمل يوجب الخجل
 ولا رتاب متبيناً في ذلك نص ما ورد في الاصلاح التاسع عشر من
 انجيل متى

هذا ولو ذكر القارئ الكريم حالة البطريرك ديمتريوس عند ما

سمي بطيركاً وكيف انه جاء ليصلى لله لاجل زوجته ويقدم اكتنيسته
 تقدمة هي محصل كرمه وهو حينئذ رجل فلاح أمي وقد اختير لهذا
 المنصب الخطير - لو ذكر ذلك وعرف مقدار حبه لاوريجانوس ظهيره
 ونصيره لادرك ما استجوز على افكار هذا البطيريك من الحزن والقلق
 عند ما رأى هذا الشاب الغض قد سقط في وحدة الضعف والنحول
 لسبب زده وتقشهه خصوصاً لاغرافه وعمقه في مبدأ تكريس نفسه
 وانكار ذاته ولأنه لم يتبعه كبداء شخصي اختطه لنفسه بل قصد منه
 ان ينزع من فكر البطيريك ترشيحه لرتبة الكهنوية كما ترشح اكليمونس
 وبنينوس من قبله . ولم يكن لحد هذا الزمن قد سن قانون رسمي
 يعمل به في مسألة الرتب الكهنوية الا ان رأي الشعب العام كان له القول
 الفصل في هذا الامر لقوته وتنوره ولذا كان كل من وقع عليه الاختيار
 سيم للحال لاي رتبه كيما كانت درجته . زد على ذلك ان عمل اوريجانوس
 هذا خالف كل المخالفه قانون الملكه المدني التي تعتبره كقاتل نفس كما
 انه تقرر في الجمع النيقاوي ان كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل اي
 الزهد الزائد والنساك المفرط لحد الاضرار بنفسه « يقطع من الكهنوت »
 الا ان غلطة اوريجانوس هذه تعفر له لانه اعترف بها اعتراف المقر
 بذنبه الشاعر بثقل خطبته كما ورد ذلك في هامش رسالته التي سبقت
 الاشارة اليها

وقد استمر الاضطهاد السابق ذكره سبع سنوات لم يصب مسيحيو

رومية ضرر يذكر خصوصاً الذين كانوا منهم في خدمة ال بلاط الملكي
 ولعل سبب ذلك عدم وجود عصبية قوية لهم توجد التأثير المطلوب
 مع كثرة عديدهم واهمية مراكزهم ولذا لم يخش الامبراطور شره كـا
 كان يخـشى شـر المـصـريـن الذين كانوا في درجة عـظـيمـة من الثـروـة والـعـلم
 عـارـفـين تمامـاً المـعـرـفـة بما سـلـبـهـمـ منـ الشـهـرـةـ السـيـاسـيـةـ والـادـيـةـ ولاـ
 يـعـوـزـهـمـ لـلـايـقـاعـ بـعـمـلـكـتـهـ سـوـىـ رـبـاطـ مـتـيـنـ يـرـبـطـهـمـ مـعـاـ كـاـنـ يـكـونـ دـيـنـ
 وـاحـدـ كـالـدـيـنـ مـسـيـحـيـ وـلـذـاـ كـانـ القـصـدـ مـحـوـ آـثـارـهـ فـيـ قـرـطـجـنـةـ وـانـطاـكـيـةـ
 وـفـيـ باـقـيـ الـاقـالـيمـ الـمـصـرـيـةـ اـمـاـ رـوـمـيـةـ عـاصـمـةـ الـمـلـكـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـتـ حـمـيـ
 الـجـيـشـ وـالـحـكـوـمـةـ فـلـمـ يـكـوـنـواـ يـهـتـمـونـ بـاـصـرـهـ كـثـيرـاـ وـقـدـ يـغـلـبـ عـلـىـ الـظـنـ
 انـ اوـرـيـجـانـوـسـ زـارـ كـنـيـسـةـ رـوـمـيـةـ رـبـيـةـ الـكـنـيـسـةـ الـمـصـرـيـةـ وـذـلـكـ اـنـاءـ
 مـدـةـ هـذـاـ اـضـطـهـادـ وـبـعـدـ عـودـتـهـ اوـ رـبـماـ قـبـلـ سـفـرـهـ كـانـ قـدـ اـشـرـكـ مـعـهـ
 هـرـاـكـلاـسـ زـمـيلـهـ فـيـ التـلـمـذـةـ فـيـ تـدـيـرـ مـهـامـ الـمـدـرـسـةـ الـلـاـهـوـتـيـةـ يـيـنـاـ كـانـ
 هـذـاـ قـدـسـيـمـ كـاهـنـاـ .ـ وـفـيـ هـذـاـ الـوقـتـ اـيـضاـ اـنـكـبـ اوـرـيـجـانـوـسـ عـلـىـ
 تـعـلـمـ الـلـغـةـ الـعـبـرـانـيـةـ وـذـلـكـ لـيـؤـهـلـ نـفـسـهـ إـلـىـ تـرـجـمـةـ الـكـتـبـ الـمـقـدـسـةـ إـلـىـ
 سـتـ لـغـاتـ وـهـوـ عـمـلـ يـعـدـ مـنـ اـهـمـ الـاعـمـالـ الـخـطـيرـةـ الـتـيـ عـمـلـهـ اوـرـيـجـانـوـسـ
 فـيـ حـيـاتـهـ وـلـوـ اـنـ هـذـهـ تـرـجـمـةـ لـمـ تـنـشـرـ إـلـاـ بـعـدـ وـفـاتـهـ بـسـنـيـنـ قـلـيـلـةـ .ـ
 وـكـانـ حـجمـ هـذـهـ التـوـرـاـةـ الـمـتـرـجـمـةـ يـسـاـوـيـ سـتـ اـضـعـافـ حـجمـ التـوـرـاـةـ
 الـاـصـلـيـةـ مـرـتـبـةـ فـيـ جـداـولـ مـتـوـازـيـةـ فـيـ الـاـوـلـ مـنـهـاـ النـصـ الـعـبـرـانـيـ

الاصلی وفي الثاني النص اليوناني وفي الثالث ترجمة اکویلا^(١) وفي الرابع ترجمة سیماخوس وهو مسيحي عاش في مدة مرسقس او ريليوس او ساویرس کا يظن البعض وكان مسكنه فلسطين حينما يحتمل انه انم هذه الترجمة المنسوبة اليه وقد يمكن ان اوریجانوس كان عارفاً بترجمة سیماخوس قبل ان يعثر على النسخة التي قال بلاديوس ان اوریجانوس كتب عليها بخط يده هذه العبارة « قد وجدت هذه النسخة في بيت يوليانا العذراء في قيصرية بينما كنت مختبئاً هناك وقد قالت لي يوليانا انها اخذتها من يد سیماخوس مترجم اليهود » . اما الجدول الخامس فكان يحتوي على الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية وال السادس على ترجمة يودوشن الافسيي كتبها نحو سنة ١٨٠ ب.م وقد قال عنه ايرينوس انه كان وثنياً واعتنق الديانة المسيحية ولم يترجم سوى العهد القديم فقط ويحتمل انه اهمل صرافي ارميا الا ان هذه الترجمة قورنت مع نسخ عديدة متنوعة مكتوبة بخط اليد قال عنها يوسيبيوس ان اوریجانوس بحث عنها ونقب في مخابيء قديمة حتى وجد لها مطمورة فاخرجها بعد ان صرت عليها ايام كثيرة . ولما لم يهتد اوریجانوس الى معرفة اسم المؤلف لهذه النسخة نوه في حاشية منها بأنه وجدتها في نيكوبوليس بالقرب من اكتيوم کا انه وجد هذه الترجمة الاخيرة في مكان مثل هذا . اما ترجمة المزامير في هذه التوراة فكانت تحتوي على الاربعة جداول الاولى ثم اضيف اليها ثلاثة ايضا

(١) هو من بنطس كان يشتغل في اعمال متنوعة في ایام ادریانوس وقد اعتنق الديانة اليهودية او الديانة المسيحية على قول البعض

فاصبحت المزامير مترجمة الى سبع لغات واحد هذه الجداول الثلاثة قيل
 انه اكتشف باريمحا في مرجل وذلك في مدة كارا كلّا ابن ساويرس
 وهذه الترجمة الشهيرة التي كتبها او يجانوس قد عبّث بها ايدي
 الضياع كما لعبت في غيرها من المؤلفات الثمينة ولم يبق لها اثر ولكن
 الجدول المأْخوذ من الترجمة السبعينية كان قد نسخ صورة منه من الاصل
 الذي كان محفوظاً في قيصرية في ایام يوسيبيوس وبامفليوس وعرضت
 هذه النسخة ليقراءها من شاء . وفي القرن السابع قام بولس اسقف
 بلاً وترجم نسخة الترجمة السبعينية الى اللغة السريانية وظلت نسخة من
 هذه الترجمة محفوظة في ديرفي وادي النطرون أكثر من الف سنة وهي
 الآن موجودة في المتحف البريطاني ولكنها غير كاملة
 هنا اخذ او يجانوس يشعر بخطائه الذي ارتكبه في قع جسده
 وعقله وهو شعور ازداد معه عندما اخذ على عاتقه اتمام العمل المار
 ذكره الذي يحتاج لعقل سليم في جسم غير سقيم ولذا عول على اصلاح
 غلطته هذه بقدر استطاعته ولكن لم تعد تجدي الوسائل نفعاً لم يكن في
 طوفه استرجاع نضارة شبابه التي اضاعها بزقه وتهوره ولكنه افرغ قواه
 في اعادة غضاضة عقله ان لم يقدر على جسمه وذلك بمعاودته درس المؤلفات
 العلمية والادبية . فلما عمل هذا اصبح عرضة لللوم وتقرير الجهلاء وسخيفي
 العقول ولذا اضطر ان ييريء نفسه ويناض عن مبادئه وهكذا شذرة
 من رسالة له في هذا المعنى قال فيها : -

«لما كنت قد كرست نفسي خدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صبتي في الآفاق
نظرًا لبراءتي واقتداري وكثيراً ما كنت مغضداً للهراطقة واهل البدع الذين
يحيشون لزياراتي والبحث معي وكنت مرموقاً بجهازه من المقربين بالعلوم اليونانية
خصوصاً المتعقدين في الفلسفة - قصدت أن الخص افكار الهراطقة وامتحن تأليف
الفلسفه الذين أحياهناً يتحققون بحقائق مهمه وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس
الذى افاد الكثرين قبل ان اوجدهانا ولم تكن معارفه قاصرة على هذا الحد كما
انني ففوت آثار هراكلاس الذى كان عضواً في جمع الاسكندرية وقد علمت
انه واطب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفه قبل ان ابتدئ أنا في استيعاب
هذه العلوم»

وقد كتب غريغوري ثومترغس وهو من أشهر تلامذة اوريجانوس
كتاباً على نسق ما كتبه استاذه وهذا نصه :

«لم يحرم علينا البحث في اي موضوع ولا استعصى علينا علم ولا حفي عننا
أمر وقد أيد لنا الوقوف على سر كل تعلم سواء كان لامتوحشين او اليونان ومعرفة
غواصي الأمور روحية وجسدية الهمة او بشرية . وقد استقصينا بحرية كل
أنواع العلوم ومتمنا انفسنا بكل المسرات الجائزة التي تميل لها النفس الشريفة »
ولم يكتفى اوريجانوس بترجمة التوراة الى ست لغات بل في الوقت
نفسه وضع ايضاً شرحاً طويلاً لاسفار التوراة ضاع اكثره من زمن
مدید مع انه كان متداولاً في أيام يوسيوس . فهذا هو اوريجانوس
الذي يعد بين الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية في الاعصر
الاولى حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الافق فكان يأتي اليه الناس
افواجاً من كل فج عميق وترسل الامم في طلبه ليرشدها الى طريق
الخلاص خصوصاً لما عرف عنه «من الفرح في وقت الشدائـد والابهـاج

بالعذاب والآلام وكان من أهم اعماله ثلاث ارساليات أنفذت إلى بلاد العرب كل على حدتها وقد ذكرها يوسيبيوس في تاريخه . ولا بد أن يتذكر القارئ أن بلاد العرب كانت في ذلك العهد أشبه ببلاد الهند حيث نجد التي صربك وصفها في أنها كانت عبارة عن بلاد واسعة الارجاء لا يعرف عنها شيء . أما مدينة البصرة التي كانت بمثابة واحة في صحراء سورية وهي تسمى الآن حوران على مسيرة أربعة أيام شمالاً إلى دمشق وأول ارسالية من الارساليات الثلاث التي أنفذها أوريجانوس كانت بين سنة ٢٠٣ - ٢١٥ ب . م وسبب ارسالها هو أن حاكم بلاد العرب أرسل جوباتا إلى والي مصر وبطريق الإسكندرية يطلب فيها إرسال الرجل المسمى أوريجانوس بدون تخير وذلك لكي يشرح له تعاليم الديانة المسيحية ويرشه إلى طريق الخلاص . وقد يبعد على الفن كثيراً أن حاكماً يرسل حاكماً آخر ارسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحي بينما كان الاضطهاد مستمراً والفرض منه إبادة هذا الدين وأضمحلاته . وكما أن المدوس لم يدم طويلاً للمسيحيين كذلك الاضطهاد أيضاً كف سنة ٢١١ ب . م عند موت ساويرس فبدأ مسيحيو مصر يذوقون لذة الراحة خصوصاً عند جلوس ابنه كارا كلا الذي كان ميناً للمسيحيين لما شب عليه من العلم والتهدیب وهذا الذي مكن أوريجانوس من إتخاذ أول ارسالية لبلاد العرب بين سنتي ٢١٢ و ٢١٣ ب . م ولما سار أوريجانوس قاصداً بلاد العرب وكل ادارة المدرسة اللاهوتية لعهدة

هر اكلاس ولم تطل غيابته كثيراً عن مصر وذلك لأنه عين شخصاً اسمه
 بيرلوس اسقفاً لابصرة وكان البطريرك ديمتريوس قد سامه رئيساً لهذه
 الارسالية . اما عدم بقاء اوريجانوس زمناً طويلاً في بلاد العرب فهو
 الضيق وفته وكثرة اشغاله فضلاً عن ان البطريرك ديمتريوس لم يسند
 اليه مركز الرئاسة على هذه الارسالية وهي وظيفة لا تعطى الا للذكينة
 واريجانوس لم يكن منهم مع ما اشتهر به من العلم والفضل
 اما الامبراطور كاراكلا فكان رجلاً مستشرقاً و هو وصف ينطبق
 عليه تماماً ذلك لأن اباه كان خليطاً من اوروبي وافريقيه وامه كانت
 امرأة سودية الجنس وكان الخلط والتباين في اصله اوجداً خلطاً وتبايناً
 في صفاتيه وطبعاه التي كانت تختلف من مكر وخداع الى لطف وملائنة
 الى همجية وقسوة حتى ان الصفة الاخيرة هذه تغلبت عليه مررة قتله
 الاخاه على مرآى من امه وذلك بعد ان رقيا عرش المملكة بسنة واحدة
 وهذا ليس بغريب في الطبع البشري ان يتغلب شيطان الشر على ملاك
 الخير ما دام الانسان مستسلماً لعوامل ارادته الفاسدة . وقد خطر على
 يمال كاراكلا ان يعمل على زيادة دخله فغير النظام الذي كان يسير عليه
 مسيحيو مصر فيما يختص بتأدية الجزية وابدلها بنظام آخر ضرب فيه
 ضريبة على نزلاء الرومانيين الذين طال زمن استيطانهم لمصر ولكنه
 أُغنى منها المهاجرين والارقاء وضاعفها على المصريين باجمعهم دون ان
 يستثنى منهم احداً وعليه ضجر هؤلاء من هذا الظلم الجديد وشاركتهم

في تذمرهم جماعة القرطجنيين والسورين فعقدوا الخناصر على تغيير هذه الحال والمطالبة بالعدل واتفاقا على رأي يسيرون عليه . وكان بين القوانين المعهود بها حينئذ قانون يقضي على المسيحي الذي يعرف عنه انه قاوم الحكومة في امر ما بالصلب او بطرده للوحش الضاريه فتمزقه ارباً هذا ان لم يكن عبداً ذليلاً فيكتفى ببعوديته وذله . وكان التزيل الروماني عرضة لمثل هذه العذابات المفروضة على المسيحي المصري اذا قاوم الحكومة الا ان نهايتهما لم تكن واحدة . فان الاول يقتصر قصاصه على العذاب فقط ثم يعفى عنه اما الثاني فيبعد هذا العذاب يدوق كاس الحمام بحد الحسام

وقد مر بك ان اهالي الاسكندرية سواء كانوا مسيحيين اووثنيين كانوا يزدرون حكامهم ولا يهتمون بالامبراطرة مطلقاً حتى كثيراً ما لقبوهم بالقاب الهزء والسخرية واطلقوا على القياصرة انفسهم اسماء مستعارة تضحك الشكلي ونال كارا كللا حظاً وفيما من هذا السخر حتى تضايق جداً وود لو قدر ان يقابلهم بالاحتقار وعدم الاهتمام الا ان هذا الازدراء انركثيراً في احسائه فبات يرقب فرصة فيها لينتقم من الذين حقروه واهانوه . وحدث في سنة ٢١٥ ب. م بينما كان كارا كللا في سوريا اعلن رغبته في زيارة الاسكندرية ولم يكدر يبلغ هذا الخبر مسامع سكانها حتى قاموا يستعدون لمقابلته باحتفال عظيم وذلك اقراراً بفضله عليهم بمنع الاضطهاد عنهم وكأنهم تناسوا ايضاً قوارص الكلام

الذى رموه به عند قتله اخيه وارتكابه لجرائم اخرى ثم قصدوا من الجهة الاخرى اقامة احتفالات مضى عليهم وقت طويل وهم محرومون منها وعليه تقاطرت الجموع الى الاسكندرية حتى ضاقت بهم على سعتها وذلك لكي يشهدوا بذلك العيد العظيم ويحيوا الامبراطور عند مجيئه بنداء التكريم

وكان كراكلا يستصحب معه ثلتين من العساكر احدهما من مكدونية والثانية من اسبرطة حرس له فقصد عند زيارته مصر ان يشرف الاسكندرية وهي اشهر مدينة في هذه الديار بان يتخذ له منها كتيبة من الجنود ضمن حرسه الخصوصي فسر الاسكندريون بهذه الملة سروراً كبيراً وقابلوا هذا الفكر بزيادة الفرح والابتهاج . فلما جاء اليوم المعين لاتمام هذا الغرض وفدى الوف من الشبان واجتمعوا في ردهة واسعة خارج المدينة واصطفوا فيها صفوفاً حتى يسهل على الامبراطور اتفقادهم وانتخاب من يليق منهم قبل ان ينتظموا في سلك الجنديه ويحملوا الاسلحة . وكان لذلك يوم مشهوداً ازدحم فيه اقارب اولئك الفتیان واصحابهم فرحاً متهاللين وهم وقوف في ضوء شمس سطع نورها تحت قبة زرقاء رق اديمها وغضبه من ذلك مشاهدة هذا الاستعراض وتهشة من يحوز الفخر والشرف بانضمامه للحرس الامبراطوري . وكان الجيش المنظم الذي جاء مع الامبراطور مصفطاً على شكل دائرة حول ساحة الاستعراض وكان الامبراطور مع حرسه واركان حربه يتقد

صفواف المتطوعين والشعب يقابلها باصوات الاستحسان وعبارات الدعا
 والأكرام . ولم يكن كلح البصر حتى خرج الامبراطور خارج الصفواف
 وأشار اشارة اتفق عليها مع اولئك العساكر الادنياء الخالبين من الرحمة
 والخنان الذين كانوا عالمين قبل ابان مولاهم سيعهد اليهم اليوم اتمام مذبحه
 هائلة تшиб لها النواصي وعليه جردو احرابهم وسيوفهم وانقضوا على
 هذا الجموع الاعزل من كل سلاح كما ينقض الباشق على عصفور صغير
 وأعملوا فيهم مرهفات الصوارم وزرق الانياب حتى انقلبت اصوات
 الفرح والحان الموسيقى الى صراغ الحنق والقنوط وعویل الحزن والموت
 وذبح اولئك الشبان ذبحاً وجزت رؤوس اقاربهم وأصحابهم جزاً وسال
 الدم يجري كالفسران والذين لم يتباهم السيف طرحوا في لحج البحر
 وصاروا طعاماً للأسماك . قيل ان ماء النيل الذي يصب في البحر المتوسط
 امتهن بدماء المذبوحين امتزاجاً حتى صار احمر كابقى ولم ينج من كل
 ذلك الجموع الهائل سوى رجل او رجلين فرا هاربين وبلغا الى المدينة
 والقيا الرعب والحزن في قلوب أهلها بهذه الاخبار التي ينفطر منها
 القواد وبات القوم في خوف وجزع مما يتظر ان يحمل بهم فيما بعد وظن
 الكثيرون ان هذا العمل كان مقدمة فقط لاضطهاد يهول لا يقى ولا
 يذر وظلوا يتربكون هجوم الجيش على الاسكندرية فتدمرها وبنوا
 خطهم هذا على امر اصدره الامبراطور بارفاض الجمعيات العلمية التي كان
 يعتبرها كسد يحول دون تنفيذ انتقامه . ولما رسم هذا الفكر في اذهان

الناس اسرعوا بالفرار من المدينة لا يلؤون على شيء . وقد ذكر يوسيبيوس هذه الحادثة بقوله أنها حرب عوان انتسبت في المدينة ولكنها لم يذكر اسم كاراكلا ولا علاقته بهذه الحرب وقد أشار أيضاً إلى هروب الناس من المدينة وذكر أن اوريحانوس كان ضمن الفارين ذلك لأنه ادرك أن بقاءه في مصر خطر على حياته فجاء إلى فلسطين وأقام في قيصرية . أما البطريخ ديتريوس وهراكلاس فظلوا في الاسكندرية وبواسطتهما ظهر للمسيحيين أن غضب الامبراطور لم يكن موجهاً لهم خاصة بل جموع السكان على اختلاف اديانهم وان انتقامه لم ينته عند هذا الحد بعد بل بدأ يتعمّم من الاسكندرية انتقاماً اديياً بان أصدر أوامر بابطال الالعاب العمومية وعدم صرف مرتبتات من الحنطة للوطنيين . وشاد معاقل وحصوناً بين المدينة الاصلية وبين الحي الذي فيه قصر الامبراطرة المدعو بروхиوم وذلك لكي يكون في مأمن من الثورات والعصيان . ولم يكتف بذلك بل سعى في احياء رميم الديانة المصرية القديمة وبني هيكلًا للاله ايزيس في رومية . وقد قصر مدة اقامته في الاسكندرية بعد ذلك فلم يكث بها طويلاً بل قفل راجماً إلى رومية حيث هجم عليه مكرينيوس واوردته حتفه بعد هذه الحادثة المريرة بستين « ولا ظالم الا ويلى باظلم »

اما اوريحانوس الذي عرفت انه هرب لفلسطين وأقام بقيصرية فقد قوبل فيها بمزيد الحفاؤة والاكرام كما يليق بفاضل مثله وعلت

منزلته في اعين علماء هاتيك البلاد حتى عهدوا اليه القاء دروس ادبية
 علمية في بحر الاسبوع ثم طلب منه اسكندر اسقف اورشليم — وهو
 رفيق اوريجانوس في التلمذة — وثيوسيستوس اسقف قيصرية ان
 يعظ جهاراً في كنائسها . فلما بلغ هذا الخبر مسامع ديمتريوس بطريرك
 الاسكندرية كتب يعترض على الاسقفيين المذكورين سماحهما الرجل
 عالماني الوعظ في الكنائس جهاراً وهو عمل لا يجوز الا للكهنة فقط
 ويحرم على من عدتهم حتى اوريجانوس نفسه . فلم يسكت الاسقفاً
 على هذا الاعتراض بل رد عليه ولكن بلهجة معتدله وكلام يدل على
 مقدار احترامهما لهذا البطريرك واستشهاداً على عملهما هذا بما اجراه
 السلف الصالح الا ان البطريرك ديمتريوس الشديد العارضة لم يقتنع بهذا
 الرد بل عاد فانفذ شمامسة من الكنيسة المصرية يحملون رسائل
 لاوريجانوس نفسه يحرضه فيها على الكف عن هذه الاعمال التي تناهى
 قانون الكنيسة وطلب اليه ان يعود الى الاسكندرية ليمارس عمله
 فيها لان المياه عادت الي مجاريها واصبحت الاحوال في هدوء سكينة .
 فبناء على ما جبل عليه اوريجانوس من الطاعة والتواضع وهي اعظم حليمة
 تحلى بها رضخ لاشارة رئيسه وعاد لاسكندرية على جناح السرعة
 اما مكرينيوس الذي اغال حياة كاراكلا فلم يملک سوى شهرين
 فقط سمي نفسه فيما والي مصر وعين صديقاً له اسمه باسيليانوس مع
 آخر اسمه مرقس سكندوس لينوباعنه في حكم مصر . ومرقس سكندوس

هذا هو اول عضو في مجلس النواب ناب عن والي مصر
 ولم يكن لـكارا كلـا عقب يخلفه على سرير الملكة الا ان خالتـه
 يولياموسـا وهي فـيـقـيـة الـاـصـل كان لها بـنـتـان ولـدت كلـمـنـها ولـدـاًـ
 فـهـؤـلـاء النـسـاء الـثـلـاث وـهـنـ يـولـيـامـوـسـاـ وـيـولـيـاسـوـمـيـاـ وـيـولـيـامـاـمـيـاـ كـنـ
 مـوـجـودـاتـ فـيـ الـبـلـاطـ الـرـوـمـانـيـ اـثـنـانـ وـجـوـدـ كـارـاـكـلاـ فـيـ عـالـمـ الـوـجـوـدـ وـلـكـنـ
 بـعـدـ موـتـهـ اـضـطـرـرـنـ اـنـ يـلـجـأـنـ اـلـىـ سـوـرـيـاـ حـيـثـ دـبـرـنـ مـكـيـدـةـ مـحـبـوـكـهـ
 الـاـطـرـافـ قـصـدـنـ بـهـ اـسـتـرـدـادـ السـلـطـةـ الـتـيـ سـلـبـهـاـ مـكـرـيـنـوـسـ قـاتـلـ كـارـاـكـلاـ
 مـنـ اـيـدـيـهـنـ وـعـلـيـهـ اـشـاعـتـ يـولـيـاسـوـمـيـاـ اـنـ كـارـاـكـلاـ هـوـ الـآـبـ الشـرـعـيـ
 لـاـبـنـهـ الـذـيـ كـانـ لـهـ سـتـةـ اـسـمـاءـ مـعـاـ وـلـكـنـهـ كـانـ كـفـيـرـهـ مـنـ سـالـفـيـهـ يـعـرـفـ
 يـاسـمـ وـاحـدـهـوـ لـقـبـ يـلـقـبـ بـهـ وـهـوـ هـلـيـوـ جـاـبـلوـسـ نـسـبـةـ اـلـىـ دـيـانـتـهـ السـوـرـيـةـ
 الـتـيـ يـشـتـقـ هـذـاـ لـقـبـ مـنـهـاـ وـقـدـ سـاعـدـ عـلـىـ اـتـحـامـ هـذـهـ الـحـيـلـةـ اـنـ جـيـوشـ الـرـوـمـانـيـةـ
 الـتـيـ كـانـتـ مـعـسـكـرـةـ فـيـ سـوـدـيـاـ بـاـيـعـتـ هـذـاـ الصـبـيـ الـاـمـبـراـطـورـيـةـ وـاقـبـلـوـهـ مـعـ اـمـهـ
 وـجـدـتـهـ بـكـلـ تـرـحـابـ وـاـكـرـامـ وـاـنـزـلـوـهـمـ فـيـ مـعـسـكـرـهـمـ مـنـزـلـاًـ رـحـيـاًـ فـبـدـاءـتـ
 حـيـثـنـدـ حـرـبـ سـجـالـ بـيـنـ اـنـصـارـ مـكـرـيـنـوـسـ وـهـلـيـوـ جـاـبـلوـسـ كـانـ الفـوزـ
 فـيـهـاـ لـهـذـاـ الـذـيـ اـسـتـوـلـىـ عـلـىـ الـمـلـكـ وـاـصـبـحـتـ السـلـطـةـ فـيـ يـدـهـ . اـمـاـ الـحـالـةـ
 فـيـ الـاـسـكـنـدـرـيـةـ فـكـانـتـ عـلـىـ غـيـرـ ماـ يـرـامـ اـذـ ظـلـ السـلـامـ مـفـقـوـدـاـ مـنـهـاـ
 بـماـ كـانـ بـثـيـرـهـ اـعـدـاءـ الـمـسـيـحـيـينـ مـنـ الـخـصـامـ وـالـعـرـاـكـ حـتـىـ فـيـ وـسـطـ
 شـوـارـعـ الـمـدـيـنـةـ اـلـىـ اـنـ قـتـلـ مـكـرـيـنـوـسـ سـكـنـدـوـسـ كـاـمـرـ وـفـرـ وـالـيـ مـصـرـ
 الـذـيـ كـانـ نـائـبـاـ عـنـهـ تـارـكـاـ الدـارـ تـنـيـ منـ بـنـاـهـاـ

وحكم هليوجابلوس اربع سنوات كانت كلها شؤماً ونحساً على المملكة الرومانية خاصة اما مصر فقد تعمت بشيء من السلم والامن خصوصاً في الثلاث سنوات الاخيرة من حكمه واستفاد اوريجانوس كثيراً من هذه السكينة اذ اخذ يمارس التدريس والتأليف بعزم ماضية وجد متواصل وكذلك البطريرك ديمتريوس الذي لم يبرح مركزه يوماً واحداً حتى في اشد ايام الاضطراب بدأ يزاول اعمال الكنيسة بهمة علياً ونشاط غريب . واستفاد الوثنيون ايضاً من هذا السلام اذ اخذت مدرستهم الجديد التي اسسها امونيوس سكاس^(١) لتدريس الفلسفة اليونانية تنمو وتترعرع . وفي هذه المدة ايضاً تعرف اوريجانوس برجلاً من ارباب الثروة والنفوذ اسمه امبروز الاسكندرى وهو ليس اسكندرياً حقيقة – والا لكننا عرفنا شيئاً عنه قبل أوبته اوريجانوس من فلسطين بناء على شهرته الواسعة – بل يحتمل انه كان احد الاصدقاء الذين اصطفاهم اوريجانوس في فلسطين . فهذه الصداقة التي كانت بين اوريجانوس وامبروز وظلت متباعدة العرى لحد موته اثرت تأثيراً يذكر بالشكر في حياة اوريجانوس ذلك ان امبروز كان تابعاً لشيعة من اهل البدع والهرطقة فاقنعه اوريجانوس بترك الافكار السخيفية واكتسبه ضمن اعضاء الكنيسة المستقيمة الرأي وقد افاده امبروز ايضاً

(١) قد اتفق جميع المؤرخين على ان امونيوس سكاس هذا هو الذي اسس مدرسة الاسكندرية الونية لتعلم الفلسفة الافلاطونية وان بطليموس ولوبيجنس الوثنيين واوريجانوس وهراكلاس المسيحيين وكثرين غيرهم كانوا من تلامذته الا ان الآراء اختلفت فيما اذا كان امونيوس سكاس قد اعتنق الديانة المسيحية ام لا

بان حثه على تأليف أكثر الكتب التي الفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية
 وذلك بان اوجد له فرقه من الناسخين الذين يكتبون الخط المختزل
 ومن الذين ينسخون الكتب بالطريقة المعروفة وكان بين جماعة الكاتبين
 هذه عدد من الفتيات اتخذن هذه الصناعة مهنة لهم للافادة والاستفادة
 وحدث في سنة ٢٢٢ بـ ٠ م ان الجيش الروماني ضجر من معاملة
 هليو جابلوس الشاب معاملة تدل على القسوة والوحشية ضد هذا الجيش
 الذي مال بكليته الى اسكندر ساويرس ابن يولياما ميا خالة هليو جابلوس
 وكانت امه قد ذهبت به الى رومية مع اختها عند ما ارتقى هليو جابلوس
 كرسي المملكة وظلا في مناظرة ومساجلة الى ان افضى الامر اخيراً
 بوقوع حرب عوان بين الاختين وابنיהם كل منهم يقود جيشاً من
 انصاره بنفسه وانقض الخصم بانتصار ماما ميا على اخوها سويميا فقتلتها مع
 ابها واستحوذت هي على المملكة مع ابنها
 ملك اسكندر ساويرس سنة ٢٢٢ وكان عمره ١٧ سنة حين ملك
 وهو يعد من اعظم امبراطورة الرومان واحسنهم صفات وجلس على
 العرش الامبراطوري احدى عشرة سنة هي عبارة عن جهاد مستمر
 لاصلاح الخلل والفساد اللذين استوليا على المملكة كما انه بذل ما في
 وسعه ليووقف تقدم الفرس وتغلبهم في المملكة الرومانية وهم اعداء
 الداء لها كانوا قد بلغوا في ذلك الحين مبلغاً عظيماً من القوة والمنعة
 بواسطة ارتباطهم والتحادهم معاً. وما يسطر لهذا الامبراطور بالشائع

هو دفعه عن المسيحيين وشهادته عنهم بازعم اكثـر الناس كفاءة حـكم
 البلاد وادارة امور العباد على محور الاستقامة والامانة . ومع انه ظل
 متمسـكاً بديانته السورـية الوثنـية التي شبـ عليها تمسـكاً ظاهـرياً الا انه
 كان يعتبر المسيح من اعاظـم العلمـاء الكبارـ الذين نشـوا في العالمـ وافـدوا
 الناسـ بتعالـيمـهم وآدـابـهم واقـامـ له تمـثالـاً في معـبدـه الخـصـوصـي ووضعـه بينـ
 تمـاثـيلـ العلمـاءـ الآخـرينـ مثلـ ابرـاهـامـ واورـفيـوسـ وسـكـنـدرـ الـكـبـيرـ
 وابـولـونـيوـسـ الذـيـ منـ تـيانـاـ . وقد عـرفـنا في ما صـرـ انـ كلـ
 اـمـبرـاطـورـ كانـ لهـ اـسـمـ يـخـتـلـفـ عنـ غـيرـهـ اوـ لـقبـ خـاصـ يـطـلقـ عـلـيـهـ
 فيـ الـبـلـادـ كـلـهاـ وـذـلـكـ اـكـثـرـ التـشـابـهـ فيـ اـسـماءـ الـامـبرـاطـرةـ وـهـوـ اـمـرـ كانـ
 كـثـيرـ الـوـقـوعـ حـينـئـدـ وـهـكـذاـ لـقبـ اـسـكـنـدرـ سـاـويـرسـ فيـ اـخـرـياتـ اـيـامـهـ
 بـلـقـبـ مـضـطـهـدـ مـسـيـحـيـينـ وـهـيـ رـبـةـ يـنـفيـهاـ عـنـهـ ماـ وـرـدـ فيـ اـقوـالـ المؤـرـخـينـ
 الـذـينـ عـاصـرـوهـ وـالـذـينـ جـاؤـاـ بـعـدـهـ بـاـكـثـرـ مـنـ جـيلـينـ . وـلـقـدـ اـزـهـرـ الـعـلمـ
 فيـ اـيـامـهـ وـأـخـذـ فـلاـسـفـةـ الـاسـكـنـدرـيـةـ مـنـ مـسـيـحـيـينـ وـوـثـيـينـ يـعـارـسـونـ
 اـعـمـالـهـمـ الـعـلـمـيـةـ وـيـدـأـبـونـ فيـ التـأـلـيفـ وـالتـصـنـيفـ فـوـضـعـ بـلـوـطـيـنـيوـسـ مـنـ
 ليـكـوـبـوليـسـ (ـاسـيـوطـ) مـبـادـيـءـ الـفـلـسـفـةـ الـافـلاـطـونـيـةـ عـلـىـ طـرـيقـةـ تـوـبـةـ
 وـعـمـ نـشـرـهـاـ وـكـذـلـكـ هـرـودـيـانـ الـمـؤـرـخـ اـتـمـ تـارـيخـهـ فيـ هـاتـيكـ الـيـامـ
 وـقـدـ يـغـلـبـ عـلـىـ الـظـنـ اـنـ اـورـيـجـانـوـسـ بـارـحـ الـاسـكـنـدرـيـةـ مـرـتـيـنـ
 اـثـنـاءـ حـكـمـ اـسـكـنـدرـهـ اـحـدـاـهـاـ اـنـفـذـ فـيـهاـ لـقـابـلـةـ مـاـ مـيـاـوـالـدـهـ هـذـاـ الـامـبرـاطـورـ
 وـالـثـانـيـةـ اـرـسـلـ اـلـىـ بـلـادـ الـيـونـانـ فـيـ اـعـمـالـ تـخـصـ بـالـكـنـيـسـةـ الـمـصـرـيـةـ حـيـثـ

اتى أمرأً يستوجب الانتقاد اذ كانت نهايته قطع العلاقات بينه وبين صديقه الحميم ورئيسه الموقر البطريرك ديمتريوس وهو امر يذكر بالأسف الشديد خصوصاً لالتصاق اللوم بالاثنين معاً ووقعهما في الخطأ سواء ولو ان استفحال الحرق بينهما واتساع مجال اللدد والخصام يزيد الى تحزب اصدقاء الطرفين وتحريضهم لها جرياً وراء الغايات والأغراض

ومن الواضح اليين ان ديمتريوس مع اعجباته بغيرة اوريجانوس وحماسه اللذين اوصلاه الى غلطة فادحة هي قع جسده واضعافه وهو ثني عنوان شبابه - اعتبر غيرة اوريجانوس هذه مانعة اياه من ترشيحه للرتب الكهنوتية مع انه كان اهلاً لها من كل الوجوه عدا هذا الوجه اما اوريجانوس نفسه فكان ميلاً لارتقاء الرتبة الكهنوتية الا انه كان يحترم ارادة رئيسه البطريرك في هذا الشأن ويرضخ لحكمه . وكان ديمتريوس يؤكّد ثقته باوريجانوس بين كل آونة وآخرى بواسطة معاملته له معاملة تدل على الثقة النامة وبراسله في مهام مهمّة لها علاقة بكبرى بالكنيسة مع انه عالماني كغيره من عامة الناس . وليس من العجيب ان يكون روح العداء بدأه بين البطريرك واوريجانوس بواسطة اصحاب الطرفين كما سبقت الاشارة كان يكون امبروز وغيره من محبي اوريجانوس والمعجبين به اظهروا استهجاناً من حرمـان اعظم لا هوـي في تلك الايام من الوظائف الروحية بواسطة بطريركـه كان لم يزل الى وقت

ارتقاءه السدة البطريركية فلاحاماً وحرضوا اوريجانوس ان يستخف
 بهذا البطريرك ويترك بلاده هذه ويقصد اساقفة فلسطين الذين كانوا
 رفقاء له في المدرسة ويزرون قيمته ومقداره ويودون من صومع اقتدتهم
 تعيينه في وظيفة كهنوية . فاذا صرحت هذا الاحتمال فقد يكون تحريض
 هؤلاء القوم السبب الوحيد الذي جعل اوريجانوس يعدل عن الذهاب
 تواً الى بلاد اليونان لاتمام المأمورية التي عهدت اليه وان يرجع على
 فلسطين حيث سيمكىنا على قيصرية
 وقد احتمم ديمتريوس غيظاً لاحتقار سلطته والاستهانة به فكتب للذين
 كانوا السبب في الذي حدث كتابة شديدة اللهجة وغضب من اوريجانوس
 غضباً شديداً حتى انه لما عاد هذا الى الاسكندرية بعد مضي بضعة اشهر
 على رسالته في فلسطين وجد مكانته قد سقطت ومركزه لم يبق له ولكن
 ظن نفسه محققاً في الخطة التي اتبعها وان ما عمله هو الصواب بعينه ولكن
 لعل همته واتساع مداركه رأى انه يخطيء اذا هو يبقى في الاسكندرية في
 مثل هذه الظروف التي زعزعت مقامه ولذلك فضل كل علاقة له مع
 المدرسة اللاهوتية التي كان رئيساً لها وعول على ترك الاسكندرية وكل
 ما فيها وهجر مصر هجراناً لا لقاء بعده . وقد يصعب على المرء ان
 يتصور مقدار الشقاق والانقسام اللذين كان يمكن حدوثهما في الكنيسة
 لو لم يتدارك اوريجانوس الامر بما فطر عليه من شرف النفس والتواضع
 ويتحمل بطيب خاطر نتيجة ما جنته عليه هذه فينسحب بنفسه طوعاً

واختياراً تاركاً هذه البلاد الى بلاد اخرى اختارها لشخصه بذاته. وكان
 السوء الحظ ان ديمتريوس لم يظهر هذه الشرامة والافرة اللتين اظهراها
 خصمه . صحيح قد كان له الحق في ان لا يقبل في بلاده كاهناً يعتقد
 بعلم صحة كهنوته وعدم صلاحيته لهذه الرتبة كما ان باقي اساقفة البلاد
 كتبوا له يسفرون رأي اوريجانوس تسفيهاً ولكنهم لم يكتف بهذا كله
 فيقف عند هذا الحد. ذلك لا نه مع قبول اوريجانوس حكم المجلس الذي
 شكله ديمتريوس من الاساقفة والشيوخ واستعفائه من رئاسة المدرسة
 اللاهوتية ومهاجرته مسقط رأسه ومنبت أسلته. كل هذالم يزد ديمتريوس
 الا حنقاً عليه وسخطاً خصوصاً وان اوريجانوس قوبل في فلسطين مقابلاً
 المنتصر الفائز على خصمه وآكرم اصدقائه الاساقفة هنا لك وفادته
 ورفعوا منزلته كثيراً ولا ريب انهم كانوا مستعدين لاجراء هذه
 المظاهرة لا اوريجانوس لمعرفتهم بما سيتم له في مصر . والذى يراجع ما
 كتبه يوسيبيوس في هذا الصدد يتضح له ان اساقفة فلسطين اظهروا
 اعجاباً واستحساناً لاعمال اوريجانوس وتحقيراً وتسيفيهاً لرأي ديمتريوس
 الامر الذى اغاظه غيظاً يعذر عليه ولكن كيما كانت اسباب هذا الغيظ
 فهي لا تخلي ديمتريوس من الملام الواقع عليه بما عمله من جمعه اساقفته
 وحصوله على قرار منهم يقضى بحرمان اوريجانوس حرماً باتاً وارساله
 خطابات الى جميع الكنائس يعلمهما بهذا القرار وذلك لانه استشاط
 شخصياً من هروب اوريجانوس الى فلسطين كما يهرب العبد الآبق

واحتقاره ايام مع ما كان له من عيم الفضل عليه وحق الرئاسة ايضاً
وحبه له وهو بعد في مهد الطفولة . اما اوريجانوس فعد هذا الحرم
غاية في القسوة والحمدة كما يظهر لك ذلك من نص كتاب كتبه اثناء
اقامته في قيصرية وهكذا ملخصه :

وحدث بعد هذه الامور ان الله اخرجني من ارض مصر بيت العبودية
كما خلص شعبه منها فديعاً . ثم قام عدو (بني بطيرك) واقام في وجهي
حرباً عواناً بواسطة مكتبيه التافهة التي تغادر مباديه الانجيل تماماً وحرك ضد
ريحاً صريراً فرأيت من الصواب ان اقاوم جهد استطاعتي مدافعاً عن المبدأ
المهم الذي اختطنه لنفسي ومررت عليه وهو الافادة والاستفادة وكنت اخشى
من ان هذه المحاكمات العقيمة يستفحلا شرها فتثير ثائرة النفس الامارة فتضعف
الذاكرة حينئذ واعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذي بدأت به قبل ان
ينطمس ذهني خصوصاً وان ابتعدت عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط الخنزيل
منهي من تعلمه ما يخطر على بالي من الافكار . اما الان وقد بعدت عن كل عوامل
التأثير وقدر الله جل وعلا ان تمليش تلك السهام الناريه التي صوبت نحو
وتذهب في الهواء أفت نفسى حينئذ وقوع الملمات التي كانت تصيبني بسبب التبشير
بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس ان تحمل بطيب خاطر جميع المصائب التي
انتابني فهداه روعي وسكن جائي لحودة الهواء وحسن الطقس ففقدت النية على
عدم تأجيل نسخ وتأدية المؤلفات المطلوب مني اتمامها »

ولنرجع الى القرار الذي صدر بحرب اوريجانوس فترى ان اساقفة
بلاد العرب واليونان وكيدوكيه وفلسطين قابلو بهذا الحكم الصارم غضاء
وعدم اهتمام وظل اوريجانوس يزاول في فلسطين كل العمل المطلوب
منه ككاهن فوق مشاغله اليومية في التدريس والابحاث اللاهوتية .
ولم يسلم اوريجانوس من غلطات يقع فيها جميع البشر على السواء فيما

يختص بمعاملتهم لا عدائهم وبغضهم وقلما ينجو منها أحد خصوصاً وقت الحدة التي تبدل الحلم بعنف والتواضع بشانع وكان من اوريجانوس انه وعظ يوماً في اورشليم فاتخذ آية موضوعه قوله « يقول الله للاشرار لما تضعون عهدي في افواهكم واتم قد رفضتم الاصلاح واطرحتم كلامي خلف ظهوركم » ولكن لم يكدر تم قراءة هذه الآية حتى نحشه ضميره ووبخه قلبه وشعر ان صديقه ورئيسه البطريرك ديمتريوس قد يمكن ان يأول هذا الكلام تأويلاً يطبقه على نفسه فسألت دموعه على خديه كالسائل المنهر واجهش في البكاء حتى لم يعد يستطيع النطق فتأثرت الكنيسة لتأثيره وبكت لبكائه وهذه احدى نتائج الضمير الحي الذي لم يقض عليه القضاء الاخير

واقام اوريجانوس نهائياً في قيصرية وتبعه اليها امبروز وزوجته وكل عائلته وتوافق اليه التلامذة افواجاً للاستنارة بمسكاة علمه وفضله . اما رفيقاه في التلمذة وها هرقلاس وديونيسيوس اللذن كانوا من اعز اصدقائه في مصر فلم تخمد نار محبتهم له ولكن عند ما حجي وطيس الجدال بينه وبين البطريرك ديمتريوس انحاز الى رأي البطريرك والدليل على ذلك انه عند ما رقيا الكرسي البطريركي بالتوالى في اثناء حياة اوريجانوس لم يفكرا في ارجاعه الى الاسكندرية مرة اخرى . وبعد هذه المخاصمة الغبية بين هذين الصديقين بقليل تناوح البطريرك ديمتريوس شيئاً وسبحان من الايام بعد ان شهد ستة امبراطرة توالي على العرش الروماني وخلفه

هر أكلاس أما ديو نيشيوس فعين رئيس المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية

الفصل العشمن

اضطهاد ديشيوس للمسيحيين. سنة ٢٣٥ ب. م

بعد ان رحل اوريجانوس الى فلسطين بستين من الزمان قتل الامبراطور اسكندر بيد مكسيمينوس وهو بطل مغوار جمع كل شيء تحت سلطته وساعدته على ذلك اهمية مركزه في الجيش حتى اصبح سيداً تعنو له رقاب اولئك الجنود الذين كانوا يتلونون كالحرباء ويخضعون لمن ملك وهم الذين عضدوه في تدبير المؤامرة ضد سيده فقلب عرشه ورقى كرسي الامبراطورية ضد رغبة مجلس النواب الذي لم يستطع الاعتراض على عمل كهذا يغضده الجيش ويرغب فيه . وكان اول امر شرع فيه مكسيمينوس مقاومة المسيحيين ومناجزتهم وذلك لأن اسكندر سلفه كان يشق بهم ويعذب عليهم فبداء اضطهاده في ايطاليا وفاسطين وألق القبض في قيصرية على امبروز وصديق آخر لا اوريجانوس كان تلميذاً له قبلًا واستأقاوهما الى المانيا الى سجننا في سجونها اما اوريجانوس ففر هارباً وجلاء الى قيصرية كبدوكية والتقي فيها باسقفها فرميليانوس الذي كان من ضمن اصدقائه والمعجبين به كثيراً واقام اوريجانوس مدة في هذه المدينة في منزل امرأة اسمها يوليانا كانت على جانب عظيم من النزوة والهذب . ولما بدأ اضطهاد في مصر اضطر البطريرك هرقلas

ان يترك الاسكندرية فراراً من وجه مكسيميانوس ولكن كثيرين
 من المصر بين المسيحيين تجروا الموت كأساً دهاقاً في الاسكندرية والاقاليم
 ولم تدم مدة هذا الظالم الغشوم طويلاً فلم تكد تمض ثلاثة سنوات
 على ملكه حتى حدثت ثورة في موريتانيا الحدى المقاطعات الرومانية اندك
 بها عرشه وخلفه غورديان وابنه اللذان منكرا ثلاثة شهور انتهت باز
 انحر الاب انحراً وقتل الابن في حرب اغتيالاً وعقبهما مكسيموس
 وبلينوس اللذان انتخبا انتخاباً اما مكسيموس فهو جم عليه جيشه وقتله غيلة.
 ولما كان لعائلة غورديان مكانة سامية في ذلك الوقت لم يرض الجيش
 وعامة الشعب بغيرها ولذلك اجهزوا على بلينوس الذي اخبره مجلس
 النواب مع مكسيموس فقتلوه في القصر الامبراطوري برومية ونادى
 الجيش بغورديان الثالث امبراطوراً والبسوه التاج الروماني وهو بعد في
 الخامسة عشرة من عمره . وعند ما ملك هذا الفتى استراحة البلاد من
 الاضطهاد ولو ان الحرب لم تلقي اوزارها بعد . ولما هداء ثائر الاضطهاد
 عاد اوريجانوس من كبودوكية الى قيصرية والتقي بامبروز الذي يحتمل انه
 استفاد من المصائب التي وقعت على الحكومة اذ انهز فرصة انقلاب
 السلطنة بواسطة الثورات المتالية وفر من سجنه . اما غورديان فملك ست
 سنين لم يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى انها كانت سني سلام
 وآمان فنمث فيها الكنيسة المسيحية في مصر نمواً يوجب الشكر والدليل
 على ذلك ان البطريرك هرقلان اوجد عدة ابروشيات جديدة في

الاقاليم . وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان هر اكلاس كان اول بطريرك
 مصرى اطلق عليه لقب بابا وهذا خطأ فان اللقب المذكور كان معروفاً
 في مصر من اول نشأة الديانة المسيحية فيها وكان يطلق على القس
 والاسقف سواء . وفي هذه المدة جاء مصر بريلوس افريكانوس الشهير
 ويغلب على الظن انه في اواخر حكم غورديان شرع اوريجانوس
 في رحلته الثانية الى بلاد العرب وكان بريلوس اسقفيها الذي سبقت
 الاشارة اليه قد وقع في جبائل بدعة جديدة كان يعلمها للناس وهي ان
 مخلصنا يسوع المسيح لم يكن له في عالم الوجود وجود قبل ان يولد
 بالناسوت فباحثه اوريجانوس طويلاً وناقشه كثيراً في هذا الشأن حتى
 تغلب عليه بقوة الحاجة والبرهان واقتفع بغلطه وبذا منع شقاق جديد
 كاد يقع في الكنيسة . وقد يكون اوريجانوس عرف شيئاً كثيراً في
 هذه الرحلة عن رجل اسمه فيليب من البصرة كان ابوه يلقب برئيس
 عصابة لصوص — وبعبارة اوضح كان بدويًّا يسكن القفار — وعين
 فيليب هذا ضابطاً قضائياً وكان قبل تعيينه يدرس الدسائس ضد مولاه الملك .
 اما الفرس الذين عرفناهم قبلاً اقوياء متحدين فقد بدأوا يستعملون
 قوتهم في اثناء حكم غورديان باغارتهم على الحدود الشرقية للمملكة
 فضاق غورديان ذرعاً من معاملتهم بهذه وصمم اخيراً ان يسير اليهم
 بجيش يتولى قيادته بنفسه . ومع ان انهزام احد الطرفين كان لا بد منه
 الا ان بلوطينوس الفيلسوف الافلاطوني الاسكندرى الشهير رافق هذه

الحملة آملاً ان يستفيد شيئاً من فلسفة الفرس التي كانت لا تقل كثيراً عن فلسفة اليونان . فانهزم فيليب السابق ذكره هذه الفرصة للإيقاع بسيده الامبراطور غورديان فتوصل اخيراً الى اغتياله وذبحه وله من العمر احدى وعشرون سنة ثم عقد فيليب معااهدة صلح مع الفرس وذهب مسرعاً الى رومية . وقد عاد بلوطينوس بعد ان لاقى صوبات جمة في طريقه اذ كان يخشى عليه من الواقع في ايدي الجيش الفارسي وقطن في رومية ينشر فيها علومه التي استوعبها من فلاسفة الفرس وعلماء الاسكندرية

قال يوسيبيوس ان فيليب هذا كان مسيحيّاً وهذا خطأ يนาقض ما رواه يوسيبيوس نفسه من ان قسطنطين هو اول امبراطور مسيحي كما ان فيليب اضطهد المسيحيين في مصر ولا يمكن ان يضطهدهم لو كان مسيحيّاً . وقبل ان يتدبّر اضطهاد ديشيروس الذي ذكره تشيخ البطريرك هراكلس وخلفه ديونيشيوس الذي كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية

وكان ديونيشيوس هذا من عائلة عريقة في النسب وتربيه وثنية . وما يروى عنه ان امرأة مسيحية فقيرة اقرضته يوماً ما رسائل بولس الرسول ليقرأها فما اتم قراءتها حتى استفاد منها فائدة كبيرة وشعر بلذة عظمى من مطالعة هذه الرسائل فاشتراها حالاً ودار يسأل عن الكتب الأخرى التي يقتنيها المسيحيون حتى يستعيرها منهم فاشارت

عليه تلك الامرأة التقية ان يذهب الى القسوس فهم اعرف منها
 بذلك فعمد اليهم من فوره وعرض عليهم امره فقدموا له باقي الاسفار
 وهم فرحين مسرورين . فعمل الروح القدس في قلبه عمله المعروف
 واعتنق هذا الشاب الوثني الديانة المسيحية ومن ثم تلمذ لاوريجانوس
 كما سبق القول . ومن المؤكد ان ديونيسيوس كان متزوجاً ولكن
 يحتمل ان امرأته كانت قد ماتت عند ارقاءه الكرسي البطريكي وكان
 ايضاً من مشاهير رجال عصره ومن فطاحل علماء زمانه وقد كتب
 كثيراً في مواضيع شتى لم تزل بعض كتاباته باقية الى يومنا هذا سند رج
 بعضها فيما يلي ومنها يتضح الشدة والضيق اللذان قاساهما المسيحيون
 بمحضر في هاتيك الايام المرة . وبعد ان تعيين ديونيسيوس بطريركاً
 اعقبه بيروس في رئاسة المدرسة اللاهوتية وكان كغيره من آئتها تلك
 الاعصر قسًا عالماً وكاتباً ماهرًا فأضلا عن انه عرف بزلقة اللسان
 وفصاحة المنطق وببلغة الكلام حتى سموه اوريجانوس الصغير . وقد
 ذهب البعض الى انه مات شهيداً فإذا صدق قوله فيكون استشهد
 في الاضطهاد الذي احدثه الامبراطور فاليريان كما سيجيء القول ولكن
 ستارينج موته لم يعلم قط وعلى اي حال فانه مات قبل سنة ٢٨٢ بـ ٠ م
 وذلك لانه عند ما سيم يوناس بطريركاً في السنة المذكورة لم يكن
 بيروس رئيس المدرسة اللاهوتية بل كانت تحت رئاسة ثيونو سطس الذي
 لا يعرف عنه شيء . ومن الذين رضعوا لبان العلوم اللاهوتية على يد

بيروس رجل شهير من قيصرية اسمه بامفيليوس وذلك في مدرسة الاسكندرية الطائرة الصيٰت حينئذ

وكان الاضطهاد الذي وقع في حكم فاليرييان مخصوصاً في مصر فقط فلم يتعدها الى غيرها وسيبه التعصب الديني من الوثنيين ضد المسيحيين وليس هو باسر من الحكومة كالاضطهادات الاخرى وقد كتب ديونيشيوس بعد نهاية هذا الاضطهاد كتاباً بعث به الى فاييان اسقف انطاكيه وفيه وصف للاضطهاد المذكور كما انه احد الخطابات التي وعدناك بنشرها دلالة على مقدرة ديونيشيوس على الكتابة والتحرير وهما هما : -

« ان الاضطهاد الذي اصابنا لم يحدث بناء على أمر من الحكومة بل ان ناره كانت مخبأة تحت رماده مدة سنة كاملة فاللتقت عندما اثارتها زند التعصب . وتفصيل ذلك ان شاعرآ يدعى النبوة وفد على الاسكندرية وكان مجئه شؤماً عليها اذ جال فيها يهيج سخط الوثنيين ضدنا ويحرضهم على الدفاع عن خرافاتهم واباطيلهم التافهة قسم له ذلك واثار ثائرة الوثنيين نحونا وساعدهم على عملهم ما اباحته لهم الحكومة من اجراء اي شر وضر يرغبونهما لنا كما انهم ظنوا ان منتهى التقوى والقداسة تتحقق في عبادة اوئلهم وشياطينهم وان هذه العبادة تم بذبحنا وتقديم اجسادنا قربانا لا اصنامهم . وكان اول شر ارتكبوا ان امسكوا رجالاً هر ما اسمه متري وطلبوا منه ان يجده ويزكي بكلام

يذى فرفض الرجل طلبهم بتاتاً وحيداً انقضوا عليه كالوحش واخذوا
 يضربونه بالعصي وينزون وجهه وعينيه بمناخس وهو ثابت القاب
 ساكن الجائش فلما يئسوا منه اخرجوه خارج المدينة ورجوه بالحجارة
 حتى مات . ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين الى منازل المسيحيين
 فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة ولا شروط المروءة
 ويخرجون السكان منها ثم يتلفون كل ما وصلت اليه ايديهم الاشياء
 فيأخذون الاشياء الثمينة القيمة اما الاثاث والامتعة البيتية فيجعلونها
 طعاماً للنار اذ يحرقونها على قارعة الطريق حتى اذا رأهم احد وهم
 يركضون ويسبون ويقتلون ويحرقون ظفهم جيشاً ظفر بمدينة قفع
 بها فعل الغالب المنتصر . اما المسيحيون فلم يبدوا ادنى مقاومة بل وقفوا
 يراقبون خراب بيوتهم وهم ساكتين فكانوا مثل اخوهم
 الذين اشار اليهم بولس الرسول في انهم كانوا ينظرون سلب امتاعهم
 بفرح . ولست اعرف سوى دجل فقط من الذين وقعوا في ايديهم
 انكر ايمانه ولكن بعد عناء شديد وعداب قاس واعرف ايضاً انهم
 القوا القبض على عذراء عفيفة فاضلة اسمها ابو لوينا وكانت قد هرمت
 وشابت ناصيتها واخذوا يضربونها على فكينها حتى حطموا اسنانها تحطيمًا
 ثم اشعلوا ناراً خارج المدينة وهددوها بالحرق حية ان لم تنسق بكلمات
 التجذيف والسخر التي كانوا يلقنونها ايها فاصابتها في اول الامر
 قشعريرة شديدة من شدة الالم ولكنها عادت فتجددت وثبتت فلما

رأى معدبوها عدم فائدة هذا العذاب طرحوها في النار واحرقواه حتى
صارت رماداً . وقد امسكوا ايضاً رجلاً اسمه سراييون بينما كان في
بيته واذقه عذابات يقصر القلم عن وصفها ويرق الحجر الصالد من
تأثيرها حتى كسرها جميع اضلاعه وسحقوها سحقاً واخيراً طرحوه على
ام رأسه من فوق علو شاهق . وكان اذا سار الانسان ليلاً او نهاراً
في الشوارع والازقة لا يسمع سوى صرخ وضجيج و القوم يهددون
ويعدبون كل من رفض ان يمجده اي انه وينكر مسيحيه ولا يشاهد المرء
غير اناس آتقين يجرهم الاشرار على وجوههم ثم يطروحونهم في النار
المتقدة فيحرقونهم كالهشيم . وقد بقيت هذه الخطوب متفاقمة مدة من
الزمن الى ان ظهر هياج سياسي اعقبه حرب اهلية ^(١) جرفت في
سبيلها كل شرير ائم ولذلك استرحنا قليلاً اذ انصرف شرهم عنا الى
بعضهم بعض ولم نكدر تنفس الصعداء حتى حاق بنا الخوف وحفنا الخطر
عند ما أبدل ذلك الملك الذي كان ارق جانباً واقل شرآً من غيره بملك
آخر قد لا يجاس على كرسي الملائكة الا ويوجه انظاره نحونا فيعمل على
اضطهادنا . وقد بدأ حدثنا يصدق وظننا يتحقق حالاً صدر ^(٢) امر
شديد الوطأة مثلما انبأ بذلك مخلصنا له المجد متضمناً عبارات تصك منها
الركب حتى اوشك المختارون على السقوط والثمار وعم الخوف الجميع
واركن كثيرون من المشاهير الى الفرار ورفت كل مسيحي في خدمة

(١) كانت نتيجة هذه الحرب الاهلية قتل فيليب وارقاء ديشيوس الى الكرسي الامبراطوري

(٢) هذا الامر اصدره ديشيوس في سنة ٢٥٠ م

الحكومة كيما كان زكاها ونهاهته وكان كل وثنى يعرف احد المسيحيين
 ويرشد عنه كان يؤتى به على عجل ويدعون الواحد باسمه حتى يتقدم
 الى هيكل الاوئان فيطلب منه تقديم الذبيحة الوثنية وكان عقاب من
 يرفض تقديم الذبيحة للصنم ان يكون هو نفسه ذبيحة للصنم بعد ان
 يجهدوا في اقناعه بذلك بكل وسائل التخويف والارهاب بينما كان يوجد
 جهود من الوثنين التام هنا لك وهو يهزء ويسخر بكل مسيحي يكون
 حظه اما نكران اليمان وتقديم الذبائح الاوئان واما الموت الذي هو
 نهاية كل انسان ولكن بعض ضعيفي اليمان انكر ايمانه وهو واقف
 امام المذبح الوثنى وثبت انه لم يكن مسيحيًّا قط فمثل هذا يصدق
 عليهم قول المخلص المجيد انهم بالجهد يخلصون . وكان البعض يقتدون
 بهذه الجاحد والبعض يتسلكون باذلال الفراد وغيرهم قبض عليهم وطردوا
 في السجون مكبكين بالقيود والاغلال ومنهم من انكر الديانة المسيحية
 بعد ان سجن قليلا ولم يحاكم وكثيرون بقوا متسلكين بالدين
 المسيحي معترفين به مع صعوبة العذابات التي ذاقوها مدة طويلة .
 وكثيرون قواهم الله وارسل لهم معونة من لدنها فبقاء مرتبطين
 بوحديانية اليمان الصحيح ولم يغلو عنده يمنة او يسرة وكان من امرهم ان
 صاروا اركاناً متينة في بيت الرب عليهم بنيت الكنيسة المصرية كما
 انهم دعوا شهوداً امناء على مجد ملکوت ابن الله . وكان في مقدمة
 هؤلاء الاتقيناء رجل اسمه يوليانوس، اصيب بالنقرس (داء المفاصل)

فلم تكن له مقدرة على السير أو القيام من مكانه فساقوه إلى المحكمة
يحمله رجلان على كتفيهما ولما قدم هذان الرجلان أمام المحكمة انكر
أحدهما إيمانه بلا أمهال وأما الثاني واسمها كرونيون ولقبه أنوس فأعترف
بإيمانه اعترافاً صريحاً كما اعترف يوليانوس أيضاً ولذلك حملوهما على جمابن
وطافوا بهما في جميع أنحاء الإسكندرية - وهي كما تعلم واسعة الاطراف -
وكانوا يحملونهما بالسياط جلداً عنيفاً وأخيراً طرحوهما في طهيب تقد
بالنيران فصارا رماداً بينما كان مضطهدوها وقوفاً يتفرجون عليهم كأنه من
المناظر التي تسر لها النفوس »

وقد سطر دينيثوس أيضاً ما حدث من استشهاد سيدة رجال
واربع نساء فيهم شاب في ريعان عمره اسمه ديوسقوروس . وكان بعض
هؤلاء المذكورين من الأقاليم وبعضهم من الإسكندرية . وهكذا
مضمون الجواب المذكور

« بعد أن حمل أولئك الأتقياء بالسياط طرحو في آتون النار انتقد أماديوسقوروس
فاعطاه القاضي مهمة يتذكر فيها نتيجة أصراره على التمسك بيمانه عصاه يعود فيجدد
أشفاقاً من القاضي على نضارة شبابه وخصوصاً ما أنسه فيه من العقل والرصانة
عند ما كان يحيط بلي الأسئلة التي سأله إياها : قال الكاتب - وهو أنا أخط
هذه السطور وديوسقوروس قائم بجانبي يطفر من الفرح الروحي متظراً عذباً
صرياً ولماً موجعاً قد يصيده الآن »

كتب الجواب المذكور آنفًا حالاً بعد بدءه الأسطور الذي أثاره

الإمبراطور دينيثوس أما المكتوب الذي سينجي ذكره فيستدل من

أوائله انه كتب في زمن سابق لهذا الزمن غالباً في أيام الاضطهاد الذي وقع في مدة فيليب . اما السبب الذي اجأ البطريرك ديونيسيوس الى كتابة الرسالة التالية فهو ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم بلغه ان هذا البطريرك لم يتبع الخطوة التي سار عليها سلفه الاسبق ديمتريوس في انه هرب من الاسكندرية بعد بدائة الاضطهاد بقليل ولم يعد اليها الا بعد ان استراح المسيحيون هنئه لسبب الخصومة التي وقعت بين الامبراطورين ديسليوس وفيليب عن المملكة وقد اشار اليها ديونيسيوس في كتابه الانف ذكره . فرأى جرمانوس ان هروب البطريرك ديونيسيوس من الاسكندرية أثناء الاضطهاد ناتج عن جبن وخوف ولذلك وبخمه توبيخاً عنيفاً ققام ديونيسيوس يدافع عن نفسه ويتيق التهمة التي وجهت اليه بألفة وغيره حيث قال :-

« الى جرمانوس سلام

« وبعد فاني اتكلم امام الله وشهاده على نفسي اني لا اكذب فيما اقول بان هروبي لم يكن طبقاً لارادتني كما لا ادعني اني اتيه بناء على اهتمام من الله بل الواقع انه قبل ما يبتدي الاضطهاد الذي اثاره ديسليوس جاء رجل اسمه فرونتاريوس من قبل حابينوس ليبحث عني و كنت قد مكثت في منزلني نحو اربعة ايام انتظر مجيء فرونتاريوس الذي لم يأت الى بيتي تواً بل ذهب ينقب في كل مكان في الشوارع والحقول وبقرب الانهر حيثما ظن اني اختفي هناك و كانه ضرب بالعمى فلم يستطع العثور على منزلني لانه لم يخطر بباله قط اني ابقي في البيت وقت الاضطهاد . فمررت الاربعة ايام على هذه الحالة الى ان اذن لي الله ان اترك كمسني وفتح لي طريقاً سلكت فيه بكيفية عجيبة جداً فخرجت من المنزل ومعي ابنايعي وكثيرون من الاخوة

المسيحيين وكان ذلك بتدبر من الله وعناية منه ظهرت لنا في كل الذي تم مثنا بعد ذلك وبذورها لم تكن نذكر بشيء أو تفید شيئاً . وعندما آذنت الشمس بالغيب امسكني المساكر أنا ورفقائي وقد دوّنا إلى سجن ثابوسيرس ولكن تموناوس (يحمل انه امن هذا البطريق) لم يكن موجوداً ولم يلق القبض عليه وذلك بعناية الاله فإنه لما دخل البيت وجده قفراً والمزار بعيداً وليس فيه سوى خدام يحرسونه اما نحن فصرنا عيذا ارقاء وقد اتفق ان رجلاً من الارياف رأى تموناوس راكضاً تلوح عليه دلائل الحوف والجزع فسألته الرجل عن سبب جريمه فاوضح له تموناوس جایة الخبر . وبعد ان سمع الرجل هذا الامر ذهب في طريقه وكان قاصداً ولية عرس - وكانت العادة ان الناس يحيون كل الليل في الافراح - فلما استقر به الجلوس في المجلس قص هذا الخبر على آذان المدعوين بهذه الوليمة فلم يكن الا كامح البصر حتى نهضوا جميعهم هرصة رجل واحد كانوا على اتفاق سواء وجاؤا مسرعين كالسيل الجارف واندفعوا علينا كالنسور وأخذوا يصرخون ويضجرون باصوات كالرعد القاصف فلما رأى العساكر الذين كانوا يحرسوننا ما جرى ولوا الادبار واركناوا إلى الفرار فانقضوا علينا انقضاض البوارثق بينما كنا نياماً على اسرة ليس عليها شيء من الفراش . ويعلم الله انني ظشمهم في باديء الامر جماعة من الاصوص جاءوا قاصدين السلب والنهب ولذلك ظللت نائماً على فراشي كما كنت دون ان ابدى حراً كاوياً على شيء من الملابس سوى قبض من التكتان اتدبر به واما باقي شيءي فكانت مطروحة بجانبي فقد تها لهم عند ما اقتربوا اليه . اما هم فلم يكونوا يقصدون النهب ولا يتبعون الثياب بل امرؤن ان اقوم من مربضي واسير معهم مسرعاً إلى حيث يريدون : فلما ادركت قصدتهم من الجبيه البنا اخذت في البكاء والعويل واخذت اتوسل إليهم متضرعاً ان ينصرفوا عنا ويتركوننا وشأننا وقلت لهم انتم اذا شاؤا ان يعملوا معنا جيلاً فليستأنفوا الذين ادخلوني في هذا المكان ومن ثم يقطعون رأسي فلما صحت عليهم هكذا كما يشهد بذلك رفافي والذين اشتراكوا معي في الضيقات اجتهدوا لثني القوم ان يأخذوني فسراً رغمما عنى ولذلك القتني بنفسى على الارض مطروحاً على ظهري ولكنهم لم يستفقوا عليّ بل امسكوا بيدي

ورجلي وجروني خارجاً وتبغى الذين شاهدوا هذه الحادثة وهم كايوس وفوسطس وبطرس وبولس (غير الرسلين المعروفين) فاخرجن خارج المدينة واركبوني حماراً غير مسرح”

وقد بلغ اضطهاد ديشيوس منتهى القسوة والصرامة في فلسطين ولكن اوريجانوس تقوى هذا المرة فلم يهرب وكان قد عاد حديثاً من زيارته الثالثة لبلاد العرب حيث أضل الشيطان بعض أعضاء الكنيسة فيها فصاروا يكرزون بعبداء جديد هو أن اللاهوت مات مع الناصوت وقام معه ثانية في وقت واحد^(١). بفرد اوريجانوس سيف الحجة والبرهان في هذه المرة أيضاً وفاز باقناع أولئك المبتدعين الذين خالفت آراءهم وافكارهم تعاليم الكنيسة كل المخالفة أما اوريجانوس فلم يقدر يصل فلسطين عند عودته إليها من بلاد العرب حتى طرح في السجن ولم يذكر يوسيبيوس شيئاً عن كيفية القاء القبض على اوريجانوس بل ذكر عنه ما يأتي في سياق كلامه عن اسكندر اسقف اورشليم وبسيليوس اسقف انطاكيه اللذين قال عنهما انهما ماتا في السجن بعد عذاباً ثم قال يوسيبيوس : -

«يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه اوريجانوس واحتله بصير وفرح من العذابات المرة والآلامات القاسية أثناء هذا الاضطهاد إذ وضوه في مقاطرة من حديد وزوجوه في اعماق السجن حيث ظلل بضعة أيام مطروحاً على خشبة وهو

(١) كان المقربون القدماء يعتقدون انه ولو مات الجسد الا ان الروح والنفس البشرية تبقى في عالم آخر والنفس في الجنة المختحة (الموميا) التي خصت لبقاء النفس فيها الى يوم القيمة الى ان تعود الروح وتتحد مع النفس كما كانتا قبلها . ومن هذا الاعتقاد وجدت عدمهم اهمية تحفيظ الجثة مسكن للروح ليس الا

مشدود باربعة ونافات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهددا
له وتخويفاً وغير ذلك من صرائر شر حها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحي
من اعدائه العديدين ولكنك لم يجد ضجرأ ولا اظهر مللا ولم يتل يا ازمة انفرجي
وعند ما انتهى القوم من تجربة اوريجانوس كل اصناف العذاب قدموه للحكم عليه
بالموت فسعى القاضي الموكل بالحكم جهده في تأخير موته ليس لينجي اوريجانوس
منه بل يعطي عذابه باطالة ایام حياته . فالذى تم لا اوريجانوس من آلام وعداب
يجدر بان يكون عبرة لمن يغتر وذكرى لمن يذرك وتعزية للذى وقع في مصاب او
اصابه شر وتجربة وعلى من يرغب شرعاً وافياً عن ذلك عليه براجعة رسائل
اوريجانوس التي بقيت بعده فيجد فيها اخباراً بونق بصحتها وتفصيلاً وافياً بما
اصابه وأصاب غيره من قبله .

اما الرسائل الكثيرة التي كتبها اوريجانوس وأشار اليها يوسيبيوس
في ما كتبه آنفأ فلم يبق منها سوى رسالتين فقط ليس فيما شيء عن
الاضطهاد الذي احدهما دينيوس وقد يمكن ان ما ذكره عن هذا الاضطهاد
موجود في رسائله الاخرى التي اصبحت هباءً منتوراً . ولو ان كل ما ورد
في كتاب يوسيبيوس عن اوريجانوس قد صناع ولم يبق شيء منه الا انه
عجيب في ان ذكرى هذا الرجل وتأثيره الشخصي بيقي فعالاً مؤثراً في ایام
كان ديجور ظلامها يمس بالابدي وشرها يسمع صريوه بالاذان . اما
عذاب اوريجانوس فلم يقف عند الحد المأذكورة بل يبقى مدة طولية تتمدد
فيها الرجل على فراش الصنف والتحول حتى بلغت روحه الحلقوم ولكن
ظهر له شعاع من الفرح والسرور عند ما وفاه مكتوب من البطريرك
ديونيسيوس يشجعه فيه ويشارقه الاسى والاسف مظهراً فيه ارق العواطف

واشرف الاحساس الا ان هذا الجواب المثير ضاع كما ضاع غيره من
المكاتب المفيدة

وقد زل كثيرون من المسيحيين اثناء اضطهاد دينيوس هذا وقدموا
الذبائح للاوثان اجابة لطلب معدتهم فأخذت هذه المسألة دوراً منها في
الكنيسة عن كيفية المعاملة التي يعامل بها الذين سقطوا عند ما يخف وزر
الاضطهاد ويأتون ليعرفوا بخطاياهم ويتولوا الى الكنيسة لكي قبلهم
ثانية في احضانها . فقر الرأي على قانون للتوبة سن بعد ذلك بقليل للسير
بمقتضاه في هذه الاحوال والظروف الصعبة وقد يمكن ان هاته المسألة
كانت موضوع البحث في كل اضطهاد حدث ولكن بت الحكم فيها هذه
المرة فقط واصبح العمل بها امراً مقرراً بعد ان تداولت عنها مكاتب ورسائل
كثيرة بين اساقفة الاقاليم وكان اكثراهم ميلاً للرقى بحال من يتوب
توبه حقيقة الا ان نوقاتوس احد كهنة رومية خالف زملاءه في هذا
الشأن وكان رأيه ليس مما يحمد عليه فضلاً عن انه تحصل على تصديق
مزور من اساقفة في بلاد بعيدة يدعى فيه انه عين اسقفاً لروميا . فرجل
بمثل هذه الصفات يرتقي المناصب الكهنوتية زوراً وبهتاناً لا يصعب
عليه ان يشدد النكير على الذين زلت بهم القدم في مدة الاضطهادات
ويقسوا عليهم قسوة متناهية حتى انه اوجد قانوناً مخصوصاً في هذا الصدد
مفادة ان الذين يجحدون الدين المسيحي ولو مرة واحدة لسبب الاضطهاد
لا يمكن قبولهم في عضوية الكنيسة مرة ثانية ولو تابوا توبه بدموع

ما دام ان الكنيسة لا قدرة لها على مسامحتهم وغفران خططياتهم وعليه
العقد مجمع في قرطاجنة مؤلف من نيف وستين اسقفاً عدا الكهنة
والشمامسة تحت رئاسة كبريانوس للنظر في هذا الامر فقرر اخيراً باجماع
الاراء القرار الآتي وهو :

• حيث ان نوفاتوس والذين جاروه على آرائهم عولوا على انتهاج طريق المدواة
وسلكوا مسلكاً بخلاف الطبيعة البشرية كل المحالففة فهو لا يعتبرون منشقين عن
الكنيسة ما داموا يخالفونها في قرارتها . اما الاخوة الذي وقعت عليهم المصائب
الروحية وضلوا السبيل السوي فلازم علاجهم بدواء التوبة الشافي حتى ينفهوها

وقد اتفق المجمع كله على استئناف القضية الى اسقف الاسكندرية
او هو بابا الاسكندرية . اما كرنيليوس الذي اتُّخِبَ حديثاً اسقفاً لرومية
بدل فاييان الشهيد — ذلك لأن تعيين نوفاتوس الفير القانوني لم يقر عليه
الرأي ولا اعترف به احد سوى رهط يعد على الاصابع — كتب الى
ديونيسيوس كتاباً شديد اللهجة متین العبارة يشكو فيه « الشغل الحيث
المحتال » وهو يقصد بذلك نوفاتوس المذكور . امانوفاتوس فكتب
الى دينيسيوس يعتذر عن رسالته الفير قانونية ويقول انه اضطر لقبولها
اضطراراً اجا به لتلمس بعض الاخوة والاحاجهم عليه . فقوارص الكلام
التي طعن بها كرنيليوس وكرييانوس في صدر نوفاتوس لم تؤثر فيه بشيء
ولكن الرسالة التالية التي ارسلها اليه البطريرك دينيسيوس فعلت في قلبه
فعل قطرات الماء في جرف هار وهاك الرسالة :

ديوينيروس يهدي سلامه الى أخيه نوفاتوس — وبعد . فاذا صح
 ما قلته وصدق اعتذارك في انك قبلت الوظيفة بطريقه غير قانونية ضد
 رغبتك فعليك ان تبرهن ذلك بان ترك هذه الوظيفة برغبتك وتبررها
 بارادتك لأن الواجب علينا ان نتحمل كل شيء وندوق كل هوان وعداب
 لا ان نسيء اساءة تؤثر في كنيسة المسيح التي افتد لها بدمه . واعلم هداك
 الله ان الحمد الاسنى والشرف الاعظم يكونان لنا كاملين اذا حننا متنا
 شهداء لاجل الكنيسة من ان نسهل لابنائنا تقديم الذبائح للاوئلين وانكار
 الايمان : ومن رأى ان الذي يموت شهيداً لاجل ايمانه انما يرجح نفسه
 وينال الحمد والثواب لشخصه فقط ولكن الذي يموت لاجل الكنيسة
 فهو يفيض الكنيسة ونفسه ايضاً . والنتيجة انك اذا اقمعت اخوانك واحملتهم
 على اتمام مباديء الاتفاق والوثام فتكون حسناتك قد زادت عن سيرتك
 والا ان لم تستطع التأثير عليهم وخالفوا وساطتك فاعمل على الاقل
 خلاص نفسك وارباءها : وفي الختام اهديك تحنيتي وسلامي على اهل
 انك راغب في السلام عامل على توطيد دعائمه باسم ربنا يسوع المسيح .
 وقد يحتمل ان فابيوس اسقف انطاكية كان مبالاً لاحتداء حدو
 نوفاتوس من حيث التشديد على الذين انكرروا ايمانهم وتابوا ومعاملتهم
 بالعدوان والقسوة ولذلك كتب اليه ديوينيروس كتاباً نافياً على ملخصه
 هنا وهو : بيان العفة والمعصية

هـ اليك مثال عمـا حدث في مـا هـذه الـامور التي تـناقشـ فيها الآـن وـمنه يـظهر
 لكـ كـيف تـصرفـنا نـحن هـذا حدثـ ان رـجـلا هـرـماً اسمـه سـيرـاـيون وـهو مـسيـحـيـ
 لا غـشـ فـيه قـضـى حـيـاة طـوـيلـة بـكـل قـوى وـاماـنـهـ كانـ قد ذـبـحـ لـلـأـوـنـانـ اـنـتـهـاـمـهـاـمـهـ
 اـيـاهـ وـاـكـنهـ عـادـ فـاقـرـ بـذـنـبـهـ وـاسـتـغـفـرـ رـبـهـ عـنـ خـطـيـتـهـ فـلـمـ يـقـلـهـ اـحـدـ اوـ يـرقـ حـالـهـ
 اـنـسـانـ .ـ فـاصـابـ الرـجـلـ مـرـضـ عـضـالـ الزـمـهـ الفـراـشـ وـظـلـ نـلـانـةـ اـيـامـ مـتـواـيلـةـ لاـيـعـيـ
 وـلاـ يـنـكـلـمـ وـفيـ الـيـوـمـ الـرـابـعـ اـفـاقـ قـلـيلـاـ مـنـ غـشـوـتـهـ فـدـعـيـ اـلـهـ اـبـتـهـ الـاـكـبـرـ وـقـالـ لهـ
 هـ لـقـدـ طـالـ يـاـنـيـ زـمـنـ حـيـزـكـ لـيـ فـاتـوـسـلـ اليـكـ انـ تـسـرـعـ وـتـطـلـقـنـيـ مـنـ عـقـالـيـ
 فـارـجـوكـ انـ تـذـهـبـ وـتـأـيـلـيـ بـاـحـدـ شـيـوخـ الـكـنـيـسـهـ .ـ هـلـاـ قـالـ هـذـاـ عـادـ الـىـ
 غـشـوـتـهـ وـصـمـمـهـ وـاماـنـهـ فـاسـرـعـ اـلـىـ شـيـخـ مـنـ مـشـائـخـ الـكـنـيـسـهـ لـيـدـعـوـهـ كـامـرـ اـيـهـ
 وـكـانـ الـوقـتـ لـيـلاـ وـالـشـيـخـ مـرـيـضاـ .ـ وـكـنـتـ فـدـ اـصـدـرـتـ اـمـرـاـ قـبـلـ هـذـاـ الـوقـتـ
 بـقـضـىـ بـاـنـ الـذـينـ عـلـىـ حـافـةـ الـمـوـتـ اـذـ شـعـرـوـاـ بـحـاجـتـهـمـ لـلـتـوـبـةـ وـالـحـواـ فـيـ طـلـبـ الـمـغـفـرـةـ
 يـجـبـ اـنـ يـمـنـحـوـهـاـ حـتـىـ يـنـقـلـوـاـ مـنـ هـذـاـ الـعـالـمـ وـقـلـبـهـمـ مـلـوـءـ مـنـ التـعـزـيـةـ وـالـرـجـاءـ بـالـحـافـةـ
 الـاـبـدـيـةـ .ـ وـعـلـيـهـ جـانـيـ الـفـلـامـ فـاعـطـيـتـهـ جـزـءـاـمـنـ العـشـاءـ الـرـبـانـيـ وـقـلـتـ لهـ اـنـ يـغـمـسـهـ
 فـيـ الـمـاءـ وـيـضـمـهـ فـيـ قـمـ هـذـاـ الرـجـلـ الـهـرـمـ .ـ فـذـبـ الـوـلـدـ مـسـرـعاـاـ مـلـيـنـ الـبـيـتـ وـمـعـهـ لـقـمـةـ
 الـخـبـرـ الـتـيـ اـعـطـيـتـهـ لـهـ وـلـمـ اـقـرـبـ مـنـ مـدـخـلـ الـبـابـ كـانـ سـيـرـاـيونـ قـدـ عـادـ اـلـهـ رـسـرـهـ فـيـهـ ضـ

قـائـلاـ .ـ لـقـدـ جـبـتـ يـاـنـيـ وـلـكـنـ الشـيـخـ لـمـ يـقـدرـ عـلـىـ الـجـيـهـ مـعـكـ فـهـيـكـ اـتـامـ ماـ اـمـرـتـ
 بـهـ وـمـنـ شـمـ اـطـلـقـنـيـ بـسـلـامـ فـقـدـ اـبـصـرـتـ عـيـنـاـيـ خـلاـصـ الـرـبـ .ـ قـبـلـ الشـابـ الـلـقـمـةـ وـوـضـمـهـاـ
 حـالـاـ فـيـ قـمـ اـيـهـ الـذـيـ لـمـ يـلـبـتـ حـتـىـ اـزـدـرـدـهـاـ وـفـاضـ رـوـحـهـ اـلـىـ خـالـقـهـاـ .ـ اـلـمـ يـكـنـ هـذـاـ
 الرـجـلـ قـدـ تـابـ تـوـبـةـ حـقـيـقـيـةـ وـلـمـ يـظـلـ حـيـاـ اـلـىـ اـنـ نـالـ المـغـفـرـةـ وـمـحـيـتـ جـمـيعـ ذـوـبـهـ ؟ـ
 وـهـلـاـ يـعـتـبرـ هـذـاـ الرـجـلـ اـتـقـيـ مـؤـمـنـاـ لـاـجـلـ اـعـمـالـهـ الصـالـحـةـ الـكـثـيـرـةـ الـتـيـ عـمـلـهـاـ فـيـ
 حـيـاتـهـ وـعـنـدـ مـوـتـهـ ؟ـ

وـقـدـ يـذـكـرـ الـقـرـاءـ الـكـرامـ رـجـلاـ اـسـمـهـ بـوـاـسـ النـاسـكـ وـهـوـ اـحـدـ
 اـرـكـانـ الـرـهـبـيـةـ فـيـ بـرـ مـصـرـ فـيـ شـاءـ هـذـاـ الرـجـلـ فـيـ مـدـةـ هـذـاـ الـاـضـطـهـادـ وـلـكـنـ
 شـهـرـهـ لـمـ تـلـعـ حـدـهـ اـلـاـ بـعـدـ اـنـ قـضـاءـ الـاـضـطـهـادـ بـعـدـ طـوـيلـةـ حـتـىـ اـنـ الـبـطـرـيرـكـ

ديونيسيوس فلما يعرف شيئاً عنه. وكان مسقط رأسه مدينة طيبة الوسطى
 ومات أبواه وله من العمر خمس عشرة سنة وترك له ارثاً وأفراً وأملاكاً
 واسعة ساعده على التربية الحسنة التي شب عليها وكان بعد موت أبيه
 يقطن في منزل لاخته التي كانت متزوجة بزوج غير مسيحي وبقي عندها
 إلى أن حدث الاضطهاد الذي أثار غباره دينيسوس فاعتزل منزله في
 الارياف كان لصهره وذلك لكي ينجو بنفسه من هول الاضطهاد وويله
 ولم يمكنه في هذا المنزل المعزلي طويلاً حتى انذرته اخته بان زوجها عقد
 النية على اخبار الحكومة بحقيقة حاله وارشادها إليه حتى تقتنه
 فيتمتع هو بماله وعقاراته الذي يؤول إليه بالارث من بعده. نظر على
 بال بولس حينئذ قول السيد المسيح له المجد «من أحب إخواه أو إختاً
 أو حقولاً أو أخواته كثري متي فلا يستحقني» وعليه وهب أخيه وزوجها جميع
 ما يمتلكه من حطام العالم وصمم على أن يعيش عيشة منفردة في
 الصحاري والقفار ولا يستأنس بأحد إلا بالله كما فعل القديس.
 فردنطونيوس من قبله . جاء إلى شقيقته الوحيدة يودعها وداعاً لالقاء
 بعده وسار تحت مطاليباً الجد في عرض الفلاء قاصداً الصحراء التي كان
 فيها فردنطونيوس على مسيرة يوم من نهر النيل إلى شمالي تنفيس وهناك
 صرف جزءاً من حياته في التجوال والطواف يبحث عن مكان مناسب
 يقيم فيه إلى أن عبر بطريق الصدفة على خلوة تحيط بها كثبان وتلال
 فاصابت غرضه وتحذدها دار إقامة ما بقي من أيام حياته . وكان باب

هذه الخلوة غير ظاهر من الخارج فلا يسعها أحد أن يلجه إلا إذا
 كان عارفاً بها من قبل وعند مدخل الباب توجد ردهة واسعة يمر بها
 النسيم رطباً نافذاً وهي محاطة من جميع الجوانب بصخور صماء يمس
 حتى على الأليل أن تمر عليها وليس بينها وبين القبة الزرقاء فاصل أو حاجز
 بل من كان داخلاً يسهل عليه أن يرى «السموات تنطق بمجده الله
 والملائكة يخبر بعمل يديه» فهي من كل وجه تليق برجل يريد العبادة
 الانفرادية ويرغب فيها. واتفق أن بولس وجد في هذا المكان آلات
 عجيبة الصنع وكثير من المعادن القديمة مرت عليها حقبات من الزمن
 وهي باقية هنالك لم تمسها يد بشر فأخذ يبحث وينتسب عن أصل هذه
 المعادن وسبب وجودها هنا فعرف بما كان عليه من العلم والتربية وفروط
 الذكاء أن هذا الموضع كان يستعمل لصناعة النقود الرائفة التي كان
 يشتغل فيها المزيفون في عهد الملك كليوبترا الشهيرة. وأهم شيء سر
 له صاحبنا هذا أن نخلة بربت من جوف الأرض ونمث في هذه
 الخلوة وكان يجري تحتها ينبوع صغير من ماء كالزلال الذي لم يبق له
 أثر الآن كأنما قد غار في الرمال وانطفى خبره. وفي هذه العزلة الماردة صفتها
 أقام بولس الناسك وقضى في زهدته بتولته مدة تسعين سنة على
 ما يقال فإذا صبح ذلك فيكون مات وعمره ١١٢ سنة لأن عمره كان
 ٢٢ عاماً لما فارق أهله وذويه وعُكِفَ على الناسك. وليس في هذه
 العبارة ما يدعو للعجب والاستغراب بالنسبة لطول حياة بولس الناسك

فإن الباحث المدقق يعرف أن كثيرين من النساء المصريين عمروا طويلاً . أما بولس فكان يقتات في باديء أمره بيلع تلك النخلة ويشرب من ماء النبع الذي ينساب تحتها ولكن بعد قليل بلغ خبره مسامع أهالي البلاد القرية منه وعلموا بما جيلوا عليه من البساطة والسداجة إن رجلاً صالحًا تقياً جاء وقطن على مقربة منهم ولذلك وفدوا إليه زرافات ووحدانًا ومعهم هدايا من خضار وخبز وكانوا يستشيرونه في أمورهم ويهتدون بهديه في حل معضلات أعمالهم فكان يصححهم في الأمور الدينية كما أنه كان يعظهم ويبشرهم بالديانة المسيحية فذاع صيته في الأفاق وسمع به كل مصرى حتى ان أنطونيوس جاءه قبل موته بقليل لزيوده النظرة الأخيرة ويقبل دعواته الطيبات وظل مقيناً معه إلى أن مات فواراً مخدداً^(١)

وفي الوقت الذي فيه نبذ بولس العالم وعمد إلى الرزد كان مئات غيره في جميع البلاد المصرية تركوا كل شيء واتبعوا المسيح بطريق التنسك والاعتزال في الصحاري والقفار ولكن قلماً يعرف شيء عنهم . أما اضطهاد ديسليوس الذي طال واسع بطر قد انتهى الآن وجاء وقت الفرج بعد ضيق شديد وذلك أنه في أكتوبر سنة ٢٥١ ب.م قتل ديسليوس هذا في غارة شنها عليه سكان شمالي أوربا الذين بدأوا

(١) في كتاب العلامة كنجسل عن النساء مجيد شرجاً وأفياً عن تاريخ حياة بولس النساء وكيفية موته قبل ذلك يقتات كالبيضاء بعد ذلك قريراً

يغدون على المملكة الرومانية في سنة ٢٥٠ وبعد موت هذا الامبراطور
 خلفه غالوس الذي أوقف سريان الاضطهاد . وقد كتب البطريرك
 ديوثيوس كتاباً بعد هذا الوقت بقليل إلى اسطفانوس أسقف رومية
 الجديد يثني فيه عاطر الثناء على الكنيسة التي وضعت حداً للشقاق
 الذي أوجده نوفاتوس في الوقت الذي فيه كف الاضطهاد عنها
 ومن وقعوا تحت طائلة اضطهاد ديسيوس القديس مركوريوس
 المعروف «بابي سيفين» وقد استشهد بعد عذاب طويل . هذا القديس
 له عند المصريين منزلة علياء فهم يجلونه ويحترمونه ولذا تجد هم
 قد لفقو عنه أقصى صعيب وخرافات لا طائل تحتها وبالغوا في أمره حتى
 قالوا انه هبط من السماء لقتل يوليانوس المترفض ويؤكدون لك صحة
 هذه الخرافة تأكيد من شهد الشيء بعينه فإذا راجعت كتاب مستتر
 بتلر الانكليزي عن «الكنائس القبطية» تجد في الجزء الثاني منه روایتين
 من الروایات التي يتناقلها المصريون عن أبي سيفين هما من الغرابة بمكان
 أما أوريجانوس فقد أفرج عنه عند موت ديسيوس ولكن هذا
 الأفراج لم يعنـه شيئاً بعد أن ذاق عذابات الاضطهاد ومصائب السجون
 فلم يعش بعد ذلك سوى سنة واحدة ومات في مدينة صور وله من
 العمر تسع وستين سنة ودفن في المكان الذي مات فيه وظل قبره
 معروفاً يحج إليه الزوار إلى أن جر الحراب أزياله على هذه المدينة
 ولا شاهـا من الوجود : وقد بنيت كنيسة عظيمة فوق ضريحه كان يزورها

كثيرون من السياح والرواد وبقيت على عظمتها وأهميتها إلى متصف
القرن السادس عشر إذ زال المكان الذي دفن فيه أوريجانوس ولم
يبق له ذكر سوى في بطون الروايات والتواريخ . ولو ذهبت الآن
إلى صور وسائل أهلها عن ضريح أوريجانوس لاشاروا لك إلى اطلاق
كنيسة قديمة بنيت أ��وا لهم الآن عليها و قالوا المك أن جسد أورينوس
— وهو أوريجانوس عندهم — مدفون في قبو من قباب تلك الكنيسة
هو الآن تحت الأرض

والذي يتصدى لنقد تأليف هذا الرجل العظيم الذي يمد من مشاهير
المصر بين في تاريخ كهذا قد تداولته الأيدي — لا يكون مصيباً في نقه
بل قد يشد عن الحقيقة و يتعدعنها خصوصاً وإن كتبه التي فيها تفوق
الحصر والعد حتى أن أيفانوس نقل عن بعض القاريء المنسوبة في ذلك
العهد أن أوريجانوس ألف نحو ستة آلاف كتاب ونبذة وغير ذلك وهذا
قول لا يخلو من المبالغة والنفوذ وهو غلطة من الناشر الذي كتب ٦٠٠٠
بدل ٦٠٠ بزيادة نقطة لا تقدم ولا تأخر في الكتابة ولكنها تقييد معنى
أكبر وأسع في القراءة والفهم . وعلى أي حال فأن السماة كتاب يؤلفها
رجل واحد كان يستغل بأعمال كثيرة ليس مما يستخف به بل هو عدد وافر قد لا
يأتيه الكثيرون من ذوي المقول الواسعة . ولم يبق من هذه الكتب الكثيرة
 سوى بعضها وأكثر هذا البعض ناقص صنع أهله ولكن الكتب الكاملة
إنما هي عبارة عن شرح مسبب لاكثر اسفار المهدىين القديم والجديد

وردود مفهومه على شلسوس وغيره من الهراتقة الذين جادلهم مشافهة
وكتابة وبين هذه الكتب الموجودة رسائل تحتوي على مواعظ وخطابات
وانذارات وابحاث عديدة في كل موضوع اهمها وشهرها بهذه له عنوانها
«المبادي الأساسية» كتبها في الاسكندرية وعمره اذ ذاك ٣٥ سنة
ثم «ترجمة التوراة الى ست لغات» وقد سبق القول عنها والرد على
شلوس المبتدع «وكيفية الصلاة وفائتها»

ومع ان تاريخ قرطاجنة لا علاقة له بتاريخنا هذا ولكننا لازم
مندوحة من ذكر الحة منه بها يظهر الفرق بين الكنسيتين العظيمتين
في افريقيا هما كنيسة مصر وكنيسة قرطاجنة وفيها تتضح صفات
اعاظم الرجال الذين نبغوا منها في ذلك العهد . فلتأخذ اثنين من
كنيسة قرطاجنة واثنين من كنيسة مصر مثلاً على ما سيأتي . فمن
الاولى طرطوليتوس وهو رجل عمر طويلاً ومات في مدة الامبراطور
ديشيوس ثم كبرياتوس كان في ذلك الحين قد باغ شاؤاً يذكر
من السلطة وطيب السمعة . فإذا انت قرأت ما كتبه ذانك الرجال وقابلت
كتاباتهما مع ما سطره أكلينيكس وأوريجانيوس تتعجب كثيراً
وتسأل عما اذا كان هؤلاء الاربة رجال قد نبغوا في وقت واحد
ويعتقدون اعتقاداً واحداً . وكان يمكن ان الكنسيتين تكونان على
نظام واحد خصوصاً وانهما زرعتا في ارض واحدة بيد رجل واحد
ونزع عن عتا تحت سماء واحدة ولكن الفرق وجد من ان كنيسة

الاسكندرية كانت مصرية النسبة والاصل يونانية اللغة واما كنيسة
 قرطاجنة فكانت فيئيقية النسبة والاصل ولا ينوية اللغة
 والذي يجده نفسه للوقوف على كنه الكنيستين الافريقيتين
 يأخذ العجب والا ندهاش عند ما يرى الاختلاف العظيم بينهما
 في السجایا والتعالیم . ولو ان هاتين الكنيستين تمسكتا بتعالیم الديانة
 المسيحية الجوهرية واعترفتا برب واحد واله واحد الا ان هذه
 التعالیم كانت مثل القمر يظهر نصفه منيراً جزءاً من العالم بينما النصف
 الآخر المظلم الذي يبعد عن الشمس يكون ظاهراً للجزء الآخر
 من سکان الكرة الارضية ولكن مظلم . فعلى هذا القياس كان
 قانون الایمان المسيحي يظهر امام الكنيسة المصرية كنور لامع وضوء
 ساطع ويخلل امام اعين كنيسة قرطاجنة ككتلة من الاسرار المبهمة
 والرموز الغامضة التي لا ي comprehend her العقل ولا يتصورها الادراك . واذا
 سألت طرطوليانيوس او ريجانوس او غسنطينوس عن فوائد الدين
 المسيحي لا جابوك جميعهم جواباً واحداً ولا تفقوا معـاً في جواهره
 ونصلـه ولكنهم مختلفون (أي المصريون والقرطاجيون) اختلافاً
 كبيراً في عمله وتأثيره في قلوبهم واخلاقهم اذ ترى القرطاجي مثلاً
 يسلك الطريق المسيحي من غير الوجهة التي يسلك فيها المصري ولعل سبب
 هذا الاختلاف والتباين في سلوك الكنيستين اختلافهما في دياناتهم ما الوثنيتين
 القدیمتین اللتين ظل تأثيرهما فيما حتى بعد اعتناقهما الدين المسيحي . فاذ

بحثت مثلاً في ديانة القرطجنيين القديمة وجدتها ديانة مركبة من عقائد
 صارمة وعوائد قاسية تفضي بتقديم الذبائح البشرية وتحكم على المتسكين
 بها وجوب الانتقام من المسيء ولو طال عليه المطال ومررت عليه الأيام
 وللأيام وهي عادات أو فرائض كان القوم يفتخرن بها ويتباهون بانفاذها
 فلما دخل القرطجنيون داخل حظيرة المسيح وليسوا أثواب لديانة المسيحية
 القشيب ضعفت فيهم روح القسوة وحب الانتقام ولكنها لم تنزع تماماً
 بل ظل أثرها موجوداً في صدورهم كما تشاهد أثر الشمس في الأفق
 عند الغروب ولذلك كان طرطوليانيوس مثلاً يعتقد أن الله هو الله يسر
 بعذاب مخلوقاته التي تشنّد عن طاعته ويفرح بالانتقام من الذين يخالفون
 ويحيدون عن طريقه السوي وأنه يفتقد ذنوب الآباء في الآباء ويدخُر
 العقاب من جيل إلى جيل : ولما كان الطبع البشري يميل من عادته إلى
 مثل هذه المباديء ويود لو أن يصرح للإنسان أن ينتقم ويقصاص كل
 من يغافله ويغضبه عم هذا الروح كل الكنيسة الغربية التي سارت على
 تعاليم أو غسطانيوس من حيث تشديد العقاب على كل من اساء ولو
 اساءة صغيرة وتشير كل من اقترف ذنباً وهو تعليم صارم جرى
 عليه الكنيسة الغربية نقلًا عن كنيسة قرطاجنة بينما رفضت تعاليم أو ريجانوس
 التي تأمر بالمحبة والتساهل والمساحة وغض النظر عن المفروقات والذنوب
 وتجاهلت تواضعه ودماثة أخلاقه ولم تكتف بذلك بل حكمت عليه بالهرطقة
 والابتداع ولا ذنب له يستوجب ذلك اللهم إلا أن يكون على أفكاره

وغرارة مادته وبحره في العلوم والمعارف التي كانت تسر بها نفسه ويصبو إليها قلبه . والنتيجة أن الكنيسة الغربية استهانت تعاليم أوغسطينوس الصارمة وحسبته ضمن أعمدة الكنيسة بينما خطأات روح أوريجانوس الحبية وشجوبه شجياً ولا عجب في ذلك ولا غرابة ما دام الإنسان يميل إلى ما يوافق طبيعته المنحطة وافكاره الساقطة

فـكـنـيـسـةـ قـرـطـجـنـةـ الـتـيـ مـرـ بـكـ وـصـفـهـاـ قـدـ زـالـتـ مـنـ الـأـرـضـ وـاخـتـفـىـ منهاـ العـيـنـ وـالـأـثـرـ وـاـمـاـ الـكـنـيـسـةـ الـمـصـرـيـةـ فـلـمـ تـزـلـ باـقـيـةـ لـاـيـوـمـ وـلـمـ تـخـتـلـفـ شيئاً عنـ الـكـنـيـسـةـ الـاـصـلـيـةـ بلـ هـيـ دـرـسـ جـوـهـرـهـاـ وـصـورـةـ مـجـدـهـاـ . وـقـدـ وـصـفـهـاـ اـحـدـ الـعـلـمـاءـ الـعـصـرـيـنـ -ـ هـوـ مـسـتـرـ بـلـرـ الـانـكـلـايـزـيـ -ـ الـمـشـهـورـ بـعـيـلـهـ إـلـىـ الـكـنـيـسـةـ الـقـبـطـيـةـ وـحـبـهـ لـهـاـ فـقـالـ اـنـ نـظـامـ هـذـهـ الـكـنـيـسـةـ يـمـتـازـ عـنـ نـظـامـ الـكـنـائـسـ الـأـخـرـىـ شـرـفـاـ وـرـفـعـةـ لـتـجـرـدـهـ مـنـ كـلـ مـاـ يـشـينـ وـيـهـيـنـ وـاـنـهـ اـسـمـيـ الـكـنـائـسـ وـلـوـ اـنـهـاـ وـصـلتـ الـآنـ إـلـىـ درـجـةـ مـنـ الـانـحـاطـاطـ يـأـسـفـ عـلـيـهـاـ مـحـبـوـهـاـ . وـالـذـيـ يـرـفـعـ الـكـنـيـسـةـ الـقـبـطـيـةـ فـيـ اـعـيـنـ الـعـقـلـاءـ هـوـ اـنـهـ قـاسـتـ مـنـ الـاضـطـهـادـاتـ الـمـرـيـعـةـ مـاـ يـكـنـىـ لـاـضـحـلالـ الـمـمـالـكـ وـعـانـتـ مـنـ الـعـذـابـاتـ وـالـمـشـقـاتـ مـاـ لـمـ يـقـعـ لـايـ كـنـيـسـةـ اـخـرـىـ فـيـ الـعـالـمـ وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـزـلـ حـيـةـ نـامـيـةـ وـقـدـ سـاعـدـهـاـ عـلـىـ الـحـيـاةـ الـعـوـيـلـةـ هـذـهـ رـوـحـ الرـجـاءـ وـالـأـمـلـ الـلـذـينـ نـشـأـ مـعـهـاـ وـثـقـهـاـ الـوطـيـدةـ فـيـ مـخـلـصـهـاـ وـفـادـيهـاـ . وـاـذـاـ اـنـتـ طـفتـ الـكـنـائـسـ الـمـصـرـيـةـ وـدـخـلـتـ اـفـقـرـ وـاحـقـرـ كـنـيـسـةـ مـنـ الـكـنـائـسـ الـقـبـطـيـةـ لـرـأـيـتـ عـلـامـاتـ الرـجـاءـ وـالـأـمـلـ تـبـدوـ عـلـىـ جـدـرـاهـاـ وـقـلـماـ

شاهدت فيها صورة تشير الى جهنم او عذاب مقبل بل قلما وجدت فيها تمثال ججمة باهته ولا هيكل عظام عار مما يشير الى آلام وسقام ولكن ترى شهداءها تبتسم تمايلهم المرسومة على الجدران كأن ما قاسوه من العذابات والاضطهادات لم يكن شيئاً يذكر بل اصبح نسيجاً منسياً وهناك تشاهد القديسين الابطال مصورين بشكل يدل على انهم قتلوا ثعباناً او احد رؤسائه هذا العالم الشرير دون ان يجدوا في قتلهم عذراً يذكر اما آلامهم او وجاعهم فليس لها اثر في ذلك الرسم كما لا تجد صورة تمثل الخطاطيء بعد موته مما تشتمز منه النفس وتنكمش لمرآه الروح. فهو لاء الاقياء الابرار الذين اسسوا الكنيسة القبطية بدمائهم كانوا يطربون انفسهم بين يدي الله وهم مسرورون فرحون كما انهم كانوا يطلبون رحمة منه على الذين كانوا يضطهدونهم ويديقونهم الحسف والجور.

الفصل التاسع

اضطهاد فالريان للمسيحيين . سنة ٢٥٤ بـ ٠ م

بعد موت ديسليوس تزاحم القوم وتعاركوا كعادتهم للحصول على الملك وانتهى الامر اخيراً بارتفاع غالوس العرش الملوكي وظل قابضاً على صولجانه مدة سنتين ثم استلمه ابنه ايميليانوس الذي نادى بنفسه امبراطوراً وبقي مقيماً بضعة شهور في مقاطعة بانوزيا . ففي هذه المدة خفت وطأة اضطهاد عن المسيحيين ولكن داء الدفتيريا (الخانوق) الذي اشار اليه

ديوينيسيوس في جواب يلي كان قد انتشر في البلاد ربما قبل حكم
 غالوس وبعد ذلك انتشاره في مصر
 وفي شهر يوليو سنة ٢٥٤ بـ ٠ م نودي بفالريان امبراطوراً على
 المملكة الرومانية وهو رجل من سلالة عائلة رومانية طائرة الصيت
 كان قد تقلب في اهم مناصب الحكومة ورتبها وبعد ان استتب له الامر
 اشرك معه ابنه غالينوس في ادارة شؤون المملكة . وقد رأيت فيما من
 بك ان الامبراطرة الرومانين كانوا يتغافلون بسرعة على الكريبي
 الامبراطوري ولم تطل مدة احكامهم بل كانوا يمرون على العرش مصر
 السحاب في الصيف ويظهر ان داء التغيير السريع والابدال المتواتي عم
 اساقفة رومية ايضاً فساواوا امبراطورهم في كثرة التغيير والتعاقب فانه
 منذ عهد تعيين ديوينيسيوس بطريركاً للكنيسة المصرية تعيين في رومية
 من الاساقفة فاليان وكرنيايوس ولوشيوس واسطفانوس ثم اكسيستوس
 الذي كتب له ديوينيسيوس في ذلك العهد كتاباً ي شأن رجل عمدة
 الهراطقة المشار اليهم هم من اتباع نوفاموتوس اسقف رومية الغير
 القانوني الذي كان يعلم بعدم وجود مقدرة للخطايا التي يرتكبها الانسان
 بعد عماده وهو تعلم اثر تائيراً سوء العا ق في انه جعل الكثرين
 يؤجلون عمادهم الى ساعة احتفارهم كما فعل الامبراطور قسطنطين .
 وقد سار فالريان على الخطوة التي سار عليها اكثر الامبراطرة الرومانين
 في انه اظهر ميلاً وانتهافاً نحو المسيحيين في اوائل حكمه وكان قصره

منتدي يؤمه المسيحيون وكثيرون منهم استخدموه عندـه . الا انه كان
 مغرماً كثيراً بحكمة المصريين القدماء وعلومهم يحب المتضلعين منهم بهذه
 العلوم حتى انه اتخذ احد المصريين واسمه مكريانوس الحاكم القضائي
 مشيراً له وكان يثق به تماماً الثقة وكان البطريرك ديونيسيوس يلقب
 مكريانوس هذا « استاذ السجدة المصريين ورئيسهم الاعظم » وربما كان
 يقصد بذلك ما لMKريانوس من التأثير الشديد في عقل الامبراطور كما
 كان يؤثر كهنة المصريين القدماء في اذهان الملوك ويقتادونهم وراءهم .
 وعلى اي حال فان مكريانوس كان متسلكاً اشد التسلك بديانة اجداده
 القدماء ولذلك كان لا ينفك يلح على مولاهم الامبراطور ليقنعه بان
 المصائب التي تحيق بالملائكة سببها تعااضي الآلهة الحقيقين « يقصد بهم
 آلة المصريين الندماء » عن المملكة واهماهم شأنها والتاريخ يخص للناس
 بان يعتقدوا بخرافة لا اساس لها وهي صلب ذلك النجار « اعني به
 يسوع المسيح » . وقد صادف قول هذا الرجل قبولاً خصوصاً وان
 المملكة كانت في ذلك الحين واقعة في اشد المصائب ومحاطة باقوى الملايات
 لدرجة لم يسبق لها مثيل اذ اكتنفها البراءة وسكان شمالي اوروبا
 والجرمانيون والفرنساويون والبورغنديون والفرس من كل ناحية وانهاروا
 على المقاطعات الرومانية كالسيل الجارف وكانوا يبيثون في الارض
 فساداً ويهلكون الزرع والضرع في كل بلدة وطائتها اقدامهم وصاروا
 يحرثون في طريقهم مدينة بعد اخرى مبتدئين من طاراقونا في اسبانيا

إلى انطاكية في سوريا . وما زاد الطين بلة أن الدفتيريا التي بدأها
 قبل موت ديشيوس زاد انتشارها وعم بلاوئها خصوصاً في بر مصر
 حيث بقيت خمس عشرة سنة تفعل في الناس فعل الصارم البثار . وقد
 ألقى البطريرك ديونيسيوس تبعة تجديد الاضطهاد على عاتق مكريانوس
 وعزى إليه سبب كل شر وقع على المسيحيين وهو أمر لا يستوجب
 الريب لأن مكريانوس عدو لدود لديونيسيوس ورعايته دينياً وقد عرفنا
 أنه ملاء قلب الامبراطور بغضه وحقداً على المسيحيين أخوه في الوطنية
 الذين لم يتكلم عنهم كلمة واحدة توجب الشفقة والحنان

وقد عامت فيما مضى أن جرمانوس أحد أساقفة الأقاليم المصرية
 كان قد أرسل إلى بطريركية ديونيسيوس يلومه لأنه هرب في أيام
 الاضطهاد الذي أحدثه ديشيوس وقد عاد جرمانوس فارسل جواباً
 إلى ديونيسيوس أيضاً يعنفه فيه لأنه أمر بابطال الاجتماعات الجمهورية
 في الكنيسة فرد عليه ديونيسيوس بكتاب يصف له فيه كيفية القاء القبض
 عليه وأحضاره مع قومه أمام الوالي واعترافهم جميعاً بيعانهم وكيف انهم
 أرسلوا أسرى ليسجنوا في مكان اسمه سيفرد شمالي القطر المصري .

قال ديونيسيوس : -

« ولما حللنا سيفرد التف حولنا جم غفير من الأخوة الذين جاءوا معنا
 من الإسكندرية ومن الذين وفدوا علينا من مصر بعد وصولنا إلى هنا أو هكذا
 مهد الله سيدلا لكتمه في هذه الجهة كما في كل الأماكن الأخرى . صحيح أن
 أعداءنا في باديء الأمر اضطهادونا ورسقونا بالحجارة ولكن أخيراً ترك كثيرون

من الوئذين اصناهم ونبذوها ظهرياً واقتربوا الى الله بقلوبهم لأن كلته غرست في افتشتهم كما يغرس البذار في ارض ذات زرع وكانوا لم يسمعوا عنها من ذي قبل .
 وكان الله جل وعلا اراد ان يأتي بنا الى هذا المتقى لنذيع بشرى الخلاص فيه فلما تم ذلك وافلحنا شاءت مشيئته ان ننقل الى مكان آخر هذه الغاية عينها وذلك ان ايام ايانوس ابن الامبراطور غالوس قصد ان ينقلنا الى اماكن اشد ضرراً واكثر تعباً مشحونة بالمخاوف والمخاطر ثم امر مكان اقام مرليوط ان يتسلموا في مكان واحد خصص لهم وعين لهم قرى معروفة يقيمون فيها فيما بعد اما نحن والذين تبعونا فاوصل بان نقى مطروحين في الطريق بلا مأوى ولا ملجأ لانه لم يكن يشك في اننا انس لا نركن للفرار ولا نميل للهرب بل وثق انه متى اراد يسهل عليه القبض علينا بدون مشقة . ولا اخفى عنك انه عند ما صدر اليه الامر بالارتحال الى سيفرد هذه لم اكن اعلم الى اين اسير ولا اعرف شيئاً عن المكان الذي اتي اليه بل كنت بالكاد اعرف اسمه من قبل ولذنبي كنت فرحاً جدلاً لعلمي ان هكذا كانت ارادات الله الا انه لما اسروني بالانتقال الى مكان اسمه كولونيوس تأثرت تأثيراً شهده الحاضرون لاني علمت بان هذا المكان سيكون سجناً لي لا استطيع فيه ان اتم العمل المطلوب .
 على اذني مع اني كنت عالماً بهذا الافليم وادثر خبرة به من غيري ولكن قيل لي انه خال من الاخوة المسيحيين وايس فيه احد من افضل الرجال الذين تلتذ النفس لعاشرتهم فضلاً عن انه عرضة لوقاحة المسافرين ورذائهم ومكمن للصوص وقطع الطرق الا ان بعض الاخوة واسوني اذ اخبروني انه قريباً من مدينة الاسكندرية .
 واما يسر القلب ان سيفرد التي نقينا اليها جمعتنا بكثيرين من الاخوة المسيحيين الذين لم نكن لنراهم لولاها وبواسطة اجتماعنا وارتباطنا تمسكاً من شر كلية الله واذاعة خبر الخلاص بطريقه لم نكن لنجعل عليها لولا هذا المتقى . واز كانت الاسكندرية قرية من المكان الذي كنا نقيم فيه تمعنا كثيراً بمشاهدة الذين نحبهم ونميل اليهم وقد كانوا يجتمعون لزيارتنا دائماً ويكثرون معنا طويلاً ولذلك كينا نمثل جمعية عظيمة كانت تلتزم في اقصى مكان من الاسكندرية ولم تزد هذه الجمعيات توالي انعقادها لسماع كلة الله حتى بعد ان تركناها ورجعنا الى مدینتنا .

قال يوسيوس ان بين القسوس والشمامسة الذين اشار اليهم
 ديونيشيوس في جوابه المار ذكره قس اسمه فوستس استشهد في
 الاضطهاد الذي اوجده ديوكلتيان كما سيفجيء وكان قد بلغ من
 الكبر عتياً ومن الذين ذكرهم ديونيشيوس في جوابه مكسيموس الذي
 عين بطريقاً بعده ويوساب الذي سيم فيما بعد اسقفاً للادوكية
 واما رواه ديونيشيوس انه بعد ان آب من منفاه الى الاسكندرية لم
 يوجد من شمامسة الكنيسة سوى ثلاثة فقط مع انه ترك عدداً وافراداً
 منهم ظلوا مختبيئين في مکانهم وكانوا ينتهزون الفرصة ليعظوا الاخوة
 ويلشرونهم ولكنهم ماتوا جميعهم بداء الدفتيريا ولم يبق الا اولئك
 الثلاثة المذكورين وهم فوستس ويوساب وكويرموسى
 وقد استمر اضطهاد فالريان للمسيحيين مدة ٤٢ شهراً وانتهى في
 سنة ٢٦٠ م اذ وقع هذا الامبراطور في ايدي الفرس حياً وظل
 في اسرهم الى ان مات وكان قد خلفه ابنه غالينوس الذي عقد محالفه
 مع اوديناؤس ملك تدمر (بالميرا) واتخذ له صديقاً في الشرق
 الادنى وفرض اليه الدفاع عن حدود المملكة وصد هجمات الفرس
 عنها . وكان من اعمال غالينوس ايضاً انه ابطل الاضطهاد حتى تسنى
 للبطريك دنيشيوس ان ساح في القطر المصري سياحة طويلة افقد
 فيها رعيته التي كادت تتفرق ايدي سبا من احوال الاضطهادات كما
 انه دشن كنائس ورسم خداماً لها حسبما دعت الحاجة الى ذلك وبذل .

جهده في تعزية شعبه ومواساته في مصائبها كما هو الواجب المحم على
 كل راع صالح ولما وصل في سياحته إلى ابو روسيته ارسينو في (الفيوم)
 وجد فيها شقاوة ما كاد يبتدىء حتى استفحلا أمره وخيف من نتيجته
 واتماماً للفائدة نأى على وصف هذا الشقاق وأسبابه وكيفية تصرف
 هذا البطريرك لازلتله فنقول
 كان في هذه الابروشية قبل ذهاب البطريرك إليها اسقف اسمه
 نيوس اشتهر بالعلم والفضل وسمو المدارك حتى ان شعبه كان يثق به
 ثقة العمى بدليله وينقاد إليه انقياد الخراف لراعيها . هذا الاسقف اخذ
 يعلم رعيته تعليماً جديداً وهو قرب الزمن الذي يملك فيه المسيح الف
 سنة على الارض كمل ارضي يأتي بنفسه ويتولى الملك بذلك وقد فسر
 لهم كل ما ورد عن هذا الموضوع في سفر الروايا تفسيراً حرفاً والف
 كتاباً اعترض فيه على الذين يذهبون إلى أن ما جاء في هذا السفر هو
 مجاز محض ثم اجمد كثيراً في أثناء حياته باقناع شعبه بقبول هذا التaim
 قبلوه على علات دون خص او استقصاء عما يعتقد به باقي اخوهم المسيحيين
 في المكونة . وحدث بعد موته ان اشتدت بينهم المجادلات والباحثات
 في هذا الموضوع واخيراً انشق منهم جماعة اتخذت رجلاً اسمه كراسيون
 زعياً لها . وكان لحسن الحظ ان شعب الابروشية بما كله اتفق على
 رأي واحد هو استئناف الحكم في هذه المسألة للبطريرك حال وصوله
 إليهم لا عتقادهم بكفاءته على حل المعضلات وفض المشاكل . فلما جاء

(ديونيسيوس عندهم اجتمع حوله القوم فقابلهم بكل بشاعة وainas بدون تمييز احدهم عن الآخر ودما اليه كهنة وشامسة الابروشية وبعض علماء العلانيين الذين استحبهم لهذا الفرض واقتراح عليهم البحث والمناقشة في هذا الموضوع ولكن بروح الاخلاص والمحبة وان تقراء على مسامعهم النبذة التي كتبها نيوس في هذا الصدد بصوت عال ثم يفحصونها وينبئون فيها الى ان يتوصلا لرأي سديد يقر قراهم عليه ويكون القول الفصل في هذا المشكل فينتهي الامر على تمام الصفاء والوئام . فرضي الشعب بهذا الرأي الثاقب وظلوا ثلاثة ايام متواتلة يلشمون من الصباح الى المساء حول البطريوك الذي كان جالساً في وسطهم — كما ترى في ايماناً بهذه بعض المشائخ يجلسون في حوش الجامع الازهر وحولهم المجاورون يتکاً كانوا عليهم كذلك كؤهم على ذي جنة يسألونهم ويستفسرون منهم ولكن الفرق بين هؤلاء وآولئك ظاهر كالسبع — وكانت نتيجة هذا الاجتماع ما استقر بهم في الرسالة الآتية التي كتبها ديونيسيوس نفسه وهي

«انه ليسبني جداً ان اعلن على رؤوس الاشهاد ما شاهدته في هؤلاء الاخوة من الشفاف والاخلاص والمحبة والذكاء عند ما بدأنا بالبحث في هذا المضلل وكيف انهم تبادلوا الاراء وتناقشوا في الاسئلة والابحاث بروح الاعتدال والمدو اذا تجربتنا بقدر الامكان الاصرار على صحة الارفكار التي تتفق معنا ولو ثبتت صحتها قبل ان ننحصها جيداً ونختنها كثيراً كما اننا لم نصرف جهدنا في المعارضات والمحاكمات بل سعينا جهد استطاعتنا في ان لا نشد عن الموضوع الذي نتافق فيه ولا ان نتركه الى غيره قبل ان نبت فيه حكمـاً نهائـاً . ومن احسن ما يقال في

هذا الشأن انه اذا عرض لاحدنا ان يغير فكره في ما يعتقد وشعر بخطائه لا ينجذل في اعلان ذلك والمذول عنده طريق الصواب بقوة الحججة ومتانة البرهان بالخلاص وطهارة قلب ما دامت غايتها الاقناع بما ورد في كتاب الله الطاهر والتسليم بتعاليمه المقدسة وكانت النتيجة ان كوراسيون - متبوع هذا التعلم وزعيمه - اعترف امام جميع الاخوة جهاراً بخطائه وعقد النية على مسمح منا جميعاً بان لا يمود يمسك بهذا التعلم ولا يتباحث فيه مع احد ولا يفوته ببنت شفة فيما يتعلق به وذلك بعد ان اقتنع تمام الاقناع بفساد ارائه وصحة آراء الذين يذهبون غير مذهبهم وقد سر جميع الحاضرين لنتيجة هذا المؤتمر الروحي وانتروا ينتون ويشكرؤن ما شاهدوه في بعضهم من الميل الى الاسلام والابتعاد عن كل ما يوجب الشفاق والخصام ولم يكتف ديوينيسيوس بذلك بل خطر على باله فيما بعد ان يدحض هذه الافكار كتابة فالله فذلككة دعاهما «الموعيد الآلهة» لقتطاف منها ما يأتي : -

«لقد تمسك البعض بما كتبه نيوس وجعلوا له اهمية عظمى كأن ذلك الرأي من الحقائق الثابتة التي لا يمكن دحضها حيث اكد لهم ان المسيح سوف يملك ملكاً ارضياً هذه هي المسألة التي اختلف فيها مع نيوس وانقضها نقضاً واما في ما عدا ذلك فاني وایاه على مبداء واحد كما اني اقول صراحة فاني احبه جداً متيناً لا تؤثر فيه المذاقات ولا يزعزعه اختلاف في الرأي ولا انكر اني اقدر هذا الرجل حق قدره لقوته اي انه وقواه وتضلعه في الكتاب المقدس ولانه انسان شديد الذكاء حازم الفكر حتى انه وجده التفاته مررت لتجبن المزامير للتربيل فقاد الكثيرين بهذا العمل الجليل وانار اذهانهم . وما زلت احترم هذا الرجل واحبه لانه مات موت الاعقیاء المسلمين وفارق هذا الدار الفانية دون ان يرهبه الموت او يخشى ظلمة الرمس والتبيحة انه يجب على كل عاقل ان يحبه ويفضله على كثيرين غيره . اذا فردي عليه وبختي فيما كتبه ودحضي لافكاره لا يعتبر عملاً عدائياً له لانه اذا تحتم علينا ان نقبل الحقيقة ولو كانت صادرة من اعدائنا ونجاها باستحسنهانا للحمد لله

ولو كان من اقل الناس واصفهم كذلك يجب تقويض اركان كل قول لم يبن على اساس متيقن وتسفيه كل رأي لم يؤسس على المباديء الصحيحة والتماليم الحقة ولو صدر هذا القول من اعز الناس لدينا واكبرهم دقاماً عندنا ولو كان نيوس حياً لما اقدمت على الرد على افكاوه كتابة بل لاكتفيت بالبحث الشفاهي معه حتى افخمه بقوة البرهان واستعمله مع انصاره جانب الحق بواسطة اللسان فقط ولكن حيث ان تعاليمه هذه نشرت مكتوبة ومال الناس لتصديقها والاقناع بصحتها كما انه من الجهة الاخرى يوجد بعد معلمين يذهبون الى ان الناموس والانبياء لا قيمة لهم ثم تدرجوا بعد ذلك الى مبدأ الانجيل والازداء برسائل الرسل واذاعوا ان تعاليم نيوس هذه اما هي سر غامض لا يتضمن لاحد حمله مع ما فيه من الاهمية وهم يعلمون كل ذلك ولا يفهمون شيئاً عن الحقائق المسيحية ولا يدركون معنى ظهور مخلصنا الثاني ظهوراً آهياً مجيداً ولا يفهمون كيف اتنا نقوم في يوم القيمة اذ تغير من شكلنا الحاضر وتلبس صورة الله حيث ثاتقي معه في السحب عند ظهوره ليدين الاحياء والاموات الامر الذي لا يدوكه او يلوك المتشدقين زوراً بل هم يعتقدون بذلك ارضي زائل لا نتيجة له ولا فائدة منه ولا هو من التعاليم التي تؤمن بها الكنيسة – فلا جل هذه الاسباب جميعها الجائني الضرورة ان انا نقشنا نيوس كالو كان حياً وارد عليه كتابة حتى لزبل ما علق بالازهان من تعاليم تافهة وخرافات مضلة لأنمرة منها

ولم يقتصر البطل برك ديوينشيوس في كتابه السالف ذكره على الرد على نيوس بل افاض في البحث في سفر الرؤيا بمحاجةً دقيقةً وأبيان الخطاء الكبير في فهم هذا السفر بمعناه الحرفي وقال انه عبارة عن رهوز ونبوات تم بعضها وسوف يتم البعض الآخر ثم أورد البراهين والادلة على ان كاتب هذا السفر ليس يوحنا الرسول ولكننه قال صريحاً ان الذي كتبه هو شخص اسمه يوحنا ولا ينكر انه سفر وحيٍ به من الله وان الذي

سطره هو رجل أوحى اليه من الروح القدس . ثم قال نه يبعد ان يكون
 كاتب انجيل يوحنا هو ذاته الذي كتب سفر الرؤيا الا انه استدرك وقال
 « اما انا فلا يمكنني ان ابدي رأيآ خصوصياً عن هذا السفر كأن يكون
 منع قرائه والتحريض على عدم البحث فيه ما دام اكثير الاخوة
 المسيحيين يجلونه كثيراً ويعملون بطالعته وفهم رموزه ميلاً ظاهراً »
 فها تقدم يتضح للقاريء الحطة التي سار عليها البطريرك ديونيسيوس
 في الانتقاد والروح الذي استعمله في تفزيذ الاراء المعاذرة لتعاليم المسيحية
 وذلك انه كان يفهم كلامه بالحججة والبرهان شأن الباحث المدقق والمصالح
 الحقيقة لا بالمهاترة والبهتان وهو دأب قابل البضاعة ضعيف التوقيع العقلانية
 الذي يفاخر ويهاقر بكلام مبروش لا فائدة منه لمن يريد الفائدۃ ولا حجة
 فيه لمن يهمه البرهان . الا ان ديونيسيوس لم يكن لديه من مشاغل
 وظيفة وقت يساعدہ على الارتفاع في هذه المؤلفات والردود بل ان
 رسائله الرعوية التي كان يبعث بها للأساقفة والكرنة والشمامسة واعظاً
 وحائطاً على العمل في كرم الرب لم تدع له فرصة للاشتغال بغيرها بل كان
 بالكاد يكتبها ويرسلها اذا ساعدته الظروف على ارسالها في هاته الايام
 الصعبة التي كانت اذا خدمت نار الاضطهاد قليلاً التهبت نار الحروب
 الاهلية طويلاً بين اولئك الابراطورة الذين كانوا يخاصمون ويتناقضون
 على العرش الروماني حتى ان الامن والسلام لم يكن لهم سبيلاً في هذه البلاد
 ففي هذا الحين وضع مكريانيوس المصري الوثني التاج الملوكي على واسه

وسي ليضع كل المملكة تحت سلطته ويضمها تحت لوائه . الا انه كان من الصعب على مصر التي اصبحت الان مسيحية ان تقبل هذا الرجل حاكماً عليها ولو انه من لمحاتها ودمتها ولكنـه اظهر عداوة مردة لابنائها المسيحيين وناصـبـهمـ الشـرـ والمـدـواـنـ منـ قـبـلـ الـآنـ . وقد شعر بذلك ايـمـيلـيانـوسـ الـواـليـ فـقـامـ فيـ وـجـهـ مـكـرـيـانـوسـ هـذـاـ وـفـيـ وـجـهـ غـالـينـوسـ الـذـيـ كانـ يـعـيشـ فيـ رـوـمـيـهـ عـاـشـةـ مـصـرـ خـاـمـلـ فـاتـحـلـ ايـمـيلـيانـوسـ لـفـسـهـ اـسـمـ «ـ اـسـكـنـدـرـ »ـ وـحـكـمـ مـصـرـ مـدـةـ قـصـيرـةـ اـظـهـرـ فـيـهـ اـكـلـ اـنـوـاعـ اـشـدـةـ وـعـنـفـ وـلـكـنـهـ جـالـ يـفـتـقـدـ اـحـوـالـ الـبـلـادـ وـطـرـدـ مـنـهـ الـبـرـاـبـرـ الـذـينـ جـاؤـهـاـ مـنـ الـجـنـوـبـ وـارـجـعـهـمـ الـقـهـقـرـىـ اـلـىـ السـوـدـانـ بـشـجـاعـةـ وـسـرـعـةـ لـمـ يـحـاـمـواـ بـهـمـاـ مـنـ قـبـلـ . ثـمـ اـنـهـ اـبـطـلـ الـجـزـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـسـلـ اـلـىـ رـوـمـيـهـ فـتـفـأـلـتـ مـصـرـ خـيـرـاـ بـاعـادـةـ اـسـتـقـلاـلـهـاـ الـذـيـ فـقـدـتـهـ مـنـ قـدـيمـ . وـلـمـ يـزـهـرـ غـرـسـ ايـمـيلـيانـوسـ حـتـىـ جـاءـهـ بـيـوـدـوـتـسـ قـائـدـ جـيـوشـ غـالـينـوسـ وـشـنـ عـلـيـهـ الـفـارـةـ فـيـ الـاسـكـنـدـرـيـهـ قـاصـداـ بـذـلـكـ اـسـتـخـلاـصـ الـمـلـكـةـ الـرـوـمـانـيـةـ فـيـ يـدـهـ فـاـسـرـعـ ايـمـيلـيانـوسـ وـتـحـصـنـ فـيـ حـيـ بـرـوـخـيـومـ حـيـثـ القـصـرـ الـامـبـراـطـورـيـ وـحاـصـرـهـ بـيـوـدـوـتـسـ حـصـارـاـ شـدـيدـاـ بـعـدـ اـنـ اـسـتـحـوـذـ عـلـيـ ماـبـقـيـ مـنـ المـدـيـنـهـ . وـفـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ كـتـبـ الـبـطـرـيـكـ دـيـونـيـشـيوـسـ كـتـابـاـ اـلـىـ هـيـرـاـكـسـ اـحـدـ اـسـاقـفـةـ مـصـرـ يـصـفـ فـيـ الـحـالـةـ وـصـفـاـ دـقـيـقاـ حـيـثـ قـالـ :ـ

«ـ مـنـ الـامـورـ الـتـيـ تـوـجـبـ الـعـجـبـ وـالـانـدـهـاشـ اـنـهـ كـثـيرـاـ مـاـ قـامـتـ فـيـ وـجـهـ صـعـوبـاتـ جـةـ فـيـماـ يـخـتـصـ بـاـرـسـالـ رسـائـلـ اـلـىـ الـاـنـحـاءـ النـازـيـةـ

بينما قد اصبحت الآن في مركز يحتم على ان احتاط لنفسي من الفوائل
 واتدبر في امر به امنع الشر الذي يحدق بي في هذه الايام السوداء كما
 اني اشعر بضرورة قصوى في ان ارسل مكاليم دينية وواعظ وجوابات
 ودية الى الخوتي في الرب الذين احبهم كنفسي واعزهم سكينة عيني
 الذين هم اعضاء الكنيسة واركانها ولكنني احترت في كيف ابعث بهذه
 الرسائل اليهم اذا انه يتسلل على المرء ان يجوب البلاد من مشرقها الى
 مغاربها ويطوف سهولها وفيافيها ولكن يشق عليه جداً ان يسير في احد
 شوارع الاسكندرية او ان يخطو خطوة فيها في هذه الايام التي اشتذ
 فيها الحصار حتى اصبحت المدينة خربة وسار يسر المروء فيها أكثر من
 خراب تلك الصحراء المقفرة التي سار فيها بنو اسرائيل وعبروها في مدة
 اربعين سنة بسهولة لا نشعر بها نحن الآن في الاسكندرية ومن الغريب
 ان البحر قام للاشراك في هذه المصائب فانك ترى ميناء الاسكندرية
 التي كانت صقيقة كالمرأة والبحر ساكن هاديء واذا به الآن يتعج
 ويمطر ويعلو وينخفض فاشبه بذلك البحر الاحمر الذي انقسم الى شطرين
 وقامت مياهه كالاسوار المنيعة على الجانبين الى ان عبر فيه شعب الله
 وتبعد المצריون فاطبق عليهم وغرقوا في لجه وراحوا في غمراته .
 ولم يكن وجه الشبه بين بحرنا والبحر الاحمر انقسامهما وهديرهما فقط
 بل ان بحرنا اشبه هذا في اللون ايضاً وامست مياهه حراء كالبقم لكثره
 ما سال فيها من دماء المذبوحين الذين فارقو حياتهم بالقرب منه حتى

ان النهر ^(١) الذي كانت امواجه تفيض و تكاد تعمر المدينة اصبح الان
 وهو انشف من صحراء محروقة وأُقْفَرَ من القفر الذي عطش فيه بنو
 اسرائيل حتى اوشك ان يقتلهم الظباء عندما تزمروا على موسى فقام
 وضرب لهم الصخرة فناشت منها المياه زلالا بقوة الله القوي الذي
 صنع العجائب والمعجزات في كل دور وجميل . فهذا النهر الناشف المفتر
 قد يفيض احياناً ويطفو على البلاد المجاورة له حتى يخلي الناظر ان طوفان
 نوح الذي غمر العالم قد ياماً ووعد الله بعدم اتياه ثانية قد عاد الان وملأ
 الشوارع والحقول ولكن نهراً تا هذا يفيض وقد اختلط ماوه بدماء القتلى
 واشلاء الغرقى وجثثهم كما حدث قد ياماً في ايام فرعون عند ما ضرب الله
 المصريين على يد موسى خوف نهرهم دماً احمر واتساع النهر ومات كل ما
 فيه من السمك . فإذا كانت الماء قد صارت كما وصننت ذلك من الفساد
 والقدرة فـ يظهرها وينظفها وهي واسعة النطهير والتقطيف وهل
 يستطيع هذا البحر الحيط العجاج ان يجرف في سبيله كل قدر اعترى
 هذا النهر الرائق الصافي الذي اصبح الان من المزاق ؟ وهل ينتظر ان
 ذلك النهر العظيم الذي كان ينبع من جنة عدن وينقسم الى اربع رؤوس
 منها نهر جيحون يزيل هذا الماء الملوث الذي تعافه النفس ؟ ثم متى يصبح
 هذا الماء نقياً وذلك النسيم العليل بليل وقد فسد وصار يختنق الناس ويضيق
 الانفاس لكثره مما مترزج به من البخار المميت بالغازات السامة المميتة ؟ فلمقد

(١) ان المقصود بالنهر هو ترعة كانت متصلة بالاسكندرية اما نهر النيل نفسه فلم يكن
 يصب عندها في ذلك العهد

كثُرت الروائح الفاسدة التي يستنشقها الإنسان وثار الغبار الذي يعمي
ويصم بواسطة الارياح والزوابع التي تهب من ناحية البحر وخيم الضباب
فوق الماء واليابسة خوف نور النهار ظلاماً دامساً فصار يظن المرء ان
جثث الموتى تتحرّك سائرة معنا او انها تحملت الى ذرات دقيقة وامتزجت
بكل شيء حولنا وان دماءهم تبخرت وامتزجت بالهواء ثم تكاففت
وسقطت علينا كالطل والنداء وعليه فلم يمض زمن حتى فني كثيرون من
سكان هذه المدينة العظيمة (اي الاسكندرية) وصار الفناء يتدرج من
الاطفال الرضع الى الشيوخ الذين وقفوا على حافة الابدية قبل الان
وعم القوى والضعف فلم يبق ولم يذر . وقد ترى هؤلاء القساة العتاة
يشاهدون الجنس الادمي يفنى ويضمحل وينظرون اخوانهم في الانسانية
يتّشى فيهم الملاك تمثيل النار في المهيمن لكثرة عوامل التدمير والخراب
التي شيدتها ايديهم ولكن عواطفهم لا تحس ولا تشعر لأن قلوبهم قدت
من صخر صلد »

وقد ورد ذكر هذا الحصار والدمار في الرسالة (١) التي كانت
يكتبها ديوينيسيوس لشلي في عيد الفصح كما كانت العادة في تلك الايام .

(١) ان رسالة عيد الفصح هذه كانت عبارة عن بذلة عمومية يصدرها بابا الاسكندرية قبل العيد بقليل وترسل لجميع الكنائس المسيحية عموماً والمصرية خصوصاً في اليوم الذي يقع فيه عيد القيامة من كل سنة . وكان لهذه الرسائل اهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكي الدقيق الذي جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذه الحساب التاريخي علما تاماً . وكانت فاتحة هذه الرسائل موعظة بلغة قراء في الكنيسة جهاراً .

اما تاريخ هذه الرسالة التي نحن بصددها فكان سنة ٢٦٤ ب.م وهك
معزها : —

ان الوقت الحاضر اصبح كغيره في الاوقات الغابرة اذ يمسر فيه
على الكثيرين من المسيحيين ان يؤدوا فريضة عيد الفصح وسيان عندنا
اوقات الحزن والغم وايام الفرح والسرور التي لا يكاد يراها احد ولو في
النمام لكثرتها توالي المصائب وتابع النكبات حتى اصبح الانسان لا يقع
نظره الا على عيون تدمع وقلوب تفجع وما ق تسيل على الخدود بدل
الدموع السخين الذي تشق له الاعين حزناً على اناس اتقياء كثيرين
ماتوا ودرجو الى العالم الباقى . و اذا مررت الان في المدينة لسمعت
النتهفات والزفرات يكاد القلب يتقططر معها اسفاماً على اقوام مشرفين على
الهلاك ينظرون ابواب القبور مفتوحة امامهم تكاد تتبعهم قبلما تفارق
ارواحهم الاجساد حتى اصبحنا في زمن اشبه بالزمن الذي مات فيه كل
بكر في ارض مصر على يد موسى فلم يخل يوم من البكاء والعويل لانه
يوجد ميت على الاقل في كل منزل . وكنت اتمنى لو ان يكون هذا كل
البلاء ويقف المصاب عند هذا الحد مع ما يسبقه من احوال تشيب لها
النواصي وتصطلك منها الركب بل زادوا في انهم طردنا طرداً واقصونا
إلى أماكن بعيدة ثم أخذوا يضطهدوننا حتى اماتوا اكثراً و مع ذلك فلا
نزل نعيد العيد بكل احتفاء واحتفال . وكلما كان اضطهادنا شديداً كلما
كان عيناً بهيجاً . وكان المكان الذي ندوق فيه اشد العذابات لابد

واز نقم فيه اهم الحمارات الدينية ولم تترك حقلولا مفازة ولا سفينه
 ولا خانا ولا سجنا الا وعملنا فيه جمعيه يذكر فيها اسم الرب وينادي
 بكلمه جهاراً اما اهم الاعياد واكثرها مجلبه للفرح والسرور فهو العيد
 الذي يحتفل به جماعة الشهداء البرار الان في السماء حيث يرأس
 حفلتهم رب يسوع نفسه حيث لام ولا تعب ولا جوع ولا شيء
 من مصائب هذه الحياة وبالاياها
 وقد اعقب هذه النكبات حرب تلاها جوع وسغب اصابنا نحن
 والوثنيين على السواء ولكن الفرق الاكثر لحق بالفقراء المساكين الذين
 اثر علينا حالم تأثيراً شديداً فكنا نواسيم ونشاطر كل من انتابته مصيبة
 في بلايه ونرمي لامرهم ونعطي عليهم عطفاً يتبع من قلوب رقيقة
 واحساسات مسيحية شريفة تأثر لمصاب بني البشر الذين هم اخوتنا في
 الانسانية . ثم جاءت بعد كل هذه هدنة قصيرة منحها لنا رب يسوع
 المسيح تعمينا فيها بشيء من الراحة والفرح ولم تلبث طويلا على هذه الحالة
 حتى داهمنا وباء فتاك مسنا مسأ ولتكنه فتك بالوثنيين فتكا ذريعاً
 فلما قدم هذا الداء الويل بخيله ورجله ظهرت احساسات الاخوة
 المسيحيين نحو القوم المصاين وبانت نواياهم الحسنة وعواطفهم الحبية مع
 كل مريض مدف حتى انهم لم يخشوا شر الداء ولم يخافوا على انفسهم
 من الهلاك بل عمدوا الى تمرير الضعفاء وسد حاجات الموزين بهمة
 شقاء ومرؤة علیاء وهي اعمال كانت تضيء في هذه الايام السوداء كما

يُضيء مصباح لامع في حالك الظلام وديجوره فـ كانوا يداوون المرض بالادوية الروحية او لا حتى اذا فارقوا هذه الحياة الدنيا انطلقوا الى الابدية وفي قلوبهم رجاء لا ينفي بالحياة الآتية . وكان كثيرون من هؤلاء الاخوة الذين يخدمون المرضى يموتون معهم بعد ان يصابوا بـ مرض امراضهم . نعم كانوا يموتون فرحين مسرورين لموت هورقاد موقت تعقبه حياة ابدية سعيدة . وكانت العدوى تنتقل من المصاص الى الصحيح لان هذا كان يستخرج مصل الداء من ذاك بواسطه مصبه (١) فـ كانوا يحملون اعباء الامراض من على اعناق الاخرين ولذلك مات الكثير من المسيحيين فداء لاخوانهم المرضى وهو عمل يظهر منه الفرق الكبير بين المسيحي الحقيقى الذى يضع نفسه عن الاخرين كما فعل سيدنا قبله وبين أولئك الذين يظهرون انفسهم في مظهر المحبين المخلصين بواسطه احساس غير حساس بدونه في آدب باطلة وتحيات فارغة ومودة عقيمة ولكن اذا جاء وقت الشدة فـ زع ومن اصدقاءهم وابتعدوا عنهم او قدموهم قربانا لاغراضهم اذا كان في تقدمهم ما يجعل بعض النفع او يزيل شيئاً من الخدر . وفي زمن هذا الوباء انتقل الكثيرون من خيرة الاخوة

(١) هذا يدل على ان عملية ا يصل الهواء الى الرئتين في حالة مرض الدفءيريا كانت معروفة عند المصريين في ذلك الوقت . اما غرضهم من مصل فهو تطهير قات الهواء (او قصبة الرئة) حتى يسهل مرور الهواء فيها فلا يختنق المصاص رهى ذات الطريقة المستعملة في ايامنا الحاضرة . ولا ريب في انه عملية خطيرة مات فيها كثيرون من الاطباء الانكلزيز

وفاضل الامة وذهبوا الى الدار الباقية شهداه الخدمة المسيحية وكان فيهم
 القسوس ومشائخ الكنيسة وشمامستها وغيرهم من الشعب الذين اشتهروا
 بحسن السيرة وطيب السمعة فالملوت بهذه الكيفية وما اقترن به
 من شفقة عميقة وايuan حار وغيره تقوية ومحبة مخلصة لا يقل في الاهمية
 عن الاستشهاد الذي يحدث في زمن الاضطهادات . والذين يموتون
 بالطريقة المار ذكرها كانوا يكرمون ويحتفل بموتهم احتفالا باهراً اذ كانوا
 يحملون على الاكف ويوضعون فوق الرؤوس بعد ان تنطف عيونهم
 وتكتفى كل دموعه ذرفت منها ساعة الحشرجة وتقفل افواههم ويكتفنوهم
 باحسن الاكفان واثنها ومن ثم يدفنونهم بجلال وآكرام وهكذا يودع
 الواحد منهم اخاه ويعود فلا يليث طويلا حتى يودعه غيره على الطريقة
 التي اتبعها هو مع سابقه . اما الوثنيون فكانوا على الضد من ذلك ولا
 يعجب في هذا ولا غرابة ما دامت الاحساسات المسيحية والعواطف
 القوية لم تجد لها طريقا للقلب ولم تعمل فيه عمل المعروف فكان اولئك
 الوثنيون عند ما يشعرون بان احدهم مريض يتبعدون عنه ويتناجحون
 حتى عن اعز اصدقائهم ومحبיהם وقد بلغت بهم القساوة مبلغا عظيما حتى
 كانوا يطرحون مرضاهم في الازقة والشوارع وهم بين حي وميت فادا
 فارق المريض هذه الدار رموا به في عرض الفلاء دون ان يواروه
 التراب ومن غير ان تظهر على سماهم ادنى المظاهر التي تدل على التأثير
 والاحساس ولو احتاطت بهم كل العوامل المؤثرة الفعالة »

وقد تلطفت مصائب هذا الحصار كثيراً وخف بعض الشيء من
بلاية المريعة وذلك بواسطة سلوك الكنونة المسيحيين سلوكاً يحمد ويُدح
شخص منهم بالذكر يوسباب وأناطوليس اللذان تعاقباه بعد ذلك على اسقفية
لاودكية . وقد قال يوسيفوس المؤرخ في عرض كلامه عن أناطوليس
مانصه : —

«قد أسمى الكثيرون أكثر الأعمال الخطيرة التي تمت أثناء حصار
بروخيوم (جزء من الإسكندرية) إلى أناطوليس وذلك لأن جميع
الموظفين على اختلاف درجاتهم كانوا يجلونه ويحترمونه احتراماً زائداً وهم
قول لا يتحمل الشك أو الريب واليام مثال على صحة ذلك . لما نفذوا زاد
في أيام الحصار وندر وجود الخبز في المدينة لدرجة رضي فيها الناس أن
يسلموا أنفسهم لاعدائهم الأدميين من أن يسقطوا بين براثن عدو قاسٍ
هو الجوع خطر على بال أناطوليس فكر حميدرأى الخير كله في اتخاذ
وتفصيل ذلك أن نصف المدينة الثاني كان على وداد تام مع الرومان
ولذلك لم يقم عليه حصار ولم ينصب نحوه متراس فلذلك أرسل أناطوليس
إلى يوسباب الذي كان مقيناً في الجزء الغير المحاصر (وكان يوسباب حبيباً
موجوداً في الإسكندرية قبل أن يذهب إلى سوريا ويسام اسقاً في
لاودكية ذات الصيت نافذ الكلمة حتى عند قائد الجيوش الرومانية)
وأخبره أنهم اوشكوا على التلف من جرى الجوع وال Sugab . فلما سمع
يوسباب هذا الخبر التمس من القائد الروماني أن يمنع الامان بجميع الدين .

يفرون من وجه العدو ويلجاؤن إليه وعده هذه المنشة اعظم جليل وأكبر
معروف يعمله معه . فلما اجاب القائد طلبه هذا ارسل يعلم انطاوليس
بـ في الحال وعليه جمع هذا مجلس الشيوخ الاسكندرى وعرض عليه
الامر القاضى بـ ان كل الناس سواء كانوا رجالا او نساء خالين من خدمة
الجيش عليهم المبادرة بالخروج من المدينة ما دام لا يوجد أمل لهم بالنجاة
من عوامل ال�لاك لهم ظلوا قاعدين في مكانهم خصوصاً وان الجوع
يهددهم بالذلة اذا انتظروا استباب الاحوال وحسن المال . فصادق
المجلس على هذا الرأي الصائب واتفق مع يوسف على ان الذين يهربون
او لا هم اعضاء الكنيسة المسيحية ثم الشيوخ الضعفاء الذين لا نصير
لهم ولا مجيراً

ولم يقتصر الامر على هؤلاء فقط بل ان كثيرين من رجال
المدينة تزويوا بـ النساء وخرجوا منها بهذه الحيلة تحت جنح الظلام
ومروا على معسكر الرومانين فلم يميزهم احد ثم جاءوا الى يوسف مع
من جاء فاقتبل الجميع بكل ترحاب وتلطف واخذ يؤاسي الحزين منهم
كانه اب شفوق ويضمد جراح كل جريح منهم كطبيب ماهر
وبالاجمال فقد رفع عن الكثيرين اعباء مصائب واهوال شديدة
تجروا غصصها اثناء هذا الحصار »

وقد أُلقت الحرب اوزارها في مصر عند ما ألقى القائد الروماني
القبض على اميليانوس وقتله فاستراحة هذه البلاد الاسية من هول

الطعن والضرب ولكنها لم تسترح من بلايا الطاعون الذي كان لا يزال يفتث في اهلها فتكاً شديداً . اما البطريرك فكان لم يزل مشتغلاً حيئذ بالمباحثات والتأليف

وقد أتهم البطريرك ديونيشيوس بما أتهم به غيره من الميل الى المهرطقة والجنوح الى البدع وهي تهمة اصابت اكثراً اعظم رجال الكنيسة المسيحية واقيالها سواء في حياتهم او بعد موتهم سواء بحق او بغير حق . وكان من حسن حظ ديونيشيوس ان التهمة وجهت اليه وهو بعد على قيد الحياة ولذلك قدر على دحضها وتبرئتها نفسه بطريقة دلت على مقدرته في استخراج الحجج القوية والتضليل في المناقشة والجدال مما زاد في شرفه ورفع مكانته كثيراً حتى دعي رئيس البطاركة وكبير الباباوات في العالم كله . وقد استاء بعض من شعبه منه لعبارات قاسية وردت له في جواب أرسله الى أساقفة مقاطعة بنتابوليس قصد منه التوفيق بينهم في مسائل اختلفوا عليها وايقاف سير بدعة جديدة كانت على وشك الظهور . اما اهل هذه المقاطعة فأتوا امراً مغايراً لللاأصول بالمرة اذ عوضاً عن ان يردوا على بطريركهم ويجادلوه والتي هي احسن اغرائهم بعض الدخلاء من الرومانين وحرضوهم على الشر والشقاق فكتبو الى ديونيشيوس أسقف رومية كتاباً فيه يرمون بطريركهم بالهرطقة والبدعة وكان هذا الاسقف سادس أسقف جلس على الكرسي الروماني اثناء جلوس البطريرك ديونيشيوس على

لاريكة القبطية ولذلك كان صاحبنا الروماني شاباً في مقتبل عمره
 قليل الخبرة ضيق المعرفة بالنسبة إلى البطريرك المصري الذي كان
 لا يساويه أحد في العلم والاختبار الكثير . فسار دينيسيوس الروماني
 سير الاعتساف وارتكب متن الشطط في أنه شكل مجمعاً وقتياً وحكم فيه
 بالحرمان على دينيسيوس الاسكندرى وكتب إليه يعلمه بنتيجة هذا
 الحكم ويسأله عما إذا كان لديه شيء يقوله دفاعاً عن نفسه مما عده ببابا
 الاسكندرية هذا اهانةً وافتراء إلا أن ثقواه وتمسكه بعمر الديانة
 المسيحية منعاه عن مقابلة الشر بالشر وعوضاً عن أن يقابل شعب تلك
 البرشية المتمرد بما يستحقه من اللوم والسلط وبدلاً من أن يحثقر
 ما كتبه له زميله الروماني ويضرب به عرض الحائط لما فيه من القحة
 والبذاءة . عمد إلى قلمه وكتب ردًا طويلاً كان آية في البلاغة وحسن
 البيان شرح فيه كيف أن اعداءه أبدلوا كلامه وحولوها عن معناها
 الأصلي بقلب مبناتها لغاية في النفس حتى صارت تؤول تأويلاً يغادر
 الحقيقة ثم قال إنه تجنب البحث في مسألة « الاستحالة » ولم يذكر
 شيئاً عنها لأنه لم يقف لها على اصل في الكتاب المقدس وإن الذي
 يراجع كلامه الأصلي يقتنع بصحة ما كتبه لأنه يجده غير محرّف أو
 مبدل وأنه يأسف لعدم إمكانه إرسال نسخة منه إلى دينيسيوس الروماني
 فبواسطة حكمة دينيسيوس الاسكندرى ورضااته خمنت سورة
 شفاعة كان يمكن أن يستفحل أمره فيضر بالكنيسة ضرراً بليغاً كما إن

هذا الاعتدال زاد اعتبار هذا البطريرك الحكيم في أعين الناس عن ذي قبل وأوجده مهابة كبرى في النفوس

وحدث انه في آخر سني حياة ديونيسيوس هذا دعاه مجمع انطاكيه لحضور احدى جلساته حيث حكم بحرمان بولس من ساموسانا (ولا حاجة بنا الشرح حكايتها هنا لعدم اهميتها) ولكن ديونيسيوس لم يحضر هذا المجمع معتقداً بضعفه وكبر سنه فكتب لهم رأيه في هذا الشأن وارسله اليهم . وقبل ان يلتقي المجمع المذكور حكماً في قضية بولس هذا نام ذلك البطريرك العظيم في الرب واستراح من العتاب جهة ودخل الى فرح سيده لانه كان اميناً في القليل فاقامه على الكثير فطوبى له

الفصل العاشر

مار آمون ومار انطونيوس . سنة ٢٦٨ ب . م

في سنة ٢٦٨ ب . م ورد غالينوس الامبراطور حنفه في ميلان

(بإيطاليا) في حرب عوان مع خصم آخر كان يطالب بسرير الملك . وبعد موته حدث الالتباس المتعدد حدوه عمن يخلفه فنشأ عن ذلك اضطراب جديد جرّ شرّاً على مصر الشفقة وانتهى الامر أخيراً بان رقى كلوديوس العرش الامبراطوري في أوروبا وأصبح اسمه يسبك على النقود لمدة ثلاث سنين ولكنه لم يحكم مصر الا بالاسم فقط لأن المصريين اعتادوا عدم الخضوع لاي سلطة أجنبية بطيب خاطر الا ان يكون لليونان وعليه يتحمل انهم يكونون قد التجأوا الى زينب (أوزنوبايا) ملكة تدمر وأرملة

أودينتوس وهي الملكة التي جعلها الفنان وشهرتها الواسعة ابقيا ذكرها
للمملكة تدمر (التي يسمى بها الافرنج باليهرا أو مملكة النخل) وطلبوها انها
تستولى على مصر وتضمها تحت لوائها . وكانت هذه الملكة تزعم انها
سليلة كليوبترا الشهيرة ولذلك رأت ان لها حقالان تملك مملكة آبائها
ومما اشتهرت به هذه الملكة ان مجلسها كان يضم كثيرين من العلماء
وفطاحل الرجال الذين رضوا وأفوا بق العلوم في مدارس الاسكندرية
المعروفه وكان اعظم هؤلاء الافضل شهرة العلامه لونجينوس . أما كون
زينب من سلاله كليوبترا المصريه فغير صحيح بل يغلب على الظن انها
رومانية الاصل اذ لا يوجد دليل على وجود صلة رحم بينها وبين كليوبترا
كما كانت تزعم الا ان يكون شابه الاثنين في الجمال الباهر والشجاعة
الفائقه وفي آخر تهم السوداء . ولما جاءت زينب لأخذ مصر امتلك
جيشه الاسكندرية أولاً ثم سار جنوباً في وادي النيل تخيم فوقه أعلام
النصر ويرافقه الظفر في كل غزوته وهو تحت قيادة مصرى ياسلى اسمه
تنياجينس الذي سار في طليعة المغاربين . وبعد ان افتح هذا الجيش
البلاد المصرية عاد راجعاً فالتقى في طريقه بقائد روماني يقود جيشاً
يقصد به مقاتله ذلك الجيش الا ان خبرة تنياجينس باحوال البلاد
ومسالكه ساعدته في قهر عدوه وجعله يعود ناكصاً على أعقابه راض
من الغنيمة بالایاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولم يدم حكم التدمر بين طويلاً في مصر لأن أوريليانوس الروماني

حاوب زينب وأخذها أسرية ودمر مدينة تدمر بعد حصار طويل . ولكن المصريين لم يخضعوا لحكم الرومان ولم يرضخوا لسلطتهم بدون جهاد وقتل اذ يؤخذ من بعض المصادر ان ملكين كانوا يتنازعان السلطة في مصر عند ملك اوريليانوس لها وقد قاوماه كثيراً وكانت النتيجة ان مصر عادت خضعت للسيطرة الرومانية وسلمت زمامها الاوردليانوس الذي لم يعكت فيها طويلا بل قفل راجعا الى رومية بعد ان عهد بادارة أمور مصر الى وال قادر اسمه بربوس

اما عن المسيحيين في مدة حكم زينب لمصر فقد عاشوا في صفاء ورفاء وأعطيت لهم الحرية الدينية التامة ولكنهم شاطروا باقي مواطنיהם في فلائق الحروب الاهلية ومتاعها . وقد جلس على الكرسي البطريركي بعد ديونيشيوس البطريرك مكسيموس الذي لا يعرف عنه شيء سوى انه اشتراك في الحكم الصادر على بولس الساموساتي الذي مر ذكره بك كما انه بدأ في مدته اثنان من مشاهير المصريين باز عاشا أولاد عيشة الزهد والتنسك ثم أفرطا فيها كثيراً الى ان تخطيها الى التبقل وانكار الذات . أما هذان الراهبان فكانا مار انطونيوس ومار آمون الذي لم يشهر أمره كثيراً ولكنه كان محباً كثراً من غيره عند عارفه وهو المؤسس لدير النطرون (بالبحيرة) ولو ان القديس زوشونيوس كان قد اتخذ هذا المكان دار اقامة له قبل هذا العهد نحو جيل

اما انطونيوس فولد في بلدة تسمى « الكوم » في الصعيد من والدين

مسيحيين مثرين ولم يخلق فيه ميل للعلم . ومع انه لم يكن أمياً فكان
 يظن بعض المؤرخين الا انه لم يتمتع من اللغات الاجنبية شيئاً ولم يكن
 يعرف سوى لغته (القبطى الصعيدى) التي لم تكن دارجة بين الطبقات العليا
 في مصر . وقد مات والداه وهو في الثامنة من عمره فاصبح تحت
 رعاية أخته وعذاته . والذى يبحث في اخلاقه وطباعه يجده شيئاً
 باور بجانوس من وجه الغيرة الدينية والميل إلى انكار الذات الا ان ظروفه
 لم تكن كظروف أوريجانوس فان أصحابه هنا الكثيرين ومعارفه الواسعة
 وعلمه الصحيح كل هذه صدته عن عيشة الوحدة والانفراد والبقاء في
 عالم الاحياء لاستعمال موهبته في ما هو نافع ومفيد فكراً وعملاً . أما
 اسطونيوس فمع انه في نشأته لم يكن ميلاً كثيراً أو مفكراً في الزهد
 والرهبة الا انه بعد موت والديه بحوستة شهور (في سنة ٢٦٨ ب.م.)
 كان قد ذهب إلىكنيسة مالسماع الوعظ وكان الموضوع يومئذ قول المسيح
 للشاب الغنى « ان أردت أن تكون كاماً فاذهب وبع أملاكك واعط
 الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » (مت ١٩ : ٢١) فلما
 سمع صاحبنا اسطونيوس هذا لم يمض حزيناً كما مضى ذلك الشاب الغنى
 بل صمم على اتمام هذا الامر حرفيًا ذهب وباع كل املاكه ولم يبق منها
 سوى جزء قليل خصه باخته . وحدث في غد ذلك اليوم انه ذهب
 إلى الكنيسة كعادته فسمع قول الملاعن « لا تهتموا للغدر» فنخسه ضميره
 وظن ان هذه الآية توبخ له على ما أبقياه لاخته من العقار فباع هذا

الجزء الصغير فوراً وترك أخته في عهدة امرأة مسيحية في بلده وزع
 كل ما يمتلكه من حطام الدنيا على الفقراء والمعوزين وهام على وجهه وهو
 حافي الأقدام لا أذى له ولا رفيق وعزم أن يعيش عيشة جهاد مع
 نفسه وأن يحارب جسده ويقمعه وينزع عنه كل خلة أو سجية تغليظ
 الله وتخالف أوامره وهذا عمل أثابه أناس كثيرون في كل الأعصر ظنا منهم
 أنه يقربهم إلى الله جل جلاله. وبعد أن انتقل أنطونيوس من مكان لآخر
 أوجد نفسه في صرح متهدم واقع على شاطئ النيل وامتنع عن النظر في
 وجه آدمي أي كان إلا أنه كان يعظ من وراء الحجاب ويخطب في جماعة
 رعاة القطعان الذين كانوا يحترمونه احتراماً ناتجاً عن اعتقادات خرافية
 من نحوه وكانوا يتوجهون لسماع العبارات الحماوية التي كان يتفوه
 برها هذا الزاهد المحتفي ولكنهم قلما كانوا يفهمونها. ولطالما جاؤوا إليه بخبار
 من بلادهم كثير وبشيء وأفر من الكعك المسطح (قرص) فكان يقيها
 عنداته أشهر طولية حتى تستحجر ولا تلين إلا بعد أن توضع وقنا
 غير قصير في الماء. ومن ثم يسهل مضغها وازدرادها كما يفعل الفلاح المصري
 اليوم في هذه الأيام. ولأنه عاش على هذه الصورة فقد عزى إليه أمور
 وأشاعات تجسست فيما بعد وتكبرت حتى صارت خرافات لا يقبلها العقل
 وأصبح يتناقلها الآن كثيرون من ذوي العقول الضيقة . ففي هذا المكان
 قضى أنطونيوس عشرين عاماً بعيداً عن أعين الناس ولكن صيته
 وشهرته ملأت الآفاق

آمامارآمون فلا يعرف مسقط رأسه تماماً ولكنها لا يبعد كثيراً عن
 مدينة الاسكندرية . وهو كزميله انطونيوس ولد من أبوين موسرين
 ويتيم منها وهو بعد يافع . ويؤخذ من اسمه انه مصرى قح ومع ان
 كثيرين من المصرىين الاصابين اطلقوا عليهم اسماء اليونانية وقت عمادهم
 الا انه لم يكن يسمى ليونانى مسيحي أولدخل أن يسمى ابنه باسم
 الله مصرى كامون أو غيره . ولما دخل آمون دور الشبوية (غالباً بين
 سنتي ٢٦٥ - ٢٧٠ ب.م) داغب في عيشة الزهد ومال إلى الرهبنة الا
 ان عمه وولي أمره رفضا طلبه هذا وأغرى به بضرورة عقد خطوبته على
 آنسة يعر فانها ذات متاع وعمقار قد يمكن أن يوسع ثروتها بها . وينظر من
 فرائين الاحوال ان آمون كان لا يزال الى هذا الحين تحت رعاية عمه
 ولا يسعه الخروج من طاعته ولذلك شرع حيثئذ في مخاطبة هذه الفتاة
 كما أمره عمه وكانت النتيجة انه أُوجد فيها الميل الذي عنده وزرع في
 فكرها الرغبة في عيشة الزهد وتكريس النفس ومن ثم اتفق الشاب
 والشابة على ما ظناه خيراً لهما وابقى . فتزوجا بعضهما على شرط اتفقا
 عليه سراً هو ان يعيشان معاً كاخ واخت لا كزوج وزوجة وقد ظلا على هذه
 الحالة عدة سنين وهما يحافظان على شروطهما بعفة وأمانة . وقد اختلف
 المؤرخون فيما اذا كان الاثنان قد عكفا على الزهد وذهبوا الى الجبل حالاً
 بعد زواجهما أم لا ولكن الذي يقرب من الحقيقة على كلتا الحالتين انما
 كانوا ينفقان على انفسهما من مالهما الخصوصي وعاشوا بسعة من اراد

املا كهـما . وبعد ردهـه من الزـمن ظـن آمـون انه ليس في غـبـطة تـامـة او انه
 لم يـعـد يـسـتـطـيـع العـزـوـيـة التي فـرـضـهـا عـلـى نـفـسـهـ وـبـجـانـبـهـ وـاحـدـةـ منـ بـنـاتـ
 حـوـاءـ فـاستـأـذـنـ اـمـرـأـهـ هـذـهـ وـاـنـصـرـفـ إـلـىـ وـادـيـ النـطـرـوـنـ حـيـثـ اـقـتـقـىـ
 اـثـرـهـ جـمـ غـقـيرـ منـ اـرـبـابـ الغـيرـ وـاصـحـابـ المـيلـ إـلـىـ هـذـاـ الـانـفـرـادـ
 وـمـعـهـمـ مـكـارـيـوسـ الشـهـيرـ الذـيـ نـالـ الشـهـرـةـ التـيـ كـانـتـ لـآـمـونـ رـئـيـسـهـ وـلـمـ
 تـمـضـ عـلـىـ هـذـاـ حـالـ ثـمـانـونـ حـوـلـاـ حـتـىـ أـصـبـحـ وـادـيـ النـطـرـوـنـ يـحـتـويـ
 عـلـىـ نـحـوـ خـمـسـيـنـ دـيـرـاـ اوـ تـزـيدـ كـمـاـ ذـكـرـ ذـلـكـ روـفـينـوـسـ فـيـ تـارـيخـهـ
 الـمـعـرـوفـ . وـلـمـ يـكـنـ كـلـ سـكـانـ وـادـيـ النـطـرـوـنـ فـيـ ذـلـكـ العـهـدـ مـنـ الرـهـبـانـ
 وـالـنـسـاكـ بلـ انـ كـثـيـرـيـنـ مـنـ عـامـةـ الشـعـبـ سـكـنـواـ قـبـلـهـمـ ذـلـكـ لـانـ السـهـولـ
 الـقـرـيبـةـ مـنـهـ لـمـ تـكـنـ جـدـبـاءـ بـالـمـرـةـ بلـ انـ بـحـيـرـاتـ الـمـلـحـ كـانـتـ تـحـيـطـهـ كـمـاـ
 فـيـ وـقـتـنـاـ الـحـاضـرـ وـحـوـلـهـ شـيـءـ مـنـ الـخـضـرـةـ النـضـرـةـ كـمـاـ انـ الـمـاءـ لـمـ
 يـكـنـ شـحـيـحـاـ هـنـالـكـ بلـ انـ الذـيـ يـخـفـرـ آـبـارـاـ يـسـهـلـ عـلـيـهـ استـخـرـاجـ مـاءـ
 زـلـالـ يـشـرـبـ مـنـهـاـ وـيـروـيـ بـهـاـ اـرـضـاـ تـخـرـجـ نـبـاتـاـ طـيـباـ . اـمـاـ آـمـونـ فـقـدـ
 اـسـتـهـالـهـ ماـ شـاهـدـهـ مـنـ دـسـوبـ النـطـرـوـنـ هـنـالـكـ وـفـكـرـ فـيـ اـيـجادـ طـرـيقـةـ
 يـلـتـفـعـ بـهـاـ فـيـ تـشـغـيلـ الرـجـالـ الذـيـ تـبـعـوـهـ فـيـ استـخـرـاجـهـ . وـلـمـ يـكـ طـوـيلاـ
 حـتـىـ اـحـتـشـدـ كـثـيـرـوـنـ مـنـ سـكـانـ مـدـنـ وـقـرـىـ الـرـيفـ التـيـ عـلـىـ مـسـافـةـ
 ٣٥ـ اوـ ٣٠ـ مـيـلـاـ مـنـ الـدـيرـ وـاـتـفـقـواـ جـمـاعـاتـ الفـوـاـقـوـافـ مـنـتـظـمةـ وـسـارـوـاـ
 لـيـجـيـئـوـاـ بـالـنـطـرـوـنـ الذـيـ كـانـ يـسـتـخـرـجـهـ آـمـونـ وـرـجـالـهـ وـكـانـوـاـ يـبـيـعـونـهـ فـيـ
 اـسـوـاقـ مـصـرـ وـيـجـرـوـنـ بـهـ . وـحـدـثـ اـنـ شـابـاـ اـسـمـهـ مـكـارـيـوسـ سـارـ مـعـ قـافـلةـ

من هاتيك القوافل الى وادي النطرون فلم يكدر يلتقي عصا الترحال حتى
 جاش صدره داخله غيره منه عند ما رأى جماعة النساء والزهاد يستغلون
 شغلا شاقاً في استخراج النطرون . ولم يكن مكاريوس يظن انه محظى عليه
 البقاء مع آمون ورفاقه او ان الزهد لا يتم الا بالاتصال بهم . فانه لما
 رأى العنصر العالقاني (لان اتباع آمون لم يكونوا جميعهم رهباناً) متغلباً
 هناك كثيراً وان التجارة والكسب هما الغرض الذي يرمي اليه القوم اعتقاد
 ان وادي النطرون لا يناسب عيشة الوحدة والاعتزال وعليه ترك
 هؤلاء الجماعة المتمكين في اعمالهم حول بحيرات النطرون واعتزل مكاناً
 قصياً يبعد كثيراً عن هذا الحال حيث لا توجد شجرة او نخلة تطفئ
 حرقة حاجته او تبرد لفظي قفاره . والذي يلتقي نظاره على الخرائط
 الفرنسوية يجد الوادي الذي كان فيه آمون والوادي الذي سكنه مكاريوس
 واسمها سيتيس ونظر يا - مرسومين كأنهما واد واحد وحقيقة انه يوجد
 فرق واضح بين الاثنين وتبين في الارتفاع بينهما كما اوضح ذلك
 مستر هوكر (مدير مصلحة المصلح) في خريطة له رسمها سنة ٩٦
 اما الوادي الاعلى الذي يمتد الى الجنوب الشرقي فلم يكن له اسم يعرف
 به عند ما استوطنه مكاريوس ولكنه أطلق عليه فيما بعد اسم «سيتيس»
 ومعناه موضع الارواح المقدسة وسبب هذا الاسم هو ان مكاريوس
 تبعه كثير من المریدين كما اتبعوا آمون وسكنوا في كهوف احثرواها
 لانفسهم وبقوا على معزل من اقام وادي النطرون

وكانوا يتجمشون اتعاباً كثيرة للحصول على الماء لطول الشقة ولم تكن لهم حرفة يحترفون بها سوى صنع السلال والمقاطف التي كانوا يتحصلون منها على ما يساعدهم في معيشتهم الصعبة التي كانوا يظنونها أحسن عيشة في العالم توجد بينهم وبين الله اتصالاً متيناً . ففي هذا المكان قضي مكاريوس حياته التي كانت حكماً بينما كان آمون على مقربة منه يكدر ويكدر مع جماعته في استخراج النطرون وكان يسمح لنفسه بالتطواف مرتين في السنة يحرف في كل مرة ستة أيام يسير فيها عرض الصحراء والوجه البحري لينظر أمرأه ويسأله عن سلامتها . ولا ريب في أنه اتعب نفسه كثيراً واجهد ذاته اجهاداً مفرطاً ليكفر عما فرط منه من الاهمال والتغاضي وفرض على نفسه فرضاً صعباً كان يؤديها في خلوته . وليس يصعب على القطن أن يتصور ما كان يعنيه هذا الناسك من العناء وقلق البال انتظاراً لا خباراً رد إليه من الارياض أثناء هذه المدة الطويلة التي حرفها في الجبال من سنة ٣٢٢ - ٣٠٣ . ومات آمون هذا في سنة ٣٤٥ بينما كان يراقب على بعد الجهد العديم الفائدة التي جاهدته مصر في سبيل تحرير بلادها من عبودية الرومان وانتقام ذلك الامبراطور منهم انتقاماً تقشعر منه الابدان لأنهم جاهدوا في سبيل الحرية مع ان هذا الامبراطور كان قد ولد تحت رق العبودية والذل



الفصل الحادي عشر

الجهاد في ميدان الحرية . - سنة ٢٨٢ بـ م

بعد ان قتل اوريليانوس استولى تاسيطس على العرش الروماني في اوربا وظل جالساً عليه مدة قصيرة اما مصر فكانت حينئذ تحت سلطة ارملة اوريليانوس التي جلست على سرير ملكها ثانية شهور . ولما ان مات تاسيطس اتفق الجيش المحتل مصر على انتخاب القائد بروبوس الذي كان محبوباً من جيشه ومكر ما عنده . ولما استتب له الامر في مصر غادرها الى اوربا ليضع يده على ولاياتها ويضم تحت لوائه كل المملكة الرومانية وفي أثناء غيابه انهزت بقية من التدمر بين - الذين قلنا انهم اخذوا مصر قبلها - هذه الفرصة وسعوا لأخذ مصر العليا واغتصابها من يد بروبوس فاضطر هذا ان يعود قافلاً الى مصر ليرد عنها هذه الغارة الجديدة وليشن حرباً عوائياً يفتح به مدينتي قبطس (او قسطنطيني) وبطوليمايس من جديد . ومع ان الحرب استمرت زمناً لا سبباً بين الطرفين الا از بروبوس لم يكن ليغفل شؤون مصر والعمل على تحسين احوالها العمومية . ومعاملة شعبها المنحوس برفق وعدل بعد ان ذاق هذا الشعب اصناف البلاء والجيف مدة طويلة . وفي سنة ٢٨٢ بـ م هجم عساكر بروبوس عليه واخذوا حياته غيلة خلفه كاروس والي مصر وهذا ايضاً مات سنة ٢٨٣ في حرب اقام سوقها ضد الفرس ولكنها اوقفت عند موته وعثباً اباها كارينوس ونومريانوس وبعد ان حكمها سنة واحدة كلها حروب

ومصائب قام ديكليتوس (او تكلا) واغتصب التاج الامبراطوري
واصبح صاحب السلطة كلها على المملكة الرومانية برمته
وفي خلال ذلك تنازع البطريرك مكسيموس وذلك سنة ٢٨٢
ويحتمل ان الامة وجدت صعوبات ومقاومات في اختيار خلف له ولذا
ظل الكرسي البطريركي بدون بطريرك بضعة اشهر الى ان انتخب ثيوناس
الذى ساهم بسلام وحكمة مدة من السنين . وفي مدة المدنة
هذه التي جاءت بين الحروب والاضطهادات التي كانت تتولى على
الكنيسة المصرية كالحلقة المفرعة بنيت في مدينة الاسكندرية اكبر كنيسة
في مصر وكرست باسم العذراء مريم . ولو ان الكنائس الكبرى
لم تكن قليلة في هذه البلاد الا ان هذه الكاتدرائية الجديدة دلت
على هيبة ممدودة لانها كانت اول مبانى المصريون المسيحيون من نوعها
معبدهم يجتمعون فيه للعبادة الجمهورية

اما المسيحيون في مصر فلم يكن لديهم سبب ليرفونه يحملهم على
لشك في نوايا ديكليتوس في بدء حكمه ولم يكونوا يظنوون به سوءاً
من نحوهم وهذا ظاهر من جواب ارسله البطريرك ثيوناس الى لوسيان
المسيحي الذي كان معيناً حينئذ في وظيفة خطيرة عند الامبراطور هي
ناظر بيت الملك) او بمعنى اوضح (مدير الدائرة الخاصة) . وكان
فيمه في هذه الوظيفة بعد ارتقاء ديكليتوس العرش الملكي بقليل
كتب اليه البطريرك يقول :-

« ان الراحة التي تتمتع بها الكنيسة الان تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحيين الحسن واعمالهم الممدودة التي تضيء كالشمس في رابعة النهار فينعكس ضوءها امام اعين الكفرة والملحدين فتبهر اظارهم وبذلك يتتجدد ابانا الذي في السموات . اما غير صنا الذي نرمي اليه والغاية القصوى التي نسعى خلفها هي ان ان تكون مسيحيين فعلا لا بالاسم فقط وان نعمل اعمال المسيحيين الحقيقيين لانه اذا كنا نطلب مجد انفسنا الذي فنكون كمن يطلب شيئاً تافهاً زائلاً لا فائدة منه . فاذاً يجب على كل مسيحي ان يهتم بمجده الله الآب وبمجده الله الابن الذي سمر لا جلنا على خشبة الصليب وقدانا بدمه فداء ابداً لا يقوم بذهب او بفضة . فلذلك ايها العزيز لو سيان لا اريد ان يعرف عنك التباكي والقهر لأنك اهديت كثيرين من خدمة البلاط الملكي الى معرفة الحق وادخلتهم في حظيرة المسيح بل بالاحرى بك ان تشكر الله الذي اختارك آلة نافعة للبنيان وجعلك واسحة خير لنفع الاخرين واعطاك نعمة في عيني مولاك لحد تمكنك فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة قادي المسيحيين وذلك لمجده اسمه وخلاص الكثيرين »

وقد كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في خدمة الامبراطور بالالتفات لواجباتهم كمسيحيين واتيان الاعمال التي يتمتع بها المستخدم المسيحي في ديوان وثي عن غيره ثم شدّد عليه الوصية بالابتعاد عن شر كثيراً ما سقط فيه المصريون بل الشرقيون

بوجه عام حيث قال :-

« ان الله ينهاكم عن ان تبعوا الآخرين شيئاً من متعلقات القصر
خلسة او ان تأخذوا رشوة لكي يقولوا للامبراطور كلاماً ضد الحق
ابعدوا عن الطمع والجشع الذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون.
واعلموا ان الريح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح
وعوّل على الاقداء به ذلك الذي كان فقيراً معدماً . لا تكلموا
بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من افواهكم بل لتكن كل اعمالكم
مقرونة باللطف والتآدب مع العدل والحق بذلك يتتجدد اسم ربنا والهنا
يسوع المسيح فيكم وفي اعمالكم . تمووا واجباتكم التي أُسندت اليكم
بنحو من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا ان
الاوامر التي تصدر لكم من مولايكم الذي لم يسيء الى احد من رجال
الله كأنها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يقلد السيف باطلأ .
وأخيراً يا أبني الاعزاء البسووا الصبر كرداء وتنطقووا بالفضيلة وامتثلوا
بالرجاء والىمان والحبة »

وبعد هذه المقدمة العمومية اسرى البطريرك في تفصيل الطريقة
التي يسير عليها المستخدمون عند تأدية واجباتهم المتنوعة المتعددة .
وكان أكثر موظفي البلاط الامبراطوري من المسيحيين وكانت وظيفة
مين الكتبخانة خالية حيث نجد وكان البطريرك ثيوناس يرجو تعيين
سيحي فيها . اما أمين الخزانة الخاصة فقد أوصى البطريرك بانتخاب

شخص يكون ماهراً في علم الحساب عارفاً بمسك الدفاتر فلا يعتمد على ذاكرته في هذا العمل وان يكون حسابه مرتبًا مبوبًا حتى يسهل معرفة الميزانية وخصوصها في وقت قصير ويجب كتابة تاريخ صرف النقود وسبب صرفها والمكان الذي صرفت فيه في أعمدة على حدتها في الكشوف (الاستمارات) الخاصة بذلك . وقد وضع هذا البطريرك العارف تعليمات لامين الثياب والملابس واختاره من الرجال الذين اشتهروا بالدقة والأمانة وكتب له يوصيه بملاحظة الترتيب الآتي وهو : -

« مقدار الملابس المسلمة لعمرته ونوعها وما هيها والأماكن

الموضوعة فيها وتاريخ وصولها للمخزن باسم المتعهد الذي وردها وهل هي حسب الشروط ام لا وضرورة افتقادها مراجعاً ومعرفة موضع كل سلعة من الدولاب المخزونية فيه . وعلى الامين أن يجعل كل هذا بتواضع وطول اناة لكي يتجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليلة الاهمية »

وقد شرح ثيوناس بالتفصيل الوافي واجيات أمين الكتبخانة واظهر في شرحه هذا كل حكمه ومهارة مما يدل على غزاره ما لديه وطول باعه اذ قال - « يجب على أمين الكتبخانة ان يكون عارفاً بما عنده من الكتب والمجلدات وان يفتقدها ويفحصها كل آونة وأخرى وان يرتبها حسب اهميتها ويدرجها في كشف على نسق واضح وان يستخدم امهر النساخ وابرعهم لنسخ ما يحتاج اليه من الكتب الغير

موجودة عنده . كذلك يلزمـه ان لا يرتأـي ويظنـ انه ليسـ في حاجةـ
 الى الدرسـ والمطالعةـ او الالامـ بمحـتوياتـ الكـتبـ خصوصـاـ التيـ يـميلـ
 اليـهاـ الـامـبرـاطـورـ ويـبحثـ عـنـهاـ وـيـطـلـبـهاـ . وـيـتـحـتمـ عـلـيـهـ ايـضاـ مـعـرـفـةـ اـسـماءـ
 الـخطـباءـ وـالـشـعـراءـ وـالـمـؤـرـخـينـ الـذـينـ نـبـغـواـ فـيـ الـاعـصـرـ الـخـالـيـةـ وـالـوقـوفـ
 عـلـىـ مـوـلـفـاتـهـ وـمـصـنـفـاتـهـ وـأـقـوـاـهـ الـمـأـثـورـةـ . وـوـحـيـثـ انـ هـذـاـ الـامـينـ
 كـثـيرـاـ ماـ تـضـطـرـهـ شـوـؤـونـ وـظـيـفـتـهـ لـلـمـحـادـثـةـ مـعـ الـامـبرـاطـورـ وـارـشـادـهـ
 الىـ الـكـتبـ الـمـهـمـةـ الـتـيـ عـنـدـهـ فـيـنـيـغـيـ لـهـ انـ يـذـكـرـ اـمـامـهـ فـيـ اـثـنـاءـ حـدـيـثـهـ
 اـهـمـيـةـ التـرـجـمـةـ السـبـعينـيـةـ لـلـكـتـابـ الـمـقـدـسـ وـنـفـعـهـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ الـقـائـدـةـ
 الـعـظـمـيـ وـانـ يـفـهـمـهـ انـ هـذـاـ الـكـتـابـ كـانـ لـهـ مـنـزـلـةـ كـبـرـىـ عـنـ بـطـلـيمـوسـ
 فـيـلـادـلـفـوسـ الشـهـيرـ الـذـيـ كـانـ يـقـدـرـهـ حـقـ قـدـرـهـ (١)

وـقـدـ وـضـعـ هـذـاـ الـبـطـرـيرـكـ الـماـهـرـ اـرـشـادـاتـ أـخـرىـ عـنـ الـكـتبـ
 الـتـيـ يـشـيرـ بـقـرـاءـتـهـ عـلـىـ مـسـامـعـ الـامـبرـاطـورـ بـصـوـتـ جـهـوريـ كـمـاـ اـشـارـ
 ايـضاـ عـلـىـ الـقـارـيـءـ باـقـنـيـاسـ شـوـاهـدـ مـنـ كـتـبـ اـخـرىـ تـنـاسـبـ مـقـامـ
 الـمـوـضـوـعـ الـمـرـادـ تـقـيـيـمـهـ لـلـامـبرـاطـورـ . وـقـدـ ذـكـرـ ايـضاـ انـ يـلـزمـ الـامـينـ

(١) مـعـلـومـ انـ بـطـلـيمـوسـ فـيـلـادـلـفـوسـ هـذـاـ هـوـ لـذـيـ اـعـتـنـيـ بـتـرـجـمـةـ التـوـرـاـةـ
 التـرـجـمـةـ الـمـسـمـاـةـ بـالـسـبـعينـيـةـ . وـيـظـهـ مـنـ فـوـلـ زـوـنـسـ اـنـ لـمـ يـكـنـ بـخـطـ يـاـهـ اـنـ
 اـمـبرـاطـورـ دـوـمـاـيـ كـدـيـوـكـلـتـيـانـسـ يـكـوـنـ عـلـىـ درـجـةـ مـنـ الجـمـيلـ المـطـقـ لـهـ اـنـ
 لـاـ يـعـرـفـ شـيـئـاـ عـنـ بـطـلـيمـوسـ وـاعـمـالـهـ الـمـعـرـفـةـ . وـلـكـنـ جـمـيلـ ذـلـكـ الـامـبرـاطـورـ
 الـعـلـيـيـ كـانـ حـقـيقـةـ رـاهـنـةـ حـتـىـ انـ صـرـيـدـيـهـ وـحـبـيـهـ شـهـدـواـ بـخـلوـهـ مـنـ كـلـ مـعـرـفـةـ
 وـتـجـرـدـهـ مـنـ الـلـمـ وـالـمـرـفـانـ

ان يعتي بالكتب القديمة المنسوخة وان يجعلها تجليداً حسناً وان
يعمل كل ما من شأنه حفظها من ايدي العبث . كذا يجب على الذين
يقرأ كتاباً للامبراطور ان يمزج كلامه بعض شواهد عن اعمال
المسيح ويدخل في موضوعه امراً يجر الى الحديث عن الديانة المسيحية
وكثيراً ما شدد هذا البطريرك الوصية على المسيحيين المستخدمين في
الدواوِر الامبراطورية برعاه شروط النظافة وحسن المندام وان تكون
دلائل الفرح والابتهاج ظاهرة على سيماتهم وعلامتهم الهنية والوقار واضحة
في ملامحهم وعلى وجوههم

ولنعد الان للبحث عن اصل هذا الامبراطور وفصله الذي توسم
فيه المسيحيون المصريون كل خير وبركة فنقول :-

ان الذي ينظر الي اسم هذا الامبراطور يظنه يونانياً او رومانياً ولكن
اسمه في الحقيقة لقب اخذ من مدينة في دلاطية هي مسقط رأس امه
وذلك لانه ولد عبداً من والدين كانا تحت رق العبودية الا انه اظهر من
نعومة اظفاره طمعاً اشعياً وحذقاً طبيعاً في طلب تقدم والرفة كما انه
كان يشك كثيراً في الوسائل التي استعملها لنيل غرضه الذي يسعى اليه
ولقد تقدم ديوكتيانوس تقدماً سريعاً في الرتب العسكرية الى ان عين
قائداً للحرس في الوقت الذي مات فيه الامبراطور نومريانوس في مدينة
خلكدونية عندعودته من حرب القرس كامر بك . فلما مات نومريانوس
هذا دبر حيلة محبوبة الاطراف بها جعل قواد الجيش الذين كانوا في

الحرب مع الحكام الرومانيين ان يصادقوا على انتخابه امبراطوراً فتم له
 ذلك . ولما استتب له الامر افتتح حكمه بقتل رجل كان يخشى من مطالبه
 اياه بسرير الملكة ويخاف ان يصييه شر منه ولذلك اتهمه بأنه القاتل
 لنومريانوس سلفه في هذا الرجل المسكين امامه وهو مقيد بالاغلال
 والسلسل وحوله جمع يصخبون ويصيرون فامسكه وذبحه بيده ذبحاً
 دون ان يعمل منه تحقيقاً او ان يحيطه على محاكمه بل هدر دم الرجل هدراً
 وبعد مضي ستين عام على هذه الحادثة رأى ديوكتيانوس انه يصعب عليه
 تنظيم هذه المملكة بمفرده بينما هي مملكة واسعة الاطراف اعتاد شعبها
 عدم الخضوع بسهولة للذين يغتصبون استقلالهم ويفقدونهم حريةهم فلذلك
 اشرك معه في ادارة المملكة مكسيمييان وهو رجل امي كان مثله كمثل
 ديوكتيانوس في انه ترقى سريعاً في الرباع العسكرية الى ان صار قائداً لفرقة
 وذلك لذوقه الطبيعي ومهارته . فلما عينه ديوكتيانوس وكيلاً له اعطاه لقب
 امبراطور المغرب وبعد هذا التعيين بست سنين شعر الامبراطور الروماني
 بضرورة تعيين وكيلين له وشركيه فعين قسطنطينوس وكيلاماً مكسيمييان
 وهو رجل من عائلة طيبة وعين غايروس وكيلان نفسه وهو رجل داعي
 قطعان وسمى هذين الوكيلين قيسرين واضطرهما ان يطلق كل منهما امرأته
 ويقترن بابنة مولاه لينال بذلك الترقى والرفة
 اما هؤلاء الامبراطرة والقياصرة فكان لديهم شغل خطير في انهم
 يعملون للدفاع عن سلامة المملكة التي كانت تخلي تدريجياً و تستقبل ولاية

منه بعد الاخرى وذلک لان الشعب رفض مبايعة عبد ذمیم کديو کلتیاوس
 والاعتراف بانه امبراطور عليهم وكانت كل ولاية من هذه الولايات
 النازعة للاستقلال تختار عميداً لها من بينها لیقیم الحروب ويشن الغارات
 طعماً في اعادة الاستقلال القديم وكانت اول ولاية نزعت الى الحرية
 بريطانيا وعقدت لواءها الى امير منها اسمه کاراشیوس وتبعها فرنسا تحت
 قيادة اليانوس واماندوس ثم قرطاجنة تحت يوليانيوس واخیراً قامت مصر تحت
 قيادة اخیلوس واعتقلت البيض الصفاح لتسود استقلالاً لها كان قد مات
 وراح . والذی يتذر طول مدة الجهاد في مصر لاجل الحرية وما له سن
 الاهمية العظمى لانه جهاد في سهل الاحلاص من رق العبودية يعجب
 جداً اذ لا يجد ما يشفي العلة عن اخیلوس هذا ولا يعرف شيئاً عنه بينما
 يراه دجالاً عنيداً وبغلاً صنديداً ظل تسعة سنوات متواالية يقاوم القوة
 الرومانية وتحتقر سطوها وعظمتها الى ان مات بعد مدة طويلة في الحرب
 وبموته خابت آمال مواطنه ولم يعد لهم امل في الاستقلال . وكل ما
 نعرفه عن اخیلوس هذا على سبيل التخيين انه مصری الترکة مسيحي
 المذهب ولو انه يونانی الاسم . وقد مضت ستين سنة بعد هذه الحادثة
 والمصريون يتضجرون ويتملعون من حکم هؤلاء البرابرة المقصبيين
 الذين انحلوا لأنفسهم لقب امبرطورة رومانیين وادعوا ان المملكة
 المصرية انما هي ارث لهم لا يصح ان ينزعونها منا . ولم تسك مصر طول هذه السنتين بل انها قامت ست مرات في أثناء هذه

المدة وهي تتعقل السلاح وتسير خلف كل من يقول بأنه قاصد استقلال
وساع في تحريرها ولكنها لم تستفد شيئاً ولم يخشها العدو لأنها كان مؤكداً
انها تهزم امامها لما اعده لها من جيش متمرن ولا انه استاجر لها عاماً
متدرية في فنون القتال لا يقف امامها هذا الشعب المصري الضعيف
الذى اعتزل السلاح من قرون مضت ولم تبق له معرفة بالحروب كما
المصريين لم يكونوا يتظرون بجدة من الخارج ولكنهم ارتبطوا كلهم
ـ اليوناني والمصري والمسيحي والوثني على السواء ـ لكي يجاهدوا وجهاد اليائسر
القاطن في نوال الحرية

وقد قضت سنة هذا الكون الطبيعية ان يكون السبق للسرى
والنصر للقوى . وتقدير ذلك ان اخيلوس المار ذكره بك كا
قد أخذ طيبة وأقيم ملكاً فيها لمدة أربعة اعوام ذاق فيها المصريون
طعم الحرية المزوج بعلم تهديد الرومانيين لهم بينما كان غاليروس غير
نافذ الكلمة لا تتعذر سلطته حدود خيمته ولا يسمع صوته سوى
عساكره ولذلك سعى جهده في الحصول على مركز ثابت والجهاد شهرة
له من العدم فسار بجنوده ضد المصريين واخيلوس عساشه يذلهم فيعود
بالشهرة والنصر ولكن لم يفلح في تدبيره هذا وحيثذا ضرر ديوكليتيانوس
ان يحضر بنفسه ومعه جيش مزبد ومن ثم بدأ الحرب بينه وبين
المصريين او بمعنى اخر بين العلم والنصرانية والضعف من الجهة الواحدة
وبين الجهل والكفر والقوّة من الجهة الأخرى

وبعد ان حاصر الامبراطور مدينتي قبطس وبوزيريس حصاراً طويلاً
 اتغلب عليهمَا اخيراً واهلكهمَا عن بكرة ائيمهِما ومن ثم سار في طيبة الى ان
 وصل آخر حدود مصر فعقد معاهدة مع اهالي النوبة والجاشة وتنازل
 لهم فيها عن الاقيم الواقع بين اصوان ووادي حلفا على شرط ان يرددوا
 غارات الاعداء الذين ينيرون على حدود المملكة . وكانت تجدد هذه
 المعاهدة سنوياً ويقام لها احتفال ديني تحر فيه الذابح حسب طقوس
 الديانة المصرية القديمة وتعمل لها الولائم الفاخرة في جزيرة فيلا التي
 عسكرت فيها الحامية الرومانية . ولم تزل بقايا السور الذي شاده
 ديوكتيانوس في وسط الوادي قائمة الى يومنا هذا . وقد ذكر بعض
 المؤرخين ان ديوكتيانوس لم يشق تمام الثقة بمدافعة اهالي النوبة عن
 حدود المصرية فاتفق معهم فيما بعد بان يدفع لهم جزية سنوية ومثلها
 للبلمبيين الذين كان يخشى شر غاراتهم وهم الذين ساعدوه التدمر بين
 قبلاً على افتتاح مصر من جهة الجنوب
 ولما اكمل ديوكتيانوس هذا كله غادر مصر وتبعه جيشه
 ولذلك نما ظل السلطة الرومانية فيها وأوشك بدر قوتها على الافول
 وعليه التف المصريون باجمعهم مرة ثانية حول اخيلوس - الذي كان
 من وجه ديوكتيانوس قبلاً - فقابلته مدينة الاسكندرية بترحاب
 واحلال بعد ان فاز بالنصر ونال غرضه . وقد يصعب على الباحث
 تحديد مدة استقلال مصر تحت حكم اخيلوس ولكن البعض زعموا ان

مصر ظلت مسقولة من ست سنوات الى تسع وبنوا ظنهم هذا على ارديوكليتيانوس لم يعد لحربة مصر وارجاعها سلطته الا بعد ان قضى وقناً طويلاً في رومية كانت مصر في اثناءه تستنشق نسيم الحرية
المنعش

فلما قدم ديوكلتيانوس لاخضاع مصر زاد شقاوتها وعظم بؤس ومحابها . فانه بينما كان اخليوس في الاسكندرية يجني ثمار انتصاره داهما ديوكلشيانوس قاصداً افتتاحها فبدأ اولاً بشدید الحصار عليه بان حوال محاري المياه التي تشرب المدينة منها ولم يبق شك في انتصاره عليها ما دام قد قطع كل صلة بينها وبين باقي مصر وما دام هو قادر على ايجاد كل ما يحتاج اليه من مؤونه وذخيرة بواسطة البحر المتوسط وبينما كان ديوكلتيانوس يحاول أخذ الاسكندرية ويقاتل المصريين ليس لهم استقلالهم كانت الامم الاخرى الخاضعة للسلطة الرومانية تجاهله مع الامبراطرة الرومانية شركاء ديوكلتيانوس دفاعاً عن حياتها واحتفاظاً على وحدتها واستقلالها وقد رشى هذا الامبراطور النوبين والبلمبيين ليكونوا على الحياد فلا يمدون يد المساعدة لمصر وكان حرب ديوكلتيانوس السابق لهذا قد أورد مصر موارد الخراب والدمار وحرمه من ملكها الذي سجنها في الاسكندرية فلذلك لم تقو هذه المرة على مقاومة طويلة فان الاسكندرية بعد ان مضى عليها ثمانية شهور في حرب عوان يدفعها اليها اليأس سلمت للامبراطور وأخذ اخليوس اسيراً ثم

حكم عليه بالموت . قيل ان ديوكلتيانوس اغتاظ جداً من مقاومة الاسكندرية له وحق من استبسالها في حربها معه فأقسم ايماناً مغلظة ان لا يكفي عن ذبح اهلها حتى تجري دماءهم كالسيل المنهر في الشوارع ويبلغ ارتفاعها الى ركبة حصانه قصاصاً لهم على عنادهم وعدم استسلامهم فذبح عشرات الالوف من المصريين وجرى دمهم كالغدران في الازقة والشوارع الى ان شُبعت نفس ديوكلتيانوس بهذا المنظر الذي تشيب من رؤيه الاطفال فانهزم فرصة سقوط حصانه عند ما عثر بالجثث المكومة فاوقد الذبح لانه اعتبر عثار جواده علامه من السماء على اتمام هذا الانتقام وهو لم يكن ليكفي مطلقاً عن عمله هذا لو لا ان دواع سياسية خطرت بيده فوجده مخرجاً من الحنت بقصده الذي أقسمه فكف عن خراب المدينة وذبح كل كاهراً . وقد زعم البعض ان العمود المنفرد الذي لم ينزل الى الان قائمًا في اطلال الاسكندرية القدية المعروفة « بعمود السواري » اقامه الوطنيون هناك او نصب باسم الامبراطور نفسه في هيكل سيرابيس ليكون تذكاراً لهذه الحادثة المشوّمة الا ان الابحاث الحديثة التي عمّت في الاسكندرية لا تثبت صحة هذا الزعم . اما ديوكلتيانوس فعرف كيف يتصرف في مصر فقضى فيها وقتاً - اكناً مادئاً ولم يصب جامات انتقامه على رأس هذه البلاد الشقية الا بعد بضعة اعوام ولكن هذا الانتقام الثاني كان صارماً جداً لا مثيل له بين اعمال الانسان الوحشية

ولما رأى بعض الاشخاص الذين كان قد حكم عليهم بالموت او بانفي ان ديوكتيانوس ينوي بهم شرًّا تركوا مصر وفروا الى بلاد اخرى . وقد بدأ ديوكتيانوس حينئذ في ابطال سبك النقود المصرية القديمة ولكن هذا لا يعد شيئاً في جانب المصيبة العظمى التي اصابت مصر بضياع كتبها العالمية القديمة التي كانت اثمن الكنوز عندها . فان هذا الامبراطور الجاهل الذي كان عقله مفعما بالخرافات والاوہام ظن ان المصريين قادرؤن بواسطه علم الكيمياء ان يحولوا كل المعادن الاخرى الى ذهب وهاج وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي جمعوا بها مالا طلاؤ صرفوه في المدة التي كانوا يجاهدون فيها لاستقلالهم وحريةهم . فبناء على هذا الفكر السخيف - الذي يوجد كثيرون يعتقدون به الان - امر بتسلیم جميع هذه الكتب اليه وقد نفذ الامر رغمًا عن احتجاج المصريين وتوسلاتهم وتضرعاتهم فأخذ هذه المجلدات العالمية وحرقها هذا الامبراطور الغر الغشوم باحتفال حافل وهى ولو انها تحتوى على بعض امور وهمية واغلاط غير جوهرية الا انها نوبقيت لكيانت احسن ما يقتنيه العالم في علم الكيمياء وفي علوم اخرى مهمة

وبعد هذ بقليل توفي بطريق الاسكندرية الذي ربما قاسى كثيراً من هذه المصائب التي صرت على ابنائه . وقد يصعب التثبت من معرفة الذين رأسوا المدرسة اللاهوتية بالترتيب في ايام الاضطرابات هذه وقد يمكن معرفة اسماء الذين اداروا حركة هذه المدرسة ولكن تعاقبهم الواحد

بعد الاخر لا تسهل معرفته الا انه يحتمل ان يكون اخيلاس قد خلف
ثيونو سطس وانه تعين باصر من البطريرك ثيوناس وانه رقي كرسى
البطريركية بعد ذلك بمنة طولية في اثنائها تولى بطرس وسيرايون على
رئاسة المدرسة اللاهوتية . ويقرب من الظن ان اخيلاس هذا فعل ما
فعله اكليمندس قبله في انه ترك الاسكندرية او قات القلاقل والحروب وحل
 محله بطرس اثناء غيابه وقد ورد ان البطريرك ثيوناس مات سنة ٣٠٠ م
 وخلفه بطرس هذا الذي كان حيئذ شاباً بالنسبة الى ثيوناس وكان
 ايضاً متزوجاً وذا بنات

وقد ظلت مصر ثلاث سنوات هادئة مطمئنة (١) ومن ثم عصفت
 زوابع المصائب التي تركت الكنيسة على شفا جرف هارقامت ريح صر صر
 امطرت على الامة المصرية بلايا ورزايا لم تقم لها قاعدة بعدها

الفصل الثامن عشر

تاریخ الشهداء سنة ٢٠٣ - ب م

لا ريب في أذلاضطهاد الذي احدثه دیوكليتوس وكاد يقضى على
 مصر قضاء مبرماً لم يكن محصوراً في هذه البلاد فقط إنما كان يد
 مشروع خطير يقصد به محو آثار الديانة المسيحية من على وجه اليسعية

(١) قال يوحنا اليقاوي في تاريخه ان الاضطهاد بدأ في مصر عقب احمد نار عصي انها . وهذا القول قريب من الصواب كما انه ازاح الستار عن بعض العقد التاريخية فيما يتعلق بالشقاق الذي احدثه ميليتوس في مصر . وقد صر بذلك أن الاضطهاد الذي اثاره ديشيوس بدأ في مصر قبل صدور الامر الامبراطوري بشأنه بسنة كاملة

ولأن بطانة هذا الامبراطور العاتي ومعيته لم يكونوا يهتمون باظهار الحقائق
له فيما بعد - ووجهه موصوف في الذي مضى - بل اوهمه از القوة والمقاومة
التي صادفها في الشعب في مصر وعدم رضوخهم له انما من شأنها
الديانة المسيحية الشديدة المراس التي تدعى التهذيب والمدنية اكثر من
حتوى المملكة الرومانية بهما والتي تدين لاله قادر وتطيعه وتقول انه
اعلى من الامبراطور الروماني وارفع وتنكر ان هذا الامبراطور نائه . ولذي
زاد هذا الامبراطور ارتياجاً في اصر الديانة المسيحية ما شاهده في فرنسا
وبريطانيا وفي شمال افريقيا من سعي هذه الشعوب لنوال الاستقلال
كما تسعى مصر ومن ان اليماعث لهذا السعي هو سبب واحد ومحرك واحد
هي الديانة المسيحية . ومما زاد هوسه وجئونه ان غاليريوس (١) وكيله
جسم له الامر وكبره كما ان المنجمين والعرفين الذين دعاهم ديوكتيانوس
من ارا ينبعوه بما يكون في مستقبله قالوا انه يسر عليهم اغراء الارواح
على مجاوبتهم وظهور مكنونات الغيب مادام ان قصر الامبراطور
مفعم بجماعة الكفرة (يقصدون بذلك المسيحيين) الذين وجودهم في
القصر يمنع تجلي الارواح وظهورها

(١) مما ينبع ذكره هنا انصافاً لديوكليتيانوس ان الاضطهاد المنسوب له لم يصل درجة
القطاء والقصوة الا وقت جئونه الذي اعقب تنازله قسراً وتركه غاليريوس يتصرف كيف شاء
تابعاً الفعل لديوكليتيانوس . وقد صدر أمر في البداية كان صارماً شيئاً ثم تلاه ثان وثالث
في ظرف بضعة اسابيع يتضمنان سجن جماعة الاكليرicos أولان ثم اجبارهم على أن يذبحوا
للاوثان بواسطة العذابات المريرة وكان ذلك نتيجة نار شب في قصر الامبراطور اتفق جمهور
المؤرخين المعاصرين بأنها اضرمت بامر غاليريوس نفسه وعزماها الى المسيحيين وبذلك ياقبت
ديوكليتيانوس بتخاذل الطرق الالزمة ضدتهم . وقد صدر أمر راجع ينتما كان ديوكتيانوس
معتوفهاً وبلغ الاضطهاد حدوده بعد تنازله

لما امتلا عقل ديوكتيانوس بخوف ناتج من خرافات عقيمة ولاعتبارات سياسية ايضاً امر باصدار منشور شديد اللهجة ضد المسيحيين وذلك في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ ب.م (وهو يوم عيد عند الوثنيين) ولما صدر هذا المنشور كان ديوكتيانوس و غاليريوس في نيكوميديا يط لأن من القصر لينظرا به تلك الحادثة المشوهة التي استمرت تسع سنوات كاملة . وقد بدأ هذا الاضطهاد بان سار الوالي بمشهد حافل الى كنيسة نيكوميديا الكبرى يصحبه جم غفير من الموظفين والكتاب وجماعة من حاملي الفؤوس فكسرروا الابواب واحرقوا جميع كتب الكنيسة وستوزها ثم اخذ العمال في هدم الكنيسة بالفؤوس والاثقال الى ان ساوها بالارض ولم يتركوا فيها حبراً على حجر الا ونقضوه . اما المنشور السابق ذكره فصدر في ثاني يوم لهذه الحادثة وعلق في الاسواق والاماكن العمومية وهذا نصه :-

- (١) يجب هدم جميع الكنائس وازالتها من الوجود
- (٢) يجب احراق كل الكتب المقدسة
- (٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يجردون من وظائفهم فقط بل يحرمون من حقوقهم الوطنية ايضاً (وذلك لكي يتثنى لاعدائهم ان يذيقوهم انواع العذابات واشكال القسوة)
- (٤) كل المسيحيين الغير موظفين يصيرون عبيداً ارقاء وقد يمكن للفيطن ان يتصور مقدار ازدحام الناس في الاسواق

لقراءة هذا المنشور . فكان المسيحيون عند سماعهم هذا الخبر المشؤم يذلون من وسط الجمـع لـكي يخـبـوا أو يفـروا هـارـين ولو انـا مـلـهمـ فيـ هـذاـ الـهـرـبـ كانـ ضـعـيفـاـ . اماـ الـوـتـنـيـوـنـ فـلـمـ يـفـرـحـواـ هـذـاـ خـبـرـ بلـ بـالـعـكـسـ كـانـواـ يـرـيدـونـ المـدـافـعـةـ عـنـ اخـوـاـنـهـمـ لـوـلـاـ انـهـمـ خـافـواـ الشـهـرـةـ وـالـرـيـبةـ . قـيلـ انـ مـسـيـحـيـاـ جـرـيـءـ القـلـبـ شـدـيـدـ الـعـارـضـةـ اـفـتـحـمـ الجـهـورـ المـازـدـحـمـ فيـ السـوقـ وـتـقـدـمـ لـيـقـرـأـ هـذـاـ الـمـنـشـورـ فـلـمـ عـلـمـ بـمـاـ فـيـهـ مـدـيـدـهـ بـسـرـعـةـ الـبـرقـ الـحـاطـفـ وـاـخـذـ هـذـاـ الـاـمـبرـاطـورـيـ وـمـزـقـهـ شـدـرـ مـذـرـ وـذـرـهـ فيـ الـهـوـاءـ وـقـدـ فـعـلـ ذـلـكـ بـغـایـةـ الشـجـاعـةـ وـالـحـزمـ بـيـنـاـ المـتـفـرجـ جـوزـ وـقـفـواـ مـنـدـهـشـيـنـ كـأـنـ عـلـىـ رـؤـوسـهـمـ الطـيـرـ . أـمـاـ هـذـاـ الـبـاسـلـ فـقـدـ اـتـيـ القـبـصـ عـيـهـ فيـ الـحـالـ وـذـاقـ الـوـانـ العـذـابـ الـمـرـ وـحـيـثـ اـحـرـقـوـهـ حـيـاـ فيـ نـارـ ضـعـيفـةـ الـهـيـبـ لـكـيـ بـطـولـ عـذـابـهـ كـثـيرـاـ

وـقـدـ جـاءـ فـيـ روـايـاتـ الـعـامـةـ مـاـ يـثـبـتـ انـ هـذـاـ الشـهـيدـ الـمـارـذـكـرـ هوـ مـارـ جـرجـسـ الشـهـيرـ الـذـيـ يـعـدـ الـآنـ عـمـيدـ الـقـدـيسـيـنـ فـيـ الـبـلـادـ الـانـكـلـيـزـيـةـ وـلـاـ يـوـجـدـ سـبـبـ يـدلـ عـلـىـ عـدـمـ اـحـتمـالـ هـذـاـ القـوـلـ الـاـنـ حـكاـيـهـ الـآـنـفـةـ لـمـ يـرـدـ لـهـاـ ذـكـرـ فـيـ روـايـاتـ الـمـصـرـيـةـ المـنـقـولـهـ عـنـ مـارـ جـرجـسـ . فـقـدـ وـرـدـ فـيـ هـذـهـ روـايـاتـ الـمـصـرـيـةـ حـكاـيـهـ غـرـيـبةـ عـنـ النـيـنـ وـمـارـ جـرجـسـ مـداـحاـ بـالـبـعـضـ اـلـىـ الـظـنـ اـنـ هـذـهـ حـكاـيـهـ هـيـ مـنـ اوـضـاعـ بـرـسـوسـ الـروـائـيـ الشـهـيرـ وـضـعـهاـ كـرـمـ عـلـىـ حـالـةـ الـمـسـيـحـيـ فيـ هـذـاـ عـالـمـ وـجـهـادـهـ فـيـهـ . اـمـاـ كـلـيـةـ «ـنـيـنـ»ـ فـكـانـتـ لـقـبـاـ اـطـلـقـهـ الـمـصـرـيـوـنـ عـلـىـ دـيـوكـلـيـانـوـسـ وـجـعـلـوـاـ

وجه الشبه بينهما الخصم الشديد الذي استحكمت حلقاته بين هـذا
 الامبراطور وبين ذلك الشهيد الباسل الذي قاومه مقاومة شديدة واحيـاً
 فاز عليه واخضع سلطة وقوة ارادته تحت موطـي قدميه . هذا كلـا يتعـاـقـ
 بـسـأـلـةـ التـنـينـ الـذـيـ اـقـتـرـنـ ذـكـرـهـ بـتـارـيخـ مـارـ جـرجـسـ والـذـئـبـ يـتـصـفـعـ
 الرـوـاـيـاتـ الـقـدـيـمـةـ عـلـىـ صـحـتـهاـ لـاـ يـجـدـ اـدـنـىـ خـبـرـ عـنـ وـجـودـ تـنـينـ حـرـفيـ اوـ
 عـنـ مـقاـوـمـةـ جـرـتـ بـيـنـ هـذـاـ الـقـدـيـسـ وـبـيـنـ ايـ حـيـوانـ آـخـرـ . اـمـاـ الرـوـاـيـةـ
 الصـحـيـحـةـ الـتـيـ نـحـنـ فـيـ صـدـدـهـاـ فـتـقـولـ انـ هـذـاـ الـامـبـراـطـورـ كـانـ مـمـثـلاـ فـيـ
 صـورـةـ كـأـنـهـ مـلـكـ الـمـسـكـونـةـ بـرـمـهـاـ وـتـحـتـ يـدـهـ ثـمـانـيـةـ مـلـوكـ خـاصـعـةـ لـهـ .
 وـقـدـ جـاءـ فـيـهـ اـيـضـاـ انـ بـعـدـ مـضـيـ ثـلـاثـ سـنـينـ عـلـىـ مـنـشـورـ الـامـبـراـطـورـ
 الـذـيـ ذـكـرـ قـبـلـاـ لـمـ يـكـنـ اـحـدـ يـجـاسـرـ وـيـقـولـ انـهـ مـسـيـحـيـ خـوـفاـ مـنـ الـعـذـابـاتـ
 الـمـرـةـ الـتـيـ كـانـ يـتـوـعـدـهـ بـهـاـ دـيـوـكـلـيـاـنـوسـ . اـمـاـ عنـ مـارـ جـرجـسـ فـقـدـ وـرـدـ
 فـيـهـ انـهـ وـهـوـ يـعـدـ ضـابـطـ صـغـيرـ فـيـ الجـيـشـ طـلـبـ اـلـىـ مـدـيـنـةـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ
 ليـرـقـ اـلـىـ درـجـةـ اـعـلـىـ فـلـماـ مـثـلـ بـيـنـ يـدـيـ رـؤـسـائـهـ لـمـ يـسـرهـ السـكـوتـ بلـ
 قـالـ جـهـارـاـ انـهـ مـسـيـحـيـ . فـعـنـدـ ماـ سـمـعـ الـامـبـراـطـورـ ذـلـكـ لـمـ يـشـأـ قـتـلهـ حـالـاـ
 بـلـ مـدـلـهـ فـيـ اـجـلـهـ حـرـصـاـ عـلـىـ حـيـاهـ ضـابـطـ اـمـيـنـ مـثـلـهـ وـكـانـ دـائـيـاـ يـجـددـ الـفـوـ
 عـنـهـ وـيـعـدـهـ بـالـتـرـقـيـ وـالـنـقـدـمـ اـذـاـ هوـ اـطـاعـ الـاـسـرـ وـاـنـكـ المـسـيـحـ . وـلـمـ تـسـلـمـ
 حـكـاـيـةـ مـارـ جـرجـسـ الصـحـيـحـةـ مـنـ النـسـخـ وـالـابـدـ لـانـهـ يـحـتـمـلـ انـ كـانـ بـاـعـ
 مـنـ الـمـذـهـبـ الـاـرـيـوـسـيـ (ـنـسـبـةـ لـاـرـيـوـسـ الـهـرـطـوـقـيـ)ـ وـقـعـتـ فـيـ يـدـهـ هـذـهـ
 الـقـصـةـ بـعـدـ زـمـنـ مـاـ فـادـخـلـ فـيـهـ مـاـ قـلـبـ وـضـعـهـ وـعـاقـ عـلـيـهـ مـنـ الشـرـوـحـ

والحواشي ما وافق غرضه الذي قصد به نسبة فضائل وكرامات مار جرجس المصري الى مار جرجس الاريوسي الروماني الذي جاء بعده كاسينجي . وقد صادف عمل هذا الكاتب بعض النجاح في اوائل الامر ولكن لم يلبث هذا النجاح ان انعكس من وقت ما تلاشت الطائفة الاريوسية من مصر واضمحل ذكرها واصبحت الكنديستان او الثلاث التي كانت تكرست باسم مار جرجس الاريوسي (١) تنسب الى مار جرجس المصري ونقول بسيادته عليها وصارت هذه الكنائس ملائكة بصور تمثل حكاية التين القديمة العبرى وهي حكاية لا علاقه لها مع هذا او ذاك كما أسلفنا . في هذه الصور ترى مار جرجس راكباً جواداً أصيلاً مطهراً وقد اغمد سينه في تين (٢) وحشى كما يسميه اليونان والمصريون وخالص الاميرة من انيابه كقول برسوس المار ذكره ولكن الروايات المصرية القديمة لم يذكر فيه تين او أميرة بل ان التين كان لقباً للامبراطور كما قلنا وكان مار جرجس يلقبه به اما هذه الاميرة فكانت احدى محظيات الامبراطور التي كانت

(١) قيل ان الكنيسة اليونانية المسماة باسم مار جرجس الموجودة في قامة بايلون (بتصر القديمة) كانت مكرسة قديماً باسم مار جرجس الاريوسي وكان له كنيسة أخرى في جرجا

(٢) لا يعرف شيء عن صفة الحيوان الذي صنفت عنه قديماً حكاية التين . وقد ترجم في سفر التكفين «حوت» ويشيرون عليه في مصر ترة بتساح واحياناً بتساح بمحنج واحياناً بمحنج عظيمة هائلة

قد حبس ليلة كاملة مع هذا الشاب الباسل بعد ان رفض انكار المسيح
بقصد ان يؤثر خداعها وكلامها اللين في عزيمته التي لم يزدتها العذاب
الا ثباتاً ورسوخاً . فلما دخلوا هذه الحظية الى سجن مار جرجس
ذهب الى احدى زوايا الغرفة التي كان مسجوناً فيها وحثا على ركبتيه
يصلى الله الى ان جاءت هذه الاميرة وطلبت منه بلطف ان يقول لها
بصوت جهوري ما كان يتم به في صلاته . فأخذ صاحبنا يشرح لها
كل ما يختص بال المسيح وصلبه وموته وقيامته فأثر فيها كلامه تأثيراً
عميقاً . فلما بدأت تباشير الصباح اقبل رجال الامبراطور لاخذها اليه
فلم يكن من الفتاة الا ان أعلنت بصرىح اللفظ بأنها صارت مسيحية
 تماماً ولذلك صدر امر الامبراطور باعدامها في الحال فأعدمت (١)

وقد يحسن هنا الرد ببسط عبارة على الذين ذهبوا مذهب
العلامة رينولدس في القرن السابع عشر الذين اجهدوا حيلتهم في التوفيق
بين مار جرجس قاتل التنين وبين مار جرجس الآريوسي . فان مار
جرجس الآريوسي لم يمت حتى سنة ٣٦١ ولم تبن كنائس باسمه الا بعد
موته بزمن . اما مار جرجس المصري فقد كرست كنائس باسمه
قبل ذلك بكثير اي سنة ٣٤٦ ب . م

(١) في واحة برقا وجدت في القرن الثالث عشر كنيسة مار جرجس فيل أنها
تضم عظامه . وزعموا ان رأسه موجود في ليدا ويقول أهل الواحات ان جسده
أرسل اليهم بعد استشهاده بمدة طويلة للاحتفاظ عليه

كذا قد عمّ الخلط في مصر الآن بين قدسيتين ولم يعد أحد يميز
 بينهما حتى خيف كثيراً أن حداثة عهد الواحدة بالنسبة للثانية وعدم
 معرفة شخصيتها يمحى ذكر الأخرى . ذلك أن كل غربي سمع عن
 القديسة كاترينا التي من الإسكندرية بينما قليل من الفرنجية لا يعرف
 عن السيدة دميانة سوى اسمها فقط وهي العذراء الشهيرة التي تكرر بها
 مصر وتحترمها ولذلك تجد صورتها مرسومة في كل كنيسة ويندر من
 لا يعرف تاريخها تفصيلاً بين المسيحيين المصريين . فإذا سلمنا جدلاً أن
 القديسة كاترينا وجدت في مصر - وهو أمر مشكوك في صحته -
 فقد يمكن أن تكون هي القديسة تاوضوراً بعينها وهي التي استشهدت
 في الإسكندرية في الزمن الذي يقولون أن القديسة كاترينا استشهدت
 فيه . ويوجد محل للنظر في أن تاوضوراً كانت تسمى هي كاترينا قبل
 اعتناقها الديانة المسيحية - وهو اسم مشتق من اسم الآلة هيكات
 ثم أبدلتله باسمها الحالي وقت عمادها . كل هذا ظن فقط ولكن الحقيقة
 التي لا ريب فيها هي أن الكنيسة المصرية لا تعرف القديسة كاترينا ولم
 تسمع عن اسمها قط إلى أن جاء الروم الكاثوليك هذه الديار واداعوا
 خبرها فيها لتوهمهم بأنها مسقط رأسها وكان ذلك بعد الزمن الذي
 خيل لهم أنها استشهدت فيه بعد قرون
 وقد يحدث كثيراً أنه عند ما يفدى السياح الأفرنج إلى هذه البلاد
 يذهبون لمشاهدة الكنائس المصرية ويسألون عن صورة القديسة

كاترينا فيضطر الترجمان أن يشير لهم إلى صورة المست ديميانة وهي أشهر عذراء استشهدت والتي لا يعرف القسوس شيئاً عنها فيراها السياح مرسومة وبيدها سعف النخل تحيط بها أربعون راهبة من أمراها.

(قالت المؤلفة) : وقد اتفق لي من مدة مضت ان زدت احدى الكنائس الكبرى في القاهرة وسمعت القس يشير إلى صورة المست ديميانة كأنها صورة المست كاترينا . فلما رأيت منه ذلك ابتدرته بالسؤال : كيف تقول هذا القول ؟ أليست هذه صورة المست ديميانة ؟ . فاجابني القس بوجه شاحب مقطب : « ماذًا عسانى أقول غير هذا ! نعم ان جنابك الفخيم تعلمين انها المست ديميانة ولكن السائحين لا يعرفون شيئاً عنها فإذا قلت لهم أنها المست ديميانة لا يفتقهون قولى ولا يفهمون وقد يقولون لي أنها المست كاترينا وانا لا اعرف اكثر من هذاإلا يسعني مجاداتهم وقد تكون كاترينا كلمة انكليزية منها المست ديميانة !!! ولذلك فاني اقول لهم أنها كاترينا وهم راضون بقولى ومن ذلك الوقت اتضح لي أن تلك الصورة الموجودة في الكنيسة انوماً اليها - وهي الكنيسة الوحيدة تقريباً التي يزورها السياح - يقولون عنها أنها القدسية كاترينا وقد وجدت هذا الإعتقداد شائعاً في الاسكندرية فيما بعد ذلك لأن الروم الكاثوليك بنوا كنيسة في هذه المدينة وكرسوها باسم القدسية كاترينا وشاركتهم في ذلك الاقباط الكاثوليك واصبحوا يحجون إليها . قالت المؤلفة وقد تذكرت من زيارة الكنيسة القبطية الوحيدة في الاسكندرية وهي التي أعيد بناؤها

من عهد قريب فوجدت أز المست دميانة قد رسمت فيها بشكل حديث
تحيط بها الأربعون راهبة ولكنها ليست ماسكة سعف النخل في يدها
بل هي في وسط عجلة مرسومة حولها . فلما رأيت اسم المست دميانة
منقوشاً على الصورة أتهمت لماذا صوروها محتاطة بمجلة كالقديسة
كاترينا فكان جوابي « إن جماعة الفرنجية يقولون أنها القديسة كاترينا
وقد تكون كاترينا كلية افرنجية ترجمتها دميانة فلهذا رسمنا المست دميانة
وحو لها عجلة كاترين » *!!!

وقد نصيّب الغرض إذا نحن أتينا بذكر شيء عن المست دميانة
فنقول : إن كلمة دميانة مأخوذة من مذكراً هذا الاسم « دميات »
وان هذه القديسة كانت من ضحايا هذا الاضطهاد الذي نحن في ح侃اته
وكانت بارعة الجمال غضة الشباب خصت نفسها بالزهد والتنسك وهي
في الخامسة عشرة من عمرها . وكان أبوها مصرى المواطن تعين مديرًا
لأحدى مديریات مصر وابنها ديرًا لابنته على مسيرة ساعتين من بلقاس
شمالاً (غربية) حيث اعتزلت فيه مع راهباتها وصارت رئيسة لهذا الدير
رغمًا عن حداثة سنها . وقد قدر بعضهم عدد الراهبات اللواتي كنَّ في الدير

* (المترجم) هذا ما سمعته حضرة المؤلفة في مصر والاسكندرية عن المست
دميانة ومنه يشدل على أن الخطأ والجهل يتفشيان بين القوم ويشريان في عقول
هذه الفئة المعلومة أكثر من سريان الحقائق الصحيحة بينهم . وهو عيب فاضح
يعبرنا به الأفريح ويقولون إن المعرفة والعلم بعيدان عنا بعداً شاسعاً مادام هذا مقدار
علمنا باحوال قديسينا وشهادتنا المشهورين

عندما شبت نار الاضطهاد باربعين راهبة . وكان والد دميانة معتبراً في
 قومه داماً مكانة عند الامبراطور الذي استعمل معه كل نفوذه الشخصي
 ليقنعه بأن يذبح للاؤتمن لانه لم يكن يرغب هلاك خادم أمين مثله قل ان
 يوجد له مثيل في بلاد عمرها الا ضطراب والقلق وكثير فيها أعداء الامبراطور .
 قيل ان هذا الامبراطور قبل من والد دميانة ان يظهر له اشارة حقيقة
 تدل على الرضوخ لا وامره في هذا الشأن بدل أن يذبح للاؤتمن كفирه
 ومن ثم يهدى اليه الامبراطور تنفيذ أمره القاضي بالاضطهاد في المديرية
 التي يحكمها هو فيتنسى له حينئذ اتفاقه ومحبيه من المذاب بهذه
 الطريقة . فتردد صاحبنا بين القبول والرفض ولما سمعت دميانة بذلك
 أرسلت الى ابها تستعطفه وترجوه وتستحلفه ان يرفض طلب الامبراطور
 رفضاً باتاً ففعل ابوها كذلك وازدرى بمواعيد الامبراطور واستخف به
 ايضاً . فلما بلغ ديوكتيريانوس ذلك انشاط غضباً خصوصاً لان فتاة
 مكسورة الجناح ابطلت كلامه ولم تعبأ بقوله فشكب سخطه ورجزه
 ليس على الاب فقط بل على الابنة ايضاً والقى القبض على دميانة والراهبات
 اللاتي معها واضطربن لان يذبحن للاؤتمن ولما رفضن ذلك قطعاً وضعن
 تحت طائلة العذابات القاسية الطويلة المدى ولما لم يعدلن عن رأيهن
 قطعت رؤوسهن جميعاً . ولم يزل الديك الذي قيل ان رفاتهن موجودة
 فيه قريباً من بلقاش . ومن الحقائق الراهنة ان المسلمين الوطنين - الذين
 من سلالة المصريين المسيحيين وارتدوا عن اليمان في أوقات مختلفة -

لا زلوا يؤدون الا كرام لست دميانت كما وصل اليهم من أجدادهم
 فيقصدون مزارها مع مواطنهم المسيحيين سنوياً ويغدون زرافات
 ووحدان الى ديرها الذي يمد من اجمل الآثار منظراً في مصر
 وقد ظلت نار الاضطهاد مستعرة في انجاء المملكة الرومانية لمدة
 ثلاث سنوات حيث بلغت مشاهى القسوة والفظاعة . وأول امر صدر
 باثاره الاضطهادات كان في سنة ٣٠٣ ولم تأت سنة ٣٠٤ حتى صدر الامر
 الرابع المارد ذكره بك أصدره غاليريوس عندما كان ديوكليتيانوس مصاباً
 بالعنة والجنون . وهذا الامر الاخير زاد عن غيره في الصرامة والخشونة
 ولم يقتصر على فرق معلوم من المسيحيين بل عمم جميعهم بغض النظر عن
 العمر وبدون تمييز بين الرجال والنساء ولم يستثن منه ذو حياثة وصاحب
 عمر رفيع . والذي يريد معرفة درجة ذلك الاضطهاد ومقدار ما قاساه
 المسيحيون من العذاب عليه بمراجعة الفقرة الآتية التي كتبها يوسيبيوس
 أسقف قيصري وكان قد جاء الاسكندرية عندما خmidt نار الاضطهاد
 وعندما كان صدي بلايه لا يزال يرز في آذان الدين شاهدوه وذاقوا
 عرارته . ومن يذكر في هذا الصدد ان برسوم العريان الذي نال الشهادة
 بعدئذ وسألي حكايته معنا كان اكثر الحكام غيرة في تنفيذ اوامر
 الامبراطور الفاضحة بالاضطهاد ولكنها اهتدى واستشهد . ولا يؤخذ من
 كلام يوسيبيوس التالي انه كان في مصر عند حدوث هذا الاضطهاد
 ولكن يحتمل من كلامه الآتي بأنه شاهد الامر بعينه انه يقصد بذلك

ما نظره في فلسطين من استشهاد الكثرين وموتهم لأجل اسم المسيح
 مما جعله يقيس ما جرى في صعيد مصر به ويتخذ دليلا على شدة الاضطهاد
 في هذه الديار وهو له . وهكذا ملخص ما كتبه :
 انه يسر على الكاتب الماهر ان يصف مقدار ما تجرّعه الشهداء
 في صعيد مصر من عذابات قاسية والامات تشيب من ذكرها النواصي
 فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء وينخدشون اجسامهم ويقطعنها من
 الجلد وينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقي اجزاء الجسم الى ان يموتونا
 اما النساء منهم فكانت تربط احداهن في احدى رجلها وترفع
 في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد ان يخلعوا عنها ملابسها
 ويكشفوا كل جسمها وتظهر امام جمورو المتفرجين بمظهر تشر منهما
 الانسانية وتباه النقوس الابية . وكثيرون ما توا بواسطة الاشجار
 بالطريقة الآتية وهي انهم كانوا يقربون غصنين قوين من شجريتين
 متقابلين بالآلة وضعت لهذا الغرض ثم يحيطون بالشهيد ويربطونه بهذه
 الغصنين ومن ثم يتركان ليعودوا الى اصلهما فهذا يعتدل لجهة اليدين مثلا
 والآخر للشمال والشهيد بينهما تترقب اضلاعه وتسحق عظامه سحقاً
 ويتطاير جسمه في الفضاء . ولم يكف لهذه الفظائع اياماً وشهراً بل
 كانت تستمر سنيناً طوالاً وهي في افطع حالاتها وكثيراً ما كان
 يصدر حكم بقتل عشرة اشخاص في لحظة واحدة واحياناً يقتلون عشرين
 رجلاً مرة واحدة واحياناً ثلاثين وستين ومرة حكم على مائة رجل

بالموت فلما في يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار وذلك بعد ان
 ذاقوا من العذاب الواناً . قال المكاتب : وقد شاهدت بعيني بينما كنت
 واقفاً بقرب النطع بما غفيراً من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن
 بطرق مختلفة فكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون في آتون
 النار المتقدة حتى ان السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس ثم وفل حده
 وتحطم تحطيم الكثرة ما سحق من الرقاب وكذلك السيافوون تعبوا او خارت
 قواهم من ذبح الادميين فكانوا يستريحون هنريمة دينما يتفسرون الصعداء
 فما تقدم يتضح ولا شك اننا نحن شهود عدول على ما شاهدناه باعيننا
 من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح في الروح القدس
 الذي ملا قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله ايامنا متيناً جعلهم
 يتقبلون الموت بتصور مبشرة وشغور باسمة حتى انه عندما كان يصدر
 الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الاخرون يندفعون من كل صوب
 مزدحمين في المحكمة امام القاضي معتبرين له بأنهم مسيحيون غير مبالين
 بما يلحق بهم من عذابات مريرة واضطهادات شديدة بل كانوا يجاهرون
 بكل جرأة وشجاعة بدياناتهم الحقيقة التي تعلم بوجود الله واحد عظيم
 خالق السماء والارض والبحر وكل ما فيها . ومن العجيب الغريب انه
 عند ما كان يصدر الحكم النهائي بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح
 وتهليل حتى انهم كانوا يرددون ويرتلون اغاني الحمد والشكر لله الذي اهلهم
 لأن يموتو لاجله وكانوا يظللون يفرحون ويطربون الى آخر نسمة من

حياتهم عند ما تفارق ارواحهم اجسامهم - نعم ان هذا غريب ولكن الاعجب من هذا كله ان الافراد الذين اشتهروا بغنائم ورتوتهم والذين عرفوا بطيبة معتقدهم وشرف نسبتهم وذاع صيتهم في الافق خصوصا لانهم برعوا في الفلسفة والعلم ونبعوا في المعرفة والعرفان - هؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الامجاد والمزايا من سقط المتعاق ويزدرون بها ازدراء في جانب اهمية الدين الحقيقي والایمان الصحيح بربنا وخلصنا يسوع المسيح »

ولنبدأ الآن الى ذكر مشاهير الشهداء الذين استشهدوا على يد ديوكلينوس في مصر فنقول ان من اشهرهم مينا المعروف هنا باسم «مارمينا» فقد ولد من عائلة عريقة في النسب في مدينة زيقيوس وكان أبوه مديرًا في احدى مديريات مصر أما مينا نفسه فكان ضابطاً في الجيش عندما دعى لانكار الديانة المسيحية فلما رفض قطعت رأسه ودفن جسمه في اقليم صريوط حيث بنيت كنيسة في المكان الذي دفن فيه اكراماً له ثم هدمت وبنيت مكانها كنيسة اكبر منها في مدة حكم اركاديوس ويحتمل انها كانت مكان يستريح فيه الحجاج والمسافرون عند صعودهم من الاسكندرية الى وادي النطرون

ونو ان الموت والاضطهاد وقابضة على الطامة العالية من المسيحيين في مصر الا ان العمال وجماعة الفقراء منهم لم يمسهم السوء كما مس غيرهم وذلك لأن الحكومة كانت في حاجة اليهم لتشغيلهم في مقالع البرفير

ومناجم الزمرد في مصر التي كان يشتغل فيها قبل المجرمون ومن ثم سخروا فيها المسيحيين عدة سنين كذبئن وذنبهم هو دينهم . وكان عندما يبتدي الاضطهاد يحكمون على بعض المسيحيين بالاشغال الشاقة مؤبداً خصوصاً عندما كانوا يحتاجونهم للالشتغال في اخراج المعادن وبعضهم سينا اساقفة الكنيسة كانوا يحكمون عليهم بان يستغلوا طول حيائهم في خدمة اهل الامبراطور واستبلات خيوله . إلا انه يحتمل ان هؤلاء الاساقفة اقتدوا انفسهم بشروط معلومة وذلك يظهر من قول يوسيفوس عنهم بانهم لم يسوسوا رعيتهم سياسة الجد والاستقامة ولذلك سقطوا الى حضيض المذلة والهوان لا بتعادهم عن الحق والكمال فلو كانوا في الاسر وتحت رق العبودية لما قال عنهم يوسيفوس هذا القول ولما كانت لهم ثمت علاقة بالشعب .

وقد ورد في بعض التواريخ ذكر خمسة من اساقفة مصر الذين وقعوا تحت طائلة العذاب المرّ قبل ان يردوا حتفهم . اما تاريخ الشهداء القديم فقد جاء فيه ان عدد الذين استشهدوا في خلال التسع سنين التي اذكى ديوكتيانوس نار الاضطهاد فيها في بر مصر بلغ ١٤٤٠٠ شهيد ولا مشاحة في ان هذا القدر شيئاً من المبالغة والعلو كما ان الثقدير الذي قدره بعضهم بعيد عن الحقيقة بالمرة لا يعتد به لانه ذكر عدد الشهداء اقل من الصحيح بكثير . فاذا قال باحت بشاعة الاضطهاد بمصر في ذلك الحين وبكثرة الذين راحوا ضحية فيه فلنا له انظر الى الجم

الواقر الذين ارتدوا عن الاعيـان والذين خبأوا انفسهم لكي ينجـوا من الموت فهؤلاء لا يحسبون في عـداد الذين ماتـوا وفـاتـوا . وقد سـرـبـكـ ان برسـومـ العـريـانـ كانـ منـ أـشـدـ النـاسـ مقـاـوـمـةـ للـديـانـةـ المـسـيـحـيـةـ وـاضـطـهـادـاـ للـمـسـيـحـيـنـ وقد ذـكـرـ المؤـرـخـ نـيـيلـ الـظـرـوفـ الـتيـ اعـتـقـ فـيهـاـ هـذـاـ الرـجـلـ الـدـيـانـةـ المـسـيـحـيـةـ وـلـكـنهـ لمـ يـذـكـرـ هـاـ حـسـبـ اـصـلـهـاـ بلـ جـاءـتـ مـحـرـفـةـ وـلـذـكـ رـأـيـناـ مـنـ الصـوـابـ انـ نـاتـيـ عـلـىـ شـرـحـ الـحـقـيقـةـ نقـلاـ عـنـ اـقـدـمـ الـمـصـادـرـ الـمـصـرـيـةـ وـاـنـقـهاـ فـقـولـ :

ذـكـرـناـ آـنـفـاـاـنـ العـريـانـ كانـ ضـابـطاـ فيـ الجـيـشـ المـصـرـيـ . وـكـانـ بـينـ رـجـالـ فـرـقـتـهـ عـسـكـرـيـانـ اـسـمـ اـحـدـهـاـ فـيـلـيمـونـ وـالـثـانـيـ اـبـولـونـيوـسـ وـكـانـ اوـلـهـمـاـ مـغـنـيـاـ وـالـثـانـيـ زـمـارـاـ . وـكـانـ هـذـانـ العـسـكـرـيـانـ صـدـيقـيـنـ حـمـيـيـنـ لـبعـضـهـمـاـ وـكـانـ رـغـبـهـمـاـ فـيـ الـاستـشـهـادـ شـدـيـدةـ جـداـ وـذـكـ لـاـنـهـمـاـ اـخـتـارـاـ اـنـ يـنـالـ الشـهـادـةـ حـالـاـ مـنـ اـنـ يـظـلـاطـوـ بـلاـ فـيـ خـدـمـةـ عـدـوـ لـدـوـ دـلـيـلـهـمـاـ هـوـ العـريـانـ وـقـدـ يـحـتـمـلـ اـنـ مـهـارـهـمـاـ فـيـ فـنـ الـموـسـيـقـيـ وـمـاـ كـانـ لـهـمـاـ مـنـ الـمـوـاهـبـ السـامـيـةـ وـالـصـفـاتـ الـجـيـدةـ جـعـلـتـ العـريـانـ اـنـ يـغـضـ الـطـرفـ عـنـ دـيـانـهـمـاـ فـلـمـ يـضـطـهـدـهـمـاـ حـالـاـ بـلـ تـرـكـهـمـاـ آـمـنـيـنـ . وـحـدـثـ اـنـهـ اـتـضـحـ لـهـمـاـ اـنـ العـريـانـ يـحـبـ فـيـلـيمـونـ المـغـنـيـ اـكـثـرـ مـنـ زـمـيلـهـ وـلـذـكـ اـتـفـقـ الـاثـنـانـ عـلـىـ تـدـبـيرـ الـحـيـلـةـ الـآـيـةـ وـهـيـ اـنـ فـيـلـيمـونـ اـخـذـ الـزـمـارـ وـالـمـلـابـسـ الـتـيـ لـاـ بـولـونـيوـسـ وـتـزـيـاـبـ زـيـهـ تـكـامـاـ ثـمـ دـخـلـ عـلـىـ العـريـانـ بـجـراـةـ غـرـيـبـةـ وـاعـتـرـفـ اـمـامـهـ صـراـحاـ بـاـنـهـ مـسـيـحـيـ . فـلـمـ رـأـهـ العـريـانـ بـهـذـاـ الشـكـلـ ظـنـهـ اـبـولـونـيوـسـ بـعـيـنـهـ وـخـطـرـ

على باله انه من الضروري ان يمثل به تثيلا حتى يكون عبرة لزميله ليكتنفع
 من اقتداء اثره وعليه اصدر امره للحال برميه بالسهام وقتلها وقد كان
 كذلك . فلما قتل فيليمون مثل ابولونيوس امام العريان كما قتل زميله
 من قبله فعرف العريان حينئذ بأنه قتل احد الصديقين الذي كان يحبه
 كثيراً وكان يتمنى لو يعيش طويلاً فتنق واستشاط غيظاً وأمر بقتل
 ابولونيوس كما قتل رفيقه . فلما جاء رامي السهام لتنفيذ الحكم على
 ابولونيوس هذا طاش سهم من سهامه فاصاب عين العريان فادمها
 وظل مدة طويلة وهو يقايس العذاب الاليم من هذه الاصابة الى ان
 شفاه أحد المسيحيين وأعاد اليه بصره كالأول . وقد جاء في الرواية
 التي نحن بصددها ان الدواء الذي استعمله هذا المسيحي لمعالجة عين
 العريان كان دم هذين العسكريين اللذين استشهدوا ولذلك لم يسع العريان
 الا ان اعترف بقوة المسيح وصدق الديانة المسيحية وبرهن على صحة
 ايمانه با ان اطلق سراح جميع الذين كانوا تحت طائلة العذاب والموت
 في السجون . ولما وصل هذا الخبر الى مسامع ديوكلتيانوس ارسل للحال
 بطلب العريان وعند وصوله امر بموته فاما انه شهيداً
 ومع انه يحتمل ان يحافظ الاسكندرية كان اكثر شفقة وأقل
 اهتماماً من العريان في تنفيذ الاوامر القاضية بالاصنافه اداً ان الاضطهاد
 في هذه المدة كان اقسى وأشنع من غيره وقد قيل ان البطريرك
 بطرس اختبأ في بادي الامر كافعل بعض سلفائه

وعند ما أصيب ديوكتيانوس بالجنون وعد ان يتنازل عن الملك وذلك في أول مايو سنة ٣٠٥ ولكن لما عاد صوابه إليه في هذا الشهر نفسه رفض هذا التنازل وسعى أن يقبض بيده على زمام الحكومة بأكملها إلا ان خلف الوعد هذا لم يرق في عيني غاليريوس الذي بذل مافي وسعه ليضطر ديوكتيانوس إلى اصدار امر التنازل الذي وعد به . الا ان (١) موت قسطنطينوس في سنة ٣٠٦ والاضطرابات التي حدثت في المملكة أشغلت بال غاليريوس عن كل شيء حتى ان نار الاضطهاد حملت في مصر مدة من الزمن . فلما اقترب عيد القيامة لسنة ٣٠٧ اشتغل البطريرك بطرس - زيادة عن شغله في اعداد منشور العيد الذي كان يصدر سنوياً - بتأليف «قانون التوبة» او هي الشروط التي يعفى بها

(١) قال يوحنا النيقاوي - وهو كاتب ناشأ بمصر في القرن السابع - انه لما اضاع ديوكتيانوس رشه نفي إلى جزيرة تكثير فيها الحراج والغبار اسمها واروس في الغرب . تيل ، كان في هذه الجزيرة فئة من المسيحيين التجأوا إليها فراراً من الاضطهاد . فلما رأوا الامبراطور في حالته السيئة هذه أظهروا له حنواً وشفاقاً وكانوا يقدّمون له الخبز يومياً ويقوتونه إلى ان عاد إليه صوابه وحينئذ أتى بهم الجيش وأنى مجلس الشيوخ في دومية يطلب اطلاق سراحه وعادته إلى عرشه ولكنهم أبوا عليه ذلك ورفضوا قوله مرة أخرى فكانت النتيجة ان هذا الامبراطور أصيب بمرض السوداء (الماليخوايا) وظل وفاته يسبكي ويتحبّب إلى ان ازداد جنونه ثم أصيب بالعمى وتبقي هكذا إلى ان انتهت حياته ومات ولم يكن احد يعترض به سوى جماعة المسيحيين الذين كان حكم عليهم هو بالعبودية والعذاب والموت

يصير قبول الذين سقطوا أثناء الاضطهاد إلى حضن الكنيسة ثانية .
وقد أثينا عليها هنا بالايحاز تاركين باقي البراهين والشاهد التي اقتبسها
بطرس من الكتب المقدسة ليثبت بها مذهبه في كل بند منها وهكذا
الشروط المذكورة :-

(١) جميع الذين زلوا في بدأة الاضطهاد لشدة ما قاسوه من العذاب المرير ثم أظهروا توبة وندامة في أثناء الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم في الكنيسة يوم العيد الآتي وذلك بعد ان يصوموا (١)
أربعين يوماً صوماً عنيناً

(٢) جميع الذين عثروا في ايامهم لداعي سجفهم فقط دون ان

(٣) ان صوم الأربعين يوماً هذا لم يكن في ذلك الحين قانونياً في الكنيسة اما واضع لاجل الذين يرغبون في التوبة اما الصيام الذي كان دارجاً في الكنيسة الى ذلك العهد فكان اربعين ساعة فقط . وقد كتب ايرنيوس مكتوباً في هذا الصدد بمحض بيته فكتور يندد عليه فيه لسعيه في ادخال هذا الفرض القاسي القيد الى الكنيسة قائلاً «ان جدالنا لا يقتصر الان على تحديد يوم العيد فقط بل يتعدّاه الى كيفية الصوم وحدوده . ذلك ان البعض يذهب الى ان يتّحتم عليهم صوم يوم واحد وقال غيرهم يومين وآخرين أكثر وبضمهم يحسبون ان «يوم المفروض عليهم ائماً هو اربعين ساعة نهاراً وليلـاً . فهذا الاختلاف الذي تراه بين الكثريـن لم يقع في أيامنا هذه بل نشاء بين الذين سبقونا الذين اذا لم يكن عندهم قانون صحيح يسيرون عليه ابتدعوا هذا الصوم الذي من شأنه سذاجتهم وعدم اختبارهم وعلى اي حال ثبت انهم كانوا مساملين للتجميع فوجب علينا ايضاً ان تكون على وئام وسلام »

يُعذبوا عذاباً شديداً يجب أن تعطى لهم سنة كاملة فيها يظهرون التوبة الحقيقة قبل قبولهم في حضن الكنيسة

(٣) كل الذين ارتدوا عن الإيمان لجرد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذاباً تعطى لهم أربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة

(٤) جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام إلى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حرثي بالكنيسة أن تبكيهم وترثي

اللهم

(٥) الذين نجوا من العذاب أو الموت لظهورهم بالبله أو الصراع

او أي حيلة أخرى تمنح لهم مهلة ستة شهور فيها يكفرون عن سينائهم

(٦) العبيد الذين أجبرهم مواليهم للنقدم للمحاكمه عوضاً عنهم

ثم سقطوا في هذه التجربة ينبغي أن يبرهنواعلى توبتهم باعماهم في بحر

سنة

(٧) الموالي الذين فعلوا ما نقدم تفرض عليهم ثلاث سنين توبة

(٨) جميع الذين عثروا ثم عادوا فاصلحوا خطأهم حالاً بإن قدموه

أنفسهم للسجن وللعدايات يجب قبولهم في عضوية الكنيسة بدون

خص او قصاص

(٩) كل الذين قدمو أنفسهم للخطر طوعاً و اختياراً دون أن

يتظروا القاء القبض عليهم او يصبروا حتى يرى ما يحل بهم لاتصح

محاكمتهم و مقاضاتهم بل يكتفي بذلك كيرهم بإن المسيح و رسالته لم يعملا

هكذا ولم يلقو بانفسهم في التملكة . اما الذين سقطوا من هذه القئة المشار اليها فاذا كانوا من الاكليروس الذين طلبوا العودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قبولهم في الوظائف الكنسية ثانية بل يقبلون كأعضاء في الكنيسة فقط

(١٠) اولئك الذين انكروا حياثتهم واصحاصهم لاجل تشجيع الاخرين وثقوية ايمانهم في اوقات الاضطهاد فهم قد اتوا عملا حسنا فلا لوم عليهم ولا ترثي

(١١) جميع الذين افتقدوا انفسهم بدرهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون قط

(١٢) لاشيء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص عليهم

(١٣) جميع الذين اجبروا اجباراً لكي يذبحوا للاوثان والذين افتقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فاصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم في درجة الذين اعترفو باليسوع تماماً ماداموا فعلوا ما فعلوه بدون ارادتهم . فاذا كانوا من الاكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا . انتهى

وبعد ان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنائس الاوروبية صادق مجمع طرولو سنة ٦٦٢ على هذه القوانين المار ذكرها وقد ظل هذا القانون الذي دعاه الا جانب قانون الكنيسة المهرطقية معمولا به في جميع الكنائس الارثوذكسيّة في كل العالم التي اقتنت آثار كنيسة

مصر ونسجت على منوالها

وقد يغلب على الظن انه في أثناء هدنة الاضطهاد هذه استفحـل أمر الانشقاق الذي كان منشأه ميلتيوس حتى استلفت أمره الانظـار واشغل الافكار وقد اختلف المؤرخون في تجديد مدة وقوعه فقدموا واخرـوا فيه نحو سنتين او ثلاـث . اما ميلتيوس هذا فكان أسقفـاً لمدينة ليكوبوليس (اسيوط) وقد وردت عنه روايات متـلاقـتان - اولاـهـارـواـهاـ اـبـاعـهـ وـصـيـدـوهـ وـالـثـانـيـةـ اوـرـدـهـاـ اـنـسـيـوـسـ الذـيـ كـتـبـ عنـ هـذـاـ الشـقـاقـ بعد حدوثه بـخمـسـيـنـ سـنـةـ . ولاـ رـيـبـ فيـ انـ الرـوـاـيـتـيـنـ المـذـكـورـيـنـ تـقـرـيـبـاـنـ منـ الحـقـيقـةـ ولوـ كـانتـاـ مـخـلـفـتـيـنـ

اما انسيوس فقال ان ميلتيوس قد نجى نفسه في وقت الاضطهاد بـانـ ذـعـ لـلـاوـنـانـ فـلـمـ يـسـعـ الـبـطـرـيرـكـ بـطـرسـ الاـ أـنـ شـكـلـ مجـلسـاـ بـعـدـ دـلـكـ فيـ الاسـكـنـدـرـيـةـ فـكـمـ هـذـاـ الجـلـسـ عـلـىـ مـيـلـتـيـوـسـ لـلـحـكـمـ اـنـشـقـ منـ الـكـنـيـسـةـ وـسـارـ عـلـىـ الـوـظـيـفـةـ فـمـوـضـاـ عـنـ اـنـ يـخـضـعـ مـيـلـتـيـوـسـ لـلـحـكـمـ اـنـشـقـ منـ الـكـنـيـسـةـ وـسـارـ عـلـىـ غـيـرـ طـرـيـقـهـ وـلـمـ يـكـتـفـ بـرـسـامـةـ القـسـوسـ فـقـطـ بلـ تـطـرفـ حتـىـ صـارـ يـسـيمـ اـسـاقـفـةـ وـكـانـ النـتـيـجـةـ اـنـ ثـلـاثـيـنـ مـنـ هـؤـلـاءـ اـسـاقـفـةـ الـذـينـ سـامـهـمـ مـيـلـتـيـوـسـ صـرـحـواـ باـسـتـقـلـاـلـهـمـ عـنـ كـرـسـيـ الاسـكـنـدـرـيـةـ وـقـالـوـاـ بـعـدـ وـجـودـ عـلـاقـةـ لـهـمـ بـهـ . وـقـدـ اـشـتـبـهـ فـيـ هـؤـلـاءـ اـسـاقـفـةـ بـاـدـخـالـهـمـ إـلـىـ الـكـنـيـسـهـ تـعـالـيمـ يـهـودـيـهـ وـفـرـائـصـ طـقـسيـهـ مـنـ الـعـهـدـ الـقـدـيمـ بـطـرـيـقـهـ غـيـرـ مـحـسـوـسـهـ وـقـدـ ظـهـرـ فـيـ الاسـكـنـدـرـيـةـ بـعـدـ دـلـكـ صـدـيقـ وـظـهـيرـ مـيـلـتـيـوـسـ هـوـ آـرـيـوـسـ الـمـهـرـطـوـقـ

المشهور واصله من ليبيا كاز قد سامه يطرس شهاساً في الكنيسة
 اما اتباع ميليتيوس واصدقاؤه فانتحلو الله عذرآ على ما فعله وقالوا ان
 هروب البطريرك بطرس في ابان الاضطهاد وسجن كثرين من اساقفة
 الوجه البحري اضطره الى تقديم الذبائح للاصنام ليربا بنفسه . أما البراهين
 التي قدمها انصار ميليتيوس والمعارضات القائل بها أخذاده فتنحصر في
 الاووجه الآتية وهي : ان ميليتيوس فر من السجن ولم يتحمل عذاباً في
 سبيل الايمان المسيحي وهو عمل لم يأبه أحد من الاساقفة رصافاته ثم ان
 ميليتيوس رسم قسوساً وسام اساقفة لا بروشيات أخرى غير أ BROSHIETE
 وقد عمل هذا رغمًا عن الاحتياج الشديد والاعتراض القوي الذي أرسله
 له أربعة من الاساقفة بينما كانوا في السجن ثم ذاقوا كأس الحمام ونالوا
 اكليل الشهادة مع من ناله . وانه بعد موت هؤلاء الاساقفة الاربعة
 سار ميليتيوس الى الاسكندرية واغتصب وظيفة البطريرك الذي كان
 لا يزال غائباً وأخذ يتداخل في أعمال البطريركية ثم انه لم يعبأ بمحواب
 التعنيف الذي أرسله بطرس كما انه عند عودة هذا البطريرك وصدر
 الحكم عليه من المجلس لم يرضخ للحكم بل اظهر ازدراء به وتحقيراً مهيناً
 ثم صار يقاوم البطريرك ويضاده في كل قول وعمل . وبعد هذا كله ذهب
 ميليتيوس الى بلدته حيث اعتزل فيها عن كل عمل اما آريوس فسامحه
 البطريرك ورد له ثانية الى وظيفته
 ولم تكن هذه المناظرات زمنا زماناً لتنتهي لو لا ان بدء اضطهاد

جديد وضع حداً لها وجعل الكنيسة تنظر إلى هذه المصيبة الحديدة . أما الأمة القبطية فلم تكن حيئاً قد عرفت الذي تم لميليتيوس واريوس ومر ذكره بك

فهذا الانطهاد الجديد بدأ في خريف سنة ٣٠٨ بـ مـ اـ صـ دـ رـ غاليريـوس اـ صـارـ مـاـ شـدـيـداـ يـقـضـيـ باـعـادـهـ منـ جـدـيدـ وـذـلـكـ باـتـفـاقـهـ معـ اـبـنـ اـخـيـهـ مـكـسـيـمـيـنـ .ـ وـغـرـيبـ فيـ اـمـرـ حـكـامـ الـاقـالـيمـ الـذـينـ بـعـدـ انـ كـانـواـ فيـ الـاضـطـهـادـ السـالـفـةـ يـكـتـفـونـ بـتـعـذـيبـ الـمـسـيـحـيـ بـاـتـلـافـ اـحـدـ عـيـنـيـهـ مـثـلاـ اوـ بـوـضـهـ تـحـتـ رـقـ الـعـبـودـيـهـ وـالـذـلـ اـذـ يـشـتـغلـ فـيـ الـمـنـاجـمـ الـمـصـرـيـهـ كـامـيرـ -ـ تـجـاـوزـ هـؤـلـاءـ الـحـكـامـ الـحـدـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـةـ وـجـرـىـ دـمـ الغـيـرـ وـالـحـسـدـ فـيـ عـرـوقـهـمـ مـنـ فـعـلـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـهـ وـزـادـ حـنـقـهـمـ كـثـيرـاـ ضـدـ الـمـسـيـحـيـنـ الـذـينـ كـانـواـ يـابـونـ اـنـكـارـ دـيـنـهـمـ وـالـاعـتـرـافـ بـغـيـرـهـ .ـ فـعـظـمـ الـخـوفـ وـالـرـعـبـ مـنـ جـرـاءـ هـذـاـ اـضـطـهـادـ وـمـصـائـبـهـ وـعـمـ الـقـلـاقـ وـالـاضـطـرـابـ وـاستـولـياـ مـلـىـ مصرـ مـدـةـ سـنـتـيـنـ كـامـلـيـنـ فـكـانـتـ تـشـبـهـ فـرـانـسـاـ عـنـدـ ثـورـتـهاـ الـعـظـيمـةـ الـتـيـ حدـثـتـ سـنـةـ ١٧٨٩ـ الـتـيـ دـكـتـ بـهـاـ مـعـالـمـ الـاسـتـبـادـ وـمحـتـ آـثـارـ الـظـلـمـ وـلـكـنـ بـعـدـ انـ جـرـتـ الدـمـاءـ انـهـرـاـ .ـ وـلـسـنـاـ فـيـ حـاجـةـ الـآنـ لـوـصـفـ طـوـيلـ لـتـلـكـ الـمـخـاـوفـ وـالـشـدـائـدـ بلـ يـكـفيـ انـ نـقـولـ انـهـاـ فـاقـتـ كـلـ الـبـلـاـيـاـ الـتـيـ سـبـقـتـهاـ وـقـرـأـتـ وـصـفـهـاـ فـيـ اـسـرـ وـانـ الـذـيـ زـادـ النـارـ اـشـتـعـالـاـ وـالـدـاءـ اـسـتـفـحالـاـ هوـ مـكـسـيـمـيـنـ دـاـزاـ ذـلـكـ الشـكـسـ الـشـرـسـ وـالـفـظـ الـمـتوـحـشـ الـذـيـ اـضـرـ بـمـصـرـ كـثـيرـاـ كـاـ انـ مـكـسـيـنـتـيـوـسـ اـبـنـ الـامـبرـاطـورـ مـكـسـيـمـيـانـ اـشـعـلـ مـثـلـ هـذـهـ

النيران في أوروبا ووقع فيها اضطهاداً يهول

وحدث في سنة ٣١١ أن الله ابلى غاليريوس بمرض عossal عز دواؤه وعسر شفاؤه . فلما ازداد به الألم ولم يجد طبيباً يريمه من عذابه أو مما يشفيه من أوصابه وينقذه مما أصابه سعي الياس القاطن في الجاد سلام وصلح بينه وبين الله المسيحيين الذي صرف غاليريوس هذا كل ما في وسعه وقضى العمر في مقاومته ومحاربته واضطهاد شعبه فاصدر أمرآ يقضي بعقد هدنة مع المسيحيين وكف الاضطهاد عنهم للسبب المأذكورة وقد ورد نص هذا الأمر في تاريخ بوسبيوس وهو مطول مسمى إلا ان خضوع غاليريوس وتوبته التي جاءت بعد اوائلها لم تقدر شيئاً لأن الله لا تجوز عليه الحيل ولا يخفى عليه الغش والخداع . فان خبر ارتداد غاليريوس الى الديانة المسيحية عرفه الناس في آخر يوم من شهر ابريل سنة ٣١١ وفي اواخر شهر مايو ذاع خبر موته في جميع أنحاء المملكة ولا بد ان يكون مات قبل اذاعة الخبر في المملكة ب ايام كا هو معلوم فتكون توبه غاليريوس وندامته جاءت وهو على حافة القبر فلم تفعه شيئاً

قلنا ان غاليريوس اصدر أمرآ يقضي بايقاف الاضطهاد وقد ذيل هذا الامر بامضاء قسطنطين وليسينيوس النائبين عنه ولكن لم يفع ولم يوقف سير الاضطهاد فان مكسيميان دازا ابن أخيه لم يكف عن بغيه وعذابه بل بقي يحمي وطيس الاضطهاد حتى ان اهم شهداء مصر وكثيرين من اماجدهم نالوا الشهادة في آخر سنة من سنته وكانت في

مقدمة هؤلاء الشهداء البطريوك نفسه الذي قطعت رأسه بخاتمة وعلى
 غرة من شعبه خوفاً من ان يقوم هذا الشعب الذي كان يحب البطريوك
 جيأً مفرطاً ويعلم على خلاصه من يد الحكومة بالقوة والقسر . و مما
 يدلل على تفاصيل الخطاب في هذا الاضطهاد ان انطونيوس اب الرهبنة
 شعر به وحس بشغل وطأته بينما كان منكماشَا في ديره في الصعيد مدة
 عشرين عاماً او تزيد خرج من مكمنه كانه من أهل الـ كهف المزعومين
 وسار يبحث الخطى الى الاسكندرية لكي يعزي الشعب الذي حزن
 واكتأب لموت البطريوك وقيل بل ان غرضه كان ان ينال الشهادة
 في الاسكندرية ما دام لم ينلها في الصعيد حيث كان بعيداً عن الاضطهاد
 في ديره الا ان هذه الامنية لم تتحقق له ولم يستشهد لا يقف حركة
 الاضطهاد وذلك لأن قسطنطين وليسينيوس كانوا قد تظاهرا بالعدوان
 ضد مكسيميان الخامن عديم الشهرة فتحولت انظار هذا من اضطهاد
 الاخرين الى الدفاع عن نفسه ولكن خانه حظه فهزم في سنة ٣٢٠ شر
 هزيمة امام عدويه وبعد ان قضى بضعة ايام في حالة الغيبوبة شرب كاس
 الحمام باه تجرع شيئاً من السم الزعاف
 فالي هنا انتهت مدة العشر سنين التي كانت ملائكة بتصائب وبالايا
 لم تدق مثلها كنيسة مسيحية في العالم . صحيح ان كل امة مسيحية في
 الارض يمكنها ان تسرد لك حكايات مؤلمة عن اضطهاد وقع عليها قد
 يكون قاسياً صارماً مثل هذا الاضطهاد الذي وصفناه لك في ما سبق

و صحيح ايضاً ان بعد هذه الحوادث بنحو اثني عشر قرنا قام ملك مسيحي الى
 (هو فيليب الثاني ملك اسبانيا) و حكم على جميع سكان مملكة اخرى الا
 مسيحية (هولاندا) بالموت لاجل دينهم ولم يستثن رجال او امراء يزا
 صغيراً او كبيراً حتى انه انفذ حداً لتنفيذ حكمه هذا - نعم كل هذا رح
 حدث و صحيح ولكن منذ ما ظهرت الديانة المسيحية في عالم الوجوه لم
 تر عين ولم تسمع اذن باضطهاد شنيع فظيع مثل ذلك الا ضطهاد الذي وافى
 وصفناه لك وهو الا ضطهاد الذي من وقته واليسوعيون المصريون يؤرخون تاريخهم الخاص به وهم يذكرون له الان والقلب مفعم بعوامل
 الاسف والتفسخ على تلك الازمة القاسية . وهذا التاريخ هو تاريخ
 الشهداء (١) المعروف عند القاصي والداني

الفصل الثالث عشر

جدال اريوس سنة ٣١٢ للمسيح و ٢٨ للشهداء

بعد موت مكسيمين بستين وبعد استشهاد البطريرك بطرس
 بسنة تقربياً شرع المصريون في انتخاب بطريرك جديد لهم فوقع
 اختيارهم على أخيلاس الذي كان قبلًا رئيساً للمدرسة اللاهوتية . أما
 انطونيوس الذي قلنا انه جاء الاسكندرية لبيان الشهادة كغيره ولم يتمكن
 من نوالها فقد برح الاسكندرية في هذا الوقت ولكنه لم يذهب توأ

(١) ان تاريخ الشهداء او هو التاريخ القبطي - لا يقتديء من سنة ٢٠٣ كما
 يزعم البعض بل من سنة ٢٨٤ م وهي أول سنة من ملك ديوكتيانوس

لـ الصـعـيدـ حـيـثـاـ كـانـ قـبـلاـ بـلـ سـارـ إـلـىـ الـأـنـحـاءـ الـجـبـلـيـةـ الـوـاقـعـةـ بـيـنـ الـبـحـرـ
 الـأـحـمـرـ وـالـنـيـلـ حـيـثـ بـنـيـ بـعـدـ مـوـتـهـ دـيـرـاـ مـارـ اـنـطـوـنـيـوسـ وـمـارـ بـولـصـ وـلـاـ
 يـزـ الـآنـ مـوـجـودـ دـيـنـ إـلـىـ الـآنـ فـيـ الـمـكـانـ الـمـشـارـ إـلـيـهـ . وـلـمـ حـطـ اـنـطـوـنـيـوسـ
 رـحـالـهـ فـيـ هـذـهـ الـبـقـعـةـ غـرـسـ يـدـهـ زـرـعـاـ فـيـ الـأـرـاضـيـ الـبـرـاحـ الـوـاقـعـةـ هـنـاكـ
 لـكـيـ يـقـنـاتـ مـنـهـاـ وـكـانـ يـشـتـغلـ فـيـ عـمـلـ الـحـصـرـ وـذـلـكـ لـيـكـنـيـ تـلـامـذـتـهـ
 وـأـتـبـاعـهـ مـؤـونـةـ اـحـضـارـ الطـعـامـ لـهـ وـهـمـ عـلـىـ مـسـافـةـ بـعـيـدةـ مـنـهـ . وـيـظـهـرـ إـنـ
 الـعـنـاءـ زـادـ عـلـيـهـ بـعـدـ وـكـثـرـتـ أـشـغـالـهـ كـثـيرـاـ لـأـنـهـ فـضـلـاـ مـنـ تـبـعـهـ فـيـ تـعـلـيمـ
 التـلـامـيـذـ الـذـينـ تـقـواـ حـولـهـ فـيـ مـدـدـةـ قـصـيرـةـ فـانـهـ لـمـ يـدـعـ فـرـصـةـ تـمـرـ دونـ
 إـنـ يـفـيـدـ أـهـالـيـ الـرـيفـ وـيـخـفـهـ بـعـدـهـ كـلـ آـوـنـةـ وـأـخـرـىـ مـعـ عـدـمـ وـجـودـ
 رـابـطـةـ مـتـيـنةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـمـ وـقـدـ كـانـ بـيـعـثـ بـرـسـائـلـ اـرـشـادـ وـنـصـحـ إـلـىـ
 الـإـمـپـراـطـرـةـ وـالـوـلـاـةـ لـعـلـمـهـ اـنـهـمـ فـيـ حـاجـةـ شـدـيـدةـ إـلـىـ نـصـائحـهـ . وـمـعـ اـنـهـ
 لـمـ تـكـنـ لـدـيـهـ كـتـبـ أـوـ اـسـفـارـ كـاـنـهـ لـمـ يـكـنـ عـارـفـاـ بـلـغـةـ غـيـرـ لـغـتـهـ كـاـمـرـ
 القـوـلـ وـلـكـنـهـ كـانـ رـجـلـاـ يـفـكـرـ كـثـيرـاـ وـيـعـلـمـ تـعـلـيـماـ حـسـنـاـ شـأـنـ أـهـلـ الـفـيـرـةـ
 الـذـينـ يـعـرـفـوـنـ اـنـهـمـ خـلـقـوـاـ لـيـفـيـدـوـاـ الـعـالـمـ وـيـنـفـعـوـاـ بـنـيـ جـنـسـهـمـ . أـمـاـ تـارـيخـ
 حـيـاةـ اـنـطـوـنـيـوسـ الـذـيـ كـتـبـهـ اـنـسـيـوسـ فـقـدـ دـخـلـتـ عـلـيـهـ زـيـادـاتـ وـاضـافـاتـ
 كـثـيرـةـ قـلـبـتـ مـعـنـاهـ حـتـىـ ظـنـ الـبـعـضـ اـنـ اـنـسـيـوسـ بـوـاءـ مـنـهـ وـاـنـهـ لـمـ
 يـكـتـبـ كـلـةـ وـاحـدـةـ فـيـهـ . وـقـدـ ظـهـرـ كـثـيرـوـنـ فـيـ هـذـاـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ
 مـنـ الـمـنـقـدـيـنـ الـمـدـقـقـيـنـ الـذـينـ زـعـمـ بـعـضـهـمـ اـنـ اـنـطـوـنـيـوسـ لـمـ يـكـنـ لـهـ فـيـ
 عـالـمـ الـوـجـودـ وـجـودـ وـانـ حـيـاتـهـ مـحـضـ خـوـافـةـ لـاـ أـصـلـ لـهـاـ وـقـدـ تـعـقـ بـعـضـ

الباحثين وقال ان ما كتب عنه اغا هو رواية تاريخية خلق الروائي
 مار انطونيوس بطلها وليس هي ترجمة حال شخص حقيقي . ولكن
 المنصف الذي ينظر الى الحقائق بفكر ثافب ويطرح ظهرياً ما علق بذكر
 هذا الرجل العظيم من اخراجات والحكايات الغريبة التي تقترب عادة
 بتوارىخ نوابع العالم — ان الذي يفتكر هكذا لا يجد ندحة لافكار هذا
 الرجل او عدم الاقرار باعماله العظيمة التي أنهاها في حياته
 أما اخيلاس الذي قلنا انه انتخب بطريركا في الاسكندرية فلم يستمر
 منصبه سوى سنة واحدة حدثت في اثناءها حادثة تستحق الذكر هي
 قبولة آريوس المهر طوقي الذي كان قد حرمه بطرس سلفه مرة ثانية
 وظل تحت طائلة هذا الحكم الى ان توفي بطرس فرده اخيلاس الى
 عضوية الكنيسة بناء على طلبه وزاد اثر عهده عليه رعوية كنيسة بوكاليس
 وهي أقدم كنيسة في الاسكندرية قيل انها بنيت على مقبرة مار مرقس .
 ولما توفي اخيلاس رشح آريوس نفسه لمركز البطريركية ولكن
 الاكليروس والشعب اتفقوا معاً على انتخاب اسكندر صديق اخيلاس
 وكان اسكندر هذا قد بلغ من الكبر عتيقاً عند ماسمي بطريركا وكان
 اناسيوس تلميذه المحبوب في السابعة عشرة من عمره . أما الحكاية التي
 اوردتها روفينوس المؤرخ عن كيفية تعلق اسكندر باناسيوس وسبب
 ميله له فلا يمكن تصديقها على علاتها الا انه يقرب من العقل ان
 حادثاً حدث قبل ارتقاء اسكندر اوجد علاقة بينه وبين صديقه

اناسيوس نلخصه لك فيما يلي :

قيل ان اسكندر كان مرة يتضرع مجيء بعض رجال الاكليروس لتناول الطعام وكان جالساً في شرفة تطل على البحر الذي كان يجري تحت منزله وهو يتفرج على جماعة من الغلمان يلعبون هناك . وقد احدهم بنظره فيهم طويلاً فاتضح له انهم في لمتهم يمارسون الطقوس الكنائسية على اتم اشكالها . وقد ظن انهم ربما يطيلون لمتهم ولا يتهدون منها حالاً ولذلك استدعاه من على الشاطئ، فمثلوا بين يديه بحضور جماعة الاكليروس الذين كانوا قد جاؤا في هذه الامانة . فلما استقصى البطريرك حقيقة أمرهم زاد استغرابه كثيراً عند ما ظهر له انهم اتوا عملاً فوق ما كان يخمن ذلك لأن واحداً من هؤلاء الصبيان اسمه اناسيوس عمّد بعض الاولاد رفاقه الذين لم يسبق لهم عماد حسب الطريقة القانونية المستعملة في الكنيسة . وبعد ان تناول القسوس مع بعضهم في أمر هذا العماد قرر رأيهم اخيراً على الاعتراف بصححته ثم صعموا على ترشيح اناسيوس وواحد أو اثنين من الصبيان الذين ساعدوه في اتمام هذه الفريضة لرتبة الكهنوت

وسواء صدق هذه القصة أو لم تصدق فلا مشاحة في ان اناسيوس كان منذ نومته اظفاره صديقاً لاسكندر وانه تعيين سكرتيراً له عند ماصار بطريركاً . ولم يمض على ارتقاء اسكندر السدة البطريركية خمس سنين حتى عم السلام كل الكنيسة في ارض مصر برمتها بعد هاتيك

البلايا والمصائب التي اقتحمتها. أما ميليتيوس اسقف اسيوط فقد يستدل
 من الحوادث التالية انه ظل مدة في شفاهه وعناده ولكن لما كانت
 اسيوط في ذلك الحين بعيدة عن الاسكندرية بسفر أيام كثيرة فكان يخال
 للناس انه ساكن في ابو روبيته لا يعمل شيئاً يدل على الشقاق . وقد عاد
 الناس الى منازلهم بعد الفرار وأخذ الشعب يهتم في ترميم الكنائس
 المنهدمة مع انه لم تكن توجد عائلة واحدة في مصر الا وكانت ثناب
 عن يزاً أو قريباً لها ذهب فريسة لاضطهاد فتكلّمت القلوب لفقد
 وكثيرون كانوا يعدونه في عدد الاموات اما لان ظامنهم سحقت لكثرة
 ما قاسوه من الامات لاضطهاد فاصبحوا كالعدم او لان عيونهم فقئت
 تعذيباً لهم ولكن الديانة المسيحية امتدت اغصانها كثيراً في البلاد
 زيادة عن ذي قبل حتى ان عدداً يذكر من الوثنين دخلوا الى حظيرة
 المسيح لما شاهدوه في الديانة المسيحية من الحق الذي لا ينقض والقوه
 الروحية التي لا تغلب . ومع كل هذا التقدم كان الشقاق قد بدأ يستفحـل
 حتى صار صفة ملازمة للمصريين على توالي الايام واصبح تعريفاً لهم دون
 غيرهم الى الان وما سبب هذا الا لان الدم النقي الذي كان يجري في
 عروق الامة اهرق وكاد ان يستتصـل وذلك عند ما قامت تطلب
 الاستقلال في مدة حكم اخيلوس وعند ما كانت تجاهد لحفظ كيان
 الديانة المسيحية اثناء العشر سنين الاخيرـة لما قام اعداؤها يطلبون اضمحلالها
 ولذلك لم يبق من المصريين الا حرار الا النذر اليسير لان الذين عاشوا

بعد تلك الحزن والاحن وعمروا البلاد انما نجى من الموت بالذكر
 والخداع أو بالجهن والخوف وهي صفات تدلل على حياثة هذا الشعب
 ولم يعش من الكرام سوى جماعة تشوهت اجسامهم ظلوا مطروحين
 بين اهليهم لا منفعة منهم أو فرق من العمال الذين استعبدوا ليشتغلوا
 في المناجم القاسية وقد كانوا يميلون للحصول على مغفرة من الكنيسة
 لاجل هفوة تصور البعض انهم ارتكبوها ضد الدين الذي بذلو الاجله
 دماءهم ولكنهم قضوا حياتهم يقاسون مر الاسر والذل - أما الشقاق
 الذي أشرنا اليه فقد مضت عليه عشر سنوات اخرى قبلما يتسع لقسطنطين
 ان يتداخل لحسمه وفض الخلاف الذي كان قائماً بين اساقفة الكنائس
 بعد ان اشتدت بينهم الشحناء والبغضاء وذلك لأن هذا الامبراطور لم
 يكن قد صار مسيحيّاً بعد و لم يكن قد تعمد لانه كان سادس الستة امبراطورة
 الذين اقسموا المملكة بينهم بعد تنازل ديوكتيانوس عن سرير الملك
 اما الحوادث التي أوجبت العقاد مجمع نيقية وما تم في هذا الجمع
 فمعروفة عند الكثرين اذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت
 وشرحوها بالاسباب فلا حاجة لسردها الان . ولم تأت سنة ٣١٩ حتى
 زاد تذمر الاسكندرین وكثير لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس
 يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين مما دعى البطريرك اسكندر ان يهتم
 لأخذ الاحتياط اللازم لصدّها . وكان لما شعر هذا البطريرك بتفاقم
 الشقاق واتساع حلقة الخلاف في الكنيسة صرف كل عنائه بغایة

ما يكون من الصبر والحكمة ليستميل اليه تلك الجماعة التي انشقت
 ويعمل على اقناعها بخطائها وضمهما الى الكنيسة وذلك بعد ان ينزع من
 العقول ما علق بها من الاوهام والاضاليل كما فعل البطريرك ديونيسيوس
 قبله في مسألة الفيوم فعقد اجتماعين حافلين للمناقشة في هذا الموضوع
 وفض الخلاف بالحسنى ولكن لم يفلح ولم يأت عمله ثمرة وأخيراً كتب
 البطريرك رسالة رعوية الى آريوس واتباعه ينذرهم بترك طريق الضلال
 التي ساروا فيها والرجوع الى الطريق السوى ولكن عيشاً حاول إقناعهم
 ولا بد ان بعض الباحثين يعرفون ان نقطة الخلاف هذه كانت فيما
 يختص بألوهية المسيح وهي مسألة لم يسبق لها مثيل في الجدل واللدد
 ولم تكن الكنيسة تعرفها ولا هم بها قبل الان حتى أنها اشغلت
 الذهان واوجدت احزاناً انجاز اليها الكثيرون وبنיהם أولئك الذين
 كانوا يجنحون الى الاسلام ويميلون الى الابتعاد عن كل شقاق وخصام .
 والذي درس بدعة آريوس هذه درساً مدققاً ووقف على كنهها لا يجزم
 بان هذا الرجل انكر ألوهية المسيح انكاراً حقيقياً صريحاً ولو انه كان
 يحاول كثيراً في أزمنة مختلفة ان يدخل معنقدته في العقول بكلمات
 وعبارات كان يمكن ان تصادف قبولاً عند اعضاء الكنيسة . اذا
 فالذنب ليس على آريوس بل على فئات اخرى سبقته في ايجاد هذه
 البدع فاخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان
 تأثير آريوس الذي جعل الكثيرون ينكرون سر الالوهية حتى انتشر

هذا التعليم وعمّ ولعل سبب هذا هو ردّ الفعل الناتج من شدة تمسك
القوم بالامور الروحية واحتفاظهم على معانיהם وقوّتها احتفاظاً لم يدعهم
يسقطون في أزمنة الاضطرابات المرّة بل كانوا يضخون انفسهم لاجل
هذا المعتقد الذي اصبحوا الآن يرفضونه لا لسبب سوى اثبات قاعدة
الافراط والتفريط

وكانت نتيجة هذا كله ان البطيريك اسكندر شكل مجمعاً في سنة
٣٢٠ حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة وهو ثالث
حكم صدر ضده في حياته . اما آريوس فلم يرضخ لهذا الحكم ولم يعبأ به
يل غادر الاسكندرية قاصداً فلسطين حيثاً جمع اليه اصدقائه اثر فيهم
تأثيراً شديداً اذا تم لهم اليه بكلتهم حتى ان يوساب اسقف نيكوميديا
الذى كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو ومن
ثم سعى بعد ذلك في استمالة الامبراطور قسطنطين الى هذا المذهب
وقد كان الامبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل اليه كثيراً
ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب اسقف نيكوميديا آب
الي فلسطين حيث سمح له يوسيبوس اسقف قيصرية واساقفة آخرون
بان يعقد جمعيات دينية في ابروشيات مختلفة ليعظ فيها . فلما احس
البطيريك اسكندر بذلك ساءه كثيراً فسعى في اتخاذ طريقة فعالة
لایقافه عند حدّه ومنع سريان بدعته وهرطقته وعليه كتب رسالة
انجليزية محضة الى اساقفة كل الكنائس اووضح فيها الامباب التي حملته

على حرماني آريوس وقطعه من عضوية الكنسية وكيف انه يأبى قبوله
مرة أخرى في حضن الكنسية ما دام هو لا يزال يمادي في غيه
وضلاله . ولم تستمر هذه المعاشرة طويلاً لأن اذهار المتناظرين
كانت قد انصرفت إلى رعب جديد واضطهاد حديث بدأ حالاً بواسطة
ليسينوس النائب الامبراطوري الذي امات دوناتوس اسقف ثميوس
في مصر مع اثنين من قسوته كما ان فيلاس سلف دوناتوس كان قد
استشهد قبل هذا الوقت بضع سنوات . فلسبب هذا الاضطهاد
الجديد ولاسباب أخرى حمل قسطنطين على ليسينوس حملة مرة وهزمه
في واقعتين عظيمتين حدثتا في يونيو وسبتمبر سنة ٣٢٣ وهيئذ خلا
الجو لقسطنطين فنادى بأنه اصبح الملك الوحيد لامسكونة كلها وجعل
مقر ملكه مدينة يزانتيوم (وهي اسطنبول او القسطنطينية) وفي هذا
الوقت رفع إليه يوساب اسقف نيكوميديا مسألة آريوس فاغتنم هذا
الامبراطور فرصة في وسط مشاغله الكثيرة بتذليل مهام الملك كتب
فيها مكتوباً أرسله إلى البطريرك اسكندر وآريوس معاً وهذا المكتوب
اشتهر بما تضمنه من قول سداد الحبة المسيحية الحقيقة ولهمة الاخلاص
والولاء

ولكن رغمماً عما حواه هذا الخطاب من الهجنة المتدلة والكلام
المؤثر فإن الامبراطور لم يفلح قط في إيقاف هذا الشقاق عند حدود عدم
معرفته حقيقة أمره . وكان الامبراطور قد أرسل وجلاء اسمه هوسيوس

من كردوقة يحمل ذلك الجواب الى اسكندر فلما آتى هذا الرسول من مصر قص على مولاه حقيقة الخبر وأوقفه على جلية هذه المضلة وعليه أصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الأساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المشكل ويتوا فيه حكمًا قاطعًا بكل تبصر وامعان . وبناء على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥ وفيه كتب أول نسخة من قانون اليمان النقاوي (١) اعضاءها جمع الأساقفة الحاضرين الخامسة منهم رفضوا التوقيع عليها . وقد ختم هذا القانون بالحرمان الآتي الذي يسرنا انه امحي من زمن طويل : - « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمْن لم يكن ابن الله موجوداً فيه وانه لم يوجد قبل انت يولد وانه وجد من لا شيء او من يقول ان الابن وجد من مادة او جوهر غير جوهر الله الآب وكل من يؤمن انه خلق او من يقول انه قابل للتغير ويترى في ظل دوران »

وعلى ذلك حرم المجمع آريوس حرماً باتاً وأصدر قراراً بنفسه ونفي الأساقفة الذين ابوا التوقيع على هذا القانون . ثم أخذ هؤلاء الأساقفة يجتمعون في أمر الشفاق الذي احدثه ميليتيوس وفي مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقر رأيهم على ما يأتي في النبذة التالية التي بعث بها المجمع الى المصريين وهكذا هي :

« إنما إذا رأينا الحقيقة نجد ان ميليتيوس لا يستحق اكراماً او صفحًا

(١) ان القانون الذى صادق عليه المجمع النقاوى ينتهي بهذه العبارات « نؤمن بالروح القدس » أما العبارات الأخرى التي تللو هذه الجملة فقد أضيف اليه في زمن بعد هذا

على ما اقترفه من أمر الشفاق الذي احده الا ان الشفقة والخيان يحتمان
 علينا ان نعامله بالرأفة والاطف ولذلك أذن له الجميع بالاقامة في بلدته
 مسقط رأسه وأمره ان لا يمارس اي وظيفة كهنوية سواء كانت رسامة
 أحد او ترشيح أحد للرسامة ويتحم عليه عدم الظهور في أى افلام او
 مدينة بهذا المظهر ولا ان يدعى شيئاً حرمه عليه الجميع بل تقي له صفتة
 الشخصية فقط . اما الذين عليهم هو في وظائف وثبتوا فيها بواسطه
 رسامة قانونية فيجب قبولهم في عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهي :
 ان تقي لهم وظائفهم ورتبهم ولكنهم يعتبرون اقل درجه في كل شيء من
 الاخرين الذين عليهم رئيسنا الحترم البطريرك اسكندر وأقامتهم الكنائس
 الاخرى . كما لاسطة لهم على تعين أو ترشيح من يشاؤن ولا ان يعملوا
 عملاً ما بدون تصديق أحد ائفة الكنيسة الجامعة الذين يعيدون من
 انصار اسكندر ومساعديه . وعند موته أحد هؤلاء القسوس الذين
 سامهم ميليتيوس سابقاً يذهبني تمرين واحد بدله من الذين تطبق حالهم
 على النظمات الحديثة على شرط ان يكون ذا أهمية واستحقاق فيختاره
 الشعب ويصدق اسقف الاسكندرية على انتخابه . فهذا الامر ازيد من جميع
 الاساقفة على السواء الا ميليتيوس فلا يطي هذه السلطة نظراً لسلوكه
 السابق المغایر للصواب والتعقل بل ي مجرد من كل سلطة وسطوة لاجل
 طيافته وخیلائه ولا ته رجل لا يبعد عليه ان يحدث شفاقاً جديداً مثل
 الذي اناه قبل . فهذه المسائل هم مصر وكنيستها الوفيعة الشأن (على

الخصوص وعليه فإذا سن قانون آخر غير هذا أو حدث رساممة كاهن
 ليست قانونية فيكون لقبطة الحبر المفضل البطريرك أسكندر حق
 التداخل في هذا الأمر وإن يفحصه خصاً دقيقاً ويدت حكمه فيه لأنه
 ليس بصاحب صوت فقط في الذي يحدث ولكن له لرئاسة العليا والسلطة
 التامة في تنفيذ أي عمل يريد. ولقد يسرنا أيضاً في هذا المقام أن نخبركم
 بما قر عليه الرأي في مسألة تحديد يوم عيد القيمة المبارك فان هذه
 المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الأخوة المسيحيين في الشرق
 الذين كانوا يعيرون هذا العيد مع اليهود تماماً يسيرون من الآباء
 فصاعداً على الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية وهي التي نجري
 عليها نحن أيضاً ومن جرى مجراناً من قديم الزمان (١) •
 وقد يظن البعض أن شرق آريوس قد اتهى عند هذا الحد والحقيقة
 أنه بدأ يستفحـل الان
 وحدث أن البطريرك أسكندر تزوج بعد عودته من ناقية إلى مصر
 باشهر تلائـل وخلفه أناسيوس الشاب التقى المملوء غيرة ونـعـمة وكان
 آريوس يده خصماً لـدوـالـه ولـذـكـ استـحـكـمت عـوـافـلـ الشـحـنـاءـ بيـنـهـاـ مـامـدةـ
 عشر سـنـواتـ متـواـلـيـةـ بـسـبـبـ بـدـعـةـ آـريـوسـ وـبـعـدـ وـفـاةـ هـذـاـ صـارـ العـدـاءـ

(١) قد سعى بعض أعضاء المجتمع النيقاوي بأن يفرضوا الرهبة على كل الأكليروس ولكن طلبهم هذا صادف استحقاقاً ولم يحز القبول مطلقاً حتى أن بـأنـوـيـوسـ الـراهـبـ وهوـ أسـقـفـ مـصـرـيـ دـافـعـ دـفـاعـاـ مـفـحـماـ ضدـ هـذـاـ الـاقتـراحـ وـاقـامـ الـحجـجـ القـويـةـ عـلـىـ كـلـ مـنـ يـعـملـ لـلـتـنـاخـلـ فـيـ مـسـحـيـةـ الـدـيـانـةـ الـسـيـاحـيـةـ خـصـوصـاـ فـيـماـ يـتـعـلـقـ بـالـزـوـاجـ وـالـرهـبـةـ

شديداً للسبب عينه بين الامبراطور وهذا البطريوك الاسكندرى
كما سترى (١)

الفصل الرابع عشر

البدعة والانشقاق . سنة ٣٢٦ للمسيح و ٤٢ لشهادة

لما رأى الامبراطور قسطنطين ان السلام قد مدد روافقه على
الكنيسة والملكة صرف همه الى اصلاح الشرائع الرومانية وبيناء عاصمة
جديدة له . وحيث ان اصلاح هذه الشرائع لم يكن له تأثير في مصر
 فهو لا يهمنا ولا حاجة بنا للكلام عنه اما نقل عاصمة المملكة الى
يوليانيوم (القسطنطينية) فقد احدث تغيراً في حالة الامة المصرية
وقد سبق القول ان المصريين كانوا دائماً يحتقرن السلطة الرومانية
ويستغرون منها كما انهم كانوا يهزأون بالجنس اللاتيني ويعذبونه شعباً
جاهاً وثني الاصل غبياً ولكن المصريين كانوا يرضخون لهؤلاء
واؤئلئك لسبب القوة العسكرية المتحكمه فيهم . والذى زاد كره المصريين

(١) جاء في القانون الذي وضعه المجمع أنتيقواوي - ذه الجملة « حيث ان البعض
يصلون وهم راجعين في أيام الآباء ، وفي الأعياد الكبرى فقد فرر هذا الجميع
المقدس ضرورة الوقوف على الأقدام حين تأدية الصلاة لكي يكون كل شيء
بلياقة وترتيب »

للمرومانيين حتى صار هذا الكره ضرباً من الجنون (١) هو اعمال بعض الامبراطرة التي كانت وحشية تنفر منها النفس وتستحل الموت عن البقاء في مثل هذا الذل وهذا ما حدى بالمصريين الى التزوع للثورات وطلب الحرية والانقلال في مدة حكم ديوكتيائوس اما قسطنطين ففع انه كان من عائلة ملوكيه الا انه لم يكن رومانيا ولا ميلا لرومية بل كان من بلاد السرب التي هي مسقط رأيه . اما امياله فكانت يونانية صرفة يد ذلك الى ان المدينتين الواقعتين على جانبي قنطرة هلاس وهما بيزانتيوم وخلكدونية كانتا قبل ما هولتين باليونان . ولما عزم قسطنطين على بناء مدينة جديدة اختار المكان الذي امه « بيزانتيوم » قاعدة لها فعند ما تم بناؤها احتفل بتدعيمها احتفالا باهراً وذلك في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ثم امر امراً جائراً هو ان جميع الذين يقصدون استيطان هذه العاصمة الجديدة يجب ان يكونوا من اصل يوناني او مقدوني وكانت ذلك بتحريض واغراء من الآخرين الذين استملاوه الى حب اليونان والانفصال نحوهم كما صر القول . ومعلوم ان مصر كانت تؤدي جزية من الخطة سنوياً الى رومية فلما بنيت

(١) في مدة حكم الراهمن كان من اعمال المصري ان يؤدي الجزية الا بعد ان يدمى جسمه من الجلد بالساط ويجز جلده من شدة النحر . وقد سار المصريون على هذه الخطة في عصرنا هذا حين كانوا يعصون الاتراك وبقي ومومن اعمالهم فلا يرضخون الا للاكرجاج الذي لم يرفع عبئه الثقيل عام ١٨٨٠ (٢) في سنة ١٨٨٠ كا هو ملوك

القسطنطينية صارت هذه الاتادة ترسل اليها لا الى رومية . وبالاجمال
 نقول انه لم يبق في مصر ما يدل على وجود اثر لتلك السادة الرومانية
 التي استمرت مدة طويلة مستحکمة في رقاب اهلها - وی طلل واحد
 خرب وكلة واحدة بقیت من آثار الكلام الروماني . اما هذا الطلل
 البالى فهو القلعة الرومانية السامة التي كانت لازالت دمنها قائمة في بابلون
 ومع ذلك فلم يكن المصريون يعتقدون بان هذه القلعة رومانية بل كانوا
 يصدقون بانها الحصن القوي الخاص بالمسحيين في ارض مصر وظلوا
 على اعتقادهم هذا اجيالاً كثيرة . اما الكلمة التي كانت تدل على وجود
 الرومانين في مصر فلم تكن الا اسم روماني فقط لا يعرف المصريون
 شيئاً عنه ولا يظنون انه روماني . ومعنى ذلك انه لم يبني قسطنطين
 الحاضرة الجديدة مزج اسمها باسم رومية فدعى العاصمتين رومية الجديدة
 وروميه القديمه ولم يخذ لمدينته اسماً خاصاً بها ولكن لم يقتضي احد اثره
 في ذلك واطلق الناس على بيزانتيوم كلمة القسطنطينية واسطنبول وهو
 تصحيف في اللفظ او جده الا جانب الا ان اسم رومية ظل دارجاً
 في الجزء الشرقي من المملكة ولم يكن يستعمل للدلالة على الرومانين
 بل على اليونان والبيزنطيين وزال اسم اليونان القديم من الكلام الدارج
 وصاروا يلقبون بالاروام ولكن الامة اليونانية حفظت وحدتها
 وسلطتها في علمها ولغتها فلم يغتربها نقص ثم تدرجت الى ان عادت
 اليها عظمتها التي كانت لها قبل التاريخ المسيحي فدت ظل سطوطها على

المشـرـ
 القـوـ
 وـيـخـ
 مـيـثـاـ
 فـيـ
 لـاـ
 الشـ
 (اـ)
 الاـ
 شـاـ
 فـوـ
 النـ
 الـ
 اـ
 قـاـ
 ثـ
 الـ
 وـ

الشرق لا سيما مصر ولكن باسم «الروم» او الرومانين وهم أولئك القوم العتاة الوثايون الذين كان المصريون يخنقوهم لتوحشهم وهمجيتهم ويختلفون قوتهم العسكرية وبطشهم الحربي لأن هذه القوة لم ير العالم شيئاً لها قبل الرومان في ابان مجدهم وعظمتهم . ولا يزال المصريون في وقتنا الحاضر ومن قبله يطلقون كلية (روم واردام) على اليونان لا على الرومان فهم يقولون (حارة الروم) في القاهرة يقصدون بها الشارع الذي أكثر سكانه من اليونان وكذلك يسمون بطريرك اليونان (البطريرك الرومي) (١)

وبعد تاريخ الجمع النيقاوي بقليل حدث مُرْ مُحزن صريع لهذا الامبراطور الروماني اوجد فيه نوعاً من الوساوس جعلته متقلب الطبع شارد الفكر طول حياته وهذا الحادث هو قتيل ابنه كريسبوس وزوجته فوستا ولها حكاية بدائية شنية ذكرت عن سردها تادبا ولكننا نأتي على النتيجة فقط وهي ان فوستا اتهمت ابن زوجها زوراً بهمة تفر منها النفس الاية ثم رفعت امره الى ايه فاحتقد وحقق وتولاه مس من الجنة حتى انه أصدر امره في الحال باعدام ابنه فاعدم . فلما عاد ايه رشده قام ضميره يذكره على هذا التسرع في قتل ابنه ثم ما لبث حتى وقف على

(١) ان هذا الخلط بين اليونان والرومان لم يقتصر على مصر فقط بل تعددت الى كل القسم الشرقي من المملكة الرومانية بذات الاسباب التي شاعت بها في مصر . وقد اصبح هذا الخلط عاماً الان بين جميع الاطقين بالضاد كما اسلفنا

جاء الخبر وظهر له امر الخيانة التي ارتكبها زوجته طوعاً للداعي الميل
الحيواني فامر بقتلها حالاً لتنال جزاء ما جنته يداتها فاما هما مع انها كانت
زوجة له من سنتين طويلاً . اما اولادها فصاروا وزيرة للعرش الملوكي
بعد موت صنوفهم (اخوه من ابיהם)

والذى يتبع سيرة قسطنطين فيما يهىء من حياته يرى وجود ميل
عنه لضعف الضمير وتحاطط في المبادىء قبل انه التمس حلاً ومحفرة
من الكنيسة ولعل كثرة زيارة هيلانة امه للاماكن المقدسة مرات عديدة وبناءها
كنائس متعددة وتأجيلها اعمادها هذا الامبراطور كلها عوامل للتوبة والاحاج
في طلب المنفعة مما افتقر به من الذنوب التي كانت نقطة سوداء في تاريخ حياته
وما يجدر ذكره هنا انه لم يرد في النواريخ التي كتبت في ذلك العهد
شيء عن العجائب التي قال مؤرخوها هذا الزمان انها حدثت عند ما كانت
هيلانة تبحث وتتنقب في المدينة المقدسة (اورشليم) فقد ذهب جماعة
الكتاب الى ان قسطنطين بنى كنيسة ضمن كنائس اخرى في اورشليم
في المكان الذي دفن فيه المسيح وان موضعها معلوم عند كل باحث ولكن
لا يوجد برهان على انهم وجدوا صليبياً في ذلك المكان . وقد عزى بعضهم
الى هيلانة بناء عدة كنائس في الفطر المصري اخصها كنائس الديار الاجنبية
والديار الاجنبية الواقعين على مقربة من سوهاج ولا ريب في ان اكثر
هذه الكنائس التي شادتها هيلانة بني على اطلاق كنائس قد يدها الهداؤودي
بها الدهر اثناء الاضطهاد الاخير

وفي نحو هذا الزمن نأسست الكنيسة الجبشية وهي تعد ربيبة للكنيسة المصرية وما زالت خاضعة لها خضوعاً دينياً حتى الآن . وقبل هذا العهد لم يكن للديانة المسيحية أثر في بلاد الجبše ولو ان الجبšان يقولون بوجود صلة قديمة بينهم وبين اليهود حتى انهم كانوا يمارسون كثيراً من الطقوس والفرائض الموسوية (١) وحدث انه بينما كان البطريرك أنطاكيوس جالساً في مجمع مع زمرة من الأساقفة قيل له ان رجلاً غريباً وفداً حالاً من بلاد الجبše يرغب في مقابلتهم فأذنوا للرجل بالدخول ولما استقر به المقام أخبره بان اسمه فرومتيوس ومن ثم اخذ بسرد حكماته على جماعة الاراخنة الموجودين قائلاً :-

منذ بعض سنوات مضت شرعولي امري - وهو فيلسوف من صور اسمه ميروبيوس - في رحلة رياضية لبلاد الهند مستصحباً معه شابين من أقاربه هما فرومتيوس (المتكلم) وأخاه الأصغر واسميه يديسيوس . وعند أو بتنا من هذه السياحة الفيينا عصا الترحال في احدى الموانئ الجبشهية لكي نتزود ماء فلم نشعر الا وهجم علينا عالي تلك البلاد ليقتمو الانفسهم

(١) توجد رواية قبطية غريبة جداً ورد فيها تفصيل الظروف التي فيها ملائكة سبا (اي الجبše) زارت سليمان الحكم ، ماتلها من زيارة ابنها الذي حببت به منه لاي سليمان . قيل انه في انتهاء الزيارة الثانية انهر ابن ملائكة سبا تعاليم سليمان وأختلس تابوت العهد بمساعدة اربعة من الكهنة كان قد رشاهم ثم اخذته معه الى بلاد الجبše . قال روى هذا الخبر على هذه الكيفية اخذ تابوت العهد الى بلاد الجبše وبقى فيها الى وقت ميلاد ربنا يسوع المسيح

من بحارة في احدى السفين كان قد اسأوا اليهم فاقضوا علينا كالصواعق
وذبحوا جميع الاجانب ولم ينج من يدهم الا أنا و أخي باعونا عبيداً للملك
فلما صرنا في حوزته عين أخي نديماً له وجعلني أنا كاتم سره ولبثنا عنده
على هذه الحالة الى ان اعتقنا ساعة احتضاره وهو على فراش الموت .
فالمىست منها ارملة الملك ان عكست في بلادها لنساعدتها على تربية اولادها
الصغرى فرضينا واقتنا عندهم الى ان اصبحت كل حكومة الحبشة في قبضة
يدنا على توالي الايام ولذلك استعملنا كل نفوذنا في رفع شأن الديانة
المسيحية في هذه البلاد . ولما جاء الزمن الذي صار فيه ولی المهد راشداً
وقدراً على ادارة حكومة بلاده بنفسه فلم يبق لنا حيلة ووجه للإقامة
هناك فرحننا من عندهم قاصدين وطننا وسقط رأسنا اما أخي ايديسيوس
فسبقيني الى صور وانا عرجت على مصر لاسرد هذا الخبر على مسامع
جناب البابا (لان بطريرك الاسكندرية كان يلقب في ذلك الحين ببا
المشرق ولم يكن ببا رومية معروفاً بهذا اللقب حينئذ) ثم التمس
فرومتيوس من البطريرك ارسال اسقف اليهم ليؤسس الارسالية في
هاتيك البلاد (١)

فبعد ان استشار انسيليوس الاساقفة في هذا الامر قررائهم على

(١) جاء في الرواية المصرية المشار إليها ان مار مرقس نادي بالديانة المسيحية
في الحبشة كما في مصر . ويظهر من حكاية فرومتيوس هذه انه وجد انزأ للديانة
المسيحية في هاتيك البلاد عند ذهابه إليها مع الفيلسوف الصوري وأخيه

تحريض فرومتيوس بالرجوع الى الحبشة وأخذ هذا العمل على عاته
وعليه أعطيت له رتبة كهنوية وأعيد الى بلاد الحبشة حيثما امضى بقية
حياته فيها . ولا يزال الحبشان يحترمونه ويكرمونه وهم يسمونه « ابو
سلامه » او اب السلام (١)

كذلك البطريرك اناسيوس انت ز فرصة السلام والحمدو هذه بخل
يفتقد رعایا ويسأله عنهم الى ان وصل في سياحته هذه لحد اصوان
وكان في اصوان راهب مشهور اسمه باخوميوس هو مؤلف كتاب
« قانون الربنة » القديم كان ضابطاً في الجيش فترك وظيفته ليصير
مسيحيًا بناء على الغيرة والحبة التي فيه . وفي هذه البلدة اجتمع
باخوميوس هذا على راهب أقدم منه اسمه بلامون اشتهر بالثقوى
والورع في البلاد المجاورة لاصوان . وكان هذان الراهبان يحصلان
على قوتهم الضروري بواسطة صنع ملابس من الشعر كان لبسها عاماً
في مصر . ولم يمض زمن طويل حتى التفت حولهما جمود من العزاب
وكارهي الزواج حتى صاروا فئة كبرى جاءت لمقابلة اناسيوس عند زيارته
لاصوان واحتفلت باستقباله احتفالاً باهراً وتلوا فيه ترنيمات من مزمير داود
اما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي
ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية . وقام

(١) قال روثينوس المؤلف انه لم يأخذ هذا الخبر بسماع بل تلقاه من فم
اندبيوس شقيق فرومتيوس الذى كان قد قساً في صور بعد عزره من الحبشة

ميليوس الاسقف المنشق وآريوس الكاهن المبتدع يناصبان البطريرك العداء ويقاومانه بكل جهدهما حتى صار لقب ميليتى وآريوس وصمة عار في مصر يتضم بها كل من سار على رأي هذين العاصبين . والذى ساعدتها على التمادي في غيرهما ميل قسطنطين الملك لمذهب آريوس وهذا الميل نشاء فيه من تأثير اتباع آريوس على ذهنه واستحالته اليهم حتى انهم اغروه ان يكتب مكتوبًا لاثناسيوس يطلب فيه اعادة آريوس الى الكنيسة كما كان فرفض اثناسيوس هذا الطلب بتاتاً بحجة ان آريوس لا يزال منمسكاً ببدعته ولم يرجع عنها . فاتخذ اتباع آريوس هذا الرفض الذي كانوا يتوقعونه حجة ضد اثناسيوس واهاجوا سخط الامبراطور نحوه حتى مال لسماع التهم التي سعى يواب اسقف نيكوميديا وانصاره لاتهامها عليه . اما التهمات التي اتهموا بها اثناسيوس فكانت تنحصر في امرتين : او لهما ان هذا البطريرك شرع في ضرب ضريبة على مصر يحصل منها على حل بيضاء من الكتان (تواني) للاكليروس . والثانية انه مدادحد ارباب الفتن والمحرضين على الثورات بدرائهم . فهاتان التهمتان نقضهما اثنا - يوس نقضاً وبرهن كذبها ماقلم يؤثر اقط في سمعته الا ان التهمة الثالثة التي سيجيء ذكرها قد ضايفته كثيراً اذ كان يظهر عليها مسحة من الحقيقة فلم يكن من السهل دحضها حتى

بالبرهان العقلي

ومبدأ هذه التهمة الثالثة هو ان قساً من الاسكندرية اسمه

كولوئس الشق من الكنيسة قبل هذه الحوادث ببعض سنوات - وسبب
 الشقاقة غير معروف تماماً - ثم أخذ يعين تسوساً من العلمانيين وحيث أنه
 لم يكن هو سوى قس بسيط لاحق له في رسامة قسيسين نظيره تحاكم
 امام مجمع الاسكندرية فحكم عليه بالحرمان وعلى الدين رسمهم بتجريدهم
 من وظائفهم وصيروتهم عالمانيين كما كانوا . فقام احد هؤلاء الرجال
 واسمه اسخيراس واستخف بحكم المجمع ولكنه لم يعكش في الاسكندرية
 ليارس وظيفته الموهومة بل سار الى قريته في اقليم مريوط وصار
 يجمع جمعية صغيرة في غرفة حيث لم تكن توجد كنيسة هناك . وقد
 يلام انسايوس لانه لم يرسم هذا الرجل كاهناً رسمياً ولم يعتصمه في بناء
 كنيسة مع علمه باحواله وأعماله عند زيارته لتلك الجهة في سنة ٣٢٩
 تقريباً

ومع ان انسايوس كان عظيماً كبيراً الا انه لم يعرف بالتساع المدارك
 ورقة الاحساس كما عرف بهما البطريرك ديونيشيوس . ومما يذكر في
 هذا السياق أن بعض الباحثين ذهب الى ان اسخيراس المذكور كان
 رديء السمعة فإذا صاح هذا القول كان اللوم على انسايوس شديداً لانه
 تركه و شأنه في باديء الامر ولكنه ارسل بعدئذ قسًا اسمه مكاريوس
 يدعوا اسخيراس للمثول بين يديه ويؤنب اباه على الجرم الذي اقترفه ابنته
 فلما وصل مكاريوس وجده اسخيراس طريح الفراش فلم يعمل معه شيئاً
 ولكن اباه وعده بصدقه عن فعله الناشذ وايقافه عند حده . فلما تمثال

اسخيراس لاصحة آتى بمذهب ميليتوس وصار آلة صماء يديرونه كيف شاؤا .
 فالتهمة التي اتهموا بها انسيوس في هذا الشأن هي انه بذاته او بايعازه
 الى مكاريوس هدم كنيسة اسخيراس عنوة واحرق كتبها وحطط كأس
 العشاء الرباني . اما انسيوس فبرهن على عدم وجود كنيسة هناك وانه
 لم يتلف شيئاً من الاشياء التي نسبوا اليه اطلاقها وان ما قيل من ان اسخيراس
 كان يؤودي خدمة دينية عند ذهاب مكاريوس اليه فوهم باطل لان
 اسخيراس هذا كان صريحاً في ذلك الوقت . وبعد مضي وقت على هذه
 المسألة مثل اسخيراس امام مجمع حيث أقرَّ في محضر امضاه ثلاثة عشر
 قسَاً من الاسكندرية ومریوط بان التهمة التي اتهم بها البطريرك لا
 اساس لها وان المدين التي حلفها لا ثباتها كاذبة وهالك نص اعترافه في المحضر
 المذكور : (يشهد الله أن لا علم لي بما تقولون عن هذه التهمة التي لفتها
 بعضهم بل اني اصرح جهاراً بعدم وجود كأس كسره احدها أو أن
 شخصاً ما مدعده بسوء نحو شيء من متاع كنيسة لا معرفة لي بوجودها
 ولكنني أقول الحق وهو ان بعضهم اضطرني اضطراراً للاقرار بذلك
 التهمة الملفقة) ولما رفض انسيوس مسامحة اسخيراس وحله انكر
 هذا الاعتراف المسطر ولم يعترف به ثانية
 ولم يخلص انسيوس من التهمات الموجهة اليه حتى قامت ضده
 شبهة جديدة هي انهم اتهموه باستعمال السحر والتجمیع وهي تهمة خطيرة
 ينکم لامرها عامة الشعب منذ القرن الرابع لحد يومنا هذا : وقد شاع

بين الناس ان اثناسيوس دس السم لاسقف من اتباع ميليتيوس اسمه ارسنيوس فاما ته واستخدم جشه لغرض سحري دني . فانتشار مثل هذه الحرافة وسهولة تصديقها عند الناس دليل على انتخاط الاخلاق وفساد الادب في الامة من بعد ان كف عنها الاضطهاد . أما الذين ادعوا هذه الدعوى بخوايا بداي على اثباتها وهو يد مبتووة من جشه قالوا انها يد ارسنيوس التي قصلها اثناسيوس من جسمه . فذهب اثناسيوس عند سماعه هذا القول ورأى ان عدم دحضه هذه التهمة بالبينة القاطعة يوجد حرية في النقوس من نحوه ولذلك انحد شمامساً إلى الصعيد للبحث عن ارسنيوس وكشف جلاء الحقيقة

وقد ثبت لهذا الشمامس ان الاسقف الذي قيل انه قتل لايزال حياً يرزق وهو مقيم في احد الاديرة هناك . قبل وصول الشمامس الى المكان الذي كان ارسنيوس يقيم فيه اسرع بيلنس رئيس الدير وارسل ارسنيوس الى صور حتى لا يعلم مقره احد الا ان الشمامس تربص في طريق الدير والقى القبض على بيلنس وراهب آخر اسمه هلياس كان قد ذهب ليشيعا ارسنيوس ويهدياه الى الطريق التي سير فيها ثم احضرها هذا الشمامس امام حاكم الاقليم حيث اعترفا بما فعلاه (١)

(١) ان بيلنس هذا كتب الى يوحنا اركاف كتاباً غريباً في بابه ينبعه فيه بان هذه التهمة لا يمكن اثباتها ضد اثناسيوس لانه معروف في كل القطر المصري ان ارسنيوس لم يزل حياً ولم يصبه مكره من احد

أما الشهاس المذكور فسار تواً إلى صور للبحث عن ارسنيوس ولم
يستطيع العثور عليه في باديء الامر واخيراً التقى باحد خدام حاكم
الولاية وأخبره بأنه سمع بطريق الصدفة في احد النوادي ان ارسنيوس
محببي في احد منازل هذه المدينة فاقتفي الشهاس آثار مخبره الذي يمكن
من ارشاده الى المكان الذي كان ارسنيوس محببياً فيه فانسأر هذا نفسه
عندمار آه الشهاس ولكن بولس اسقف صور عرف به وقال انه ارسنيوس
بعينه وادنه فلم يسمع ارسنيوس هذا الا ان كتب مكتوبآ الى اثناسيوس
يلقبه فيه (بابا الاحترم) ويظهر اسفه من الذي حدث ويسأله أن يصفح
عنه ويقبله في عضوية الكنيسة

ومع أن براءة اثناسيوس ظهرت كشمس الظاهيرة الا ان يوساب
اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور بضرورة تحقيق التهمات الموجهة ضده
اما مجمع كنائسي وعلى رؤوس الاشهاد . وعليه تشكل مجمع في قيصرية
تحت رئاسة يوسيبوس المؤرخ اسقف هذه المدينة وطلب اثناسيوس
مراداً للحضور امام المجمع فلم يعبأ بهذا الطلب ولم يذهب قط بل ظل
يشتغل في تدبير مهام البلاد التي يرأسها آملاً بتسوية هذه المسائل طبيعياً
بدون بحث أو جدال من شأن الحق والعناد

ولكن في سنة ٣٣٥ التام مجمع آخر في صور وارسل الامبراطور
امرآً مشدداً الى اثناسيوس يدعوه للحضور فاذعن للحال وسار في
موكب حافل يحيط به ثمانية واربعين من اساوقته . أما اساقة المجمع

فـقـابـلـوـهـ مـقـاـبـلـةـ تـدـلـيـ إـلـىـ الـإـهـانـةـ وـعـدـمـ الـاحـتـرـامـ وـكـانـواـ كـلـهـمـ تـقـرـيـباـ مـنـ
 اـنـصـارـ آـرـيـوسـ وـاتـبـاعـ مـذـهـبـهـ فـلـمـ يـسـعـ بـوـتـامـونـ أـحـدـ اـسـاقـفـةـ اـثـنـاـسـيـوسـ
 الـأـسـتـرـجـانـ هـذـاـ عـلـمـ وـالـقـاءـ عـبـ ؛ـ هـذـاـ الـخـجلـ وـالـخـزـيـ عـلـىـ كـاهـلـ يـوـسـابـ
 اـسـقـفـ صـورـ رـئـيـسـ الـجـمـعـ لـأـنـهـ سـعـحـ لـلـاعـضـاءـ بـاـتـيـانـ مـشـلـ هـذـهـ الـأـعـمـالـ
 الـمـعـيـيـةـ ثـمـ بـدـاءـ يـسـأـلـهـ قـائـلاـ (ـأـجـالـسـ اـنـتـ هـنـاـ لـتـحـاـكـمـ اـثـنـاـسـيـوسـ ؟ـ الـأـتـذـكـرـ
 اـذـ كـنـتـ اـنـاـ وـأـنـتـ سـيـجـيـنـيـنـ مـعـاـ لـاجـلـ الـإـيمـانـ فـاقـتـلـعـواـ عـيـنـيـ وـاماـ اـنـتـ
 فـنـجـوـتـ مـنـ الـخـطـرـ دـوـنـ اـنـ يـلـحـقـكـ ضـرـ)

فـأـنـتـرـ يـوـسـابـ هـذـاـ اـسـقـفـ الـذـيـ ظـهـرـتـ نـفـحـاتـ اـيمـانـهـ قـدـيـماـ
 وـوـبـخـهـ عـلـىـ مـاـ بـدـاـ مـنـهـ مـنـ الـحـدـةـ فـيـ الـكـلـامـ ثـمـ اـخـذـ الـقـوـمـ فـيـ مـحاـكـةـ
 اـثـنـاـسـيـوسـ وـلـكـنـهـ كـانـوـ اـمـتـقـقـيـنـ قـبـلـ عـلـىـ الـحـكـمـ عـلـيـهـ وـكـانـ اـوـلـ تـهـمـةـ
 بـدـأـوـاـ بـفـحـصـهـاـ هـيـ قـتـلـهـ اـرـسـيـوسـ
 فـاـبـتـدرـهـمـ اـثـنـاـسـيـوسـ بـالـسـؤـالـ قـائـلاـ (ـأـيـرـفـ اـحـدـ مـنـكـمـ اـرـسـيـوسـ ؟ـ)
 فـقـالـ كـثـيرـ مـنـ الـحـاضـرـيـنـ اـنـهـ يـعـرـفـوـنـهـ مـنـ قـبـلـ .ـ وـحـيـثـنـ اـحـضـرـ
 لـهـمـ اـثـنـاـسـيـوسـ رـجـلـاـ مـلـمـاـ بـلـاثـامـ يـعـطـيـ كـلـ رـأـسـهـ وـأـمـرـهـ اـنـ يـخـسـرـعـنـ وـجـهـهـ
 اـمـامـ الـجـمـعـ وـكـانـ هـذـاـ الرـجـلـ اـرـسـيـوسـ .ـ ثـمـ رـفعـ اـثـنـاـسـيـوسـ طـرفـ رـدـاءـ
 اـرـسـيـوسـ وـاـظـهـرـ لـهـمـ يـدـهـ اـلـيـنـيـ وـاـنـهـاـمـ تـزـلـ صـحـيـحةـ مـوـضـوـعـةـ فـيـ مـكـانـهـاـ
 الـذـيـ خـلـقـتـ فـيـهـ ثـمـ كـشـفـ لـهـمـ الـيـدـ الـآـخـرـىـ بـكـلـ سـكـونـ وـتـأـنـ وـخـاطـبـهـمـ
 وـهـمـ سـكـوتـ كـأـنـ عـلـىـ رـوـءـهـمـ الطـيـرـ وـقـالـ :ـ (ـاـنـظـرـوـاـ اـنـ لـلـرـجـلـ يـدـيـنـ
 غـائـيـنـ الـيـدـ الـتـيـ بـتـرـهـاـ اـنـاـ ؟ـ وـمـعـلـومـ اـنـ اللـهـ خـلـقـ لـلـأـنـسـانـ يـدـيـنـ فـقـطـ

لَا نَالَهُ لَهَا

فَلِمَا قَالَ اثَانَاسِيوسُ هَذَا هَاجَ الْجَمْعُ وَمَاجَ فَاتَّسَرَ يَوْحَنَانَا أَرْكَانَ هَذِهِ
الْقَرْصَةِ وَسَعَى لِلْهَرْبِ لَا نَهَا كَانَ الْمَسْؤُلُ رَأْسًا عَنْ صَحَّةِ هَذِهِ التَّهْمَةِ وَكَذَبَهَا
وَلَسْكَنَهُ عَدْلَ عَنِ الْفَرَارِ وَالْتَّفَتَ نَحْوَ أَعْضَاءِ الْجَمْعِ وَافْهَمُوهُمْ أَنَّ مَا عَمِلَهُ
اثَانَاسِيوسُ الْآنَ أَنَّمَا هُوَ دَلِيلٌ جَدِيدٌ عَلَى كُونَهُ سَاحِرًا مَا كَرَأَ وَلَذِكْ
اَشْتَدَ سُخْطُ الْقَوْمِ وَزَادَ حَنْقُومُهُمْ عَلَى هَذَا الْبَطَرِيرِكَ الْبَائِسِ الَّذِي كَانَ
قَدْ بَرَهَنَ لَهُمْ عَلَى جَرَأَتِهِ وَكَادُوا يَفْتَكُونَ بِهِ لَوْلَا إِنَّ الْإِمَرَادَ يُونِيَثِيوسَ الَّذِي
كَانَ قَدْ اَنْفَدَهُ الْإِمَرَاطُورُ لِرَاقِبَةِ هَذِهِ الْمُضْحِكَاتِ الْمُبَكِّيَاتِ خَاصَّهُ مِنْ
أَيْدِيهِمْ وَانْقَذَ حَيَاةَ مِنَ الْمَطْ

أَمَّا مَسَأْلَةُ اسْخِيرَاسِ فَلَمْ تَرِزَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَلَذِكْ تَجَدَّدُ الْبَحْثُ
فِيهَا بِجَاءَ مَصْرُ سَتَةٌ مِنْ أَعْضَاءِ الْجَمْعِ لِيَعْمَلُوا تَحْقيقًا فِي هَذِهِ الْحَكَايَةِ
الثَّانِيَةِ وَكَانُوا مِنْ اتَّبَاعِ آرِيُوسَ الْمُتَطَرِّفِينَ وَبِالْتَّالِي اَعْدَاءِ الدَّاءِ لِلْبَطَرِيرِكَ
اثَانَاسِيوسَ . وَكَانَ مَكَارِيُوسُ قَدْ طَرَحَ فِي سِجْنٍ صُورَ وَلَذِكْ عَوْلَ
اثَانَاسِيوسَ عَلَى رَفْعِ دُعَوَاهُ إِلَى الْإِمَرَاطُورِ شَخْصِيًّا فَاسْتَصْبَرَ مَعْهُ خَمْسَةَ
مِنْ اسْاقِفَتِهِ وَسَافَرُوا فِي أَوْلَ سَفِينَةٍ اَقْلَعُتْ مِنْ صُورَ قَاصِدِينَ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ
وَالْتَّقَوْا فِيهَا بِالْإِمَرَاطُورِ بَجَاهَةٍ عِنْدَمَا كَانَ خَارِجًا لِلنَّزَهَةِ فِي مَوْكِبِهِ الْحَافِلِ
اَمَّا الْإِمَرَاطُورُ قَسْطَنْطِينُ فَلَمْ يَعْرِفْ اثَانَاسِيوسَ فِي أَوْلَ الْاَمْرِ فَلَمَّا عَرَفَهُ
هَذَا بِنَفْسِهِ رَفَضَ الْإِمَرَاطُورُ بِمَعْدِلِ دُعَوَاهُ مَتَذَرِّعًا بِحَجَّةٍ وَاهِيَّةٍ هِيَ اَنَّ
هَذِهِ الْمَسَائِلُ كَانَتْ مَوْضِيَّةَ الْبَحْثِ فِي بَعْضِ نَظَرَاهَا وَحَكْمِهِا . وَلَكِنْ

اثناسيوس لم تقنعه هذه الحجة بل اعترض الامبراطور في طريقه قائلاً:
 إما ان تأمر بتشكيل مجتمع مسكوني شرعي أو ان تسمح لي بالاجتماع مع
 خصومي امامك وتناقش معاً) فاقتنع الامبراطور اخيراً وكتب رسالة
 يدعو بها المجمع للالستام في القسطنطينية . فلما علم الاضداد هذا اهتزوا
 وانزعجوا وعادوا الى ابروشياتهم خائفين وجلين ولم يلبوا دعوة الامبراطور
 الا يواس اسقف نيكوميديا ورهط من الاساقفة اتباع آريوس الذين
 جاؤوا الى الامبراطور فلم يذكروا كلها واحدة من مسائلتي ارسنيوس
 واسخيراس بل ابتدعوا تهمة جديدة زادت في حيرة اثناسيوس واذهلتة
 أما هذه التهمة الجديدة ففادها ان اثناسيوس كان يقصد منع سفر
 المراكب التي تأتي القسطنطينية حاملة ضريبة الحنطة وهو عمل يشبه
 اشهر حرب عوان ضد الامبراطور
 فأنكر اثناسيوس هذه التهمة انكاراً قطعياً ولكنها كانت ملقة
 ضده تلقيناً يلبسها مسحة الحقيقة وملووم ان هذا الامبراطور كان
 شديد الغيرة على سلطته لا يطيق ما يحيط بها او يقاومها ولذلك قاطع
 اثناسيوس بينما كان يدافع عن نفسه ولم يتركه يتم كلامه وانتهى الامر
 بان تفاه نفياً موقتاً الى المكان الذي يقيم فيه ابنه الاكبر قسطنطين
 في تريفس شمالي جermania . فظل اثناسيوس سنتين ونصفاً في بلاد لم
 تكتحل عينه بمرآها من ذي قبل ولم يكن بينما وين مصر وجه شبه
 قط بل انه كان يتصور جermania الشمالية كأنها متنهى الارض وآخرها

وأنها أقصى الاقتاصى . وكان يصتجبه في منفاه هذا واحد أو اثنان من رفاقه المصريين فلم يصرف وقته عبئاً في هذا المكان بل كان يواли كتابة الرسائل المقيدة إلى رعيته التي لعبت بها أيدي الدهر من بعده لاف مدة نفيه لم يكن للسلام أثر في مصر ولم تكن مصر تعرف الراحة والوئام وسبب ذلك آريوس وحكايته الذي انكر ما عزي إليه في المجمع الأورشليمي المقدس وعاد لا يمانه الأول فضم إلى الكنيسة ثانية وأمر بالبقاء في الإسكندرية ولكن لم يكف عن سعيه المعتاد من إيجاد انقسام وشقاق في هذه المدينة التي لم يهدأ لها بال فأعيد منها ولم يسمح له بالبقاء فيها طويلاً . ومن الأسباب التي أوجدت الكدر والقلق في مصر هو تهجيج المصريين وتحريك عواطفهم الوطنية لاجل نقل عادياتهم القديمة العديمة المثال إلى مدينة قسطنطين الجديدة (القسطنطينية) واخذ مسلاتهم السامقة لتربين هذه العاصمة وتجليله رونقها وزيادة عظمتها بواسطة الآثار المصرية . كذا العنصر الوثني من سكان مصر غضب وسخط عند نقل مقىاس النيل من هيكل ميراييس إلى أحدى الكنائس المسيحية ومن عهده نقله صار القسوس المسيحيون يؤدون خدمة عيد وفاء النيل بدلاً من كهنة الوثنين . وكان من بين الذين التسوا من الإمبراطور التداخل في مسألة أناشيوس وحسم مشكلته مار انطونيوس الذي ترك ديره بناء على طلب أناشيوس له وقدم إلى الإسكندرية ليكرز فيها ضد بدعة آريوس ويحذر الناس من اقتداء أثره فلما توسل إلى الإمبراطور ليقضى الخلاف

الذي يئنه وبين أناسيوس لم يرض هذا الامبراطور وذهب سعي أنطونيوس
 ادراج الرياح . وكانت النتيجة ان يواساب اسقف نيكوميديا اقتصر الامبراطور
 بقبول آريوس جهاراً في كنيسة القسطنطينية في يوم احد يعين لهذه الغاية
 وان يحتفل بدخوله فيها احتفالاً باهراً پدل على فوزه على خصومه وان
 يبتديء سير موكب من قصر الامبراطور الى كنيسة الرسل . فعارض
 اسكندر اسقف القسطنطينية هذا الرأي واحتج عليه ولكن معارضته لم
 يكن لها تأثير فان القوم استعدوا لهذا الاحتفال استعداداً باهراً لم يسبق
 له مثيل ولكن السعد لم يخدمهم هذه المرة ولم يتمتعوا بهذا الفرح ذلك
 لانه في يوم السبت السابق ليوم الاحد المعين للاحتفال ركب آريوس
 مع رهط من اخصائه وخرج بموكب من القصر الملكي وسار في اهم شوارع
 المدينة يميس خلالها ويستلقيت انظر الشعب الى الاحتفال العظيم الذي
 سيقام له في الغد وكان بعمله هذا كمن يدعو الناس لحضور ذلك الاحتفال
 فلما وصل الى الميدان المعروف بميدان قسطنطين باعاته مرض عضال يشبه
 اعراض الكولييرا الشديدة الوطأة عند ما تكون في اقوى حالاتها فينفذ
 ققل راجعاً وانزوى خلف هذا الميدان بينما كانت ذلك الجمورو المزدحم
 ينتظره بفروع صبر وقد كثرت بينه الاقاويل والاراحيف عنه ولم يكن
 كلح البصر حتى شاع خبر موته الفجائي وتنافته الاسن واثبته واحداؤ
 اثنان من الذين شهدوه شهادة العين وذعوا من ذلك المنظر المفزع الذي
 وقع امامهما وما رأياه من آريوس ساعة الحشرجة من الضيق والكرب

فعلى هذه السكيفية المريعة قضي آريوس نحبه وهو زعيم تلك الفئة التي كانت تلقب نفسها آريوسية وكان الاخرى بها ان تقول انها ناكرة الوهية المسيح مقاومة لمن يؤمن به كالمات هذا الرجل ميتة الاشرار مع انه كان متتصفاً باحسن الصفات الادبية الا انه بالنسبة لظروف ذلك الزمان واهواله كان قادرآ ان يلحق بالديانة المسيحية ضرراً عظيماً لا يستطيع ايانه اكثر الناس شرآ وخبيثاً وقد امتاز اتباعه بـزية ممقوته هي انهم كانوا اول مسيحيين اضطهدوا المسيح بين اخوانهم

وفي سنة ٣٣٧ اتم قسطنطين بناء الكنيسة الكبرى في القدسية التي دعاها كنيسة الرسل الاطهار ودشنها وكان يقصد ان يلحد فيها بعد موته . وكأنه شعر بدئو اجله فانه كاد يتم بناء هذه الكنيسة حتى خارت قواه وأخذت صحته تنحط انحطاطاً ظاهراً فعمد الى العمار من يوساب اسقف نيكوميديا ثم فاضت روحه في يوم احد العنصرة من سنة ٣٣٧ . وكان قبل موته اقام خمسة قياصرة تحت امرته وهم اولاده الثلاثة وابني أخيه وقسم الملائكة بينهم كما يأتي : قسطنطين ابنه الاكبر اخذ بريطانيا واسبانيا وفرنسا وقسطنطينوس اسيا وسوديا ومصر وقسطنطين ايطاليا وببلاد المغرب (افريقيا) ودلماطيوس اييريكوم (بلاد اليونان) وهنيدال ارمينا وبنطس الا أن هنيدال هذا لم ينل لقب قيصر بل لقب

ملك فقط

وبعد موت الامبراطور قسطنطين هرع قسطنطينوس ابنه الثاني

وجاء القسطنطينية سراعاً وكانت له يد قوية في جمع الحوادث التي وقعت فيها بعده. وكانت الجيوش قد أعلنت صراحةً بعدم قبول ملك عليهم من غير أبناء قسطنطين ولذلك حدثت مذبحة عظيمة ذبح فيها كثيرون من ذرية قسطنطينوس الأول الدين ولدوا له من امرأته الثانية تيوضوراً. وكان بين الدين أكلهم السيف دلماطيوس وهنيبال وخمسة آخرين من أبناء أخيه قسطنطين وحنواه (ابن ابيه) ووزيره الخاص ايلاقيوس وواحد أو ثنان من المقربين إليه ولم يبق من العائلة المالكة سوى ابنه الإمبراطور وابني حنوه يوليوس قسطنطينوس وها غالوس الذي قيل وقتئذ أنه مشرف على الموت والصبي يولييان الذي نجاه من العطب أسقف مسيحي وبعد هذه الحوادث المريعة الثقي أبناء قسطنطين الثاني في سيرميوم وأعادوا تقسيم المملكة فيما بينهم فاستولى قسطنطين الثاني على الجزء الغربي من المملكة أو هو شمالي أوروبا وأخذ قسطنطس الأجزاء المتوسطة وهي جنوبي أوروبا أما قسطنطينوس الثاني فصار إمبراطور مصر وباقى الشرق برمته

فلما استتب الامر لقسطنطين الثاني طلب إلى أنطاكوس البطريرك أن يعود إلى كرسيه وكان قد أخذه معه إلى فيميناشيوم وهو مكان حددته ثلاثة إمبراطرة ليجتمعوا فيه فقرر رأيهم على ارجاعه إلى بلاده فعاد هذا البطريرك إلى الإسكندرية في شهر نوفمبر سنة ٣٣٨ حينما قابله الشعب باحتفال حافل ابدى فيه من السرور والشكر مالا يوصف

ولما رأى الاساقفة الذين من شيعة آريوس ان أناسيوس قد عاد
واستقر في مكانه كما كان لم يهدأ بالهم بل قاموا يدبرون طريقة أخرى
يذعنونه بها من على كرسيه ما دام ان التهمات السابقة لم تؤثر فيه الا
كما يفعل الماء في الصخر المتن . وقد ساعدهم على ذلك ميل الامبراطور
قسطنطينوس اليهم لانه كان آريوسيّا خَّا حتى انه عين يوباس اسقف
نيكوميديا (١) بطريركًا في القسطنطينية رغمًا عن هياج الشعب وعدم
رضاه بهذا البطريرك . وكان اعتراض جماعة آريوس على رجوع
أناسيوس هو ان في عودته خدشاً للقوانين الكنائية واحتضانها
للمباديء الكنهوية لانه عاد الى كرسيه بدون تصديق قانوني يصدر
من مجمع كنائي عام يشكل لهذا الغرض وقالوا ان الكرسي الاسكندرى
يعتبر بدون بطريرك طبقاً لهذا المبدأ ثم اخذوا يثرون الدسائس ليتتبخوا
رجالاً اسمه بسطس بطريرك للاسكندرية مع انه كان من ضمن القسوس
الذين حرمهم البطريرك اسكندر عند ما حرم آريوس لاجل بدعته
وقد ارتى هذا الحزب الآريوسي رأياً هو انهم اذا اغروا اسقف
رومية الذي لا يعرف شيئاً عن بسطس على التداخل في هذا الامر
والسير خلف غرضهم قد يقوى جانبهم ويشتدا زرهم به وعليه انفذوا

(١) ان يوباس هذا نقل من مركره مرتين — الاولى من يبروت الى نيكوميديا
والثانية من نيكوميديا الى القسطنطينية مع ان نقل الاساقفة في ذلك الوقت كان
ضد القانون الكنائسي

ثلاثة قسوس الى رومية كبعثة للغاية السالفة الذكر . فلما وصل الخبر الى توليوس اسقف رومية كتب خطاباً سلس العبرة الى اثناسيوس يختره فيه بهذا الامر فارسل اثناسيوس رسلاً من قبله الى يوليوس مزودين بادلة تثبت ان سعي القوم في ترشيح بسطس للبطيريكية لم يصادف نجاحاً ولم يلق قبولاً حتى عند اصدقائه الاخماء . وكان رسول اثناسيوس قد حملوا معهم الى رومية قراراً معمياً من كنيسة مصر امضاه اكثر من مائة اسقف مصرى برهنوا فيه على براءة اثناسيوس وطهارة ذيده وقالوا في رسالتهم هذه ان الغرض الوحيد الذي يرمى اليه اتباع يوساب هو تعيم بدعة آريوس ونشرها في مصر .

وبناء على ذلك اقترح يوليوس اسقف رومية تشكيل مجلس للنظر في هذه المشكلة فصادق الطرفان على هذا الاقتراح وقبلوا به . ولكن حدث في سنة ٣٤٠ ان قسطنطين الثاني الذي كان نصيراً لاثناسيوس وظيراً قوياً له قتل في مناوشة حربية وبعد موته اصدر الوالي فيлагريوس امراً رسمياً اوضح فيه لكنيسة الاسكندرية خبراً ساءها وهو ان بسطس لا يعين بطيريكًا بل ان رجلاً اسمه غريفوريوس من معية الملك قسطنطينوس اختير ليكون بطيريكًا للاسكندرية بدل اثناسيوس اما غريفوريوس هذا فسقط رأسه مدينة كبدوكية ولكنه رضع البنان العلوم في كلية الاسكندرية ولاقي من اثناسيوس كل عناية واصرام وقت تلمذته . ولم يكن هذا الرجل قد حرم كغيره لاجل بدعة

آريوس ولكن كاتم سره آمون كان قد حرم البطريرك اسكندر لذات السبب الذي حرم لاجله بسطس . فلما تعين غريفوريوس بطريركاً بدأ الاضطرابات تسرى في الاسكندرية وقامت المشاكل والزعاعع وكثرت جمعيات التحرير و كان منها جمعية كبرى التأمت لتحتج على هذه المعاملة التي عومل بها أثانيايوس وكان الثانى مهافى كنيسة القديس قورينوس (١) فلما رأى فيلاغريوس الوالي هذا وكان صديقاً لغريفوريوس ومواطناً له حرض قوماً من سفلة الوثنين وحرافيشهم - وقيل انه قادهم بنفسه - لكي يهجموا على الكنيسة التي اجتمعت فيها هذه الجمعية . فاندفع هؤلاء الزعاف الى اقدس الاماكن واجلها واحرقوا كتب الكنيسة وطروا منها تلك الجمعية بعد ان اوسعواها سباً وشتما تأيي الآذان سماعه ثم نهبوا خزانة الكنيسة وامتهنوا وقتلوها بعض الرهبان بينما كانوا يذودون عن حوض الكنيسة ويدافعون عن اشياءها اما أثانيايوس فكان في ذلك الحين يأوى الى صومعة في كنيسة القديس ثيوناس فلما علم انه هو المقصود بالذات خاف على الكنيسة من وجوده داخلها لذا يلحق بها ضرر من الاعداء فانسحب من الاسكندرية وخلا الجو لغريفوريوس فدخلها بعد اربعة ايام من سفر أثانيايوس دون ان يلقى مقاومة من احد كل هذه الحوادث وقعت في الصوم الكبير

(١) يحتمل ان يكون هذا القديس هو قورينوس اسقف سيدنيا التابعة لمقاطعة ايالرپكوم وكان قد نان الشهادة في ايام ديوكتيانوس

وفيه اصاب اهالي الاسكندرية المساكين اضطهاد شديد من هذا
 الاسقف الذي اهتضم حق غيره قسراً
 أما قسوس الاسكندرية فحجر عليهم تعميد احد أو زيارة مريض
 أو ممارسة أي عمل من وظائفهم . ولم يأت يوم الجمعة الكبيرة حتى
 حدث هياج جديد وذلك عند دخول غريغوريوس الكنيسة بموكبه الحافل
 اذ تصدى له هذا الشعب المحتم غيظاً وابتدره بعبارات السب والاهانة
 غرفع غريغوريوس دعوah الى صديقه الوالي الذي اهتم بالامر كثيراً
 والقى القبض على نحو اربعة وثلاثين وجيهاً من الذين كانوا حاضرين في
 الكنيسة وجلدهم بالسياط جلاً عنيفاً وكان منهم اصحاب احیئات
 والاعتبار واكثراهم نساء مكسورات الجناح بلا عضد ولا سندوفي هذه
 الاثناء برع محضر آخر امضاه الوثنيون واتباع آريوس فقط وفيه يتهمون
 اناسيوس تهمات تمسه لاهيتيها فصم هذا البطريق الاسيف على
 الذهاب الى رومية آملاً بانعقاد ذلك الجمع الكنائسي الذي افتتحه
 يوليوس . فلما وصل اناسيوس رومية تلقاه يوليوس بكل تجلة وسلام
 وانفذ كاهنين من قبله يدهوان الجمع للالستام وحدد له شهر ديسمبر من
 تلك السنة . وكان يوليوس في ذلك الوقت يلطف اناسيوس ويرجوه
 البقاء عنده فقبل اناسيوس ذلك لعلمه بان وجوده بالاسكندرية في
 هذه الظروف لا ينبع عنه خير واخذ يبذل قواه في ابعاد الافكار الشريرة
 عنه التي كانت تسارره وتقلقه وقد قال عن نفسه في ذلك الوقت « لما

عرضت مسألتي على الكنيسة وهي بغيتي التي كنت ابتغيها لم اترك في ذهني شيئاً يشغلني عن خدمة هذه الكنيسة التي هي جلّ صرادي» وكان بمعيته في رومية كاهن من مصر وها آمونيوس احد رهبان دير النطرون وايسداروس . وقد اثرت اقامة آمونيوس في رومية تأثيراً سيئاً في احساساته الاصلية فقد قيل انه لم يعجبه بناء في ابنيه رومية الدائعة الصيت سوى بناء كنيستي مار بطرس وبولس (١) الذي شرح صدره كثيراً وحول نظره من مصر الى رومية . ولكن بقاء اثناسيوس - بابا الاسكندرية في رومية اوجد مبداء في الكنيسة اللاحينية (الكاثوليكية) لا يزال فيها الى الان

وبيان ذلك ان القوم هنالك كانوا يصغون بكل ارتياح الى كلام اثناسيوس عن الرهبنة ونظامها في مصر فصادف هذا القول منزعاً في نفوس الغربيين فزاد شوقيهم الى الرهبنة ورغبتهم في العزوبيّة . قال جييون المؤرخ «ان اثناسيوس ادخل الى رومية مبدأ الرهبنة ونظامها ولكن يصعب على العقل ان يتصور صحة هذا القول حرفيًا او ان يصدق عدم وجود رهبان في رومية قبل مجيء اثناسيوس اليها اما اثناسيوس فقد ظل في رومية ثمانية عشر شهراً وهو يتظر الفرج القريب من الله ويترقب وجود مخرج له من كربته التي كان فيها

(١) ان آمونيوس هذا هو اكبر الاخوة الذين اشتهروا بطول قائمتهم وسيأتي الكلام عّنهم عند ذكر ما جرى في مدة حكم ثاوفيلوس

الفصل الخامس عشر

غريغوريوس وجود جيوس من كبدو كية

سنة ٣٤٠ للمسيح و ٥٦ للشهداء

في نحو الزمن الذي قُتل فيه قسطنطين الثاني - وربما قبله ببضعة
شهور - مات اشهر رجال ذلك العصر واحد المؤرخين العظام وهو
يوسيبوبس اسقف قيصرية الذي اخذنا عنه كلما نعرفه الان عن الثلاثة
قرون الاولى للكنيسة المسيحية . وكان الرجل في باديء امره ميلاً
للانحياز الى جانب آريوس عند استفحال ذلك الانشقاق المحزن الذي
اتينا لك على شرحه في ما حرس و لكنه عاد فاقتئن بحكم المجتمع النيقاوي
وسار على جادة الصواب التي قررها هذا المجتمع سيراً صريحاً . وقد كان
يوسيبوبس لهذا صديقاً جميماً لقسطنطين الكبير ومحبوباً عنده جباراً
يقرب من العبادة فكان يشق بعلمه وفضله وعهد اليه في آخر سنته بعمل
تأليف ادبية ذات شأن . وما يستحق الذكر من اعمال هذا العالمة
ان النساخ الاسكندريين كتبوا تحت مرأبته خمسين نسخة من الكتاب
المقدس اخذها قسطنطين ووزعها على الكنائس الكبرى التي كان قد
بنها وكرستها كما عرفت . ولم تبق ولا نسخة واحدة من هذه الكتب
المئنة لحد الان ولكتنا لا نياس فقد يأتي يوم فيه تظهر ولو واحدة منها
في أحد القبور المصرية او في كهف او جحر نسج عليه العنكبون خيوطه
فتريلها ايدي الباحثين المجهدين

كذلك علماء الوثنيين في مصر كانوا في ذلك العهد من أكثر الناس
اجهاداً في تحصيل العلوم واستعالاً بالتأليف والتصنيف ولم يزل بين
يدي علماء هذا العصر كتاب من تأليف عالموثني مشهور هو البيوس
الذي وضع مصنفاً في فن الموسيقى تداوله الأيدي إلى الآن ولا تزال
تطرب من نغمة الآذاف وكذلك زميله إيمبايكوس الذي عدّ مع
البيوس من أشهر أنصار الفلسفة الافتلاطونية وناشر ي تعاليمها
في الإسكندرية . وقد وضع أخيليوس طاطيوس كتاباً نفيساً في علم
الفلك وهو علم كان يعشّقه المصريون ويرغبون فيه كثيراً هذا عدا عن
روايات أخرى خيالية صنفها هذا الرجل تلذ قراءتها جداً وقد صار
أخيليوس مسيحيّاً فيما بعد ورغم كثيرون أنه تعين أستقفاً . ومن الكتاب
الذين بنعوا في علم الهيئة (التنجيم) هيوفشن من طيبة (الاقصر)
كتب نبذة اظهر فيها تأثير عدة كواكب في منطقة البروج على امزجة
الناس . وتقسيمه لمنطقة البروح يطابق التقسيم المرسوم على سقف

هيكل دندرة (قنا)

وقد عرفنا فيما سبق أن غريغوريوس جلس على السدة البطريركية
بالإسكندرية ونقول الآن إن ماقتيء يعيث فساداً في هذه المدينة
ويعمل أموراً تضرّ منها الطباع الشريفة حتى أنه اضطهد عمّة لاثناسيوس
إلى أن ماتت وعند موتها سعى جهده ليحرّمها من الدفن في مقبرة
المسيحيين . وقد اتهمه بعضهم بالتهام صدقات الارامل وهي تهمة دعي

اثناسيوس بها ولذلك لم يعبأ بها احد. وحدث ان غريغوريوس هذا برج
 الاسكندرية ليسوح في داخلية البلاد فما كاد يطعن ركبه حتى تفاص
 الشر وازداد الخطب استفحلاً وكانت من افظع المسائل ان الاساقفة
 الذين ابوا الاعتراف برؤاسته عوملوا معاملة خشنة قاسية . خذ لذلك
 مثلاً الراهب بوتامون الذي عرفنا انه كان مع اثناسيوس في صور وكان
 بين الثمائة وثمانية عشر عضواً في الجمع النيقاوي وهو رجل تشوّه
 جسمه وتحطمته اضلعه في اضطهاد ديوكلتيانوس — هذا الراهب الذي
 كان قد بلغ من الكبر عتياً جلده شخص يقول انه أسقف مسيحي
 جلداً عنيفاً حتى مات بعد ضربه ب أيام قليلة وعدّ بين الشهداء الاطهار .
 ولما طرقت هذه الامور مسامع مار انطونيوس وهو منزو في ديره
 بالجبل كتب كتاباً شديد العبرة وبعث به الي غريغوريوس يعنيه فيه
 ويلومه على تغطرسه فعند ما أخذ غريغوريوس الجواب ضرب به عرض
 الحائط بعد ان منزقه

وقد مُنِي شهر ديسمبر الذي حددته يوليوس اسقف رومية لالئام
 الجمع ولم يلتزم وفي شهر يناير عاد الكاهنان الذين ارسلهم الاسقف المذكور
 ليدعى اعضاء الجمع وبيدهما مكروب من الاساقفة الآريوسين فيه كل
 عبارات الاساءة والطعن فطلب الكاهنان من اسقف رومية بروح الحب
 المسيحية التي تأمر بالاحمال الاساءة جباً في صالح الآخرين - ان لا يقر أحد ولا
 يعلم بما حواه فرضي الرجل وظل يتذكر حضور بعض الاساقفة اليه والامل

مل ذؤاده بفض هذا المشكّل . ولكن جماعة آريوس عكسوا الفرض فانهم
 بدل ان يذهبوا الى رومية لعقد المجمع هناك عقدوه في انطاكية عندما ذهبوا
 اليها الحضور الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت فيها وكان عددهم نحو
 تسعه وسبعين اسقفاً التأموا في هذه المدينة وقرروا بعض امور منها تأييد الحكم
 بحرمان اثنا سبعين وتجريده من وظيفته . فلم يكتفى بوليوس بحكم هذا المجمع
 ولا اقتنع به بل شكل مجماً آخر في شهر نوفمبر من السنة ذاتها مؤلفاً من
 نيف وخمسين اسقفاً ففحص التهمات الموجهة ضد اثنا سبعين خصاً دقيقةاً
 وأخيراً حكم ببراءته جهاراً عندما اتضحت له تماماً . ولكن هذين المجمعين
 اختلفا في وجهة ما فلم يتم احدهما بما قرره الآخر وعليه مكت اثنا سبعين
 في رومية ولم يؤثر الرجوع الى الاسكندرية خوفاً من حدوث فلائق
 جديدة تنشأ من عودة اليها مادام غريفوريوس موجوداً فيها . وفي سنة ٣٤٣
 الشرح صدر اثنا سبعين عندما بلغه ان لا مبرأ طورقيه طنطين عزم على تشكيل
 مجتمع كبير يجتمع اليه اساقفة الشرق والغرب مع افذهب اثنا سبعين الى ميلان
 (بايطاليا) حيث تقابل مع قسطنطين مقابلة خصوصية وحيث قد سار ليلى
 الاب الجليل هوسيوس اسقف كردوفا . أما المجمع فانتظم عقده في جزيرة
 سرديكا في او اخر سنة ٣٤٣ وبعد حجاج ولجاج طالا واستطلا انسحب منه
 الاساقفة الآريوسيون مغضبين دون ان يبدوا رأيهم في هذه المسألة . وكان
 اهم مبدأ قرره هذا المجمع هو ذلك القانون المشهور القاضي برفع المشاكل
 المضلة الى كرسي رومية للنظر فيها ومن ذلك الحين ورومية تدعى الاسيقية

والاولوية على باقي الكراسي الاخرى وهي دعوى لم يقر بها البطاركة ولا
 قباتها اهم الكنائس في القسطنطينية والاسكندرية
 أما قسطنطينوس فهاج غضبه وحنق كثيراً لسبب الفشل الذي لحق
 بحزبه ولم يرضخ لحكم الجميع قط ولذلك عول على ايجاد مصائب جديدة
 في ارض مصر فاصدر اوامره الى حكام الاسكندرية بقطع رأس اثناسيوس
 اذا هو تجاسر وعادى كرسيه ثم نفى خمسة من القسos الذين يتبعون
 اليه وكثيرون منهم اختبأوا في البراري والقفار فراراً من اضطهاد اتباع
 آريوس لهم . اخيراً في سنة ٣٤٤ ظهرت دسيسة دينية دبرها البطريرك
 الاريوسي الانطاكي ضد احد القسos الا برياء فساء انتقاد قسطنطينوس
 في هؤلاء المبتدعين وشاح بوجهه اعراضائهم بل بدأ يميل نحو اثناسيوس
 ويعطف عليه . وفي شهر فبراير سنة ٣٤٥ مات غريفوريوس في الاسكندرية
 فتمهد السبيل امام اثناسيوس للعودة الى مكانه ولكن لعدم ثقته في
 قسطنطينوس تمهل اكثرا من اللازم وبقي الى شهرا كثيروبر سنة ٣٤٦ حتى
 عاد الى وطنه بعد كل هذا الغياب الطويل . وقد اسهب غريفوريوس
 النزيندي في وصف الاحتفال الذي اقامه الشعب عند استقبال بطريركهم
 المحبوب وكيف ان القوم توافدوا من جميع انحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم
 للقاءه وكانوا يتسلقون الجدران لم يتمتعوا بالنظر لهم برؤيته وقد عبق الهواء برائحة
 البخور العطرية الذي كان يتتصاعد من المجامس فيزري بنشر الخزام . وعندما
 جن الظلام صارت المدينة شعلة من نار اكراماً لتشريفه وفرحاً بعودته اليها

وقد استهل هذا البطريرك رسالته التي نشرها في عيد القيامة لسنة ٣٤٧
بتقديم الشكر لله والحمد لاسمه تعالى لأنه من عليه بالرجوع من هاتيك
البلاد القاسية ثم ختمها ببيان عن الاساقفة الذين رسمهم حديثاً والأماكن
التي عينوا فيها

مررت على اثنasioس ومصر ثلاث سنوات ذاقوا فيها طعم الراحة والسلام
وكان لدى هذا الخبر عمل كثير لرعايته التي لعبت بها ايدي الشتات من بعده
فعين ديدموس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بعد أن رسم عدة اساقفة كانت
رسامتهم أول عمل بدأ به . وكان ديدموس لهذا كيف البصر وذلك لأن
اصيب بمرض في عينه - وبمار مصدق ديدي حاد - وهو في الرابعة من عمره
ويستنتج من ذلك انه لم يتعلم كغيره من الأطفال حتى ولا مباديء القراءة
البسيطة الا ان رغبته في الحصول على العلم كانت شديدة جداً ازالت من
امامه كل حائل في هذا السبيل فلم يثن عزمها الفقر والعوز ولا صدمة اغصاء
الغير عنه واهماهم أمر تربيته بل اخذ يهدب عقله ويقوي ذاكرته الى ان
آسعت مداركه وصارت قريحةه وقاده تحير الالباب . وكانت عنده الحروف
الابجديه محفورة على الواح من الخشب وبواسطتها تعلم القراءة بواسطة اللمس
وبرع فيها . قال سocrates انه بهذه الطريقة تعلم النحو والمعانى والبيان
والفلسفة والمنطق والرياضه وفن الموسيقى - استوعب كل هذه العلوم
استيعاباً كاملاً متناحثاً انه كان يستظر على مناظريه الذين درسو هذه العلوم
نفسها من الكتب الخاصة بها وكان يفهمهم بالادلة القاطعه ويعترضهم اذا جي

وطيس الجدال ينهم في امر غامض . فطار صيته في الافق وبلغت شهرته
 السبع الطباقي قبل ايام اثناسيوس بكثير حتى ان مارانطونيوس النايمك بحث
 عليه كثيراً عند مازار الاسكندرية عقيب الا ضطهاد وقيل انه خاطبه بالعبارة
 الآتية : (اسمع ياديديموس . لا تكون خسارة بصرك الجسدي سبباً في
 احراج صدرك . فانك ولو حرم من حاسة البصر التي منحت حتى للبعوض
 والذباب كواسطة للشعور بها ما دام لا شعور عندها غير البصر خري بك
 ان تفرح لان لك عينين كائين الملائكة تبصر بها الروحيات بل بواسطتهمما
 ادركت الاله نفسه وسطع نوره امامك فازاح دياجير الظلام عن عيني قلبك
 فاستترت). قال سocrates ايضاً ان ديديموس كان يعتبره الناس حصناً متيناً وسندأ
 قويأ ناديانة المسيحية حتى قبل ان يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يعتذر
 خصماً عنيداً كسر شوكة اتباع آريوس واذلم في مناظراته معهم . ولهم
 مصنفات عديدة لم يبق منها في عالم الوجود سوى اربعة فقط . ولقد قلنا في
 الذي سبق ان اخلاق الامة انحطت وادا هما تغيرت من بعد اضطهاد
 ديوكتيانوس ولما دليل جديد على ذلك هو اعتقاد الكنيسة في اوريحانوس
 العظيم بأنه كان منحرفاً عن جادة الحق لا يمتاز عن اهل البدع والهرطقة الا
 قليلاً وهذا برهان على سوء الفهم وضعف الادراك لا برهان بعده . فلما
 رأى العلامة ديديموس ان هذا الاعتقاد شاع بين الكنيسة نشر شرحاً
 ضافياً لكتاب اوريحانوس المسماً «المبادي المهمة» ابان فيه خطأ الذين
 يعتقدون هذا الاعتقاد في اوريحانوس وان ظنونهم هذه انما هي تخرفات

أوهام لا طائل تحتها ثم قال . « ان الذين يتمرون اوريجانوس بالابداع هم عديوا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الفاضلة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النابغ المشهورين » .
اما هذا الكتاب الذي وضعه ديدميوس فلم يبق له اثر . ولما رأى من ديدميوس المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع أنحاء العالم المتبدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيرروم الشهيران وكانا حبيباً في شرخ الشباب ليتعلقا المعلوم والمعارف في الاسكندرية على يد هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب « بالاعمى البصير »

وغرائب في مصر أم العجائب ان الرحمة والسلام لا يدومن طوبلا فيها وهذا شأنها من قديم الزمان . وفي فبراير سنة ٣٥٥ قتل قسطنطس في ثورة بدأ بها مгинطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة كائناً بعد أخيه . وعلم أن قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس ويعرض بانفه عنه ولذلك دخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات هذا خصوصاً وان الواشين ضدّه اخذوا ينورون عليه ويذمون له الدسائس يعزم جديداً . وفي شهر مايو سنة ٣٥٣ استخلف ارسال خمسة اساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه مــاعزي اليه سابقاً . وكان معه ولاة اساقفة سيراً بيون اسقف ثيروس (١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لا يغريب عن الاذهان وجود مدینتين قد يمــا بهذا الاسم في مصر ويؤخذ من بعض استدلالات ان هاتين المدینتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤرخين ان سيرا يون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فادا صع ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام . اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياناً في ذلك الوقت فانهم كانوا يسندون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان باصنفة مؤقتة كما كان الحال مع اوسيجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما عملت . وقد كان سيرا يون هذا عالماً متضلعماً وكاتباً ماهرًا وصديقاً وفيما لاثاسيوس ولذاك ارسله مع من ارسله في هذهبعثة الى قسطنطينوس والتي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اول الامر على اثاسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجعاً في اراس عاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثاسيوس . ولذى يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثير من عشرة عدا عن مجلسين في ريني وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمحادلات بين اثاسيوس وجماعة آريوس . وكان قسطنطينوس يعد نفسه رأس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانتحل لذاته حق السلطة على باباوات واساقفة الملائكة باشرها وهي دعوى لم يدعها ابوه الاكبر ولا فكر فيها . وقد كتب اميانيوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها
 ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

الاعجاز الا ان قسطنطينوس شوّه جمالها بخرافات عجائزيّة واوجد فيها -
 شقاقياً بواسطة احزاب متعددة وُجدت لتبث ايجاث غربة لا طائل تحتها
 وقوّى عزّها هذا الامبراطور على الاختلاف بدلاً من التوفيق بينها بحاله من
 السلطة والنفوذ فعمت هذه الاختلافات جميع الاصقاع وزاد انتشارها تلك
 المجادلات الشفاهية التي كانوا يتناقشون فيها باغراء الامبراطور نفسه حتى
 انه ابطل البريد واعطى خيوله لجماعة الاساقفة يذهبون بها الى المحاجع
 ويحيطون بناءً على دعوه اليهم ليصادقوا له على توحيد السلطة ووضعها تحت
 يده »

وفي مدة الصوم الكبير لسنة ٣٥٤ كانت كنائس الاسكندرية
 تزدحم بجمهور المعلمين ازدحاماً شديداً ضجر منه الشعب وعليه التمس
 اهالي الاسكندرية من اثناسيوس ان يؤدي خدمات العيد الكبير
 في كنيسة سيزاريوم الكبرى (اي كنيسة القىصر) وكان قد تم
 بناءها فقط ولم تدشن فتردد اثناسيوس في الامر لعلمه انه اذا عمل
 هكذا يفتح لاعدائه باباً جديداً للاعتراض عليه لان كنيسة سيزاريوم
 هذه كانت مبنية على اطلال القصر المسيحي سيزاريوم (اي قصر
 القىصر) وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانين وكان لم ينزل ملكاً
 خاصاً بالامبراطور ما لم يسلم نهائياً الى الكنيسة ويصير تحت تصرفها
 فاذا صل اثناسيوس في هذه الكنيسة فيكون قد اهان ملوكه واحقره
 اذا هو وضع يده على الكنيسة قبلما تعطى له زد على ذلك ان تأدية

خدمة العيد الكبير في بناء غير مكرّس يعدّ مغارّاً للقوانين الكنائسية
واخيراً قبل اثناسيوس على غير رضى منه وضد ضميرة وصلى في هذه
الكنيسة فأعتبر هذا ذنباً جديداً له . وفي سنة ٣٥٥ أعيدت محاكمة
اثناسيوس في مجمع شكل في ميلان وذلك بعد لدد وخصام شديد بين
اربعة اساقفة قاموا للدفاع عنه وبين الامبراطور الذي اشتد غضبه
لان القوم انكروا عليه سلطته الشخصية ومقدراته على معاقبة اسقف
رأى ان يعاقبه بنفسه بدون قانون . وقد ردّ عليه الاساقفة واغلظوا له
في المقال حتى قالوا له انهم لم يكونوا هنالك ليدرأوا له غلطته التي ارتكبها
ثم اخبروه بتصريح الفظ قائلين « ان اثناسيوس بصفته بطريقاً لا يحاكمه
الامبراطور بل الاساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنائية
والاوامر الامبراطورية »

فاجابهم الامبراطور وهو ممتنعاً غيظاً (ان ارادتي هي القانون)
وفي شهر اغسطس من هذه السنة جاء احد كتبة الامبراطور الى
الاسكندرية وحاول ان يخرج اثناسيوس منها بصفة غير رسمية ولكنه
لم يفاجع . وفي يناير سنة ٣٥٦ وفد سيريانوس وهو قائد اسطيفولي ومهما
احدر رجال الامبراطور المسيحي هيلاريون وطلبا من اثناسيوس شفاهياً
ان يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود امر رسمي من الامبراطور يدهما
وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الاكليروس والشعب له تعضيداً تاماً
ولذلك اقسم سيريانوس برأس الامبراطور امام والي مصر ومحافظ

الاسكندرية باز لا يعمل شيئاً ضد اثناسيوس مالم يصله امر من
مولاه

وبعد مضي ثلاثة اسابيع بينما كان البطريرك اثناسيوس في كنيسة
مارتيوناس بؤدي صلاة نصف الليل وهي صلاة يتحتم على المصريين
آداؤها دائمآ - حدث هر ج وسرج خارج الكنيسة عندما سمع وقع
اقدام عساكر احتاطت بها تحت قيادة الجنرال سيرنانوس وهيلاريوس
وغورغونيوس رئيس الشرطة . فلما علم اثناسيوس هذا خاطب جماعة
الحاضرين ورجاهم ان لا يهربوا هرباً يوجب الخجل ولريبة ولا ان يقاموا
هذه القوة بالقوة

وقد كتب اثناسيوس بعد ذلك يصف هذه الحادثة قائلاً (اما انا
فلست على الكرسي (١) الخاص لي واعزت الى الشعوب ان يتلو المزمور
١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قائلين (لان رحمته تدوم للاباد) وحيثند
حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا
ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جداً طرق العساكر جميع

(١) كان كرسي البطريرك يوضع دائمآ خلف المذبح متوجهاً نحو الشعب وذلك
في المك나يس المصرية وهذا الكرسي عبارة عن فتحة في الحائط - مثل القبلة في
الجامع - وفي هذه الفتحة حجر مرتفع يجعل الشعب قادرآ ان ينظر الجلس
عليه بسهولة

الابواب (١) طرفاً عنيفاً عند ما كان الشهاس يرثى مزمورا الحمد والشكر
 هذا حتى ان دق الابواب كان يعرف في آذار الشعب الذين كانوا مشتغلين
 بالصلوة والعبادة وكانوا يعجبون لهذا الطارق ليلاً . ولما كان الشعب
 يرد على الشهاس بهذه العبارة (لان رحمته تدوم للآباد) فتحت الابواب
 قهراً ووجهاً الجيش الروماني وهو يصيح صياح النصرة والفوز كمن
 افتتح مدينة قوية وكانت سبباً لهم مشهورة في ايديهم تلمع في شعاع
 سرج الكنيسة المنككسة عليها . فاندفع العساكر في الكنيسة كالسييل
 الجارف وهربوا قاصدين البطريرك الذي وقف وامر الشعب بالفرار
 بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد ان يعترض العساكر في طريقهم
 فذهبهم العساكر وداسوهم تحت اقدامهم عند ما كانوا يركضون نحو
 ردهة الكنيسة لاقبض على الفارين . وقد اخْتَلَ القسوس على اثناسيوس
 بالفرار ولكنه أبي ذلك لعلمه الاكيد بأنه ما دام موجوداً امام أولئك
 الذين يسعون خلفه ليقتلوه فهم يكتفون به ولا يبحثون عن الآخرين
 بل يتربكون وشأنهم حيث ان لا اعلاقة لهم معهم . وقد كتب اثناسيوس
 فقرة في هذا الصدد يقول فيها : (قلت في نفسي اني لا اهرب حتى
 ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور ان يصلوا الصلوة الاخيرة
 وحيثند اشرت اليهم بالانصراف حالاً . ولما انصرف اكثير الشعب جاء

(١) كانت جميع الكنائس المصرية في ذلك الحين كلها حصنون ومعاقل وفيها
 كلما يحتاج اليه في وقت الضيق

الرهبان مع الذين تخلفو من القسوس وحملوني خارجاً)
 وبينما كان جماعة لا كليروس يحملون أناسيوس هجم العساكر هجنة
 قوية على الكنيسة حتى أغمى على اثناسوس من شدة الخوف ولكن
 القسوس تمكنا من اخرجه خلسة لأن النور كان قد ضعف وكاد يطفئي
 وكان الجندي يضج ويرغى ثم حاصر كرسي البطريرك الموجود بالهيكل
 ولكنه كان خالياً لأن البطريرك هرب والتوجه إلى مكان امين اختباً فيه
 قبل ان يعرف اعداؤه بفراذه من ايديهم . ففاز اثناسيوس بالنجاة في
 الظلام الحالك ولطالما كانت الظلام ستراً تجري خلفه خير الاعمال
 وشرها

وقد ظل اثناسيوس في كينه مدة ست سنوات وهو ينتقل من
 مكان إلى آخر لأن رجال الامبراطور كانوا يبحثون عنه ويبيثون العيون
 والارصاد عليه في أنحاء القطر المصري . والذي يتصور حاليه وقت فراره
 حين اكفره وجهه وأغير لونه واسترسل شعره منسدلاً على ظهره يتجده
 شبيهاً بابطال الروايات الخيالية التي نقرأها إلا ان اثناسيوس هذا كان
 بطريركاً ورعاً شرداً من وجه اعدائه وليس محبًا واماً هام يبحث عن من
 يحبه . وكان يقتات بخنز الفلاحين الداشف الغير مختمر وإذا عطش اغترف
 من ماء النيل براحتيه وإذا انكسرت التعب واحتاج السفر جلس على قطعة حصيرة
 ردهة أو افترش الثرى وتؤسد التراب في ثقبه فينام .
 وكانت أحسن الايام عنده ان يجلس مع ^{قائمة}_{جماعه} ^{النستك}_{البسطاء}

في دير وادي النطرون او في طيبة (الاقصر) حيث يمتنع قليلا بضوء
 الشمس لانه كان يصرف اكثرا وقته مختبئا في نفق مظلم في الارض او
 متزريا في احد القبور القديمة المهجورة ولم يترك مغارة او وحدة الا
 وانكمش فيها ولم يدع غارا او ديرا او قرية الا وشرفها بزيارةه وصرف
 فيها وقتا ثمينا من اوقاته هاربا من اعدائه ومبعضيه . ولا يوجد برهان
 يدل على عظمة هذا الرجل وحسن نوایاه مثل حبه في افاده الآخرين
 اثناء هذه السنوات الست التي ذاق فيها من الصعوبات مالا يحمد العقل
 وقاد فيها من الاتعب والمصائب ما تتوء تحته اعنق الرجال ولكن مع
 كل ذلك لم يقطع علاقته مع الكنيسة يوما واحدا ولا اغلق امرها
 طرفة عين . ولو انه لم يظهر لاحد كل هذه المدة الطويلة الا للذين
 كانوا يعتنون به الا انه مافتيء يكاتب الاساقفة ويبعث بالرسائل
 والاوامر الى كنيسته التي كانت تعتبر اوامره نافذة المفعول كما لو
 كانت صادرة منه وهو جالس على السدة البطريركية في الاسكندرية
 وقد كتب عدة خطابات امام المؤمن حزين يحتاج الى التعزية او حائز
 مرتبك تعوزه النصيحة والارشاد عدا عن تأليف ادبية في اهم المباحث
 افاد بها ابناء ذلك العصر الذين كانوا في حاجة شديدة الى مثل هذه
 الابحاث المفيدة . وكان عمره في ذلك الحين ستين سنة ولذلك لم يكن
 له رجاء في العودة الى حالة الراحة والامان كما ان الاخبار التي تصله من
 البلاد كانت مما تنقبض منها الصدور وتنقص لسماعها الظهور ولكن

كان دائمًا يظهر علام الفرح والسرور . ومن المؤكد انه في مدة فراره هذه كتب دفاعاً (١) عن نفسه بعث به الى قسطنطينوس وكتب ايضاً يعتذر عن هروبه والاسباب التي الجأته اليه . ثم انه وضع منشوراً ارسله للرهبان في مبادىء هامة وسطر خطاباً لصديقه الحميم سيرابيون اسقف سيوس واعظم عمل أتاه في هذه المدة كان ذلك الكتاب المهم المتضمن مقالات سابعة الذيل ضد آريوس واتباعه ولما صاحت الحيل بانسيوس خطر على باله ان يرفع دعواه بنفسه الى الامبراطور قسطنطينوس ولكنه عاد فرأى ان هذا الرأي سقيم لا يلتجئ فائدة . فانه بعد ان شرع القوم في قتل انسيوس داخل أسوار كنيسة ماريوناس ولما لم يفزوا بغير ضدهم اشاعوا في الاسكندرية بان اسقفاً من المتمذهبين بمذهب آريوس كبدوكي المولد قادم ليتولى مسند الرئاسة على كنيسة مصر بدل انسيوس وكانت اسم هذا الاسقف جورجيوس (٢) وقد قيل عنه انه قبل تعيينه في الوظائف الكهنوتية

(١) لعلم القاريء الكريم ان كلمة «رفع» هذه لا تؤخذ حسب معناها المدارج الان في انها خطابات تتضمن المدافعة او الاعتذار عن الخطأ . بل ان هذه الكلمة معنى آخر هو انها كانت تستعمل للدلالة على نبذات محكمة الوضع محتوية على حكم وامثال ومواعظ شتى

(٢) ان تشابه اسمي غريغوريوس وجورجيوس ولازهما من كبدوكية اوجد خلطًا بينهما حتى لم يقدر البعض على تمييز هذا من ذاك .اما الاخبار المسطورة عن جورجيوس في هذا المتن فلم تكتب هنا الا بعد فحص دقيق في مؤلفات كثيرة اثبتت صحتها تماماً

كان سمساراً خادعاً ومقاولاً محتالاً في القسطنطينية ولكنه كان أيضاً عالماً معدوداً . وقد جرت عادة رجال الكنيسة المصرية أن يجعلوا تعين البطريرك في الصوم الكبير فقط ولذلك عينوا هذا الصوم المقدس لوسامة هذا الرجل الذي جاء ليغتصب الكرسي البطريركي اغتصاباً حتى أنه بعد وصوله للاسكندرية بقليل بدأت نار الاضطهاد تختدم فيها لحرق كل من يسير على غير رأي هؤلاء العتاة وكان بين الذين ذاقوا مرارة هذا الاضطهاد سبعة عشر اسقفاً قال عنهم اثنا - يووس انهم نفوا فيها وعملوا معاملة قاسية شديدة حتى ان بعضهم مات في الطريق قبل ان يصل الى منفاه وبعضهم مات بعد وصوله بقليل وبالاجمال فان اكثر من ثلاثة اسقفاً مصرياً صار طردهم وتفريقهم من البلاد حتى اختفت آثارهم بالمرة ولم يقف لهم أحد على خبر . وقد لمّاح اثنا - يووس الى الاعمال التي اتتها جورجيوس فقال : -

« لم ينته اسبوع العيد حتى كنت ترى العذارى الفتيات يطحرن في السجون اضطهاداً وتعذيباً وكان العساكر يربطون الاساقفة بسلسل واغلال ويجررونهم في الشوارع وكان اعواز جورجيوس يدخلون مساكن الایتم والارامل عنوة واقتداراً ويسلبون ما فيها . وكانوا يدفنون المسيحيين احياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا اصبح الصباح نهبو ما فيها بدون مقاوم . ولم يقتصر هذا الشر على الا - كليروس فقط بل ان اقاربهم كانوا في خطر لا لذنب بل لأنهم

اقرباؤهم . ولم يقتصر هؤلاء المضطهدين على هذه الفظائع بل تجاوزوها
 كثيراً وتمادوا في غيهم وعنتهم لدرجة اوجبت نفور الشعب واشمئزازه
 من هذه الحالة حتى ان اعضاء الكنيسة لم يطيقوها تأديبة الصلاة فيها بعد
 عيد الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لأنهم كرروا
 الصلاة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم الغاشم بكره الشعب له حرض
 ضدهم ضابطاً من الشيعة المازنوية اسمه سباسيان فسار نحوهم في نفر من
 الجند مسلح بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا
 الشعب المغفيف في يوم الرب المبارك الذي قدّمه لعبادته لا لقتل
 الانفس البريئة . فلماوصل الى المقبرة لم يجد الا رجالاً يعدون على
 الصابع لأن اكثر الناس كانوا قد عادوا الى منازلهم عند ما مال النهار
 فلم يرحم هؤلاء الابرياء بل أعمل فيهم الصارم البatar وبرهن
 بعمله هذا على قسوة وعنتو وجدوا في مثل هذا المتورث الشئم . وبعد
 ان أودى بالرجال حول نظره نحو اوائل العذاري الطاهرات فاضرم
 ناراً تأجج سعيرها وادناهن منها وهددهن بالاعتراف بمذهب آريوس
 والا نحياز اليه اماهن قلم يملأ عن اعتقادهن ورفضن طلبه هذا كما
 انهم احتقرن النار وحسبهم اماماً زلالاً فلذلك اشتد حتىق هذا الوحش الضاري
 عليهم فردهن من ثيابهن وظل يضربهن على الوجوه حتى تغيرت
 سماتهن ولم يكن أحد يعرفهن فيما بعد . فلقد اتقى هذا الضابط القبض
 على نحو أربعين رجلاً وجلدهم بالسياط جلداً تقشعر منه الابدان وترتعد

لحوله الفرائض وذلك بان مرق ظهورهم بعض خضراء قطعت من النخل
 بشوكها حتى ان بعضهم عملت له عملية جراحية لاخرج الشوك من
 لحمه وبعضهم لم يتحمل العذاب والالم فات من شدة الضرب أما الذين
 عاشوا بهذه المصائب فتفيوا الى الواحات الكبرى البحريه بما فيهم
 واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العاتي يسمح لاقرب الموتى
 باخذ جثث موتهما ولكن لما تعهد له هؤلاء الاقارب بعدم الاحتفال
 بموتهما والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المترادفة لهم اذن لهم
 أولئك القساة بدهفهم كما وافق اغراضهم حتى يخروا عن أعين العالم دلائل
 قسوتهم وغلاظتهم التي لم تخف بل ظلت ظاهرة في بطون التوابع الى
 الان . وعلى خطة الجهل والعمه هذه سار أولئك المجانين سيراً لم يؤثر في
 أهل اليمان الصحيح تأثيراً يذكر لأن أصدقاء وأقارب الذين ماتوا في هذا
 الاضطهاد كانوا يفرجون ويطربون لأن اخواتهم بقوا محافظين على
 إيمانهم الى ساعة موتهم ولو انهم أسفوا واستاؤا العدم التصریح لهم بتدفن
 جثثهم وهو عمل يدل على منتهى الفظاظة والخشونة في صدور الفجار
 الذين تجردوا من الانسانية فاصبحت اعمالهم واضحة عند جميع الناس
 وكانت السنون تمر سرائعاً وهذا البطيريك انسيوس هائم على
 وجهه لا يقر له قرار وهو كل يوم يتصلع خاطره بسماع الاخبار الحزنة
 منها ان هوسيوس أسقف كردوفا صديقه المحبوب صادق في سنة ٣٥٧
 على منصب آريوس وأقر على مسحته وذلك لانه كان قد اضنه اضطهاد

تقليل اضعف عقله وكاد يفقده الادراك والشعور ولكن لم يليث حتى عاد اليه رشده وسطع نجم حذقه قبل موته فاسترد ما عمل وتاب عن هذه المفهوة التي ارتكبها في ظروف صعبة الا ان انسايوس تأثر وانفعل من هذا الفعل حتى كان كأن سهاماً حادةً نفذ كبده خصوصاً اذ تلاه فرار ليبريوس اسقف رومي في سنة ٣٥٨ وكان هذا صديقه أيضاً . وفي سنة ٣٥٩ و ٣٦٠ انعقدت ثلاثة مجالس آريوسية اسهب انسايوس في كييفتها وأعمالها اسهاماً مفصلاً وذلك في بندة له عن مجامع ارمينيا وسلوقيا أظهر في كتابتها ما عهد فيه من الصبر عند اشتداد الازمة واحتمال الضيق بنفس راضية وسلامة الطبع ورقة الجانب التي فاق بها الاولى والاخير ومن الاسباب التي احزنت قلب انسايوس وأحرجت صدره وصول بناء اليه يعني مارانطونيوس الناسك الذي كان من احسن الاصدقاء له وأقوى سنيد يشتند به أزره . والذي زاد غمته وكدره انه في سنة ٣٦١ بلغه ان وثنياً أصبح حاكماً للعالم المتمدن بعد ان اختفت آثار هؤلاء التوحشين ومعنى ذلك ان قسطنطينيوس مات وعقبه يوليانوس

الكافر الملحد

اما يوليانوس هذا فلم يكن مسيحيّاً مع انه تربى تربية مسيحية والذنب في ذلك كله على الذين كانوا مسؤولين عن الكنيسة التي صارت بواسطة اهالهم وشقاقهم مهملاً حتى كانت تبعد عن الصيغة المسيحية كثيراً ومعلوم ان قسطنطينيوس ابن عم يوليانوس هذا كان امبراطوراً مسيحياً

ومع ذلك فقد بدأ حكمه بان ذبح جميع أقاربه كلهم ولم يبق منهم إلا يوليانيوس نجى من الموت رغمًا عن ارادة قسطنطينيوس الذي لم يكن يعرف انه سيخلفه على سرير المملكة . ومع ان يوليانيوس هذا كان قد تعيين قيصرًا في سنة ٣٥٥ وهو في الرابعة والعشرين من عمره الا انه لم تكن له سلطة قط في هذه الاثناء بل كان كسجين تحت تصرف الحكومة وسبب ذلك أن أوغسطس زميله كان ذا نفوذ وسلطة بواسطة تحريضه الجيش على تعضيده والسير خلفه وهذا عمل لم يكن يعرفه قسطنطينيوس في حياته ولذلك ظل يوليانيوس ينكر الديانة المسيحية مدة من الزمن ولكنه لم يجاهر بارائه هذه الا قبيل موته ابن عميه قسطنطينيوس حينما اطرح برقع الحباء واداع بأنه وثني قبح وأشهر ذلك جهاراً حتى انه ادى رسوم الديانة الوثنية من ذبح الذبائح للاصنام واجراء باقي فرائضها وتقاليدها وكانت المدينة التي يهواها قلبه ويتجنح لسكنها مدينة باريس التي لم تكن معروفة قبل اياه بل لهذا أول عهدها بال التاريخ . وهو رجل عزب مات امرأته بدون عقب فلم يكن له بنون أيضاً . وقد رقى يوليانيوس العرش الامبراطوري في شهر نوفمبر سنة ٣٦١ وصرف أول ايامه في ادام بعض انظamas ضرورية في القسطنطينية . وفي عشية عيد الميلاد حدث شغب عنيف في مدينة الاسكندرية أوجده الوثنيون الذين كانوا في ذلك الحين معتززين بقوتهم مفترين بجاههم وكان قصدهم من هذا الشعب الایقاع بشلاء رجال تكرههم العامة وتتفر منهم الخاصة وهم جورجيوس

وديودورس ودرا كونتيوس وذلك لأن جماعة الوثنيين ظلوا مدة طويلة
وهم حاشين ومتغيفين من هؤلاء الثلاثة . أما ديودورس هذا فكان
مسيحيًا ذا ثروة طائلة ومر كخطير في الاسكندرية وحائزًا لرتبة (كونت)
من لدن المملكة الرومانية ويحتمل أنه يوناني النزعة ولو انه مصرى
الموطن وكانت وظيفته في ذلك الحين مراقبة البناء في كنيسة سيناز بوم
الكبرى التي لم تكن قد تكنت بعد ولكنه كان قد جرح احساسات
المصريين واغاظهم في انه قطع خصلة الشعر الطويلة المدللة على جوانبها
اما بشخصه أو ربما استعمل سلطته ونفوذه في اجبار تلامذة الاسكندرية
على هذا العمل . اما غديرية الشعر هذه فكانت تستعمل في أيام حكم الفراعنة
وعند ابان صولتهم ومجدهم للدلالة على ابن الملك او ابنته واستعملها
البطالسة اشارة الى ان حاملها من أصحاب المراتب العالية والرتب الرفيعة
وفي ذلك العهد كان يلبسها كل من يفاخر بنسبته الى المصريين ويقول بأنه
من سلالة اولئك العظام المشهورين

اما درا كونتيوس فاغاظ الوثنيين عند ما كان مديرًا للضربيخانة
المصرية وذلك لأنه نقل منبحاً وثنياً وجده في دار صك النقود . وقد
زادت التهارات ضد البطريرك جورجيوس اكثير من كل الذين سبقوه
كما أنها كانت غريبة في مبناتها ومعناها فقضلا عن كونه شدد النكير
على جميع المسيحيين الذين يؤمنون بالإيمان الصحيح ويبتعدون عن كل
بدعة حتى انه ضيقهم ضيقاً شديداً . - كذلك ابعد عنه قلوب الأحزاب

الآخرى بواسطة طمعه الشعبي وجوره الذى لا يطاق . من ذلك انه
 اسخط جماعة الاسكندرىين في انه اغرى الامبراطور بفرض عوائد
 املاك على جميع منازل المدينة كما انه احتكر لنفسه استخراج النطرون
 والمالح وسعى في نفي زينو وهو طبيب وثي طائر الصيت في الاسكندرية
 ثم انه اغوى ارطميوس (١) والي مصر على مهاجمة هيكل سيرابيس العظيم
 وهو اقوى حصن وثي بواسطة ثلة من الجندي شاكى السلاح ثم جرد
 هذا الهيكل من التمايل الموجودة فيه ونزع عنه كل حلية وزينة ازдан
 بها . واخيراً فكر في احتكار وظيفة «الحانوتية» حتى انه لم يكن
 يسمح بتدفن جثة ما لم يحملها رجال عينهم هو لحمل الموتى لغرض الربح
 القبيح . وكان قبيل ذلك في شهر اغسطس سنة ٣٥٨ ان عامة الناس
 في الاسكندرية هجموا على كنيسة مار ديونشيوس حينما كان يسكن
 جورجيوس في احدى قبابها وكانت يقصدون اغتياله فاسرع الحرس
 الامبراطوري لانقاذه من ايديهم وبعد معركة شعواء بين الطرفين
 اتقذوه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ولذلك اضطر ان يترك الاسكندرية
 في شهر اكتوبر من السنة نفسها لان خطر الموت كان يهدد حياته
 فيها ولم يعد الى هذه المدينة الا بعد ارفضاض معمى ديني وسلوشيا (٢)

(١) لاجل هذا السبب ولاسباب أخرى مهمة قطع يوليانوس رأس ارطميوس هذا

(٢) قرر مجمع سلوشيا بأغلبية الاراء بعاد جورجيوس وكثيرين من الاساقفة
 الى اماكن بعيدة عن مراكزهم ولكن هذا الحكم لم ينفذ ولم يعبأ او ثُنى به

في نحو شهر نوفمبر سنة ٣٥٩ و قد ذكر اميانيوس المؤرخ الوثني ان جورجيوس هذا كان يهدد الناس بقوله لهم انه قادر ان يؤذيهم بالنفي والابعاد عن الوطن وبعد مضي سنة أخرى من عودته الى الاسكندرية بلغ هذا البطريرك الجبار منتهی السطوة والقوة ووصل به من الغطرسة والخيلاء الى اهانة الحزب الوثني اهانة قاسية نلخصها لك فيما يأتي :-

ذلك انه كان يوجد مكان في الاسكندرية اهمل أمره وتعاضى القوم عنه مررة من الزمن حتى اصبح بؤرة اقدار مع انه كان قبلا هيكلاما للوثنيين حيث قدمت فيه الذبائح البشرية ونحر ابن آدم على مذبحه اكراما للاله مهراس أحد آلهة المصرىين القدماء وكان الامبراطور قسطنطينيوس قد وهب هذا المكان الحرب الى كنيسة الاسكندرية ولذلك صمم اوديوس حيزاً على بناء كنيسة فيه فكان لا بد له من ازالته ما فيه من الاوساخ والاتربة المتراكمة في ساحته فلما شرع في ذلك اكتشف العمال هوة عميقه جداً ملأى بجماج البشر ورفات الادميين مما اظهر للناس فضلاً عن الطقوس الوثنية وشناعة هذه الديانة التي كان المتدينون بها يؤدون فرائضها في هذا الموضع . وقد اغتنم جورجيوس هذه الفرصة لتشهير الوثنية وتقبیح أعمال الوثنين وعليه رتب موكيما حافلا بالمسیحیین طاف به كل المدينة وهو رافع الجمام والرموز الوثنية التي وجدتها في ذلك المكان . فزاد ضجيج القوم وعلا صياحهم سعيا وهم من ثمالة المورد وزعاف الشعب الذين كانوا يهربون الى الشوارع للتفرج على هذا الموكب

وما زاد الخطب تفاصلاً ان عقلاً الوثنيين استأوا جدأً من هذا العمل ولذلك
 لم يوقفوا اوئل الرعاع عند حدهم او ينبعون عن الاعتداء والهياج . وقد
 خاق الخناق عند مبالغ القوم بخواص اسفيته قدمت من القسطنطينية تعي
 الامبراطور قسطنطينوس وتنبيء بتبعه يوليانيوس الكافر كرسي المملكة .
 فانتشرت هذه الاخبار في الاسكندرية انتشار النار في الهشيم فانفجرت
 حدة الوثنيين كالبركان الهائج وجعلوا يرغون ويزبدون كمن بهم مسة
 من الجنون ثم هجموا على موكب المسيحيين بسرعة البرق الحاطف
 وجعلوا يصيحون بصوت واحد قائلاً « تبا لك يا جورجيوس » ثم
 امسكوه هو وديودورس ودراكونتيوس وكادوا يعدموهم الحياة في تلك
 النقطة لو لا ان بعض متشرعي الوثنيين تدخل في الامر فنفهم من
 قتلهم واكتفوا فقط بطرح ذلك البطريرك الشقي في السجن مع رفيقيه
 وتاخر افراز الحكم عليهم بضعة أيام . وكان خبر ارتقاء يوليانيوس قد عرفه
 الناس في نحو ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١ ولذلك بقي البطريرك والاثنان اللذان
 معه في السجن مدة اسبوع او اسبوعين دون ان يحاكموا لان القضية
 لم تكن قد رفعت عليهم ولا ان جلوس امبراطور جديد قد بُوخر سير
 القضايا ويجلها اكثر ولكن هياج الوثنيين وازدياد سخطهم لم يعرف له
 اول من آخر . فلما جاءت عشية عيد الميلاد المار ذكرها عظم هذا
 السخط وصار شغبًا يعسر اخماده فهجم على السجن جماعة من سفلة القوم
 وهم يهرون كالكلاب وجرّوا ثلاثة رجال واخرجوهم خارجاً وهم

يضر بونهم بالعصى ويرفسونهم بارجلهم رفساً عنيفاً . وقد وصف يوليانيوس نفسه لهذا العمل بقوله « إن الشعب منتق أحد الرجال الثلاثة ارباً ارباً في أقل من لمح البصر ففعلوا في هذا فعل الكلاب في الجثث » . وقد خلطوا لحم جورجيوس بعظامه ثم وضعوه على جمل وربطوا جثتي رفيقيه بحبال وطافوا بهم في أنحاء المدينة ليعكسوا الاحتفل الذي عمله المسيحيون ضد هم ويحقرون نتائجه واخيراً أحرقوا الجثث على شاطئ النهر وذرروا رمادها في الماء وهذا العمل يمدحه الآهانة التي يرى بها المصري جثة الميت وعلى هذه الصورة المعكوسه انتهت حياة جورجيوس بطريق الاسكندرية وهو الذي خالطه جيوب المؤرخ بعد أربعة عشر قرناً مع مار جرجس زعيم الكنيسة الانكليزية واعظم شهيد في المشرق . وقد اتضحت في فصل سبق ان هذا الخلط بعيد عن التصور لا يحتمله العقل ولا يقام عليه دليل بل ان الصحيح هو الذي ذكرناه لك دون غيره .

ومع ذلك يحتمل ان تكون شيعة آريوس قد اكرمت جورجيوس هذا بعد موته وشادت له كنائس كرسوها باسمه ولكن هذا لا ثبت كونه مار جرجس بطل الشهداء وعميد القديسين

الفصل السادس عشر

أوبة أناسيوس ووفاته . سنة ٣٦١ للمسيح و١٧ للشهداء

لما بلغ يوليانيوس خبر قتل جورجيوس أرسل هذا الامبراطور جواباً

غريب المعنى الى الجمعية الولئية في الاسكندرية يدل ظاهره على انه يؤنبهم ويلوّهم لاجل الجرم الذي ارتكبوا بقتل جورجيوس ورفاقه ولكن يفهم من باطنها أنه يشجبهم على هذا العمل بدل أن يفرض قصاصاً عليهم يكون رادعاً لهم عن غيّهم والدليل على ذلك العبارة الآتية التي ختم بها يوليانيوس جوابه هذا حيث قال: —

«لقد كان من حسن حظكم أيها الاسكندريون ان ارتكبتم هذا الذنب القبيح في مدة حكمنا فعاملناكم معاملة ودية أخوية حتمها علينا حبنا واحترامنا لجاءة الآلهة وآكرامنا واجلالنا لاسمي جدنا وعمنا اللذين دعى بهما علينا وها اللذان حكموا مصر بما فيها مدinetكم الزاهرة . ولكن لا يغرب عن افهامكم ان سلطتنا لا تتحمل الضيم لنفسها وان حكومتنا هذه التي لها مالها من الحول والطول لا يمكنها أن تغاضى عن مثل هذه الدعارة الفاشلة الحد ولا تسمح بسريانها بين رعاياها الآمنين ولكنها تداوي سوء الخلق هذا بكل طرق العنف والقسوة بواسطة أدوية ناجمة فعالة . ولكننا بناء على الاسباب التي ذكرناها آنفاً نتصرف في مسألتكم الحاضرة تصرف الطبيب العاقل الدبر الطباع بان نكتفي بتوبينكم على ما ارتكبتموه وتحذيركم من المودة لملته مرة أخرى كما اننا نستعمل معكم أنواع العلاج التي نعرف أنها ملائمة لطبيعتكم لعلمنا انكم لستم فقط ابناء أولئك اليونانيين العظام بل انه ما زال يتثل امامكم ما كان لاسلافكم من صفات المجد وآثار المسؤول . وعليه ارجو اذاعة هذه المباديء

والافكار بين اخوتنا سكان الاسكندرية »

ولا ريب في ان يوليانيوس كان شديد التمسك بدينه الوثني غيوراً على عقيدته غيره كادت أن تقوده إلى اثارة اضطهاد ضد المسيحيين لو لا انه شعران مثل هذا الاضطهاد قد يوجد رباطاً متيناً بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم وتعدد مذاهبهم فيقومون ضده صرفة واحدة وان هذه العصبة القوية في ظروفه الحرجة تلك قد تفقده ملكه بل حياته اذا لا قدرة له على مقاومتها ومناجزتها وعليه اكتفى باصدار أوامر كثيرة التضيق في سبيل التربية والتعليم والضغط الشديد على العقول مما أعاد عمل الكنيسة وعطل سيرها عطلة تدعو إلى الاسف كما انه من الجهة الأخرى ضرب شيعة آريوس التي كانت قد قويت ضربة قاضية كادت تتجهز عليها وذلك لانه أصدر أمراً بارجاع جميع الأساقفة الذين نفاهم قسطنطينيوس إلى كراسيمون واعادة أملاكه التي سلبتها الحكومة اليهود. ومن أحسن المآثر في تاريخ هذا الامبراطور الوثني رد اثناسيوس وكثيرين معه ومنتجه ما كان له قبله من السلطة والمكانة وكان ذلك في شهر فبراير سنة 362 وعاد معه أسقف فرسيلي وكالاريس من أوروبا و كانوا قد نفيا إلى طيبة . أما أسقف كالاريس فسار توا إلى أنطاكيه ولكن أسقف فرسيلي بقي في الاسكندرية ليحضر انعقاد الجمع الذي شكله اثناسيوس عقب عودته من منفاه ولم يحضر هذا الجمع سوى عشرينأسقفاً من بين كثيرين كانوا تحت رئاسة اثناسيوس في أيامه الأولى قبل

ان تتوالى عليه المصائب والنكبات . وقد قرر هذا الجمع أن يقبل في
عضوية الكنيسة كل الذين يقبلون قانون اليمان الذي قرره المجمع النقاوي
وذكرناه قبل ذلك منعاً لما عساه ان يحدث من شقاق قد تم صر
وانقضى وايقافاً لسير شحنة تولد من مباحثات ومماحكات فارغة لاطائل
تحتها . أما هذا البطريرك فلم يكدر بنفس الصعداء من هول النفي والاضطهاد
حتى عادت الاحوال تترى عليه وتنصب المصائب تباعاً فوق ألم رأسه
فإن يوليانيوس الذي أعاده من منفاه عاد فغير رأيه من نحوه ونوى الشر
لأناسيوس (١) لعلمه بان الديانة الوثنية كانت تطمس آثارها وتعفو رسومها
ما دام هذا البطريرك موجوداً في الاسكندرية . وقد بلغ من حقة يوليانيوس
انه لم يعتبر أناسيوس نذاله بناصبه العدوان بل انه احقره وازدرى به
ولكنه ما لبث حتى حنق وسخط سخطاً شديداً لما علم ان البطريرك
المذكور لم يكدر يلقى عصا الترحال في الاسكندرية حتى أقدم على تعذيب
بعض السيدات اليونانيات الالئي كن وثنيات واعتنقن الديانة المسيحية
وعليه أصدر أمرأاً قاطعاً بنفي أناسيوس من الاسكندرية حالاً بحججه ان

(١) كتب يوليانيوس مرقة الى والي الاسكندرية قوله : مع انك مهملاً كثيراً في ان
تكتب لي عن مسائل متعددة وانا اغضي عن هذا الاهتمام الا انه كان بتحتم عليك ان
تخبرني عن تصرفاتك مع أناسيوس عدو الآلهة وكار ما الاوزن وانت لم تلم حققة مقاصدي
ضد هذا الرجل التي اخبرتك عنها من زمن مضى . وعليه فاني اقسم بالله سيراً بيس
العظيم انه ان لم يبرح أناسيوس الاسكندرية — بل القطر المصري في اوائل شهر دسمبر
فاني اغرم جميع موظفي حكومتك غرامه قدرها ١٠٠ رطل ذهب قصاصاً لهم . واعلم
اني بطيء العقاب ولكنني بطيء العفو والصفح

العفو الامبراطوري لم يشمله أوان حالي لا تنطبق على منطق هذا العفو
 فسمع انناسيوس هذا الامر في شهر اكتوبر سنة ٣٦٢ وحيثند
 أسرع لمقابلة أصدقائه وتقديمهم على فراقه لهم وكانت عيونهم ترمع بالدموع
 وكادت قلوبهم تتزق من هول الوداع الذي لم يعرفوا نهايته ومن ثم
 ابحر انناسيوس في النيل قاصداً الانحاء القبلية . وقبلما ابتعد كثيراً جاءه
 خبر بطريقة سرية يبنئه ان عمال الحكومة يقتلون اثره ويجدون في
 طلبه للایقاع به وهم على مقربة منهم ولو انهم غير ظاهرين له لأنهم كانوا
 في منعطف من التهور يخفون عن العيون . فلما علم انناسيوس بذلك أوعن
 الى رجاله وهو بغاية الرصانة والتعقل ان يديروا دفة القارب الذي كان
 فيه ويرجعوا الى الوراء ثم سار توآ للاقلاة السفينة التي أنفذتها الحكومة
 خلفه فلما اقترب منها ناداه الرجال الذين فيها وطلبوها معرفة ما اذا كان
 انناسيوس في هذا القارب أم لا فاجابهم هو بنفسه قائلاً (هو ذات انناسيوس
 قريب منكم) وفي أقل من لمح البصر غاب قاربه عن أعينهم فسار الى
 شير و حيث التقى مرساه فيها ومنها قصد منفيه (جيزة) برأً ومكث فيها
 فيما كتب لرسالة السنوية التي كانت تكتب في العيد وترسل الى جميع
 الكنائس وحيثند سافر قاصداً طيبة ليختبيء فيها صرة أخرى . وبقرب
 مدينة هرموبوليس التقى انناسيوس بثيودوروس رئيس دير طنبسي (١)

(١) ان دير طنبسي (ومدنه مدينة ايزين) هو غالباً الدير المعروف الآن بالدير
 الابيض على مقربة من سوهاج

وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالاً باهراً أضاء فيه السرج الوهاجة
 والمصابيح المضيئة كانه يستقبل ملكاً ظافراً لا بطرير كامنفياً بائساً . فلَكِثَ
 انناسيوس مدة من الزمن في هرموبليس والطينو واعظاً بكلمة الخلاص
 متمماً واجباته بغاية النشاط والاعانة كما لو كان سائحاً يفتقد رعية لاهاريا
 من وجه أعدائه . ولما انتصف فصل الصيف بلغ انناسيوس ان الخطير
 أصبح مهدداً به يتهدده في كل لحظة فعول على المrob الا ان ثيودورس
 وأحد رؤساء الاديرة الاخرى توسل اليه ان يمكث عندهم وأن يختبئ في
 دير قريب من تلك الجهة اسمه دير تانيا ولكن انناسيوس رفض الاقامة
 ورحل في قارب مغطى ومعه الراهبان اللذان كانوا يرافقانه دائمًا فما كسر لهم
 الرياح ولم تجر معهم بما تشتت السفينة فذاقوا أشكال التعب والمناء
 في جرها ببطء كثير . وقد ظل انناسيوس يصلي طول اليوم حتى انه لم
 ينظر في وجهي رفيقيه وأخيراً آفاق كمن كان مغشياً عليه والتقت نحوهما
 قائلاً (هبوا اني قتلت) .. ثم كف عن الكلام لما رأى الراهبين
 يبتسمان في وجهه ابتسامة الفرح العجيب وحيثند أخباراً انهم بينما كان
 هو غارقاً في صلاته علماً بطريق الالمام الاهلي أن يوليانيوس فارق هذا
 العالم ولم يبق له أثر فيه وكان كلامهما صحيحاً فان يوليانيوس مات قتيلاً
 معتركه الطعن والضرب في ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ ولا يعلم شيء عن كيفية
 قتله ولكن المؤرخين الوثنيين في ذلك العصر لم يشكوا في أن أحد
 عساكره المسيحيين أخذته غيلة وقتله بطريق الخيانة والغدر وقد حمل

العسكري على ذلك تعصبه وكرهه ليوبيانوس الذي ساقه إلى التصور إلى
 أنه أوحى إليه ليقتل عدو الرب ويتحفي آثاره . ولكن هذا الزعم لم يقم
 أدنى دليل على ثبات صحته بل إن كالبستوس أحد رجال حرسه زعم أن
 شيطاناً مارداً أودى بحياته كما أن المسيحيين قالوا انه قتيل بسر الهي لا
 يدركه أحد . وليس حلم الراهبين اللذين كانا مع اثناسيوس من الأمور
 الغريبة فقد شاع في ذلك الحين أن أまさاً كثيرين في أنحاء مختلفة من
 المملكة جاءهم الملام روحي عن موت يوليانيوس في ذات اللحظة التي فيها
 فارقت روحه جسمه . وقد قلنا فيما سبق أن حلم ثيودوروس الذي رأاه
 في القارب كان السبب الوحيد الذي صد اثناسيوس عن الفرار ونذكر
 الآن حلماً آخر رأاه ديدموس العلامة الإسكندرية الشهير الذي عرفنا
 عنه أنه كان كفيف البصر حاد البصيرة فأنه حلم حلماً يشبه حلم ثيودوروس .
 وتفصيل ذلك أن هذا العالم الذي كان قد بلغ من الكبر أشد شعر
 شعوراً عميقاً بالضيق الذي استولى على الكنيسة وحزن لما رأى تقدم
 الوثنين وانتصارهم عليها فصرف يوماً كاملاً في الصوم والصلوة والابتهال
 إلى الله إلى أن أضناه التعب والسبغ فاستلقى على منضدته في منتصف
 الليل واستولى عليه النعاس فنام . وفي الساعة الأولى بعد نصف الليل قام
 من نومه مذعوراً إذ سمع صوتاً جهورياً ينادي قائلاً : - (لقد مات
 يوليانيوس فقم وكل وبشر اثناسيوس بذلك) . أما ديدموس فكتب
 تاريخ اليوم وال الساعة اللذين رأى فيهما هذه الرؤيا بغاية الدقة فاتضح

له فيما بعد ان يوليانيوس مات من الجروح التي اصابته في ذات
 اللحظة التي حلم فيها ^{كما في المعرفة فتفاينه بلهذا الماء}
 ومن اشهر الاحلام في هذا المدن واكثرها شيوعا في مصر حلم
 باسيليوس الذي صار فيها بعد استقفار القىصرية كبدوكيه . وقبل ان يشهر
 يوليانيوس بالكفر والاخداد كان باسيليوس صديقه الشخصي الذي يرکن
 اليه ولذلك استدعاه يوليانيوس عند جلوسه على العرش الامبراطوري
 ورجاه ان يقيم عنده ويكون من رجال بطانته خصوصاً وان باسيليوس
 كان قد تربى تربية حسنة وعرف بالتفوى والتدين بين الناس . ولما كان
 باسيليوس على وشك اجابة الدعوة التي دعا بهما يوليانيوس سمع عن
 ارتداده وكفره ولذلك رفض طلبه رفضاً باتاً وعدل عن الذهاب اليه
 والاقامة عنده . فهاج سخط يوليانيوس لسبب رفضه دعوه واغتناظ
 غيطاً شديداً فقصد الانتقام من باسيليوس باضطهاد قىصرية التي كان قد
 عين كاهناً فيها في ذلك الوقت وكتب اليه كتاباً للتحكك وطلب منه مائة
 رطل من الذهب الوهاج ليصرفها على الحملة التي جردها ضد الفرس
 وتوعده بذلك قىصرية دكاً وهدمها من اساساتها اذ لم يرسل الذهب حالاً
 خار باسيليوس في امره واستولى عليه اليأس ولم يذر ماذا يفعل في طلب
 يوليانيوس هذا ولذاته عاد فهدى ، روعه عند ما رأى هذه الرؤيا العجيبة
 وهي انه ظهر له في حلمه ان السموات انفتحت ثم سمع الرب يسوع
 المسيح يدعو عبده مركوريوس ان يذهب حالاً ويقتل يوليانيوس عدو

خدماته الامماء . فامتشق مركوريوس سلاحا صقلا يخطف الا بصار
بضوء لمعانه وغاب مرتين اختفى فيما عن الاعين ثم عاد في المرة الثالثة
وقال هائفا (ها قد قتلت الامبراطور يوليانوس كما امرتني يارياه فقضى
نحبه) لما ظهرت باسيليوس هذه الروايا استيقظ من نومه خائفا وجلا
وسار مسرعا الى الكنيسة حيث كان الكهنة وجماعة المؤمنين مجتمعين فيها
يؤدون صلاة نصف الليل فقص عليهم الروايا التي رأها فلما سمعوها طلبوا
الىه ان يكتم الخبر دينما يتأكّد صحته ولكن باسيليوس لم يقبل مشورتهم
بل اذاع امر حلمه في كل صدق وناد ولم يمض زمان حتى وردت الانباء
تعرى بما يثبت صدق حلمه وموت يوليانوس ففرح الشعب لذلك
وطربوا (١) واذا انت نظرت صورة القديس مركوريوس الموجودة
في برج مصر تجده مرسوما بيده سيفان متقطعاً فوق رأسه وترتحت
سنابك جواده صورة يوليانوس الشاحبة عليها تاجه مطروحة على
الخضيض

ولما مات يوليانوس اختار الجيش العامل رئيس الحرس الامبراطوري
امبراطوراً بدلـه وكان اسمـه يوفيانوس وهو كـثيرـن غيرـه من امبراطـرة
الروم سـريـ الجنـس من عـائلـة عـرـيقـة في النـسب . وقد كان مـسيـحـيـاً يـعتقدـ
الاعـقاد الصـحـيـحـة ولـذلك كانت مـدة حـكمـه القـصـيرـة سـلامـاً أو رـاحـة لـلكـنيـسـة

«(١)» قد اوردنا هذه الحـكاـية هنا كما روـها يـوحـنا الـنـيقـاوي الـذـي يـذهبـ الى
أن باـسـيلـيوـس كان في ذـلـك الـوقـت اـسـقـفـاً لـقـيـصـرـيـة

كما ان اكثر رجال الجيش الذين كانوا قد زاغوا عن الايمان في أيام يوليانيوس عادوا الى معتقدهم الاول في أيام هذا الامبراطور فعم السرور جميع الرعایا وانشرحت أقدتهم كثيراً الاَّ الوثنيين الذين لما شاهدوا خراب هیا كلهم واقفرا رماعبدهم بالاهلين علموا أن ديانتهم لا تؤمر في القاب الاَّ اثیراً سطحیاً يعود عليهم بالضرر والشر اذا بطل الضغط واطلقـت الحرية الدينية . وقد ذكر بعض المؤرخین ان يوفیانوس أصدر امرآً اباح فيه حرية الضمير المطلقة لجمع رعایاہ على السوء ولكنـه نهى عن ممارسة الاعمال السحرية الباطلـة ثم كتب خطاباً الى انسیوس يدلـ على شریف احسانـه واعجـابـه به وفيـه يلتـمسـ منه ان يـشرحـ لهـ المـعتقدـ الصـحـیـحـ شـرـحـاً وـافـیـاً . فـصـدـعـ اـنـسـیـوسـ بـالـاـمـرـ وـكـتـبـ هـذـاـ الشـرـحـ عـلـىـ نـسـقـ شـرـحـاً وـافـیـاً . فـصـدـعـ اـنـسـیـوسـ بـالـاـمـرـ وـكـتـبـ هـذـاـ الشـرـحـ عـلـىـ نـسـقـ رسـالـةـ رـعـوـيـةـ صـادـرـةـ مـنـ مـجـمـعـ دـبـنـيـ وـبـعـدـهاـ اـبـحـرـ يـوفـیـانـوسـ قـاصـداًـ انـطاـکـیـهـ حـیـثـ اـسـتـقـبـلـ فـیـهاـ باـحـتـفـالـ باـھـرـ

وـفـيـ هـذـهـ الاـشـاءـ لمـ تـعـضـ اـجـفـانـ اـتـابـعـ آـرـیـوسـ فـيـ الاـسـکـنـدـرـیـهـ وـلـمـ يـفـتـأـواـ فـيـ عـمـلـهـ فـانـ وـاحـدـاًـ مـنـهـ اـسـمـهـ لوـشـیـوسـ الذـیـ کـانـ جـوـرـجـیـوسـ قـدـ سـاـمـهـ قـسـاـمـ قـبـلـ وـفـاتـهـ عـقـدـ النـیـهـ عـلـیـ مـقـابـلـهـ هـذـاـ الـاـمـبـاطـورـ الجـدـیدـ فـیـ انـطاـکـیـهـ وـالـنـیـاسـ مـنـهـ بـاـنـ یـعـینـهـ فـیـ وـظـیـفـةـ الـبـطـرـیـرـکـ الـخـالـیـهـ وـذـلـکـ اـسـلـمـ هـذـهـ الفـئـةـ اـنـهـمـ لـاـ یـعـکـنـهـمـ الـحـصـولـ عـلـیـ غـرـضـهـمـ بـالـطـرـقـ القـانـوـنـیـهـ اـذـ هـمـ بـقـواـ فـیـ الاـسـکـنـدـرـیـهـ وـعـلـیـهـ سـارـ دـهـطـ آـرـیـوسـ لـمـتـوـلـ بـینـ يـدـیـ يـوفـیـانـوسـ فـیـ انـطاـکـیـهـ وـبـیـدـهـ طـابـ عـزـ وـاـعـلـیـ رـفـعـهـ اـلـیـهـ . فـلـمـ النـقـوـاـ بـهـ عـنـدـ ماـ کـانـ

خارجًا في موكيه للنزة سأله ان من انت وماذا تردون فاجابوه انهم
مسيحيون من الاسكندرية يطلبون تعين بطريقك لهم فاخبرهم الامبراطور
بانه سبق وكتب لانسيوس ليرجع الى وظيفته . فقالوا له ان انسيلوس
صار من المغضوب عليهم واصبح منفياً من سين مضت وان رجوعه
لوظيفته لم يكن غرضهم الذي جاءوا لاجله . فلما قالوا هذا تقدم أحد
العساكر وقاطعهم الحديث اذ اخبر الامبراطور بان هؤلاء القوم هم
الفاغة التي خلفها جورجيون المحروم وعليه سار يوفيانوس في سبيله
دون ان يافت الى طلبهم ولكنهم اكتروا من الاخلاص ورجوه ان يسمع
لهم ما يلقونه عن انسيلوس ثم تبعوه في طريقه حتى اضطروه ان يسخط
على البحارة الذين لم يذروا فرصة يطروحون فيها لوشيوس في اليم عند
سفره معهم من الاسكندرية الى ايطاليا

وفي شهر فبراير سنة ٣٦٤ قفل انسيلوس راجعاً الى الاسكندرية
ولم يكد الدهر يستسم للمصريين مودته حتى كسر لهم عن آياته وصدع
خاطرهم بموت يوفيانوس الذي كانوا يرجون منه كل خير وبركة . أما
سبب موته فهو انه طلب ان يؤتي له بوجاق فيه حم ليدفع غرفته لان
البرد كان قارقاً ثم عمد الى فراشه ونام وفي الصباح وجدوه جثة
بلا روح

وقد خلفه فالنتيان الاول على سرير الملكة وهو لا علاقه له بمصر
لانه كان قد عهد بالشرق انى أخيه فالنس الذي يهمنا أمره وكان آريوسي

المذهب وهي الصفة التي تتصفه مع المسيحيين ولو انه لم يكن على شيء من الديانة المسيحية قط. أما اذا أردت ان تعرف صفتة الحقيقة فهي مضطهد المسيحيين ليس الا . والدليل على ذلك انه في سنة ٣٦٥ أصدر أمرأ بتق جميع الاساقفة القواعي المذهب وهم الذين أعادهم يوليانوس نفسه . ولما بلغت هذه الاخبار مدينة الاسكندرية في نحو شهر مايو من هذه السنة هاج القوم كثيراً دفاعاً عن اثنايسيوس حتى ان والي مصر لم يجسر وينفذ أمر النبي اليه

وفي شهر اكتوبر بينما كان اثنايسيوس مقىحاً في زاوية بكنيسة القديس ديونيسيوس علم ان والي مصر على مقاومته والقبض عليه ولذلك اسرع بالفرار حتى ان جنود الامبراطور المهاجموا على الكنيسة في ذات الليلة التي هرب فيها اثنايسيوس بحثوا عنه كثيراً حتى في السقوف والجدران فلم يقفوا له على اثر . وقد قال سocrates المؤرخ ان اثنايسيوس مكث اربعه شهور مختبئاً في مقبرة آباءه . ولما رأى الامبراطور ان السلام لا يستتب في مصر والحملة هذه اجل انفاذ اوامره الى فرصة أخرى وسمح لاثنايسيوس بالعوده الى كرسيه وظلمت مصر بعد ذلك سنتين من الزمان امنة مطمئنة تمارس نفائض الديانة المسيحية وتسعى في انتشارها تحت رعاية بطريركها اثنايسيوس وفي خلال هذه المدة حدث شغب من الوثنين في الاسكندرية في غرة يوليو سنة ٣٦٦ حرق بواسطته كنيسة سبازار يوم الكبرى التي كان قد تم بناؤها في سنة ٣٦١ كما علت في الذي مرّ بك

وفي سنة ٣٦٢ لما رسم لوسيوس الاريوسي رسامة غير قانونية خارج القطر المصري فقصد ان يستحوذ على كرسى الاسكندرية بغير حق فطمانت انظاره لمسند البطريركية الذى طالما اشرا بت نحوه الاعمال وحاول الطامعون الوصول لسدته العالية وظن لوسيوس هذا انه لا بد وان يأخذ هذه الوظيفة قسراً او بصدق من الاباطور . فلما وفد لوسيوس على الاسكندرية سار قاصداً منزل امه التي كانت لا تزال على قيد الحياة لم يكدر خبر وصوله يطرق الاذان حتى احتاط بالبيت جمّهور يزبد كالبحر الراخر فلم يسمع الوالي الا ان ارسل بعض موظفين يأمرونه بالخروج من القطر المصري حالاً ولكن هؤلاء الموظفين عادوا واجروا الوالي بأنه ذا صر على اخراجه من مذهنه فهو يعرضه للقتل بايدي جماعة الثائرين اكتئبهم من حر فيش الوثنيين وعليه انفذ الوالي كوكبة من الفرقان حملته على الا كف بين ضريح الفوم وهديرهم ثم وضعوه في اليوم التالي في سفينة والخرجوه خارج القطر لينقذوا حياته من الموت الذي شاهده بعينه

وفي سنة ٣٦٨ بعد اثناسيوس بترميم كنيسة سينازار يوم التي حرقـت وفي السنة التالية وضع اساسات كنيسة اخرى دعـيت باسمـه فيما بعد .

وفي هذا الوقت طلب اهالى مدینتين في مقاطعة بنتا بوليس تعيين اسقف لهم يختص بالنظر في شؤونهم ثم أحوالى اسقف الابروشية التابعين لها ان يرسم لهم شباباً عالمانياً اسمـه سيداروس . فعنفهم اثناسيوس بروح الوداعة على نشوذهم هذا لأنهم لم يطلبوا الطلب منه رأساً وبعد ان فحص الامر

النصح له اهلية سيداروس واستحقاقه فرقاً الى ابوشيه مهمه جداً و بعد
 هذا العهد حرم اثناسيوس رجلاً قاسياً عانياً هو حاكم ليبيا «المغرب» ثم
 ارسل منشوراً الى رؤساء الكنائس على اختلاف انواعها يذكُر فيه هذا
 الامر ويُفصح عن الامباب التي دعته الى ذلك . وقد صرف اثناسيوس
 الخمس سنوات الاخيرة من عمره وهو يُؤدي واجباته بكل ثانٍ وتوضع
 وكان لا يفتئه يخاطب اساقفة جميع الكنائس الخارجة عن دائرة سلطته
 ويتوادّ معهم خصوصاً مع باسيليوس اسقف قيصرية كبدوكية وصاحب
 الرؤوس المشهورة . فكانت اكثراً خطاباته تختص بالشيع المختلفة وتقاوم
 مبتدئها سيميا بدعة ابوليناريس ومرسلوس من عنكيرة «في اوروبا»
 وفي سنة ٣٧٣ انتهت حياة هذا البطريرك العظيم وهي حياة طويلة
 نافعة قضاهَا في اهم الاعمال واكثرها منفعة لتقديم المديانة المسيحية ونشر
 بشري الخلاص بين الكثيرين . وبعد ان ين بطرس خليفة له نام في
 المrob بسلام وقد جلس على السدة البطريركية القبطية ستة واربعين سنة

الفصل السابع عشر

التحار الامة المصرية : سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ من الشهداء
 اشرنا في فصل سبق الى النتائج السعيدة التي نتجت من حروب المصريين
 في سبيل الحرية والخلاص من ربقة الذل وذكروا ايضاً عاقبة الاضطهاد
 اشاره ديوكلينوس في بدأه القرن الرابع وكيف ان هذين العاملين اثر

بتأثیراً مذموماً في صفات الامة المصرية وطبعها حتى أوجدوا فيها نوعان
 الموس والسوداء غير اطوارها وقلبا سجايها . واتماماً للفائدة وتكملاً لهذا
 البحث نأتي الان على شرح الموضوع الذي جعلناه عنواناً لهذا الفصل
 وسميناه انتحار الامة المصرية او هو انحطاطها ونقدّرها وهو عنوان قاسٍ مؤلم
 ولكن لا مندودة لنا من تسليمه اذا كنا نتوخى الحقيقة ونجد في طلبها
 ولو وخذتنا وأدمت القلوب . فهذه الحقيقة المؤلمة هي ان الخلل الذي تطرق
 في طباع المصريين وصفاتهم لم ينزل موجوداً الى يومنا هذا بل انه زاد وتفاقم
 شره عما كان عليه في هاتيك الايام الاولى . وما يجعل ذكره في هذا المقام
 ان الاقباط - كما يسمون المرء الان اعدم رغبتهم في اطلاق كلمة مصرية
 عليهم - كانوا في ذلك العهد لا ينظرون الى جامعتهم ككنيسة او كامّة
 ولم يكونوا يفترقون بين مذهب واخر حجاً منهم في حفظ الرابطة القومية
 ومحافظة على الوحدة الجنسية لا المذهبية . ولكن لما اشعلوا جذوة حرب
 يرجون من وراءها استقلال وحرية فا فقدتهم كل شجاع مقدم ومحب لوطنه
 غيور . ثم ان الاضطهاد الذي بدأ به تاريخ الشهادة اضعاف من هذه الامة
 ما بقي لها بعد ذلك الحرب من روح النقوى والعنفة بواسطة النذابات المريرة
 التي وقعت عليها . ولما ان ختمت هذه الفصول المخزنة بظهور شيعة آريوس
 وانتشارها وهي التي اجهزت علي ما بقي فيها من شئون المعاطس والحزن الشديد
 وابداته بيس وقوط من هذا العالم الحاضر حتى صار الاقباط حينئذ يظلون
 ان نهاية العالم قد اقتربت منذ ظهر المسيح الدجال « وكان المسيح الدجال

عندهم هو آر يوس» - لما ان شغل عليهم عب هذه الموامل والمؤثرات التي
وضحتها هنا اوجد في هذه الامة جنوحاً الى العزلة والابتعاد عن هذا
العالم بدون اهتمام في امر الآخرين ولذلك هرع خيار القوم نياً تماً وفرادي
فرادي الى الاديرة ومغارب الارض طليماً للوحدة والانفراد ولم يبق في البلاد
الا الذين لا يفهمون سوءٍ كان المسيح الماً ام انساناً سواه كانت مصر ذليلة
مهانة ام عزيزة حرة ما داموا قادرين على زرع ارضهم وتفانيها وتصريف
تجارتهم وترويجها والسلام

يحفظون ذكرى والديهم ويحتفظون على المجد والسؤدد الذي ورثوه عن
 أجدادهم . وإذا أردت معرفة مقدار أهمية هذا العمل وخطارته على الأمة
 المصرية فعليك بالرجوع إلى التاريخ المصري القديم وتقليل بعض
 صفحاته تجد نتيجته المشوّمة ظاهرة مبكرة . فإنه من المسائل المقررة في
 الذهان أن مبدأ الرهبنة كان موجوداً في مصر من قديم الزمان ولو
 أنه سار فيها سيراً بطيئاً حتى كاد يبطل بالمرة عند دخول الديانة المسيحية
 هذه البلاد . ومعולם أنه قبل التاريخ المسيحي بجيال ترهن كثيرون
 من المصريين الوثنيين حيئذ ومحتمل أن رهبتهم لم تكن بحرية ارادتهم
 بل أن الأمة كانت تنتخب العجزة وارياب العاهات وترسلهم إلى الخيال
 لهذا الغرض لأنها كانت تعتقد أن الصفات الطبيعية كحسن الخلق
 والخلق أنها هي وراثة يتوارثها الأبناء عن الآباء فلذلك لم تكن ترضى
 بوجود هؤلاء المشوهين في وسطها لولا يتناسلا ويكثرون منهم فيفقد
 رونق الأمة ويخط من قدرها . كذا كان المصريون القدماء يزعمون أن
 الرهبنة لا تحتاج لرجال من أولى الحصافة والكبايسة أو من الذين عرفوا
 بعلو المبادي والصفات الادبية العظمى فلذلك لم يكن يوجد بين رهبانهم
 من يستحق الذكر فضلاً عن أن أولئك الرهبان الاقدمين امتازوا عن
 الرهبان المسيحيين بالنظافة التامة التي كانت من اهم الواجبات التي يتحتم
 على الراهب المصري الوثني آداؤها فأنهم كانوا يغسلون أجسامهم ثلاث
 مرات يومياً - قبل صلاة الصبح وفي الظهر وفي المساء . وكانوا لا

يأكلون اللحم مطلقاً وكانوا ينكبون على الدرس واستيعاب العلوم والمعارف ولكن لما بدأ المصريون المسيحيون في القرن الثاني باقتداء آثار آباءهم الأولين وادخال مبدأ الرهبنة في الديانة المسيحية لم ينسجوا على منوال الآباء والاجداد بل ساروا على غير خطتهم في انهم كثيراً ما احتقروا اجسادهم وحسبوها ادنى من اجسام الحيوانات وأفظع . خذ لذلك مثلاً مار آمون الذي أسس دير وادي النطرون كان يزعم انه عيب وخجل ان ينظر الرجل التي جسمه عارياً من الملابس وعارض ان يخلع ثيابه عنه ولو وقت الاستحمام . كذا اثناسيوس كان يقول ان الاستحمام عادة قبيحة مستحبنة لا توافق الآداب (ما دام الانسان يقف مجرداً من الملابس كما قال آمون) فلذلك صارت اجسام أولئك الرهبان السدّيج في حالة من القذارة والوساخة تشمئز منها تقوذ صبيان الاذقة في البلاد المتمدنة وهم كانوا يحسبون هذه الوساحة علامة على الزهد والتقوى وأشاروا للبر والقدسية . وعلى هذا القياس صارت النظافة التي كان يعبدوها المصري او يعبد جسمه بها ترفاً وتنعماً مع انه كان قبلًا ينفر من القذارة ويستعيد بالله منها . ولو اقتصر الامر على وساحة الجسم لكان الضرر سهلاً هيناً بل تعمده الى وساحة العقول ايضاً فان اكثر الرهبان انكروا على افسهم الدرس والمطالعة وامتنعوا عن مزاولة العلم والمعرفة وكانت النتيجة ان النهاة والخذق وحدة الذهن التي كانت طبيعية في الامة يتوارثها الاحفاد عن الاجداد ضاعت منها بوابة نظام الرهبنة ولم

يبق لها شيء من المزايا العقلية السامية . نعم قالوا ان بعض الاديرة
 صار في القرون الوسطى مدارس للعلم ولكن اذا شئت الحقيقة التي لا
 مثيل لها انها كانت منسخاً يتعلم فيه الرهبان نسخ الكتب التي بقيت
 لهم من الاعصر الاولى وكانوا يصرفون اوقاتهم وهو يكدون ويكتدون
 في الكتابة باليد وقل ان يستفيدوا مما كانوا يكتبون

أما الاسباب التي حملت الكثيرين من أخير المصريين وأشار لهم
 الى نذر أنفسهم للرهبنة فهي كثيرة متعددة نذكر لك بعضها ومنها
 يتضح ان الذين حافظوا على مبادئ هذا النذر هم زهرة رجال الامة بينما
 السفلة منهم نكثوا بعدهم وكذبوا فيما وعدوا ولكن نتيجة الفريقين كانت
 واحدة هي ضرر الامة والتكليل بها واول باعث على هذه الرهبنة هو القانون
 الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠ وفيه يعفى العزاب والذين بلا نسل من
 دفع الضريبة المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثيرين من
 محبي النفس والمال الى الامتناع عن الزواج بل ساعدتهم على الشر والفساد
 اذ جاء في فقرة اخرى منه ان اللقطاء يربون على مصاريف الحكومة
 ومنها ان الرهبان كانوا يغفون من الخدمة العسكرية في مدة حكم قسطنطين .
 ولكن السبب الاكبر الذي يعزى اليه انحطاط الامة المصرية هو تغيرها
 او هو سيرها للاخلف مع يأس استولى عليه الوجد عندها استسلاماً واستهانة
 والنتيجة ان هذه الامة ذاقت من المصائب وقاشت من عوامل
 التأثر ما كان يكفي لملائتها . وليرأ القاريء الكريم بعضاً من نكباتها

ولا يُسأَم : - قَامَتْ هَذِهِ الْأَمْمَةُ فِيمَا مَضِيَ وَأَوْقَفَتْ نَفْسَهَا وَنَفَائِسَهَا
 لِلْجَهَادِ فِي سَبِيلِ الْحَرَبَةِ تَحْتَ رَأْيَةِ أَخِيلِيوسَ سَنَوَاتٍ مُتَوَالَّةً وَلِكُنَّهَا لَمْ
 تُنْجِحْ . وَعَقْبَ ذَلِكَ اَنَّ الرُّومَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُصْرِيُّونَ يَغْضُبُونَهُمْ
 شَدَّدُوا عَلَيْهِمْ وَضَرَّا يَوْمَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ . ثُمَّ لَمَّا قَنَطُوا مِنْ
 اسْتِقْلَالِ وَطَنَهُمْ التَّفَتُوا إِلَى امْرُورِ دِينِهِمُ الَّذِي اهْرَقُوا دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِهِ
 لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى مَعْتَقَدِهِمُ الْأَصْلِيِّ وَلَكِنْ هَذَا لَمْ يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يَبْعَدْ عَنْهُمْ
 الشَّقَاقُ وَالخَنَاقُ اذَلَّمْ تَعْصِيَهُمْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ فِي حَالَةِ السَّلَامِ وَالرَّاحَةِ
 لِيَعْمَلُوا عَلَى اعْلَاءِ شَأنِ الْكَنِيسَةِ حَتَّى ظَهَرَتْ لَهُمْ شِيَعَةُ آرِيُوسَ بَعْذَلَهُ
 الْقَوِيِّ الْمُتَّصِرِ وَانْتَشَرَتْ بِسُرْعَةِ زَائِدَةٍ وَكَانَتْ نَتْيَاجُهَا اَنَّ الْكَنِيسَةَ
 الْمَصْرِيَّةَ وَقَعَ عَلَيْهَا الاضطهادُ وَاصْبَرَهَا الضيقُ الشَّدِيدُ مِنْ قَوْمٍ يَدْعُونَ
 أَنفُسَهُمْ مُسِيَّحِينَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَسِيحَ . وَبَيْنَمَا كَانُوا مُسِيَّحِيِّينَ يَظْنُونَ
 أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَصَابِ اَنَّهَا هِيَ سَجَابَةُ صِيفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَنقَشَعُ خَابَ ظَنَّهُمْ
 عِنْدَ مَا عَلِمُوا اَنَّ وَارِثَ الْعَرْشِ بَعْدَ قَسْطَنْطِينَ وَأَوْلَادِهِ هُوَ يُولِيانُوسُ
 الْوَثِيْنِي عَدُوُ جَمِيعِ الْمُسِيَّحِيِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ وَهُوَ الَّذِي يَعْذِي اذْاقَهُمْ
 اشْكَالَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاءِ . وَمَا يَدْعُونَ إِلَى الْعَجَبِ وَالْاسْتَغْرَابِ أَكْثَرُ مِنْ
 الَّذِي يَرِدُنَا كَمَهْ افْتَكَارُهُمْ أَنَّ نَهَايَةَ الْعَالَمِ قَدْ اقْتَرَبَتْ وَهُوَ فَكَرٌ يَطْرُقُ
 عَلَى بَالِ كُلِّ اَمَّةٍ تَسَاوِرُهَا الْاحْزَانُ وَتَتَابِعُهَا الْحَمِيرَةُ وَالْذَّهُولُ وَلِذَلِكَ
 اسْتَوَى عَلَيْهِمُ الْفَسَادُ وَفَشَى بَيْنَهُمُ الشَّرُّ وَصَارَ كُلُّ مِنْهُمْ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ
 (لَنَا كُلُّ وَنَشَرْبُ فَانَا غَدَّاً نَوْتُ) وَقَدْ تَكَاثَرَ هُؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ وَمُلَّا

نسلهم البلاد (١) في الوقت الذي كان فيه الاتقين الصالحون يفرون
هاربين من عالم الشرور هذا لئلا يصيّبهم البلاء فيهم وظلوا يصلون
بلا انقطاع وقد صلبو الجسد مع الاهواء والشهوات انتظاراً لجيء
المسيح.

في هذا القرن الرابع الذي فشل فيه داء الرهبنة اصحاب اسبابه
مصر ضرر لم ياصبها من قبل وذلك للجهل والغفلة الذين كانوا يستويان
في الصالح والطالع مما . فلو ذكرنا لقاريء مقدار الرهبان والراهبات
الذين تنسكوا فلا يكاد يصدقه لو لا ان المؤرخين قد اثبتوه بأنفسهم
لأنهم شهدوا شهادة العين عندما جابوا خلال الديار المصرية يتحققوا
على هذا الامر الغريب بانفسهم

وحدث في السنة التي توفي فيها البطريرك انطاكيوس ان جماعة
من الطيان الذين كانوا مجتمعين في اكويانا ليعيشوا كرهبان لم ترق
لهم هذه المعيشة ولم يروا فيها شيئاً من الصواب فقضوا جميعتهم هذه
وتفرقوا في جهات مختلفة . ومن أشهر هؤلاء الشهان دوفينوس وجازروم
وقد كانوا صديقيين حميمين منذ نعومة اظفارهما كذلك عرفت هذه
الجماعة بعقبة اسمها ميلانيا كانت ترأس اعمالها وتدبر حركتها وهذه

«(١) ان ادب الذين لم يصيروا رهباناً في ذلك العصر قد فسدت فساداً سيئاً
حتى تناقض عدد الاهالي لسبب الفسق والمعهر الذي عدم بينهم كما ان الاعياء كانوا
يجهمون ثروتهم بطريق الاصب والاحتيال بدل الجد والاجتهد حتى ان الغني كان
يعرف بأنه اما ما كر غشاش او وريث خبيث محتال

السبانية النزعة طيبة الأرومة . وكان عمر هذه السيدة اثنين وعشرين
 سنة رزقت في خلاها بثلاثة اولاد اصيلت فيهم بصيحة جل . كادت
 تودي بحياتها ذلك ان زوجها وشين من اباهما ماتوا بمرض عضال معد
 فاء ، بترت هذه السيدة الاية المضدية قصاصاً لها لانها تزوجت
 ولم ترهن فعهدت النية من ذلك الحين على ان تعيش عيشة الزهد والازلة
 ولم يكفيها ذلك فقط بل قامت تنادي ضد الزواج وتحذر من عوقيه
 وتشن غارة صماء على كل من يقول به . وقد التقى بروفينوس وكان له
 من العمر حينئذ سبعة وعشرون سنة فوجدها مصمماً على الذهاب إلى مصر
 للدرس أحوال الرهبنة واستطلاع جلية أمرها فيها فترك ابنها الوحيد
 في إيطاليا تحت رعاية وصي اقامته له وجاءت مع روفينوس واقامت في
 مصر بينما كان روفينوس ومعه اثنان او ثلاثة من رفقائه يحولون في وادي
 النيل مفتقدين آثار الغريبة و زائرين جميع الاديرة والمناسك لمعرفة
 حقيقتها و درس نظماتها واحوالها وأفاد روفينوس على اوكيبرينخوس
 وهي المدينة التي قلنا في اول هذا الكتاب ان السمك كان فيها ومبودها
 وجد جموع اهلها قد اخترعوا خطة الرهبنة فيها وان كثيرين من الرجال
 تركوا هذه المدينة واعتزلوا الاديرة والغائر المنفردة . وقد قال اسفها
 لروفينوس انه يوجد في هذه المدينة أكثر من عشرة الاف راهب وعشرين
 الف راهبة . ومن غير zaman ان الهياكل السامقة والمعابر الفسيحة التي
 كانت مختصة بكهنة الاوثان في عهد المصريين القدماء اصبحت الان

اديرة ومناسك للرهبان المسيحيين عدا عن الشتى عشرة كنائس اخرى بنيت
 في هذه المدينة لهذا الغرض . وعند مجبي روفينوس ورفقايه الى افلاطون
 الفيوم رأى ان جل سكانه يعيشون رهباً ولكنهم كانوا يختلفون عن
 الاخرين في انهم اشغلو كفلاحين لزرع الحنطة وكانوا يرسلون محصول
 اراضيهم رأساً الى الاسكندرية . وعلى هذه الحالة سار اهالي منفيس وبابلدون
 وفي دير طبسي اسوهاج كان ثلاثة الاف راهب يعيشون كلاموات تحت رئاسته
 امون الذي خلف ثيودورس في زمامه هذا الدير وقد درسه انسيوس اسقف
 عليه وكان جورجيوس اسقف كيدوكيا قد ضايقه ونفاه اليه . كذلك كان
 الحال مع ابولونيوس رئيس دير على مقربة من هرموبوليس (المنيا)
 يحتوي على خمسة راهب كان انسيوس قد سأله اسقفاً بعد ما اضطهدته
 جورجيوس اسقف كيدوكيا المار ذكره . وقد ترہبن ابولونيوس هذا
 وهو الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان من اصل طيب ذات غيرة
 ونشاط فانه مع اهمال اولياته في امر تربيته صار بمحده واجتهاده من
 مشاهير العلماء الاعلام في ذلك الحين وقد افاد روفينوس فائدة عظمى
 في انه اعممه بحالة الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما انه اسهب له في
 تبيان ماهية ديانة المصريين القدماء وطقوسها واحتفالاتها والرموز الصحيحة
 التي كانت تستعمل في الزمن الغابر للدلالة على الحيوانات المقدسة وكان
 ابولونيوس يدقق كثيراً على الرهبان الذين تحت رئاسته ولم يكن
 يسمح لهم بالاهتمام في انجام مواجب الحياة وضروريتها والتحلي ب洁ية

الدين والآداب حتى قيل ان شبابهم كانت نظيفة كما كانت قلوبهم طاهرة
 ولما برح روفينوس ورفقائه هذا الدير الشهير أوفد معهم رئيسه الذي
 اشتهر بالكرم والبشاشة ثلاثة من الترجمة كاد لا يرشدونهم في الطريق
 ويوضخون لهم ما يغمض عليهم معرفته فساروا لافتقاد الاديرة الكثيرة
 في مدن لم يرد ذكر اسمائها في ما كتبوا عن هذه الاديرة ثم زاروا كثيرين
 من الناس المشهورين الذين كانوا معترزين في خلواتهم
 وبين هذه الخلوات خلوة قامت على قمة جبل اقifer خلف مدينة
 انطينيوس يصل اليها بطريق وعرة ضيقة حتى ان الذي لم يطأها من قبل
 لا يكفيه المرور فيها . ففي هذه الخلوة القفره عاش راهب اسمه الياس
 وحيداً في مغارة واسعة الاطراف ولم يكن له مؤنس فيها وظل على حالته
 هذه نيف وسبعون سنة كما قال الرواد الذين زاروه وكتبوا عنه كما انهم
 اذتوا انه بلغ من العمر ١١٠ سنين عندما زاره روفينوس وكان قد اصيب
 بالفالج فاهزله واضعفه . ولم يشهد أحد من جيرانه بأنه راي الياس خارج
 هذه المغاره او انه سكن في مكان آخر غيرها ثم وقد اشاعوا عنه انه شفى
 مرضى كثيرين . وقد اتضح لروفيнос وزملائه ان طعام هذا الراهب
 كان ثلاث أوقیات من الخبز يومياً وثلاث زيتونات كل مساء ولما رأه
 هؤلاء الشبان السائحين اندهشوا ونظروا اليه نظرة الهمية والاجلال لما
 شاهدوه فيه من الصمت والسكوت ثم رجعوا ادراجهم الى الريف بعد
 ان عانوا مشقة وتعباً في هذا السفر . وقد زاروا ايضاً الخلوة التي كان

يقطنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتضلعه في اللغات اليونانية والمصرية
واليونانية ايضاً

ومن اشهر هؤلاء النساء والزهاد يوحنا الasioطي الذي كان
يقطن حومعة على امة مرتفعه اشتهر بحكمته وعلمه حتى ان انهائد الروماني
الذى كان ممسكاً في اصوان كان يستشيره في الامور السياسية لاعتقاده
برصانة عقله ورجحان رأيه كما ان الامبراطور ثيودسيوس كان يسير على
رأيه ويستمدى بمشكاة فكره . ولم يقتصر يوحنا على الرهبنة والعزلة فقط
بل كان يجمع الصدقات ويوزعها في مديرية اسيوط ذلك لان جميع
السكان هنئوا في ما يديهم على ان يقدموا له عشر ايرادهم فكان
يوحنا يجمع هذه الاعشار ويوزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا
المشروع سيراً حثيثاً وبزغت شمسه من اسيوط فانتشرت اشعهها على كل
مصر ومنها عم جميع الملك المسيحي . وقد اسند المؤرخون مبدأ تقويم
الاعشار عند المسيحيين الى هذا الراهبasioطي . وبعد هذا العهد
كانت هذه الاعشار تجزأ الى ثلاثة اقسام - احداها رواتب الاكليروس
واثنائهما لعمارة الكنائس وثالثها للفقراء والمعوزين . وعلى هذه القاعدة
سارت الكنيسة القبطية في هذه الايام فانك اذا دخلت الكنيسة المرقشية
الكبرى الان ترى ثلاثة اطباقي للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون
بها اثناء تادية الخدمة واحد خلف الاخر وكل منهم يمد يده لجماعة المصليين
الذين اعتادوا ان يدفعوا ثلاثة دفعات واحدة للاكليروس وواحدة لمصاريف

الكنيسة والثالثة للفقراء

أما الرهبان في مصر فكانوا على ثلاثة أنواع - النساك وهم الذين يسكنون الأديرة جماعات وفيات . والزهاد وهم الذين يعيشون في الخلوات والصومع والمتبولون وهم الذين يجتمع أثنان أو ثلاثة معاً ويسكنون المدن ولكنهم لا يتزوجون

وبعد أن تمت سياحة روفينوس ورفقاه في وادي النيل صعد آباءاً
قادرين وادي النطرون فلما وصلوه وجدوا فيه أكثر من خمسين ديراً
فيها ما ينافى عن خمسة آلاف راهب وهم مثل رهبان هرموبوليس في
أنهم من أحسن النساء وأكثرهم نظافة ومعرفة . وقد علمنا أن أول
من وضع أساس الأديرة في وادي النطرون هو مارامون الذي مات حوالي
سنة ٤٥٠ واعقبه في الرئاسة مكاريوس . ولا يغرب عن ذهن القاريء
أنه كان يوجد في مصر قديسان يسميان بهذا الاسم وكانا معاصرین لبعضهما
ولاجل التفريق بينهما في الاسم سمي أحدهما مكاريوس الاسكندرى
والثاني مكاريوس المصرى . وقد يصعب جداً التمييز بين الاعمال التي
قام بها هذا من ذلك أو معرفة ما أتاه الواحد من الآخر فضلاً عن أنه
كان يوجد كثيرون يسمون بهذا الاسم . أما مكاريوس الذي أتى فعلاً
بتذكرة بالشكر في أيام أنسيوس وكان من القسوس المتنميين إليه والخلصين
له فهو غير هذين القديسين على ما يظن . ذلك أن مار مكاريوس المصرى
كان من اصحاب قاء مار انطونيوس ومعاصريه وهو مكاريوس الاسكندرى

سكنا وادي النطرون ووادي سينس الذي يبعد مسيرة يوم عن وادي
 النطرون ولو انه ليتصل به الصلا طبيعياً . و مما يحتمل التصديق ايضاً
 أن مكاريوس المصري هو مكاريوس مجنوس بعينه الذي نشأ في القرن
 الرابع وله تأليف ثمينه ردآ على اعتراض الوثنيين على الديانة المسيحية
 كانت قد لعبت بها ايدي الضياع الى ان نبغ فيسغورس في القرن الثامن
 ووجد نسخة منها بعد ان صرف اموالا طائلة وتحمل عناه كبيراً و يؤخذ
 من هذه النسخة ان مكاريوس مجنوس هو مكاريوس المصري كما اسلفنا
 ولا يوجد ما يدعوا للريب في هذا الظن . وكان يوجد في وادي النطرون
 ايضاً أربعة رهباناً يعرفون بالاخوة الطويلي القامة اكبرهم امونيوس كان
 قد رافق اثناسيوس الى رومية عند ما مكت فيها سنة ونصفاً . فهو لاء
 الرهبان الاربعة كانوا اخوة من اب وأم واحد ومن دين ومذهب واحد
 وقد اشتهروا بطول قامتهم واعتدال قوامهم كما انهم عرب وغيرهم الفائقة
 وعفةهم ونقاومهم . وقد نشأ في وادي النطرون جمعية تأسست على مبادئ
 الجهل والغباء - فاحداها وهي الاكثر عمه وسخافة كانت ترتّأ وجوب
 تصوير الاله بصورة انسان بكل ملامحه واجزائه وتمثيله جل شأنه بتالا
 ظاهر واضح وأما الثانية فكانت تبحث في الرموز والمعاني الروحية التي
 وضعها اوريجانوس . ولما زار دوفينوس هذا الدير كان السلام والوئام
 سائدين فيه فلذلك وطن النفس على البقاء هناك ردحاً من الزمن الا ان
 جو مصر الاسية اكفر بغیوم الاضطرابات الدينية والسياسية فلم

يصف لها الدهر يوماً الا تقدر في الثاني

الفصل الثامن عشر

آخر اسقف أريوسى في الاسكندرية

سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩٦ للشهداء

كانت وفاة أنناسيوس بـدء سعي جديد قام به اتباع أريوس سواء مع الوثنيين قصدوا به قلب الكنيسة رأساً على عقب . فاعيدت المظاهرات التي اشتهرت بتغافل جورجيوس أسقف كيدوكيا وتدخله في أمور كنيسة مصر بلا مسوغ ثم ان الامبراطور فالنس كان أريوسيأ وكان متغيطاً من ان المصريين قاموا بـذبحه بطريقاً لهم حسب اختيارهم فحدث انه بينما كانت تقام الخدمة الدينية في كنيسة مارشيوناس - وهي الكنيسة التي يصلي فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص - هجم عليها والي مصر الوثني بالاريوس ومعه فرقته من الجندي ف الواقع الرعب والخوف في قلوب المصلين . وكان أيضاً ان رهطاً من زعاف الوثنيين واليهود انتهزوا هذه الفرصة لـتدليس المذايـع واهانة المسيحيين فلما رأى البطريرك بطرس هذا فعل ما فعله أنناسيوس قبله في أنه فرّ هارباً وقصد كنيساً يختبئ فيه . وفي هذه الـثناء كتب البطريرك رسالة رعوية لم تزل موجودة الى الان وفيها يصف هذه الحوادث التي وقعت يومئذ . وكان دماسيوس البابا الروماني قد انفرد رسولاً من قبله يحمل رسائل السلام والمحبة الى بابا الاسكندرية بطرس فعند وصوله اليها قبض عليه وأرسل

سجينًا يشتعل في المناجم . فلما رأى بطرس هذه الحالة فر هاربًا إلى رومية وبقي ضيفاً فيها خمس سنوات كاملة (١)

وقد عرفنا في ما سبق أن لوشيوس الأسقف الاربوي كان يسمى للحصول على الكرسي الاسكندري فلما وقعت هذه الاضطرابات نال لوشيوس ماتناه ودخل الاسكندرية دخول الظافر المتصرّ يحيط به جهود من وجوه المدينة فلم يكُن يجلس على السدة البطريركية حتى بدأ باضطهاد الكنيسة المصرية فصب جامات غضبه على الأديرة والرهبان بنوع خاص ويقال أنه سار بنفسه إلى دير وادي النطرون ومعه فرقه من الجنود الملكية قاصداً شن الغارة على جماعة الرهبان الذين أبو انكار الوهية الابن (٢) . فلما رأى لوشيوس أن الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال وأهتم راضون باقامة سوق حرب تباع فيها النفوس ثم

(١) ان امر هذه المشاحنات الغبية بين الطوائف المساجحة المختلفة لم ينتصر على مصر فقط بل تعداها إلى رومية والقدسية . أما دماسيوس ببابا رومية فلم يتم اختياره إلا بالقوة والعنف

(٢) قال جيرون المؤرخ ان هذه الحملة العسكرية المؤلفة من ٣٠٠،٠٠،٠ رجل التي سارت ضد رهبان وادي النطرون كان القصد منها اجبار الشبان والاقوياء منهم على الخدمة العسكرية . وقد يمكن ان يكون هذا صحيحًا الا ان جيرون اخذ روایته من مصدرين افرنسيين ذكرَا ان القانون الذي سنه سيدوسيوس كان يقضى على الرهبان بالتجند . ولتكن جميع المؤرخين في ذلك الخرين اتفقا على ان القصد من هذه الحملة كان ادخال ميادي اديوس بالقوة في دير وادي النطرون الذي كان أقوى حصن ديني في القطر المصري

رخيص امر هذا المبتدع قائد الجملة ان ينفي مكاريوس الاسكندرى
 ومكاريوس المصرى رئيسى وادى النظرون وسيتى ظناً منه انه يسهل
 عليه الاستصار على جماعة الرهبان متى ما أبدوا رؤساءهم عنهم . ومن
 ثم نفى القديسان مكاريوس الى جزيرة فيلا فى الصعيد الاعلى وكانت هذه
 الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكانت كاهن
 هذا الهيكل محترما عند سكان القرى المجاورة حتى كاد يؤلهونه فلما
 وصلها هذان الرهبان المنفيان حدث فيها هياج واضطراب وذللك ان ابنة
 هذا الكاهن الوثنى سلكت مسلك من يمقلها من الجنون في انها
 اندفعت كالسهام المفوفة الى الشاطئ الذى رسى فيه تانك القديسان
 وصرخت قائلة (لماذا اتيتانا الي هنا لتخرجانا من هنا . فقد ظننا اننا في مأمن
 منكم في هذا المكان الذي لا يعرفه أحد وفيه نقطان آمنين بوائق الايام
 ولا نحن نؤذى أحداً ولا أحد يؤذينا . فاذا كانت انتظاركم تطمح الى
 هذه الجزيرة أيضاً فهنيئاً لكم بها خندوها اذا لمقدراة لنا على مقاومتكم »
 فلما فاحت الصبية بهذه الكلمات سقطت على الارض مغمي عليها
 فتقدمن إليها أحد الرئيسين الذي كان متضلعًا في علم الطب فعالجها وشفاها
 وكانت النتيجة ان جميع - كان هذه الجزيرة اعتنقوا الديانة المسيحية ولما
 بلغ لوشيوس هذا الخبر أصدر امراً خصوصياً باعادة هذين الرئيسين
 ولما كان لوشيوس مغضداً في اعماله بالحكومة الامبراطورية
 فلذلك نفى احد عشر اسقفاً بينهم ميلاس اسقف رينو كولورا (هي الآن

العرיש في حدود مصر) وكان قد عهد الى قوة عسكرية بنفيه فلما وصلت هذه القوة الى الكنيسة في مساء يوم التقت بشاب كان يستغل في تصليح القناديل واعدادها لساعة الخدمة فسألته الجندي عن ميلاس وكان ميلاس هو هذا الشاب الذي التقوا به - فاجابهم ان ميلاس على مقربة منهم الآن وانه سيخبره بقدومهم حالاً ثم سار بهم الى منزله وقدم لهم عشاء فاخراً وظل يخدمهم بنفسه فلما فرغوا من تناول الطعام عرفهم بشخصه فدهش القوم من صروءته وجرأته واخبروه انهم يسمحون له بالفرار ولكنه ابى ذلك فقضلا مقاسمة اخوته الضراء من ان يرباً بنفسه ويتمتع بالراحة والسراء

ومن الذين قبض عليهم في دير وادي النطرون روفينوس المار ذكره وسجين مدة من الزمن واخيراً نفى الى خارج القطر المصري . وكذلك السيدة ميلانيا وهي غريبة عن مصر كانت قد جاءت الى الاسكندرية ومكثت فيها نحو سنته شهور ثم نفيت الى ابروشية قيصرية في فلسطين وتقى معها جم غفير من الاساقفة والقسوس والرهبان وقد بثت في قيصرية مدة من الزمن كانت تقبل فيها كل المصريين المنفيين وتقابلاهم بهشاشة وبشاشة وتعولهم بمصاريفها الخصوصية وقد عول روفينوس على الالتحاق بها والاقامة عندها ولكنه قفل راجعاً الى مصر حالاً وقضى فيها نحو سنتين صرف اكثراًها في معاشرة الرهبان والامتزاج بهم

ومن أشهر الرهبان في ذلك العصر راهب اسمه موسى كان يعيش في صومعة موجودة في الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وكان ذات هيبة واجلال لاجل تقواه وورعه وكانت قبائل البدو الرحل - او هم العرب (١) - يعتبرونه ويكرمونه وكان جماعة البدو في ذلك الحين تحت رعاية ملكة اسمها ماقيا كان بين زوجها وبين الرومان محالة ووداد في زمان قبل الزمان الذي كانت فيه . وبعد وفاة زوجها هذا عادت قبائل العرب واشتبت في حرب استباحثت فيه كل بلاد المشرق حتى كادت تدمرها . وكان سكان جنوب فرنسا في ذلك الوقت قد اتبعوا الامبراطور فالنس كثيراً فكان هذا سبباً في ايقاف سير الاضطهاد في مصر . ولذلك لم يقدر فالنس على صد هؤلاء العرب عن حدود بلاده فارسل يطلب منهم عقد صلح معهم فصاحت الملكة ماقيا شروط الصلح واهما طلب تسليم الراهب موسى اليها لتعيينه اسقفاً في بلادها وقد اشترطت هذا الشرط مع انها لم تكن قد صارت مسيحية بعد . فاجاب فالنس طلبها وهو يكاد يطير فرحاً وأصدر الاوامر المشددة بالقبض على موسى واحفاده الى الاسكندرية لكي يرسم اسقفاً سواه بطوعه ام بالرغم عنه . اما موسى فباء الاسكندرية برضي وطيب خاطر ولكنه لما عرف ان

١ - ان كلمة « بدوي » كانت سما عاماً يطلق على كل قبائل العرب الساكنة بين ساحل البحر الاحمر ونهر الفرات

لوشيوس البطريرك الاريوسي سيضع يده عليه ليرسمه رفض الرسامة
رفضاً باتاً وقال : - (اني احسب نفسي غير مستحق لهذه الوظيفة
السامية ولكن اذا كانت دواعي الحال عند الحكومة ماسة لتوظفي فيها افلا
مندودة لي من قبول هذه الوظيفة ولكنني لا اقتبلاها من لوشيوس ولا
هو يضع يده علي ليرسمني لانه يد ملوثة بدماء الابرار القديسين)

فاغاظ لوشيوس واعتراض على هذه الجرأة التي بدأت من موسى وقال
اني لم اطلب احضاره امامي لكي يؤبني ويعنفي بل طلبه لا اتهمه المبادئ
الدينية واعمله منشأ المعتقد الصحيح . فرد عليه هذا الراهب الفاضل قائلاً اتنا
لم نختلف في المسائل الدينية بعد وان هذا الامر لا علاقته بالدين ولكن المسألة
بسقطة لا تحتاج الى بحث كثير هي اني رفضت الرسامة من يد لوشيوس الذي
اضطهد المسيحيين واذاقهم مر العذاب . ثم بدأ موسى بزيادة الادلة
والبراهين على القسوة والوحشية اللتين راها في لوشيوس رأي العين
ولكن لوشيوس لم يحتمل سماع هذا الكلام المؤلم فصرفه من امامه على
عمل ولحال سار به الحراس الى الجبال ليبحثوا عن احد الاساقفة المنفيين
لكي يضع يده عليه ويرسمه . ولم اتعين موسى اسقفاً انتشرت بواسطته
الديانة المسيحية انتشاراً واسعاً بين جماعة البدو وفي السودان ايضاً ولم ا
رقي يومئذ الى العرش الامبراطوري صارت جميع هذه البلاد مسيحية
بالمرة

تح ١٣١ بـ عـالـيـةـ لـ اـنـ قـلـيـ لـ اـمـ لـ اـنـ تـنـ لـ اـنـ دـلـ اـنـ اـنـ
تـ اـنـ غـالـ بـ اـنـ حـالـ اـنـ حـالـ اـنـ حـالـ اـنـ

وفي ربيع سنة ٣٧٨ رأى البطريرك بطرس ان فالنس مهمم باصر
سكنى شمالي اوروبا الذين كانوا يوalon هباتهم على حدود بلاده وعليه
لم يرق للوسيوس سند او عضد في صرفاً بـ هذا البطريرك من رومية
ليجلس على كرسيه ثانية وساعدته شعبه الذي قام بنفس واحدة ضد لوسيوس
وطرده من الاسكندرية . فرفع لوسيوس دعوه الى فالنس الذي اشغالته
هذه الشواغل عن مساعدته ثم قتل هذا الامبراطور في معركة الهيجاء
في السنة عينها فخابت بموته امال لوسيوس واوهامه

وجلس ثيودوسيوس بعد فالنس على عرش المملكة الشرقية وهو
اباني الاصل وابن ثيودوسيوس الاعظم الذي خدم هذه المملكة خدمة
تذكر وهو من قوادها ا بواسل وكان جزءاً على هذه الخدمات العظيمة
انه راح ضحية لاوهام فالنس وخرافاته . وتفصيل هذه الخرافات هو ان
فن التكهن وضرب الرمل كان شائعاً في المملكة الرومانية في ذلك
الوقت . وحدث ان بعض محاربي فالنس عقدوا جاسة رسمية لضرب
الرمل ليمرفوا منها من الذي يختلف فالنس في المملكة وما هو مصدر رجل
اسمه ثيودورس كانوا يهتمون بامرها ويخشون سلطنه . فيما ضرب الرمل
ظهرت فيه هذه الاحرف الاربعة مكتوبة وهي : ت - ي - و - د -
وهي اوائل اسم الرجل الذي يعقب فالنس حسب زعمه فلذلك اصدر
هذا الامبراطور امره بقتل ثيودورس حالاً وانتحل لنفسه سيناً ليقتل
كل شخص مشهور بيتدى اسمه بهذه الحروف ث - ي - و - د . وكان

بيان الذين انطبق اسمهم على هذه الاحرف ثيودوسيوس البطل المقدام
وابنه المسئي باسمه فقتل الاب اما الابن فتسلك برأي صائب هو انه
ارکن الى الفرار وذهب الى اسبانيا حيث اقام في منزل اسلافه الى ان
ملك فيما بعد كما اسلفنا

اما المملكة الغربية فبعد موت فالنتينيان سنة ٣٧٥ خلفه فيها ابنه
غراطيان وكان له اخ يافع تحت رعايته فلمامات فالنس رأى غراطيان
ان المملكة الشرقية في قبضة يده وانه قادر ان يضمهما الى مملكته ولذلك
لصرف تصرُّف الحكيم العاقل الذي يعلم ان المطامع منشأ كل شر وويل
فلذلك ارسل واستدعي اليه ثيودوسيوس وكان عمر غراطيان نحو عشرون
سنة وعمر ثيودوسيوس ثلاثة وثلاثين عاماً وكانا كلاهما يديبان بالدين
الصحيح ويرفضان كل بدعة وخرافة . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ لما
رأى ثيودوسيوس ان الاحوال الدينية قد تضعضعت في القسطنطينية
وانها وصلت الى دركات الانحطاط اكثر من الامكندرية ورومية نشر
بيان اهالي هذه المدينة بياناً واياضاً واف عن كيفية اليمان وعمله ومقدار
تأثيره على اهل الدين في القلوب وكان قبل هذا الوقت بمنية طلب من
البطريرك بطرس القبطي ان يعالج هذا الداء لمله ينجح في تقويم هذا
الاعوجاج فلبي الطير يرك طلبه وظل يهتم بامور القسطنطينية الدينية
وينهمك في تدبیر احوالها منذ ما اب من رومية الى مصر
ومن مشاهير الرجال الذين عبق عبر اعماهم وسطع ضوء فضلهم فنان

دياجير الظالمات التي اكتنفت اواخر الجيل الرابع هو غريغوريوس النزيني.
 صحيح ان لاعلاقته له بتاريخ ٢٠١٢ ولكن ارتباطه بطاريرك الاسكندرية
 وعلاقته المبنية ٢٠٢٠ يسوعان ما ذكر بعض ما شتهر به من انتهاك والفالضل
 فغريغوريوس هذا هو ابن غريغوريوس اسقف نزيزن في كيدوكيا وكان
 قد رفع افوايق العلوم في اثنين في ذات المدرسة التي تربى فيها الامبراطور
 يوليانوس الكافر وباسيليوس اسقف قيصرية المذان ذكرناها قبلها . وكانت
 امياله متجهة الى الرهبنة ولكنها لم يرض ان يفارق والديه الهرميين فلذلك
 بقي معها وكان يعيش عيشة الزهد والتنسك معتازلا كل عمل دنيوي مع
 انه كان وكيل لايه في اعماله . ثم ان اباه اضطره بالرغم عنه ان يقبل وظيفة
 كهنوئية وهو في السادسة والثلاثين من عمره وكان غرض ايه من ذلك
 ترشيحه لرتبة الاسقفية التي لا يكفيه ان ينالها اذا ظل عماليا . وفي سنة
 ٣٧٢ صمم ابوه وباسيليوس اسقف قيصرية على تعيينه اسقفاً لساسيا وهي
 بلدة صغيرة نابعة لمقاطعة كيدوكيا كان قد ادعى مطران تيانا انها واقعة ضمن
 ابروشيتا . ولكن غريغوريوس رفض قبول هذه الوظيفة لاسباب بدأته له
 ومع انه سيم اسقفاً الا انه لم يمارس اعمال الابروشية التي تعيين لها ولم يتداخلي
 في شؤونها وبقى يساعد اباه في اشغاله الى ان مات ابوه في سنة ٣٧٤ وله
 من العمر ما يزيد عن ستين عاما . ثم توفت امه عقب وفات ايه وكانت تحب زوجها في
 حياته فلم ترض ان تفارقه في مماته فدعاها الصوت الالهي من السماء فلبت
 الدعوة وفارقت هذه الدار الفانية حينما كانت جاثية تتناول العشاء الرباني

وكان لغريغوريوس اخ واخت ماتا قبل هذا الحين فاصبح هو وحيداً في هذا العالم وبقى سنتين ينظر في اعمال الابروشية التي عهدت اليه منتظراً تعين خلف له ولكن رأى ان وجوده في هذه الوظيفة قد يدعو الناس الى انتن بأنه طامع فيها راض بحمل عبئها التقبيل لذلك اختفى فجأة وذهب الى دير شلوسيا حيث مكث فيه ثلات سنوات في حالة الزهد والنسك

وفي سنة ٣٧٩ رفع اليه مسيحي القسطنطينية المستقيموا الرأي عريضة ممهورة بامضاء عدد كبير من الاساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية فيها يلتsson منه ان يجيء هذه الماصحة ويعلم عنى تقييـث كربلاـم . وكان في القسطنطينية غير شيعة آريوس اكثـر من ست شيعـات دينـية متـغـيرة المبـادـي متـبـأـنة الـافـكارـ وكانت جـمـيعـها مـعـذـودـة هـرـطـوقـية تقول بغير التعليم الصحيح . ومن اهم هذه الشـعـيات الشـيـعة المـانـوبـة وشـيـعة نـوفـانـيانـ اما غـريـغـورـيوـس فـلـاـيـ المـدـوة وـسـارـ الى القـسـطـنـطـينـيـة حيث اخـذـ لنـفـسـهـ يـتـاماـ مـعـزـلاـ وـبـدـاءـ يـلـمـ النـاسـ ان يـسـلـكـواـ بـالـقـوـىـ وـالـعـفـافـ وـانـ يـتـعـدـواـ عـنـ الـمـاحـكـاتـ الـدـيـنـيـةـ الـفـارـغـةـ وـهـيـ تـعـالـيمـ كانـ قدـ اـهـلـ اـحـدـهـ زـمـنـاـ طـوـيلاـ وـقـدـ بـنـيـتـ كـنـيـسـةـ اـكـرـامـاـ لـهـ سـيـيـتـ كـنـيـسـةـ اـقـيـامـةـ وـظـلـ غـريـغـورـيوـسـ اـكـثـرـ مـنـ سـنـةـ يـعـانـيـ فـيـهاـ اـشـقـ الـاعـهـالـ وـاتـعـبـهاـ وـفـيـ هـذـهـ الـاـثـاءـ وـفـدـ عـلـىـ القـسـطـنـطـينـيـةـ رـجـلـ اـسـمـهـ مـكـسـيمـوسـ وـهـوـ صـاحـبـ اـسـكـنـدـريـ تـرـيـخـ يـدـهـشـ الـاـبـابـ سـتـقـفـ عـلـيـهـ فـيـ ماـيـلـ . وـكـانـ

الرجل مسيحيًا نصرانيًا ولكنه كان فيلسوفاً شكّسًا شرسًا . وقد ادعى انه مقر بالآية—ان القويم بدين للحق ولكن اعدائه قالوا عنه انه جلد بالسياط ونفي ليس لاجل ايمانه وتقواه بل لاجل سوء تصرفاته . ومن المحتمل ان مكسيموس هذا كان شديد الذكا، فوي العارضة حتى انه صرف جهده ليؤثر تأثيراً قوياً على بطرس بطريرك الاسكندرية وغريغوريوس بطريرك القسطنطينية . وقد وصفه الواصفون بأنه شاب ليس حسن المنظر له شعر اشقر طويل تسترسل جدائله مستشدرات الى الاسفل حتى تقطي منكبيه . قال عن نفسه انه صار صديقاً . كيئنا العزيز غريغوريوس حتى ان هذا اخلاص له الخمير ببناء على كلامه المملوء من الربا، والمداهنة مع ان مكسيموس ما فتئ كل هذه المدة يدرس الدسائس عند بطريرك الاسكندرية . الذي كان له ثقة عديدة فيه . وذلك لكي يطرد غريغوريوس عن وظيفته و يأخذ لنفسه الرئاسة في القسطنطينية وكان بدء هذه الدسائس انه قال لبطرس مررت انه اخطأ خطأ خطيراً في تصديقه على تعين غريغوريوس في القسطنطينية تعيناً غير رسمي وان نقل غريغوريوس من ساسيمها التي لم يقبل التوظف فيها كان غير قانوني ايضاً . ثم اتهم غريغوريوس بخشونة الاخلاق ونظاظة الطبع وقال ان اهالي القسطنطينية المذهبين يأنفون منه ويتمذرون . فمال بطرس بكليته الى سماع هذه التهمات ونوى على ارسال وفد من الاداقنة الى القسطنطينية مزودين باوامر منتهضها تعين مكسيموس بدلاً من غريغوريوس

فلما وصل الوفد الى القسطنطينية كان غر يغوريوس مريضاً لكن
 من فرط جبه مكسيموس لم يتأخر عن اظهار صداقته له فقام من
 فراشه وسار مع الوفد الاسكندرى ليلاً الى الكنيسة حيث بدأوا باقامة
 الاحتفال لاجل رسامة مكسيموس . وكان من المحم قص خدائر الشعر
 الجميلة المسترسلة على رأس مكسيموس قبل ان يلبس القلنسوة (وهي
 التي نادى اناسيوس بابطالها قبل ذلك الوقت ببعض سنوات قائلًا انها
 خصت بالكونية الوثنين لا بالكونية المسيحيين) وقبل ان يتم الاحتفال
 اشترقت شمس الصباح فهب اهالي القسطنطينية وساروا الى الكنيسة
 ليعرفوا ماذا يعمل فيها فرجم الاوياش على الكنيسة وطردوا المحفلين
 منها ولكن شعر مكسيموس كان قد قص في حانوت احد المزمرين
 فلذلك لم يطق البقاء في القسطنطينية لاجل هياج الشعب ضده فقر
 قاصداً سالونيكي ليقابل ثيودوسيوس ويلتمس منه الاسعاف والمدد
 فرفض ثيودوسيوس مساعدته والاعتراف بسلطته فعاد راجعاً الى
 الاسكندرية وطلب من البطريرك بطرس ان يستعمل ماله من السلطة
 والنفوذ في تعزيزه . اما بطرس فكان قد ازيف الستار الذي أُسدى على
 عينيه وتجلى له صفات صديقه ومحسوبه فأبى ان يصغي اليه وطلب من
 الوالي انه ينفيه فنفاه من الاسكندرية . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ انتقل
 البطريرك بطرس الى رحمة ربها

تامرة امه ولبس امه

وقد دخل الامبراطور ثيودوسيوس الى القسطنطينية دخولاً

رسمياً في نوفمبر سنة ٣٨٠ وفي مايو سنة ٣٨١ شكل ممثلاً عاماً يبحث عن الطرق المؤدية لدوم السلام في الكنيسة وليبت الحكم بنوع خاص في مسألة بطريركية القدسية التي كانت في حالة الارتباك والتشویش وقد أعيد انتخاب غريغوريوس إلى رئاسة القدسية ولكن استقال بالنسبة إلى كثرة الانشقاقات رغبة منه في دوام السلام وكانت استقالته قبل ارفضاض جلسات الجمع ثم سار إلى نزيزن سنة ٣٨٣ وظل يمارس اشغال هذا الكرسي إلى أن تعيّن أسقفًا فيها بدلاً منه بناء على طلبه وحينئذ اعتزل العمل وصرف الستة شهور التي بقيت من حياته في الاشتغال بالآداب والعلوم . ومع ما اشتهر به هذا الرجل من طيبة القلب والتبحر في العلوم فقد يحتمل أنه في آخر سني حياته سار على الخطأة التي سار عليها أمبروز في أوروبا وتوفيلس في مصر في أنه استعمل نفوذه الشخصي في استئالة ثيودوسيوس نحو التحيز والتشيع إلى فريق دون الآخر بدلاً من أن يحمله على إيقاف سير الشحنة والبغضاء التي سرت بين تلك الشعوب المتعددة

وقد جلس على الكرسي البطريركي في الإسكندرية بعد بطرس أخيه تيوثاوس الملقب بالفقير وذلك لأنه وزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا . وكان تيوثاوس لهذا عضواً في مجمع الإسكندرية وقد اشترك في المفاوضات التي افضت إلى استففاء غريغوريوس ولله الحمد البيضاء في نشر قانون المجمع النيقاوي بالصورة التي نتداولها الآن ما عدا الجملة

الافتتاحية التي صر ذكرها فلم يصادق عليها مجمع عام مطلقاً
و لما بدأ هذا المجمع يبحث في المسألة المعضلة وهي وضع ترتيب
معروف لمراسن البطريركates المختلفة كان الجميع على اتفاق تام في هذا
الموضوع . ففي القرنين الاولين كانت الكراسي الخمسة التي من الدرجة
الاولى هي : الاسكندرية ورومية وانطاكية واورشليم وقيصرية وكان
الكرسي الاسكندرى صاحب الاولوية على هذه جميعها (١) . وكان
كرسي رومية يتقى حسداً لسبقية كرسى الاسكندرية عليه ولكن
بماركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقه واللطف وحسن الجاملة رضوا
بنفس الاشكال ولو افضى الى التنازل عن افضليتهم . وكانت الرئاستة
الفعالية والخطاب العام الذي يصدر سنوياً وفيه تاريخ عيد الفصح مصدرها
الاسكندرية . فلما اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية صار لمدينته الجديدة
مركز بين البارخانات الاصلية . فعند ما انعقد المجمع النيقاوى دهم
الاسكندرية اول مصاب حط من شهرتها ذلك لأن هذا المجمع قرر
اعتبار التاريخ الغربي قاعدة لعيد الفصح . ومن ذلك العهد اخذت سلطة
روميه الكهنوتيه في الازدياد بينما الاسكندرية والقسطنطينية كانتا
تحيطان وتضيقان لداعي الخصومات المستمرة ولكثره الاضطراب
والخلاف . ومن الاسباب التي اوجبت نقدم روميه ان الامبراطرة الذين

(١) في انقاون الذي صدر من مجمع نيقى وضع الكرسي الاورشليمي في
الدرجة الثانية اما الرئاسة الحقيقة في كانت تتراوح بين الاسكندرية ورومية

على مذهب اريوس لم يكونوا يعبئون بها او يهتمون بأمرها بل كانوا
 يصرفون جل جهدهم في مقاومة بطريرك مصر والخط من شأن
 الاسكندرية . وفي مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ (وهو مجمع غير عام)
 فازت رومية بالحصول على قانون عام يقضى باستثناف المذاكل إلى بابا
 رومية باعتباره حكماً في المسائل المتنازع فيها . وفي مجمع القسطنطينية
 الذي نحن في صدده - عـت في الحصول على اثبات مدعاهـا بـطـرـيقـةـ قـانـوـنـيـةـ
 ليس فيما يختص بالرئـةـ - لأنـهـ لاـ يـسـمـحـ لهاـ بـهاـ - بلـ فيـماـ يـخـتـصـ
 بالـاسـبـقـيـةـ وـالـأـولـوـيـةـ . وـكانـ لـغـرـاطـيـاـنـوـسـ وـابـيهـ قـوـةـ فيـ الـمـلـكـةـ الـفـرـيـةـ
 وـلـذـلـكـ اـدـعـواـ الرـئـاسـةـ عـلـىـ الـمـلـكـةـ الشـرـقـيـةـ ايـضـاـ وـلـهـذـاـ كـانـ الـوقـتـ
 مـنـاسـبـاـ جـداـ لـمـاـ تـدـعـيـهـ رـوـمـيـةـ خـصـوـصـاـ انـ مـلـاـكـ ثـيـوـدـوـسـيـوـسـ كـانـ تـحـتـ
 رـحـمـةـ اـمـبرـاطـورـ اوـرـوـبـاـ فـلـمـ يـسـعـهـ التـدـاخـلـ فـيـ هـذـهـ مـسـأـلـةـ اوـ الـبـحـثـ فـيـهاـ
 وـلـكـنـهـ كـانـ يـتـنـىـ لـوـاـنـ عـاصـمـةـ مـمـلـكـتـهـ (القـسـطـنـطـيـنـيـةـ) تـحـصـلـ عـلـىـ
 الـدـرـجـةـ الثـانـيـةـ فـيـ التـرـتـيبـ . وـاـنـتـهـىـ الـاـمـرـ بـأـنـ صـدـرـ قـانـوـنـ فـيـ مـجـمـعـ
 القـسـطـنـطـيـنـيـةـ هـذـاـ يـخـوـلـ لـرـوـمـيـةـ حـقـ الرـئـاسـةـ وـالـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ تـالـيـةـ لـهـ
 وـصـارـتـ اـسـكـنـدـرـيـةـ فـيـ الـدـرـجـةـ الثـالـثـةـ بـيـنـ كـرـاسـيـ الـبـطـارـكـهـ وـكـانـ
 ثـيـوـثـاوـسـ بـطـرـيرـكـ اـسـكـنـدـرـيـةـ وـهـوـ عـضـوـ فـيـ هـذـاـ مـجـمـعـ لـمـ يـنـلـ اـصـواتـاـ
 كـفـيرـهـ فـلـذـلـكـ خـرـجـ مـنـ مـجـمـعـ غـاضـبـاـ سـاخـطاـ وـآـبـ مـعـ اـسـاقـفـتـهـ إـلـىـ مـصـرـ
 حـيـثـ صـرـفـ مـاـ بـقـىـ مـنـ حـيـاتـهـ فـيـ اـتـمـ الـوـاجـبـاتـ الـمـفـروـضـةـ عـلـيـهـ بـكـلـ
 هـدوـ وـسـكـيـنـةـ وـقـدـ كـتـبـ تـوـارـيـخـ حـيـوـةـ كـثـيرـينـ مـنـ الـقـدـيسـينـ

المصريين ومع اشغاله باعمال اخرى اصدر ايضاً تعليمات للاساقفة
والقسوس يهتدون بهديها في معضلات الامور ومن هذه التعليمات
المرعية ان البكاهن يتحمل على نفسه المسؤلية اذا هو رفض اتمام عقد
زواج يظنه غير قانوني كأن يكون زواج الرجل بأخت امرأة المتوفاة . وفي
قانون آخر انه لا يجوز الصلة على رجل انحر وهو مختلف القوى العقلية .
وفي غيره كتب ردآ على سؤال وجه اليه قال « ان الذين يأكلون سهواً
قبل المناولة لا يجوز حرمانهم من تناول الاسرار المقدمة لهذا السبب
حيث ان الشيطان كثيراً ما يتخد مثل هذه الطرق لمنع الآدميين من
العشاء الرباني فإذا نحن حرمناهم منه فلنكون كمن ساعده على تضليله »
وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البطريرك شاد عدة كنائس
في الاسكندرية واذا انت تصفحت قائمة اسماء القديسين المصريين تجد
بینهم اسم تيموثاوس ولكن نبيل المؤرخ يقول انه لا يمكن ان يكون
القديس تيموثاوس هو هذا البطريرك ما دام ان القديسين المصريين كانوا
غير متزوجين وان هذا البطريرك كان متزوجاً . ولكن حيث انه كان
بین بطاركة الاسكندرية الاولين كثيرون منهم متزوجون وكانوا يعدون
من ضمن القديسين ايضاً فهذا البرهان الذي اتاه المؤرخ المذكور لا
يثبت هذه الحقيقة التي قلناها عن تيموثاوس ولا ينقضها

الفصل الناسع عشر

سقوط هيكل سيرابيس

سنة ٣٨٥ للمسيح و ١٠١ للشهراء

بعد ان تتيح البطريرك تيموثاوس الملقب بالفقير اختيار ثوفيلس خلفاً له وقد كان كاتب سر للبطريرك أناسيوس. وقد قال عنه يوحنا النيقاوي انه ولد من والدين مسيحيين في مدينة ممفيس . تيم ثوفيلس وهو في مهد الطفولية وكانت له اخت صغيرة ايضاً فنيط امر تربيتها بمحاريه حبشهية كانت ملكاً لا يربها . خذت في ذات ليلة قبل بزوغ الشمس ان الجاريه اخذت الطفلين الى هيكل الآلهة السكاذبه وفيه تثلا ار طاميس وابولون وكانت تقصد العبادة كعاده الوثنين . ولم يكدر الطفلان يطأ ارض الميكل حتى سقطت الاصنام الى الارض وتحطمـت تحطيمـاً (١) نفافت الجاريه اقتصاص الكهنه الوثنين منها فقررت هاربه وجاءت بالطفلين الى بلدة نيقيوس ولكنها لم تستقر فيها طويلاً لأنها رأت ان اهالي هذه المدينة قد يمكن ان يسلموها الى كهنه الاصنام فحيثـنـد سارت بالولدين الى الاسكندرية . وكان الهاـماً من الروح القدس او عنـالـهاـ ان تأخذ الطفلين الى احدى الكنائـسـ لـكيـ يتـسـنىـ لهاـ فـهـمـ عـبـادـةـ المـسـيـحـيـنـ بـطـرـيـقـةـ جـلـيـةـ . فـحـالـمـاـ وـجـلـواـ بـابـ الـكـنـيـسـةـ وـجـلـسـوـاـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ منـ المـنـبـرـ تحـولـ

(١) ان حـكاـيـةـ يـوحـنـاـ هـذـهـ غـامـضـةـ مـبـهـمـةـ وـقدـ مـحـتمـلـ انـ الطـفـلـيـنـ اـضـرـاـ باـالـاصـنـامـ فيـ انـهـماـ طـرـحـاهـاـ عـلـىـ الـارـضـ وـحـطـمـاهـاـ تحـطـيـمـاـ

نحوهم نظر البطريرك أناسيوس فأمر بابقاء هؤلا، الا شخص الثلاثة في الكنيسة الى ما بعد نهاية الخدمة . فلما ارفقت الكنيسة جيء بالولدين والجارية امام البطريرك فوجئ هذه الامة لانها ذهبت بابنا، والدين مسيحيين الى هيكل الوثن ثم أوضح لها ان هذه الآلهة الكاذبة لا تفهم ولا تعي ولا مقدرة لها على مساعدتها في شيء فضلاً عن انها تحطمت امام ولدين صغيرين ثم قال لها « من الان فصاعداً يبقى هذان الطفلان في قبضة يدي »

فلما رأت هذه الجارية ن سرها قد انكشف وانها لا يسعها انكار ما فعلت طرحت نفسها على قدمي البطريرك والتمست منه ان يعمدها لكي تصير مسيحية فقبل أناسيوس هذا الالتماس بكل ارتياح وعمد الثلاثة مما ثم وضع الصبية في دير بقية فيه الى يوم زفافها اذ تزوجت برجل من بلدة الحلة (غربية) وفيها ولدت ابا كيرلس الملقب بالنجم المشرق الذي صار بنعمته الله بطريركاً بعد خاله ثوفيس اما ثوفيس وبعد عماده ابسوه الحلة البيضاء (التونية) وجعلوه في زمرة الطلاب فشب على خوف الله وتضلع من معرفة الكتب المقدسة وكان مطيناً لا وامرها سائراً حسب فرائضها . وقد ترقى الى رتبة شمامس ومن ثم الى رتبة الكهنوت وأخيراً اختير للكرسى البطريركي اذا ضاء مدببة الاسكندرية باكمالها بنور ايامه الساطع . وقد فاز باشتراك شافة الاصنام من جميع المدن المصرية حتى لم يبق واحد يعبد التماثيل

المنحوتة كما انبأ عنها القديس أنطونيوس قبل الآن
 وعلمون ان ثوفيفاس كان غيوراً غيره تفوق حد الوصف ولكنه
 عرف بالتفصير في مضماري الحكمة والتواضع . وكان خيراً له ان لا يكون
 موضع ثقة الامبراطور ثيودوسيوس ومحظ افكاره لأن هذه الثقة
 أوجدت فيه نوعاً من الخيال والصلف . ولدينا الآن ايضاح بسيط
 عن السنوات الأولى من رئاسته هنا شرحاً لاعماله التي عملها
 من ذلك ان أول واجب فرضه عليه الامبراطور هو ان يبت رأياً
 في مسألة عيد الفصح التي وقع الاختلال والاختلاف فيها مرّة ثانية
 حتى انه في سنة ٣٨٧ صار الفرق بين العيد المصري والعيد الروماني
 مدة خمسة أسابيع كاملة . وبناء على ذلك وضع البطريرك ثقليداً للاغياد
 لمدة ٤١٨ سنة وصنع جدولًا يحتوي على الأيام التي يقع فيها عيد
 الفصح لمدة مئة سنة مبتدأً من سنة ٣٨٠ ولا تزال صورة هذا
 الجدول الخاصة باعياد الفصح باقية إلى يومنا هذا وفيها اوضاع ثوفيلس
 افكاره بأن مخلصنا صلب في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان
 (ابريل) لا في الرابع عشر منه . ثم وضع هذه القاعدة وهي : اذا كان
 اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يوافق يوم الاحد فعيد الفصح
 يتبعه باسبوع . ومما يحتاج إلى اثبات او هو محتمل الشك واليقين كون
 ثوفيلس ارسل كاهنًا من قبله اسمه السودورس في خلال اللدد
 والخاص بين يودوسيوس ومكسيموس مزوداً بخطابات شكر وتهنئة

ليوصلها الى الحزب الفائز من المزين

وفي نحو سنة ٣٨٩ تحصل ثوفيلس على هبة من الامبراطور هي اطلال هيكل دارس خاص بباخوس الله الخمر في الا-سكندرية حيث قصد ان يبني فيه كنيسة . فعند الشرف في حفر الاساسات اكتشفت قباب متنوعة مرسوم عليها صور تدل على الطقوس الدينية لعبادة الاوثان وقد عرفت في ما مضى ان جورجيوس ا-ء كثيراً بتفويضه اركان هيكل الاله مثراس الاوصاص بالوثانين وكذلك ثوفيلس ارتكب شططاً بالطريقة التي سلکها نحو هذه الطقوس الوثنية ولم يكن طويلاً حتى أصبحت شوارع الاسكندرية مرسحاً لخصام دائم ونزاع مستمر بين المسيحيين والوثانين خصوصاً وان هؤلاء كانوا يسيرون يومياً نحو الانحطاط والفناء ولذا اخذ منهم اليأس والطيش كل مأخذ سينا وانهم في مدة حكم قسطنطين كانت ديانتهم الوثنية تعامل معاملة حسنة اكثر مما كان يتظر قياماً على الحوادث التي وقعت في الائتي عشرة سنة التي سبقت هذه المدة الا ان قسطنطين كان قد ابطل الذبائح الوثنية خصوصاً التي كانت تجري تحت جنح الظلام لأنها كانت ذباح شريرة تعتبر كقتل وجنایات فظيعة . اما قسطنطينوس فلم يقف عند هذا الحد بل تعداد الى مقاصلة كل من خالف امر قسطنطين ومعاقبته بالموت وضم ممتلكاته لجانب الحكومة . الا ان هذين الامبراطورين كانوا يحترمان الفنون ويعتبران الآثار القديمة ولذلك لم يسمحا بلالشاة الهياكل

والتماثيل التي كانت تحتوي على أهم العادات وأثمنها . صحيح إنها أمرت
بإيصال الماء كل وعدهم تقديم ذبائح فيها ولكنها أيضاً أبقياً عليها كآثار
قديمة وأقاموا لها حراً على مصاريف الحكومة وعيناً لها أدلة يرشدون
الزائرين إلى مشاهدة ما فيها من الفنون والصنائع . ولما زار إيليانوس
محل ترداده القديم لم يجد أن الماء كل محفوظة فقط على غاية ما يرام بل
أن الحارس صار أسفقاً لها

أما في مدة حكم ثيودوسيوس فتغير كل هذا النظام وأبدل بالمرة
ذلك أن مبدأ التعذيب والاضطهاد الذي ادخله اتباع آريوس في الكنيسة
ووجد له مبرعاً عند الأرثوذكس فصاروا يتلون أيضاً إلى اضطهاد كل من
يختلف في الدين واللذاب حتى ان الرهبان كانوا أكثر الناس شرًّا من
هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم انهم كل مكان خصوصاً مصر
فاصبحوا فيها جيشاً ناشداً يسرون حفاة الاقدام حتى اشبعوا جماعة
الثوار في كل اطوارهم من جهل وعمى وبعدت عنهم المعرفة والعلم . ومساطوح
بهم الى مهاوي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط
الانسان بن ارتکاب المنكر . ثم زاد عصيانهم وصلبت رؤوسهم فلم
يكونوا يطعون آدمياً سوى رؤساء ادريتهم . فهؤلاء الرهبان أخذوا في
تقويض الماء كل والتماثيل الوثنية في كل أنحاء المملكة وذلك ضد الاوامر
الامبراطورية . وما يستدعي الاسف انه لما عزم ثيودوسيوس على
التداخل بقوته على ايقاف هذا الخراب العام ارهبه امبروز الميلاني وأوقفه

عن قصده بالتهديد الديني . وفي سنة ٣٩٣ أصدر ثيودوسيوس أمرًا يدفع
 به الغوائل عن مجامع اليهود ولكنها ترك هيكل الوثنيين التي كانت آية
 في الرُّءُوف والبهاء تحت تصرف الرهبان فلم ينج من أيديهم إلا المدرسة
 الرومية الخصصة لإقامة الأعياد وهيكل جوبيرت وذلك رغمًا عن ارادة
 أمبروز ولكنها أبida بعد وفاة ثيودوسيوس في مدة حكم ابنه . أما في
 مصر فقد سارت عوامل الحزاب في هاتيك الهيكل سير النازفي المنشيم
 وذلك باصر ثيودوسيوس بناء على طلب البطريرك ثوفيس . فلم يبق
 حجر على حجر من هيكل سيرابيس إلا ونقض وقد كان هذا الهيكل
 معدوداً من أجمل الاعمال الهندسية في مدينة الإسكندرية
 وإذا قلنا أن أعمال ثوفيس هذه كانت منشأ للاضطرابات والقلاقل
 فلنا أن نقول أيضًا أن الوثنيين أنفسهم اجهزوا على ما بقي لهم من
 الرفة والمجد وجروا أنفسهم إلى الحضيض . وكان في أثناء الخصومات التي
 حدثت بين الوثنيين والسيحيين أن قتل كثيرون من هؤلاء أما الوثنيون
 فاختاروا أولبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائداً لهم ثم ذهبوا وتحصنوا
 في قتن هذا الهيكل العظيم وأخذوا يدافعون عن أنفسهم ويصدون
 هجمات مدينة الإسكندرية التي قامت ضدهم . وقد كان هذا الهيكل
 حصن حصين لأنه بني على صعيد من الأرض على شكل بديع وفي وسطه
 ردهة واسعة وكانت جدرانه سميكه مبنية على شكل هندسي دقيق تعلوها
 طبقة من النحاس وتتر تחתها أمباش وطرق سرية وهو مقسم من الداخل .

اى غرف تختص بعضها بالكتبه وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيها
 مكان هائل معد للمكتبة الكبرى التي فاقت مكتبة المتحف المصري في
 عظمتها وكثرة محتوياتها . ففي هذا الهيكل السامي تحصن وجوه الونطين
 ومعهم رجال ابطال أعدوا للحرب والقتال فكانوا يسخرون وهم من
 داخل ابوابه بالامبراطور والبطريرك معاً ولكنهم لم يبقوا على هذه
 الحالة طويلا بل هددوا الامن العام اذ خرجوا من حصنهم وهجموا على
 المدينة هجنة واحدة واحتلوا جهوداً من المسيحيين أدخلوهم في هيكلهم
 وعدبوهم امام المذابح ليضطروهم لان يذبحوا اللاوثان
 ومعلوم ان الحكومة لا تسمح باستمرار مثل هذه الاحداث ولذلك
 ساروا باجريوس والي مصر في ثلاثة من الجندي وتقدير نحو الشائزين ثم أخذ
 يسرد لهم نتيجة هذا العمل الذي يعد ضرباً من الجنون ويظهر لهم سوء
 العقلي وصرامة القصاص الذي يقع عليهم اذا هم ظلوا يسخرون بالسلطة
 الرومانية . ولم يكدر ينتهي من كلامه حتى قام او لمبيوس والي في قومه
 خطاباً فصيحاً يحضرهم على احتمال أي عناء وتعب لا ازيد ترکوا الله اباهم
 عرضة لاهزء والسخرية . فلذلك رفض جماعة الونطين المصر بين سماع كلام
 الوالي لرومني وشاحوا بانوفهم اعتراضًا عن نصائحه بانفة وشهامة عرفت
 عن اجدادهم الاولين

ولما كان هذا الهيكل حصيناً لا يمكن فتحه الا بعد حصار طويل
 وحرب عوان ترك الوالي جماعة الونطين فيه دون ان يفاتحهم المدواون ثم

كتب لولاه الامبراطور يسأله اعطاء التعلميات والاوامر اللازمه للعمل
بموجها في حل هذا المشكل . فرد عليه الامبراطور ثيودوسيوس قائلاً
أن المسيحيين الذين قضوا نحبهم في هذه الحوادث يعدون ضمن الشهداء
ولذلك يجب مسامحة قاتلهم والتجاوز عن سياسات الذين أساوا اليهم .
ثم أمر الامبراطور بهدم جميع الهياكل التي في الاسكندرية واذالتها من
الوجود ما دامت هي سبب هذه الاضطرابات ونشأء هذا الهيجان
والثورات

فلما ذاع خبر الامر الذي أصدره الامبراطور ودرى الناس ان
سيارة جهاراً على رؤوس الاشهاد احتشد كثيرون من المسيحيين والوثنيين
لسماع موئده ومعرفة ما حواه . فلما اتى الوالي قراءته صاح المسيحيون
صيحة الابهاج والتمليل أما الوثنيون فعترتهم دهشة ورعب وفراهارين
فلما آتى المساء واسدل الظلام حجبه خرج او لمبيوس واتباعه من الهيكل
وترکوه و شأنه تعجبت به أيدي العباد وساروا يتمسون لأنفسهم كيما
يلجاؤن اليه . قيل انه لما خيم الظلام ومد الليل رواقه من أحد المسيحيين
على الهيكل فوجده بلقعاً بوراً ليس فيه أحد من الانس ولما اقترب
إلى مزار الهيكل الذي فيه الذخائر المقدسة سمع صوتاً من الداخل يقول
(لا يوجد أحد هنا) ثم تلا هذا الصوت نغمة تسبيح ختمت بكلمة
(هللوياه) فعجب الرجل لهذا الامر الذي لم يعرف له سبباً ولكنك
ستعرفه أنت فيما يلي

وفي اليوم التالي استيقظ سكان الاسكندرية سحراً جداً وبداء هرjac الناس وصر جهم يتزايد وجموعهم تتوافد الى أن انتظم عقد الاحتفال وسار في مقدمته البطريرك والوالى راكبين جنباً لجنب وتبعدهم جمورو الكهنة يرتلون ويسبحون ثم العساكر يسيرون عابسين وفي أيدهم الفؤوس والحراب وباقى دوات الحراب . وبينما كانت هذه الجموع المكتظة تسير الهويناء كان يقول أحد منهم للآخر إن الآذى ذكر تلك النبوة القديمة التي فاه بها بعضهم وقال انه في اليوم الذى تتلاشى فيه هذه الاصنام تضمهنل الارض وتتساقط السموات وتتقوص دعائم العالم باسره ويعم الحراب والفناء كل متحرك وجامد فيه . وكثيرون من المسيحيين كانوا يصدقون هذه الخرافة حتى خافوا اتهاها هذا العمل لئلا تصبح النبوة وتخرب الدنيا . فلما اقترب ذلك الموكب من الهيكل صعد نحو مائة رجل على الدرج حتى وصلوا الى الطيارة الكبرى التي رقاها ذلك الشاب اوريجانوس وحده قبل هذا الزمن وقام فيها خطيباً والخطير يهدى حياته وذالم لكي ينادي بيسوع مصلوبآ الذي جاء خدامه الان فى أبهة الرئاسة وعظمة القوة تحيط بهم الجنود وتحف بهم سطوة الملائكة الرومانية ليهدموا هيكل الدينان الوثنية القديمة ويرهن بوجوده على قوة تأثير الديانة المسيحية الجديدة وفعلها السريع

وكان كثيرون من المسيحيين الملسمين حول بطريركهم والوالى تتراوح قلوبهم بين عوامل الخوف والفرح ولم يكونوا قد رأوا هذا

الله العظيم الذي جاؤا ليرموا به في الحضيض وهو الذي تسلط على
عقول المصريين مدة ستمائة سنة وملك افهمهم بخرافات واباطيل كان
منبعها ذلك المزار المقدس الذي كانت تخرج منه أصوات لا يفهم الناس
مصدرها فكانوا يعدونها اسراراً لا يقدر على ادراكها الا الله
الكاذب . وقد وقف هؤلاء المسيحيون يشخصون في هذا التمثال وهم
سكتوت كأن على رؤوسهم الطير بينما كانت آمال جماعة الوثنيين
الحاضرين تذبل ورجاؤهم في هيكلهم العظيم خاب وضعاع لما رأوا عوامل
الخراب والدمار تفعل فيه فعلاً قاسياً . وقد يغلب على الظن ان والد
هيبياشا التعيسة كان بين هؤلاء الحاضرين وهو الذي صار فيما بعد
شهيد هذه الديانة المalaكية . وكذلك هيبياشا كانت في ذلك الوقت
يُطْفَح وجهها بالجمال الناضر مع انها لم تكن في عنفوان الشباب وكانت
تنظر الى هذا الاحتمال الغريب نظرة المعجب المغضب ولا بد انها
درفت فيما يبد غلط هذه الحفلات التافهة ووخامة هذا التعصب الغبي
الذي اتاه جماعة يعبدون ابن النجار الذي عاش في هذا العالم يسامي
الاشرار ويؤاخى الخطاة ويأكل مع العشارين ويدخل بيت امرأة
خاطئة ويعقو عن الزانية بينما عبيده وخدامه يقتصون من كل من سار
على غير مذهبهم وخالفهم في مشربهم . وقد عثرنا في كتاب على وصف
لتمثال الله سيرابيس فآثرنا نقله هنا افاده للقراء الكرام وهكذا الوصف :
« كان للاله سيرابيس تمثال هائل جالس القرفصاء وله يدان متدان

في عرض المكان وتصالان بجدران على جانبيه وهو مصنوع من
 معادن مختلفة اغبر لونه وأكفر منظره لمروء زمن طويل على صنعه
 ولكنه كان صرحاً باحجار كريمة ثمينة لا تزال تتألق وتضيء حتى
 تكاد تخطف الا بصار بلمعانها . وكان على صورة رجل هرم وضع على
 رأسه مكيلاً للغلال رمزاً على الخصب وجودة الحاصلات والى جانبه
 صورة رأس اسد ورأس كلب ورأس ذئب . وكانت احدى يديه على
 شكل افعى وذلك رمزاً على الخلود . ولا غرو ان خليفة اثنا-يوس (اي
 ثوفيلس) كان ينظر الى التمثال الذي يدل على عظمة الديانة المصرية
 القديمة نظرة معجب بها مندهش من خامتها كما ان جماعة الاسكندرية
 كانوا ينظرون بعين ملؤها الاعجاب بهذه المباديء القديمة التي سادت
 على مصر في الازمنة الماضية سيادة لم تكن لتنزع لولا محبيه الوقت
 الذي فيه ملك ذلك الملك العظيم على هذا العالم فقامت كنيسته حينئذ
 ووضعت اعداءها تحت موطيه قدميهما «

ولما بدأ المهدم في ذلك المهيكل ضج قوم من الواقعين وعجووا وأخذ
 دخان يثور من افواههم يدل على ان وراءه نار قد يتاجج سعيرها اذا
 حركتها الا زند ولذلك رأى البطريرك أن الحكمة تقضي باتمام هذا
 العمل في اسرع وقت لأن التأخير قد يذبح ضرراً لا تعرف نتيجته الا
 بعد حدوثه ومن ثم التفت نحو رجل من حاملي المعاول والفووس
 وامرته أن يضرب التمثال الضربة القاضية فرفع الرجل فاسه وضرب

التمثال ضربة ازبعت جماعة الحاضرين وجعلتهم يصرخون صرائح الحوف
 والرعب كأن عدواً قويًا فاجأهم على غرة منهم . ثم ثني الصارب مرة
 أخرى فانقلب خوف القوم وصار لهم إلى ضحك وقهقهة عند ما رأوا رأس
 آله الماصر بين القدماء تتدحرج على الأرض كالكرة وخرج من جوفه
 رهط من الفيران والجرذان فزعت مذعورة كمن دهمتها مصيبة أو أنها
 كانت كمن أفرج عنه بعد طول الاعتقال فذهبت إلى كل ناحية من
 أنحاء الهيكل وهي تزحف وتركض في حلة جذلة أو خائفة وجلة . ولم ينك
 طويلاً حتى زال الحوف والرعب من القلوب وأخذ القوم في تدمير هذا
 الهيكل العظيم وهم يطربون فرحاً ويفرحون طرباً ولم يتركوا فيه تمثلاً
 إلا وحطمواه تحطماً . لم يدعوا فيه بناء حتى نقضوه نقضاً فساوت جدرانه
 الساقمة الأرض الواطئة وانحاطت تلك المبنى الفخيمة إلى أخذ يض الاسفل
 ولكن السور الخارج لم يهدم وظل قائماً مكانه إلى أن صار فيما بعد
 بطيئاً يقيم فيها البطريرك

أما وجوه الوثنين واصحاب الحيثيات، فيهم الذين سببوا كل هذا الهياج
 والقلق ضد المسيحيين فلم يجدوا لهم حيلة بعد الذي جرى سوى ان
 يتركوا الاسكندرية ويغروا هاربين الى ديار أخرى غيرها ولم يعد أحد
 من المسيحيين يده بسوء الى هؤلاء الوثنين مع ان هيلاديوس كاهن
 الاله جوبير صرخ على رؤوس الاشهاد مفتخرًا بأنه ذبح صرعة بيده تسع
 ذبائح آدمية على مذبح الاصنام السكاذبة . وقد كتب سفر اباطيل ذلك

الفقرة الآتية عن هيكل سيرابيس قائلاً : -

«عندما هدم هيكل سيرابيس وأصبح انقاضاً بالية وجد منقوش على حجارته كتابة باللغة الميروغليفية لها شكل الصليب وهيئته تماماً فيما رأها المسيحيون والوثنيون قال كل فرق منهم ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة ينادون الغير . ذلك لأن المسيحيين يعتقدون ان الصليب علامة الفداء وتذكار الحالص الذي عمله المسيح للجنس البشري ولذلك قالوا ان هذه الاشارات اتي وجدت على الحجارة تدل على ديانتهم وتنبيء بها اما الوثنيون فقالوا لا يبعد ان تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيرابيس في آن واحد وذلك لأنها مشتركة بين المسيحيين من حيثية الشكل وبين الوثنين من وجده الكتابة والحرف . وبينما كان الطرفان يتبااحثان ويتجادلان في هذا الشأن ظهر لهم وشي اعتقد الديانة المسيحية وكان ملأ بعرفة الميروغليفية عارفاً باللغة المصرية القديمة فترجم لهم هذه الكتابة الموضوعة بشكل صليب فإذا هي «الحياة العتيدة» فلما سمع المسيحيون هذه الترجمة قالوا لم يبق بعد دليل على أنها تشير إلى ديانتنا وإنما وضعت لتنبيء عنها . تم ظهرت كتابات أخرى باللغة المصرية اووضحت معنى شكل الصليب هذا ايضاً تماماً وعنهما «انه عندما يبتدىء الناس يعيشون العيشة الجديدة (اي يصيرون مسيحيين) نلا بد من سقوط هيكل سيرابيس ودماره » فلما طرق هذا القول مسامع الوثنين اقبل كثيرون منهم الديانة المسيحية معترفين بخطاياهم تائبين الى ربهم عما فرط منهم

ثم تعمدوا بعمودية التوبة الصحبية
 وقد عم مداء كسر الصور وتحطيم التماثيل مصر بأسرها واصاب
 الضرر جميع العادات والآثار الثمينة في القطر المصري مدة القرن الرابع
 لما لم تصب بهاته من افتتاح الفرس مصر او عند أخذ المسلمين
 ايها لما بدوا بعوامل الخراب فيها شيئاً فشيئاً وساروا في تدميرها كل
 وبنفس قبور الاموات سيراً حيثما وكان غرضهم البحث عن الكنوز التي
 زعموا انها موجودة داخل تلك الاجدات وهو خطأ لا يزال الكثيرون
 يأتونه في ايامنا هذه ولم ينج منه حتى بعض السياح الذين يجهلون الحقائق
 ويظنون ان كل الصيد في جوف الفراء او ان كل السعد والغنى في باطن
 القبور المصرية القديمة . ولم يبق اثر للهياكل في الاسكندرية وغيرها من
 المداير الشهيرة بل تساوت جميعها بالارض واخذت منها انتهايل والانصاب
 المعدنية وسبكت اواني واواعية للكنائس اما التماثيل الحجرية فتحطمت
 وسحقت ولم يسلم منها سوى تمثال له رأس نسناس اقامه البطريرك ثوفيلس
 في ميدان فسيح حتى يعتبر الناس به ويملوها كنه الالهة التي كان يعبدوها
 ابا عهم والاجداد وكيف انها حقيقة مزدراة . ولكن هذا الصنيع اساء
 امواله ونبع خاص وهو ذلك العلامة الوثني الشهير واخذ يتذمر ويندم
 هذا المشهور المعيب الذي شهورت به الديانة القديمة وكيف انها صارت
 هزءاً وسخرية
 وما في باقي الافاليم المصرية في كانت الهياكل الوثنية لا تزال قائمة على

اساساتها ولم يصل الخراب الا الى بعض اجزائها فقط ولكن تمثيل الامة التي كانت من أحسن ما صنعت يد الانسان وبهذا حد وصلت اليه الفتون المصرية القديمة اذا تحن قسنها على المثالين اللذين نقلوا لرومية - كل هذه التماثيل أزيلت وأعدمت ولم يبق منها اثر ولا عين . ولما في حكاية يومن واخوته التي سنسردها الان اعظم مثال على عوامل التخريب التي لعبت بتلك التماثيل الثانية

اما يومن هذا فكان له اخوة سبعة او سبعة كما يقول البعض وقد حصاروا جميعهم رهباً وامتاز يومن وواحد من اخوته اسمه انوف بالشهرة الواسعة والصيت الطيب . وحدث ان جماعة التدمير بين الذين عرفنا انهم غزوا مصر قبل استولوا على جميع ممتلكات والدهؤلاء الاخوة ثم اوردوه حتىفه وطردوهم من منزلهم ففر هؤلاء الاخوة يتطلبون النجاة لانفسهم من اولئك المعذبين ثم اصبحوا بلا مأوى ولا عضد جائدين في فضاء الارض ورحبتا بمحالة البوس وضنك العيش الى ان حطوا رحالم في هيكل خرب اخذوه داراً لم يأوون اليه . وكان انوف اكبر هؤلاء الاخوة يتأنم ويتوجمع الحال اخوه اكثر من غيره . وحدث انه وجد في هذا المهيكل ابالي مثالاً عجيب الصنع مطروحاً على الارض بعد ان عبده الناس زمناً طويلاً في المهيكل المذكور وسبحنت له الجبار والصقور بالارض اكراماً له واجلالاً فرأى انوف ان يجعل هذا المثال درساً لاخوه ويتخذه لهم عظة يعظون بها فرجاهم ان يظلوا أسبوعاً كاملاً

سادتين دون ان ينتشوا يلنشت شفة ولا ان يسألوه عما يفعله . وكان يهرب من نومه في صباح كل يوم من ايام هذا الاسبوع ويجمع اخوته حوله بالاشارة ويلتديء يرمي ذلك التمثال بالاحجار ويكسر بعض اجزائه ثم يركع امامه ويسائله الصفع والمغفرة فلما انتهى الاسبوع سأله اخوته ايضاً وشرحاً اعملاه هذا فاجابهم ان هذا التمثال قد اهنته كثيراً وحقرتها تحريراً فلم يشك ولم يتذمر لانه صنع ايدي الانسان فهو لا يعارضه في عمله . كذلك يحب على الانسان الخضوع الى اراده الله واعماله دون ان يعترض او ينقم

وبعد مضي بضع سنوات على هذه الحادثة علمت امهاتهم ان ابناءها ترهبنوا وهم يقطنون دير وادي النطرون فطلبتهن بشوق معروف عن الوالدات خصوصاً وسارت تجده الخطي حتى وصلت هنالك ولكن بومن رفض مقابلتها بالمرة وسبب ذلك ان شظف العيش وضيق الحال وهاتهيك المصاعب والمتاعب اوقدت الاحساس الشريف واضاعت العواطف الحية من قاب بومن هذا حتى انه ابى النظر الى وجه امه التي ولدته . واما يندرج ضمن هذا الباب ايضاً ان ابن اخت بومن كان قد حكم عليه بالاعدام فرنحني الوالي بالعفو عنه اذا تدخل بومن في امره وطلب العفو عنه وذلك لشهرته بالنقوى والمعفاف ولكن بومن لم يعبأ بتوصيات اخته التي حرّكت الجماد ولم تحرّك قلبه بل اجاب وجها بهذه العبارة « اذا كان الشاب يستحق الموت فليت والا فلا بد ان الحاكم يبرئه »

وفي وقت حكم البطالسة كان مقياس النيل المقدس محفوظاً في هيكل
 سيرايس فلما ملك قسطنطين نقل هذا المقياس من هيكل سيرايس
 ووضع في الكنيسة القيصرية الكبرى «سيزار يوم» ثم أعيد إلى ذلك
 الهيكل باعر من يوليانوس الملحد . فلما خرب الهيكل خراباً كاملاً نقله
 المسيحيون إلى كنيستهم باحتفال باهر فتنبأ الوثنيون بنبوة مفادها ان
 الآلهة سينتفخون لانفسهم بمنع النيل من الفيضان حتى لا يروي
 الارضي . وكان النيل قد تأخر في الزiyادة عن موعده السنوي فصدق
 صغار العقول من الوثنين والمسحيين ان الآله سيرايس انتقم منهم
 حقيقة وقاصدهم على تخريب هيكله فزاد خبر الناس وقلقهم وتفاقم
 الشر حتى خشي الوالي الخطر من هؤلاء الناقدين وكتب يسأل المرجع
 الاعلى عما اذا كان مناسباً ان يرد شر جماعة المترددين ويكتفى الحكومة
 مؤونة الثورة والهيجان بان يجعل مقياس النيل تحت رعاية الكهنة
 الوثنين وتصرفهم . فاجابه الامبراطور ثيودوسيوس جواباً مختصراً
 مفهماً هو «اذا كان النيل لا يفيض الا بواسطة السحر والرق او بذبح
 الذبائح وتقديم المحرقات خير له ان لا يفيض وان تبقى مصر ظانة الى الابد»
 ولم يكدر هذا الامبراطور يصدر امره الانف ذكره حتى تغير الحال
 واحد النيل في الفيضان بسرعة زائدة حتى خاف الناس الغرق بعد ان
 كانوا يخافون الشرق وزال بذلك خطر الثورة فتنعم بالمسحيين
 واستراح خاطرهم

الفصل العشرون

﴿ الاخوة الطويلو القامة ﴾

﴿ سنة ٣٩٥ للمسيح و ١١١ للشهداء ﴾

في سنة ٣٩٤ سار البطريرك ثوفيلس الى القدسية ليحضر مجمعاً آخر عقد فيها انقض بعض المسائل التي اودت الى خلاف بين جهود الاساقفة المتباهي الاغراض والغابات . وقد حضر هذا البطريرك الاحتفال بتدشين كنيسة كبيرة بذيت اكرااماً لرسولين بطرس وبولس كان الوالي قد شادها في دغلة حول مدينة خلقدونية تدعى دغلة البلوط . و يحتمل انه في هذه السنة عنها ان ارسينوس استعنى من وظيفته وهي تعليم ابني الامبراطور وتهذيبهما وصار راهباً وانخذ ارض مصر موطنًا لرهبنته وهو رجل عالم فاضل عرف بين ازواجه بسعة العقل وغزاره المـادة والتضلع في المعارف النافعة وربما كان قد عاد مع ثوفيلس عندما جاء من القدسية الى مصر بعد

ارفضاض المجمع

وفي سنة ٣٩٥ توفي الامبراطور ثيودوسيوس فأقتسم اولاده المملكة قسمين خص اركاديوس المشرق وهو نور يوس المغارب . وفي سنة ٣٩٨ ذهب ثوفيلس مرة ثانية الى القدسية ليرسم يوحنا كريستوس بطريركاه هذه الابروشية . قيل ان ثوفيلس اتم هذه الرسامة رغم عنده لان ارتفاع كرسبي القدسية الى درجات الفخار فوق الاسكندرية كان قد ساءه جداً كما ساء سلفه تيموثاوس من قبله ولذلك تمنى لو يمكنه ان يعين شخصاً من

خاصته في هذا المركز بدل تعين رجل مشهور قادر مثل يوحنا المذكور آنفًا
 ولحد هذا الحين كان ثوفيس على وذاق ووئام تمام مع جماعة الرهبان
 العديدين في مصر خصوصاً مع رهبان وادي النطرون الذي هو أكبر دير
 وأقرب لمدينة الاسكندرية من غيره وكانوا قد ساعدوه في هدم الهياكل
 وتدميرها فدح غيورتهم وسرورتهم وكافاً لهم على ذلك بآن رقي بعضهم إلى
 رتبة الامسقية كلما كانت تسعن له الفرصة . وبين الذين ترقوا ديسفوروس
 أحد الاخوة الطوباوي القائم تعين اسقفاً لواحة هرموبوليس (المنيا) كذا
 شقيقاه يوساب ويوثيموس كان ثوفيس قد طلب منها آن ياركاً دير وادي
 النطرون ليعيزهما رعاة في كنيسة الاسكندرية . وفي سنة ٣٩٩ دارت
 المكابنة بين ثوفيس وجيروم فقصد منها آن يسيوي الخلاف بين جيروم
 ويوحنا اسقف اورشليم وهو من رهبان وادي النطرون وكانت النتيجة ان
 جيروم رد على بطريرك الاسكندرية قائلاً «إنك لم تعرف كيف يكتبون
 الصدام مع الخصم في حومة الجدال ولم تبعد لذاء المدوس غير هيباب ولا وجبل
 لأنك الفت رهباناً يختفون به ويجلون قدرك عند مقابلتهم اياك بل، هم
 يحيونك ويزبونك باخلاق وولا، لأنك لم تظلمهم وأ بالحربي لم تقس عليهم
 في شيء»^١

(١) يظهر ان جيروم لهذا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للدير في بيت لحم كان ميلاً طبيعياً الى الشفاق والحنان . فقد سبق له انه غضب وصفع مع صديقه القديم روفتيوس الذي كان ساكناً مع ميلانيا في جبل الزيتون عند ما هجر مصر لغاية سنة ٣٩٧ عندما ذهب الى رومية وكذلك تناقر جيروم مع ثوفيس بشان اسقف مصرى كان هذا قد حرمه وطرده فقبله جيروم عنده بآكرام وتبجيل

وقد أورد مؤرخو ذلك العصر أدلة كثيرة تؤيد تفضيل هذا البطريرك للرهبان اتباعه واشارهم على غيرهم في الخطة التي وضعها انسانيوس لسوء الحظ وهي اختيار الاساقفة من بين الرهبان المذاب بدلًا من اختيارهم من بين القسوس المأذوجين . و اذا نحن بحثنا في النتائج التي نجمت من هذا التفضيل لرأينا ان الجهل والعمه فشيا بين جماعة الرهبان لاسباب المذكورة كما انهم تدرجو في مبادئ العبرفة والغطرفة مذ تسليم مقاييس هذه الوظائف اليهم . ولذلك دليل متين على هذه الغطرسة والخيال ، هي ان العلامة ارسينيوس ذلك الرجل الطيب الارومة الشريف المحتد لما نوى على الرهينة وجاء ليقدم نفسه الى رئيس دير بربة شيهات وكان اسمه يوحنا وتسل اليه ارسينيوس بكل تواضع وخضوع ان يقبله عنده ليكون في زمرة هؤلاء الرهبان فاعرض هو ورهبنته عنه وذهبوا يتناولون طعامهم جلوساً بينما هنا العالم الفاضل واقف يتلطفى كانه على مقالي الامر (١) واخيراً رمى له واحد منهم بقطعة من الخبز الجاف كأنه كاب فجئ ارسينيوس والتقبلا التقاما . ففيما رأى الرئيس منه ذلك قال بصلاحيته للرهينة وصرح له بالبقاء مع الرهبان حتى يدرس قانون الرهينة درساً مدققاً ويسيطر على فرائصه واحكامه وعيشه له صومعة يقيم فيها في سفح جبل المقطم حيث قضى اربعين عاماً معتازلاً

(١) ان مبدأ العنف والقسوة الذي سارت عليه الاديرة المصرية مع كل طالب للرهبنة راغب فيها لم يقتصر على مصر بل تعداها الى اوروبا حتى صار قانوناً مرعياً في قوانين الرهبنة هناك

وحيداً . وقد عزم الامبراطور اركاديوس ثالث ارسينوس وريمه ان يرقى
 استاذه هذا ويتحمّل اقصى درجات المجد والشرف وينعم عليه بجزية مصراً
 وخراجها ليصرفها على الفقراء والاديرة فاجابه اركاسينوس انه مادام قدماً
 عن هذا العالم وصلب الجسد مع الاهواء والشهوات فهو لا يتم بالدرهم ولا
 يعنيه امر توزيعها وتقسيمها بين الناس . ومع كل ذلك فلم تخمد نار غيرته
 الوطنية ولم ينزل حادقاً وديعاً طيب القلب نقى الفواد . والذي يراجع
 الروايات المأكولة عنه يظن لاول وهلة ان عيشة العزلة والانفراد اثرت في
 طباع هذا الرجل فعمله شكساً جائفي المراس ولكن الحقيقة التي لا مرية فيها
 هي انه اختار راهباً اعتاد على السرقة والخطف واتخذه له خدنا ورفيقاً
 بواسكته معه في مغارته وكان قصده من ذلك ارجاعه عن عادته هذه
 واصلاح حاله . والذي يقلب صفحات الكتاب المسمى « نصائح للرهبان »
 المسند اليه يرى مقدار الشعور العميق الذي كان يشعر به هذا الفاضل من
 التجارب الكثيرة التي يقع فيها جماعة الرهبان وكيف انه حذر كثيراً واندر
 طويلاً في هذا الصدد مما يدل على الخبرة الواسعة واليابع الطويل
 وكان البطريرك ثوفيلس قد جاء الى الدير لزيارة ارسينوس
 فقال له هذا انه يرجوه امراً واحداً . قال البطريرك وما هذا . اجاب
 ارسينوس اني اطلب منك ان تعود ادرجك دون ان تقابلني لاني
 لا ارغب في رؤية ادمي فقط . وحدث ان سيدة من عقيلات رومية
 كانت تعرفه من قبل جاءت لزيارته وسارت المسافة بين الريف

ووادي النطرون مشياً على الاتدام لكي تراه اما هو فتقاها بفظاظة
وعبوسة وابي مقابلتها فشككت هذه الفاضلة امرها ثوفيفاس فطيب هذا
خاطرها وقال لها انها واحدة من بنات حواء لا ينتظرون قد ايس تقى
ميشل ارسينوس ان يخاطبها او ينظر الى وجهها

وقد كان في طوق البطريرك ثوفيفاس ان يتحمل الكبيرة والغطرسة
اللتين شبت عليهما جماعة الرهبان اما جهمهم فكان مما لا يطاق ولا
يمحسن السكوت عليه لما فيه من الخطير وسوء المصير بذلك على ذلك انه
في سنة ٣٩٩ مـ اصدر البطريرك رسالة الفصح السنوية اغتناث اولئك
الرهبان الجهلاء من عبارة بسيطة وردت فيه وكان سبب غبظتهم سوء فهمهم
وقصره ادراكهم مع سفاله في الطبيع والخطاط في الاخلاق . اما تلك
العبارة فهي قوله ان الله روح لا يدركه انفهم وليس هو مجرد انسان
عظيم الشأن يجزأ ويحمد ويحصى كا هو شأن الادميين
فليا قراء اولئك العمياني هذه الرسالة حنقوها وهاجوا هياجا غير
منتظر وقام جيش جرار منهم ترك وادي النطرون وسار في عرض
الصحراء الى ان وصل الدار التي يقيم فيها البطريرك فاحتشدوا حولهـ
كالنمـل واخذوا يصيحون ويتوعدون ويتهددون البطريرك بالموت العاجل
ان لم يسحب كلامه ويعدل عن رأيه المذكور قبل

فاختار ثوفيفاس واضطرب اذا رأى نفسه وحيدا لا سند له يدافع
عنـه ضد هؤلاء الناقدين الذين كانوا يوجون كالبحر الراـخر ويرغون

ويزبدون كأنهم جيش عرصم مل من طول الانتظار وطلب الكفاح والقتال فلم يجد هذا البطريرك الضعيف حيلة سوى أن يتلقفهم فناداهم قائلا «أني إذا رأيت وجوهكم أشعر كاني نظرت الله وجهه لوجهكم على صورته ومثاله» وإن كان هذا التلقي لم يكن ليسكنهم أو يوقفهم عند حدتهم بل صالح بعض الزعاف منهم طالبين من البطريرك أن يحرم أو ريجانوس وبشجبه لأنهم اعتبروا أن البدعة التي ذكرها البطريرك في رسالته حسب زعمهم قد اقبسها من أراء أو ريجانوس وافقكاره فلم يوضوا الانصراف من أمم البطريركية إلا بعد أن وعدهم البطريرك باجابة ملتمسهم وحرمان أو ريجانوس أما الأخوة الطويلو انتقامه فانفوا من تصرفات هذا البطريرك واذروا بهذا التلقي فعادوا راجعين إلى وادي انطرون دون أن يقابلوه وإن كان الخلاف لم يانض ولم ينته أمره فاضطر ثوفيلس أن يصالح هؤلاء الرهبان المحتفظين للثورة بل يخشى أنه استخدم بعضهم في المصالح الكنسائية خوفاً من قوتهم وانقاذه لبطشهم وعنفهم (١) وكان إيسودورس أمين صندوق كنائس الاسكندرية صديقاً جميما

(١) إن جميع الرهبان لم يؤدوا رسالة البطريرك ولم يفهموها بالمعنى الذي فهمها به أولئك البلداء . فان راهباً من أكثر الرهبان جهلاً كان يعبد الله كأنه انسان بمحض اللفظ وكان هذا الراهب واسمه سيرابيون قد بلغ من الكبر عتياً فكان مبغلاً معظمًا في دير برية شبهات . وقد ظلل على اعتقاده هذا مدة من الزمن الى ان وقعت بينه وبين رئيس الدير وشمام ك بدوي عالم مباحثة وجدال اقتع منهما بخطائه في فهم الكتاب المقدس وأخذته بمعناه الحرفي بل يحب تفسيره ووجياً لأن الحرف يقتل اما الروح فيحيي

لـ ثـوـفـيـلـس وـدـامـتـ الصـدـاقـةـ بـيـنـ هـامـدـةـ مـنـ السـنـينـ وـلـكـنـ الـحـالـ تـغـيـرـ لـأـسـبـابـهـ
 وـاسـتـحـالـتـ الصـدـاقـةـ عـدـاؤـهـ وـاسـتـحـكـمـ الخـلـافـ بـيـنـ الـاثـيـنـ . وـلـمـ كـانـ اـيـسـوـدـورـسـ
 مـنـخـارـاـ لـمـذـهـبـ الـفـائـلـيـنـ بـالـوـهـيـهـ اللـهـ وـرـوـحـانـيـهـ اـتـخـذـ ثـوـفـيـلـسـ هـذـاـ الـاعـقـادـ
 وـاسـطـةـ لـلـايـقـاعـ بـهـ بـاـنـ حـازـبـ اوـائـكـ الرـهـبـانـ الـكـافـرـيـنـ كـانـ يـنـفـرـ
 مـنـهـمـ وـمـنـ مـعـتـقـدـهـمـ قـبـلاـ وـحـرـضـهـمـ ضـدـ اـيـسـوـدـورـسـ . وـقـدـ ذـكـرـ بـعـضـهـمـ
 اـسـبـابـ كـثـيرـةـ قـاـلـوـ اـنـهـاـ كـانـتـ مـنـشـأـهـ لـهـذـاـ الخـلـافـ الشـدـيدـ وـلـكـنـ الـذـيـ
 يـقـرـبـ مـنـ الـذـهـنـ اـنـ سـبـبـهـ مـسـائلـ مـالـيـةـ تـخـتـصـ بـالـدـرـاـمـ الـتـيـ هـيـ عـلـةـ كـلـ
 شـفـاقـ وـسـبـبـ جـمـيعـ الـبـلـاـيـاـ فـيـ هـذـاـ الـعـالـمـ .
 اـمـاـ فـيـماـ يـخـتـصـ بـهـ الـكـنـائـسـ فـكـانـتـ الـمـادـةـ اـنـ جـمـيعـ الـعـطـاـيـاـ وـالـهـداـيـاـ
 الـتـيـ يـهـبـهاـ جـمـاعـةـ الـمـؤـمـنـيـنـ نـكـنـيـسـةـ اـسـكـنـدـرـيـةـ تـيـقـنـيـ فـيـ حـوـزـةـ الـبـطـرـيـكـ
 وـنـحـتـ تـصـرـفـهـ وـاـمـاـ فـيـ الـاـبـرـوـشـيـاتـ الـاخـرـىـ فـكـانـ الـاسـاقـفـةـ يـتـصـرـفـوـنـ
 فـيـ نـقـودـ الـكـنـائـسـ بـالـتـفـاقـقـ مـعـ جـانـ تـعـيـنـ لـهـذـاـ الغـرـضـ . وـقـدـ اـمـتـازـ ثـوـفـيـلـسـ
 عـنـ باـقـيـ الـبـطـارـكـةـ بـعـيـلـهـ الشـدـيدـ اـلـىـ اـنـشـاءـ الـابـنـيـةـ وـتـشـيـدـ الـكـنـائـسـ حـتـىـ اـنـهـ
 كـانـ يـصـرـفـ اـكـثـرـ الـاـيـرـادـ الـذـيـ يـجـمـعـهـ فـيـ بـنـاءـ كـنـائـسـ فـاـخـرـةـ وـتـزـوـيقـهـاـ.
 وـحـدـثـ اـنـ سـبـبـةـ اـسـكـنـدـرـيـةـ مـوـسـرـةـ تـبـرـعـتـ بـصـرـفـ الـفـ قـطـعـةـ مـنـ الـذـهـبـ
 فـيـ شـرـاءـ مـلـابـسـ لـلـنـسـاءـ الـفـقـيرـاتـ وـلـكـنـهـاـ خـافـتـ اـنـ يـسـمعـ الـبـطـرـيـكـ بـخـبرـهـاـ
 فـيـ اـخـذـ مـنـهـاـ الـمـالـ وـيـبـيـنـ بـهـ كـنـيـسـةـ بـدـلـ الـمـلـابـسـ وـلـذـلـكـ عـمـدـتـ اـلـامـينـ
 الصـنـدـوقـ وـاسـرـتـ لـهـ الـاـمـرـ وـجـمـلـتـهـ يـقـسـمـ لـهـ اـيمـانـاـ مـغـلـظـةـ بـاـنـ يـوـديـ لـهـ
 هـذـاـ الـاـمـرـ سـرـاـ وـاـنـ لـاـ يـقـولـ لـلـبـطـرـيـكـ شـيـئـاـ عـنـ هـذـاـ الـمـالـ وـلـكـنـ الـخـبـرـ

لم يضل مكتوماً فان بعض النامين اخبروا البطريرك به فلم يقبل كلمة في
باديء الامر تدل على تغطيته ولكن شئلاً ما بدأ الخلاف بينه وبين
ايسودروس انتهز هذه الفرصة واتهم هذا الرجل باهله في وظيفته وعدم
قدرته على القيام بها وقال بعضهم بل انه رماه بتهمات قديمة لا اساس لها
ولم يثبت منها واحدة ضده

اما فيما يختص باصر الملابس فان ايسودروس دافع عن نفسه فيها دفاعاً
متيناً وقال للبطريرك كلاماً فاسياً موجهاً انه خيره ان يصرف المال في شفاء
المرضى وكساء الاجسام العارية التي تعتبر هيكل الله بدلاً من بناء حيطان
وجدزان لا تدعوا الضرورة الشديدة اليها

وقد سبق معنا القول ان ثوفيلس اضطر ان ينجاز جماعة الرهبان
الذين يخالفون مبداء او ريجانوس الصحيح او هم الذين يضادون الاعنةقاد بالوهية
الله . وحدث انه في اوائل السنة التالية شكل هذا البطريرك مجمعاً شجباً
فيه مبداء او ريجانوس وسفه تعاليمه (١) وكان ذلك اتماماً لوعده منه لا ولئك
الرهبان الاغبياء ، ولم يكن بطريرك بذلك بل انه في رسالة الفصح
لسنة ١٠٤ كتب ضد او ريجانوس كلاماً مؤلماً وذكر عنه غلطات وهفوات
لم تعرف عن هذا الرجل النابغة ولم يكن لها وجود الا في مخيلة ثوفيلس

(١) ان اثناسيوس بابارومية اصدر ايضاً حرماناً ضد او ريجانوس في الوقت
الذي حرمه فيه ثوفيلس ولكنها اعترض فيها بعده انه لم يكن يعرف شيئاً عن او ريجانوس
او ما هي تعاليم التي فاء بها لهذا الفاصل

واخيراً حكم عليه بأنه هر طوي مبتدع . ولما استفح الخلاف بين البطريرك
 وايسودورس في السنة عينها اضطر هذا انت يهرب ويقيم في دير وادي
 النطرون مع جماعة الرهبان الموجودين فيه فلم يكن من ثوفيلس الا ان اصدر
 امره الى اساقفة الابروشيات ورؤساء الاديرة بنفي جميع الرهبان الذين
 يذهبون مذهب اوريجانوس او يقولون بقوله فلم يسكن امونيوس اكبر
 الاخوة الطويلي القامة بل جاء الى الاسكندرية يرأس وفداً من الرهبان
 ليحتاج ضد البطريرك على عمله هذا وليعترض على اعتباره ايام مبتدعين
 لأنهم رفضوا قبول فهم الكتاب المقدس فهما حرفيآ ناقصاً كما قبله جماعة
 الرهبان الاغبياء الجاهلين . ولما كان ثوفيلس يهاب سطوة هؤلاء المغتسلين
 ويفيل الى مذهبهم ولو ضد خميره خاف شر الحرافيش والاو باش منهم واضطر
 ان يهالي الجهلاء ضد هذا الوفد الذي كان رائده الاعتدال وقائمه الحجة
 القوية والبرهان الصحيح ولذلك سار معهم ثوفيلس سير العتسي الغشوم
 حتى قيل عنه انه اطعم امونيوس على قمه ودعاه مبتدعاً لانه رفض ان يحرم
 اوريجانوس ويسفهه . ومن غير اسباب الامور ان خمسة من رهبان دير النطرون
 الذين لا هم في العيز ولا في النغير لجهلهم وغباوتهم ارادوا ان يصلحوا ذات
 البين بينهم وبين البطريرك فطلبوه منه ان يصرح لهم باتباع تهارات كاذبة
 ضد ثلاثة من مشاهير الرهبان وعظامهم فاجاب طلبهم وكانت النتيجة ان
 البطريرك حكم على هؤلاء الاكابر بالحرمان
 اما الوفد الذي جاء مع امونيوس فعاد فافلا الى وادي النطرون

بنفسه كبرة وقلب حزين ورضي اعضاؤه من الغنية بالآيات ولكن ثوفيلس
 لم يرض بل صار يسعى لا قلائق باهم وتعجب سرهم . ولم يبق ريب لدى هذا
 البطريق في ان ازدياد الرهبان وتكاثر جموعهم واتساع دائرة سلطوتهم
 ونفوذهم كانت من اشد الامور خطرًا على مصر ومن فيها وهذا امر ثابت
 مؤكدة لا مشاجحة فيه ولا اعتراض عليه . ولكن هذا البطريق لم يتخد
 طريقة لقطع شأفة هذا الداء ولم يأت عملا يبرره في اعين الناقدين بل
 سار سيرًا بوجب الاسف كل مدة رئاسته المشؤومة
 وقد انتقضى زمن الخلاف والشقاق وعاد رهبان دير وادي
 النطرون الى اعمالهم اليدوية الدنيوية وصاروا يجدون خلف الكسب
 وجمع المال . وقد كان بينهم الحائط والنسيج وصانع الحلويات والطيب
 وطالب العلم وكل أرباب الحرف والصناع . وبقواساً كثين ساكنين
 يصلون في كنيسة لهم كبرى تحيط بها ثلاث نخلات وكفوا عن الشقاق
 والخصام ولكن ثوفيلس لم يرق له هذا السكون فطلب من الوالي
 الروماني ان يمدده بقوة عسكرية يهاجم بها جماعة الرهبان الآمنين فسار
 الى ديرهم تحت جنح ليل بهيم فاقتصر بالهم وحررك ساكنهم عند ما سمعوا
 سبابك الخيول التي يهتديها الجيش الروماني ترن في الفضاء فيسمع لها
 دوي يوقع الرعب في القلوب
 فهاج الرهبان وذعروا لما يلتهم ان بطريقكم جاء ومه جيش
 من بدلكي يلقي القبض على اتباع اوريجانوس ومربيده وساد القلق

والخوف في نواحي الدير وذعر كل واحد فيه وهرع ثلاثة من أولئك الاخوة المعروفين إلى الاختباء في بئر عميقه وذهب رابعهم ديسغورس وكم في دكن من اركان الكنيسة ولكن له لم يليث ان عرف مكانه جماعة من الحشان المرافقين للبطريريك كانوا ايامياً يلدون ثملاين من بنت الدنات فاخرجوه من كمينه بقوه وعنف . اما العساكر فظنوا ان هذا الدير انما هو مدينة ممحونة يجب أخذها قسرآً واقتداراً وذلك رغمآً عن طلب ثوفيلس لهم ان لا يفعلوا ذلك ولكنهم لم يذعنوا القوله بل مالوا على الصوامع فتهبوها واضرموا فيها النيران ومات راهب حرفاً داخلها كما اثبت ذلك شهود عدول

فلم لاح الفجر وبدت تباشير الصباح كف العساكر عن عملهم القاسي خصوصاً للاحث ثوفيلس عليهم بذلك ولا لهم ممتنعين لا بد من مقاومتهم مقاومة لا تخلي من الخطر فلذلك اضطر الجنود ان يقفوا جانباً بعد ان ردوا سيفهم في اغمادها ثم دعى ثوفيلس جماعة من الرهبان ليقدمنهم جمعية يطرح عليها كلامه وافكاره السلام ووئام بدلاً من الحرب والخصام ثم قرأ على مسامعهم بعض نبذات مما كتبه اوريجانوس والغازه الغامضة - وهي لا علاقة لها بيمان الرجل ولا تدل على مقدار اعتقاده - ثم استنتاج منها ما توهمه فيها من البدع التي ودّ ان يقتعي الرهبان بصحّة نسبتها وحيثئذ خاطبهم قائلاً : « فلهذا السبب حكم على حلفاء اوريجانوس واتباعه بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم

بَلْ وَضَعُوا يَدِهِمْ عَنْوَةَ عَلَى كَنِيسَةِ دِيرِ وَادِي النَّطَرِ وَقَفَلُوهَا فِي وَجْهِ
الْأَسَاقِفَةِ وَرَؤْسَاءِ الْأَدِيرَةِ وَصَارُوا يَعْسُكُونَ فِي أَيْدِيهِمِ النَّبَايِّتِ مَغْطَأَةً
بِسَفِ النَّخْلِ لَكِي يَفَاجِئُوا كُلَّ مَنْ يَقْفَ في طَرِيقِهِمْ فَاضْطَرَ الرَّأْيُ الْعَامِ
الْأَرْنُوذِكِيُّ إِلَى وَضْعِ حَدَّ هَذِهِ الْقَلَاقِلِ وَتَمَ الْأَصْرُ الْآنَ عَلَى مَا نَوِيدُ
وَنَشْتَهِي

أَمَا الْأَرْبَعَةِ الْأَخْوَةِ الَّذِينَ اخْتَبَأُوا فِي الدِّيرِ فَلَمْ يَكُشُوا فِيهِ طَوِيلًا بَلْ
سَارُوا إِلَى فَلَسْطِينِ حِيثُ قَضُوا بِهِمْ إِيَامَهُمْ يَسْكُنُونَ آمِنِينَ فِي سَفَحِ
جَبَلِ جَلْبُوعِ وَهُمْ يَمْارِسُونَ عَمَلَ الْأَقْفَاصِ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ وَهِيَ صَنَاعَةٌ
تَعْلَمُوهَا فِي مِصْرٍ وَيَبْعَثُهُمْ كَثِيرُونَ مِنْ الْفَارِينَ حَتَّى زَادَ عَدِيدُهُمْ زِيَادَةً
تَسْتَدِعِي الْأَلْتَقَاتِ وَكَانَ جَمَاعَةُ الْمُسَيْحِيِّينَ فِي فَلَسْطِينِ يَرْمَقُونَهُمْ بِعَيْنِ
الْأَحْتِقَارِ وَالْفَتُورِ لِعَلْمِهِمْ أَنَّ بَطْرِيرَكَمْ حِرْمَمْ وَنَفَاهِمْ وَلَكِنْ بَعْضُ
الْأَسَاقِفَةِ اظْهَرَ نَحْوَهُمْ حَنَانًا وَاشْفَاقًا فَعَذَّفُوهُمُ الْبَطْرِيرَكَ وَوَبِخَمْ وَدِجَاهِمْ
بَانْ لَا يَعُودُوا وَيَمْتَزِجُوا بِهُؤُلَاءِ الرَّهَبَانِ لَوْلَا يَعْدُ عَلَيْهِمْ هَذَا مُسْبَبَةٌ وَيَحْسَبُ
ذَنْبًا وَاهَانَةً فِي عَرْفِ جَمَاعَةِ الْجَهَلِاءِ وَلَمَّا ضَاقَ الْحَالُ عَلَى هُؤُلَاءِ الرَّهَبَانِ
الْمُنْفَيِّينَ - وَكَانَ عَدْدُهُمْ قَدْ بَلَغَ الْمُحْسِنِ - رَفَعُوا دُعَاهُمْ إِلَى يَوْمَ حَنَابَطْرِيرَكَ
الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ

وَفِي أَوَاخِرِ سَنَةِ ٤٠١٤ مِثْلُ اِمَامِ بَطْرِيرَكَ اسْطَمْبُولِ أُولَئِكَ الرَّهَبَانِ
الْمُهْرَمُونَ اضْنَاهُمْ طَوْلَ السَّفَرِ وَأَضَرَ عَظَمُهُمُ الْبَلَاءَ الْمُرِ فَلَمَّا رَأَاهُمْ هَذَا

البطريوك فاصلت عيناه بالدموع الغزيرة رثاء حالهم وتوجعاً لصا بهم
وسألهما ان ماذا افعل لكم وأي طريقة تخفف ويلاتكم . فطلبا منه ان
ينصفهم من بطريقهم الذي جار عليهم واعتدى وهم حقوقيهم دون ان
يخفي ربها أو يخاف لوم الالائين ثم وقف كليم فصيح من بينهم وخطب
البطريوك بصوت جهوري قائلا : -

(اذا كنت نراعي خاطره ولا تعامل على تشفيت كربنا فتضطر
حيثند الى رفع دعوانا الى الامبراطور نفسه وكل الذي نطالبه مك ان
تسترضي توفيس حتى يسمح لنا باستيطان وطننا ومسقط رأسنا فانا لم
نجن ذنباً ضده ولم نرتكب امراً يستطر غضب الله علينا)

فوعدهم البطريوك يوحنا خيراً واخبرهم انه سيدخل جهده في
مساعدةهم على شرط ان لا يقدموا مسألتهم أمام السلطة المدنية ولا ان
محسنو هياجاً واضطراها في المدينة ثم ختم كلامه لهم بقوله (حيث اني
كتبت لاخي توفيس في هذا الصدد فعليكم بالصبر حتى يحيي رد الجواب)
وقد اظهروا لهم كل اطف وانياس واسكنهم في مخادع كنيسة القيامة وكان
في ذلك الوقت يبحث في هذا الامر مع جماعة من اكليروس الاسكندرية
كانوا ارسلوا الى ديوان الامبراطور لاشغال تختص بوظيفتهم وصار
يتشيرهم في الامر . فقالوا له ان رهبان دير وادي النطرون تحملوا
المهان في المعاملة التي عملا بها ولكن هؤلاء القسوس ارتأوا ان رفع

هذه الدعوى الى بطريرك القدسية لا ينتج نتيجة حسنة ولا يأتي
يقائدة ثم طابوا من هذا البطريرك ان لا يتسرع في قبول هؤلاء
الرهبان على مائدة العشاء الروانى لئلا يكدر خاطر بابا الاسكندرية بعمله
هذا ولكننه اذا رغب في اظهار الشفقة والحنو لهم فليظهرها بطرق أخرى
غير طريقة المناولة

فقبل بطريرك القدسية نصيحتهم وكتب الى ثوفيلس يرجوه
ايجاد وسائل السلام والسكنينة ولكن ثوفيلس لما بلغه ان هؤلاء
الاخوة ساروا الى القدسية ارسل الى بطريركها كتاب اللوم والتعنيف
التي كتبها الى اساقفة فلسطين قبل حين عمل منهم عدم الاختلاط مع هؤلاء
الرهبان ولكنهم لم يكتف بذلك هذه المرة بل اتهمهم بتهمة جديدة هي
انهم ليسوا فقط اهل بدعة وشدة بل هم سحرة يخاطبون الجن ويلتصقون
بجماعة المفاريت (١) فاهاجت هذه التهمة الشنيعة سخط عامة اهل
القدسية ضد هؤلاء الاخوة المساكيين حتى كانوا يزجرونهم ويهزأون

(١) لا شك في ان القلب الذي ابتدع هذه التهمة ضد اوائل الرهبان كله
حقد وغل لا ينها صادفت ارضًا ذات زرع في مصر التي نشاء فيها الجهل بسرعة
غرابة بدل ذلك العلم الذي فاقت به الامصار الاخرى في قديم الازمان ووصلت
الفاووه في هذه البلاد الى درجة كان فيها كل عالم يمارس العلم ويتبحر في فنونه
يعلم بالسحر والتجمیع والعيادة والقياسة وباقي اشكال الخرافات الاخرى وهذا
كان العلم في جميع اخاء الحماکة الرومانية يعد خرافه وجهلا

بهم على قارعة الطريق خزن اكثير الرهبان لاتهامهم بهذه التهمة التي يعرفون انها سيئة النتائج فلذاك انفذوا الوسطاء والشفعاء الى ثوفيلس يرجونه صفحًا وغفرة ولكن الاربعة الاخوة واصدقائهم الاخماء نظروا الى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتقار ولم يعبأوا بها قط بل أعدوا لهم قانونية ضد بطريركهم ورفعوها ببطريرك القسطنطينية فكتب هذا البطريرك الى ثوفيلس مرة أخرى واظهر له اسفه الشديد من ان خصومه جروا معه على الخطأ التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القسطنطينية فلم يفلح . فاجابه ثوفيلس جواباً مملوءاً من الغضب والحنق وقال :

(اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذي وضعه المجمع النيقاوي القاضي بعدم تداخل اسقف او بطريرك في المسائل التي لا تتحصر ضمن دائرة سلطنته فارجوك ان تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكتف عن الصدام والجدال معي . أما اذا قضى الزمان على " بالحاكمه فسوف يحاكمني اساقفة مصر وون لا انت ولا غيرك من هم بعيدون عن تقاضي لوصواتنا اليهم أو لوصولهم اليانا سفر ٧٥ يوماً كاملة)

فقرأ يوحنا كريوس تم هذا الجواب بالرضى والاذعان واخذ يسمى جمهده في اقناع الاخوة الطوبى القامة واصدقائهم على فض هذا المشكل

بالحسنى وبطالة رفع الدعاوى التي تولد الحقد والغفل ولكن هؤلاء لم يرضخوا بل استأنفوا قضيتيهم الى الامبراطور تايدوكسيا وتوسلوا اليها ان تأمر بسماع دعواهم قانونياً . وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار امره باستدعاء ثوفيلس الى القسطنطينية حتى يمكن للبطريرك كريوسوستم ان يفحص المسألة بنفسه ويدرك فيها حكمًا قاطعًا . ومعلوم ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثوفيلس وهضمها السلطنه لانه بصفته بابا الاسكندرية كان مساوياً في القوه والعظمه للامبراطور اركاديوس نفسه وله في مصر ما لهذا الامبراطور من النفوذ والسلطه لان الامة المصريه كانت تعتبر بطيءه كها اعتبارها للملك المتوج بل لم تدرك هذه الامة هم كثيراً باسر اوئل الامبراطرة بعد هدم عنها . فلما صدر الامر لثوفيلس بالذهاب الا الاسكندرية لم يرفض الطلب رفضاً باتاً كما انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعاوى ضده غياياً وافتتحت بفحص الشكاوى الموجهه نحو رهبان وادي النطرون فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم المجمع بسجين الخمسة رهبان الذين انفذهم ثوفيلس ليشتكتوا ضد رهبان وادي النطرون وظلوا في السجن الى ان توفي بعضهم وكان ثوفيلس في هذه الاثناء قد ارسل مكتوبآ الى ايقائيوس اسقف سلاميس يرجوه فيه الذهاب الى القسطنطينية وعرض قرار المجمع الاقليعي الخاص بحرم اوريجانوس والحكم عليه كهر طوي على كريوسوستم ليصدق

عليه ويمهره بختمه ولكن هذا البطريرك رفض ذلك قائلاً إن هذه المسألة
تحت نظر مجمع عام فهو يحكم فيها حسب القانون
وفي سنة ٣٠٤ سافر البطريرك ثوفيسن قاصداً القسطنطينية وشاءع
قبل سفره انه ذاهب اليها ليخلع يوحنا (١) بطريركه من وظيفته قاصداً
له على اعمائه التي اتهاه ضده . فسار البطريرك المصري الى عاصمة
المملكة في ابهة السلطان تحف به حاشية من اساقفة مصر والحبشة
وتحيط به زمرة من الكهنة والقسوس كالو كان من الملوك والسلطانين
فالقت سفينته صرحاها في مياه البوسفور التي كانت تتعكس اشعة شمس
شهر يونيو على مياها في خالها الرأي لجيناً أو عسجداً فياء بحارة المراكب
المصرية التي كانت راسية هناك حاملة ضريبة الخطة وادوا له واجبات
التعظيم والتجليل وهم يفرجون ويطربون ولكن قسوس القسطنطينية
لم يقدوا لاستقباله او الاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة
 بالقسطنطينية بل قصد خلقدونية ومدث بها حيث لاقاه سيرينوس
اسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم واحسن وفادته . فلما استقر به

(١) ان كلاء «كرسوس» هي لقب اطلق على بطاركة القسطنطينية ومعناها
«فم الذهب» او «ذهبي الفم» . وكثيرون من القراء يعرّفون بوحنا فم الذهب
الاسكندرى المصرى الذى اشتهر بزلاقة لسانه وطلاقه بيانه واصله فياسوف وثني
مشهور بين كبار العلماء فى ذلك العصر

المقام ارسل يستدعي كريسوستم بانفة وعزه نفس يعن نظيرها وطلب
 منه الحضور امام الجم ليدفع عن نفسه تهمات طويلة عريضة اتهمه بها
 اعداؤه وسعوا في اثباتها ضده وكانت اكثراها عديمة الاهمية لا معنى
 لها بل قصدوا بها ازعاج خاطره ووسوسة عقله ولكن ثوفيلس اختار
 تهمتين من هاته التهم الكثيرة ورتبها ترتيباً يسر نقضها ولا يسهل دحضها -
 اولاً اتهام كريسوستم هذا بتلقبيه الامبراطورة بلقب « ايزابل » (هي
 امرأة اخاب ملك اسرائيل الشريرة) والثانية انه اتكلم ضدها كلاماً غير
 لائق يدل على احتقاره لها . فلم يذكر هذا البطريرك بأنه دعى هذه
 الامبراطورة باسم ايزابل في عظة القاهما على ملاء من الناس . ثم اتهم
 بهمة أخرى لها مسحة من الحقيقة هي انه عمل على هضم سلطة بعض
 الاراخنة وتحريض الآخرين على عصيان رؤسائهم الروحيين وكانت
 يقصد ثوفيلس بذلك مسألة رهبان وادي النطرون ومن معهم التي كانت
 تصبح نسيجاً منسياً وتطرح في زوابيا الاهمال لولا ان حرك ساكنها هذا
 البطريرك الاسكندرى وطلب شهود الايات ولكن احد الشهود وهو
 ديسفورد كان قد انتقل الى رحمة مولاه ولم يبق سوى امونيوس اخيه
 الذي جيء به الى خلندونية وهو يختضر فلما رأه ثوفيلس في حالة الموت
 ذرفت عيناه دمعاً مدراراً من شدة التأثر وهكذا تم الصلح بين خصمين
 لدوين في اقل من لمح البصر بدون وساطة ولا شفاعة سوى وقع العين

على العين واجداد التأثير في قلبهن يقبلانه حالاً قبول الأرض الجدباء للماء
القرار . وفي هذه الأثناء أرسلت الإمبراطورة خطاباً صادراً من ديوان
الإمبراطور إلى مجمع خلقدونية بجلاسته الثانية عشرة وفيه تحيط على الجميع
بإصدار حكمه في مسألة كريسوسم بغية ما يمكن من السرعة والذي
دفعها إلى ذلك حنفتها على هذا البطريرك وتعيظها منه لأنها شتمها
واهانها

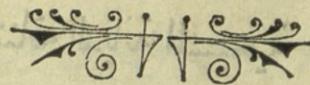
وعلى ذلك حكم الجمع بخراج كريسوسم من وظيفته ثم صدر أمر
الإمبراطور بفتحه حالاً خارج القدسية ولكن ثوفيلس فعل كل هذا
وهو لا يعرف مقدار تأثير البطريرك المذكور في الرأي العام الروماني وعلو
منزنه عند شعبه حتى أنه بعد مضي ثلاثة أيام على حكم نفيه كان من
الصعب القاء القبض عليه لأن جهوراً غفيراً من رعيته التأموا حول
مسكنه وأخذوا على أنفسهم حراسته وحمايته فكانوا يتناوبون المدافعة عنه
بطريقة منظمة كأنهم حرس عسكري حتى صار القاء القبض عليه مما يحدث
في المدينة حرباً أهلية لا تحتمد نتيجتها بل إن هذه الحرب كانت على
الأبواب وأوشك لهيها يندلع لو لا أن كريسوسم نفسه كان يرقى منبر
الوعظ كل آونة أخرى ويفوه بنصائح وانذارات لشعبه يحرضهم فيها
على الميل للسلام . وكان في منتصف اليوم الثالث في وقت القيلولة عندما
ذهب حارسونه الراحة أن كريسوسم انسل من باب خصوصي دون

أَن يشعر بِهِ أَحَدُ وَسَارَ إِنِّي مُوظَّفُ الْحَكُومَةِ وَسَلَمَ نَفْسَهُ لَهُمْ بِكُلِّ رِضَى
 وَسَكُوتٍ فَأَخْذُوهُ حَيْثُنَا إِلَى سَفِينَةٍ وَأَرْسَلُوهُ إِلَى بَيْتِ عَنِيَا
 خَلَالِ الْجَوَافِيلِسِ وَدَخَلَ الْمَدِينَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِسَفَرِ كَرِيسُوسْتُمْ
 بِاحْتِفالٍ حَفِيلٍ وَتَوَجَّهَ تَوَّا إِلَى الْكَنِيَّةِ الْكَبِيرِ لِكِي يُسَيِّمَ خَلْفًا لِكَرِيسُوسْتُمْ
 وَلَكِنْ لِمَا وَقَفَ الْوَاعِظُ مِنْ قَبْلِ ثُوفِيلِسِ وَاخْذَ يَطْعَنُ فِي كَرِيسُوسْتُمْ
 بِكَلَامٍ مِنْ قَارِصٍ هَاجَ الشَّعْبُ هِيَا جَآ لَا تَدْرِكَ نَتْيَاجَتِهِ فَصَارُوا يَصِيحُونَ
 وَيَصِحُّونَ حَتَّى اهْتَزَّتِ الْكَنِيَّةُ وَارْتَجَتْ وَكَادَتْ تَنْدَكْ مِنْ اسْسَاتِهِ الْوَلَا
 إِنْ قُوَّةً عَسْكُرِيَّةً جَاءَتْ فَطَرَدَتِ الْمَاهِنْجِينَ خَارِجَهَا بِالْعَصِيِّ وَالْمَعَالِ .
 وَكَانَتِ الشَّوَّارِعُ قَدْ امْتَلَأَتْ بِجَمْهُورٍ مِنِ الْأَوْبَاشِ الشَّائِرِينَ وَهُمْ يَمْلَأُونَ
 الْفَضَاءَ بِصِيَاحِهِمْ طَالِبِينَ ارْجَاعَ بَطْرِيرِ كَهْمِ لَهُمْ وَكَادُوا يَهْجُمُونَ عَلَى ثُوفِيلِسِ
 وَيَأْخُذُونَهُ غَيْلَةً مَعَ تَعْضِيدِ الْإِمْپَراَطُورَةِ لَهُ لَوْلَا إِنْ حَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ الْهَزِيعُ
 الْأَوَّلُ مِنَ الْلَّيلِ فَهَزَّتِ الْمَدِينَةُ وَرَجَتْهَا حَتَّى إِنَّ الْإِمْپَراَطُورَةَ قَامَتْ مَذْعُورَةً
 مِنْ نُوْمِهَا وَسَارَتْ مَسْرَعَةً إِلَى مُخْدَعِ زَوْجِهَا وَرَجَتْهُ إِنْ يَعِيدَ كَرِيسُوسْتُمْ
 إِلَى وَظِيفَتِهِ مَا دَامَ إِنَّ السَّمَوَاتِ غَضَبَتْ لَأْجَلِهِ وَكَادَتْ تَصْبِغُ غَضَبَهَا عَلَى
 الْأَرْضِ حَزَنًا عَلَيْهِ فَلَمْ يَسْعِ الْإِمْپَراَطُورُ أَرْكَادِيوسَ إِلَّا اجْبَاهُ هَذَا الْطَّلْبُ
 وَلَمَّا عَرَفَ ثُوفِيلِسَ مَا تَمَّ وَخَافَ قِيَامُ جَمِيعِ الشَّعْبِ ضَدَّهِ بِرَحْقَ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ
 حَالًا وَعَادَ رَاجِعًا إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ . وَلَلْحَالِ انْعَقَدَ مَجْمُعٌ مِنْ نَحْوِ سَتِينِ
 اسْقَفًا أَنْفَى كُلَّ اِجْرَاءَتِ الْجَمِيعِ السَّابِقِ وَقَرَرَ إِنَّ كَرِيسُوسْتُمْ لَا يَزَالُ

بطريرك للقسطنطينية . أما ثوفيلس فكتب خطاباً إلى بابا رومية تخبره فيه انه جرد كريوس من وظيفته فرد عليه هذا البابا يسأله اسباب هذا التجريد ثم قال له انه لا يزال على تمام الصداقة والاخاء معه ومع كريوس أيضاً

أما بابا الاسكندرية ثوفيلس فلم يكف عن اسباب الخصم والتزاع ولم يفتئ يناسب كريوس من العداء فاوفد وفداً من قبله إلى القسطنطينية ولم يذهب هو بنفسه معتقداً بكثرة اشغاله ووفرة اوجبيات الضرورية المحيط عليه أذوه الرعية فناب هذا الوفد منابه في التدابير التي افضت إلى طرد كريوس طرداً نهائياً من ابروشيه باصر استصدروه من الامبراطور والامبراطورة معاً . ولتنفيذ هذا الامر ارسل خصوصه كوكبة من الفرسان هاجمت الكنيسة بينما كان البطريرك يؤدي خدمة عيد الفصح وقيل انه كان يوجد في هذه الكنيسة أكثر من ٣٠٠ نفس طالبين العهد وطردهم العساكر من المعمودية باسننة الرماح ثم دفعوا كل الشعب خارج الكنيسة بالقوة . فتقدم جماعة من القسوس الاشداء وجمعوا طالبي العهد من الشوارع واخذوهم إلى حمامات قسطنطين وقرأوا على الماء التي في هذه الحمامات وبарьوها ثم عمدوها القوم بكل نظام تام وسرعة زئدة ولم ينكحهم عماد الجميع حتى سمع العساكر بذلك فهجموا على القسوس وطردوهم من هناك أيضاً . واخيراً صدر الحكم النهائي

بني كريوس وذلك في يونيو سنة ٤٠٤ وظل في منفاه إلى أن توفي
في خريف سنة ٤٠٧



الفصل الحادي والعشرون

﴿ سينيسيوس القوروني ﴾

ولد سنة ٣٦٥ للمسيح و١٨ للشهداء

في آخر رئاسة ثوفيلس حدث بينه وبين سينيسيوس القوروني صدقة
وولاء وكان الأخير رجلاً مشهوراً بالعالية والفضل ولهم رابطة مع حوادث
تالية ستعرفها فيما يلي :

ولد هذا العالم في مدينة قورينة سنة ٣٦٥ من عائلة يونانية قديمة
استوطنت هذه المدينة في الأيام السابقة وكانت لعائتها هذه أملاكاً واسعة
وعقارات كثيرة في مقاطعة بنتابوليس . وكان قد صرف بعض سنين شبابه
في الجيش ولكنها استطاع من منصبه وهو بعد شاب وعكف على دراسة
الفلسفة والتجز فيها

وكان الدهر قد عبّث بمدرسة قورينة الشهيره وأودى بها فسار
سينيسيوس إلى الإسكندرية ليتلقى العلوم فيها مثل غيره من الطلاب الذين
كانوا يؤمون المدارس الونية التي كانت في ذلك العهد قد انحطت
ودخلت في دور التقهقر . وكانت هيباشا الشهيره قد بدأت تلقى الدرس

أوهام لا طائل تحتها ثم قال . «ان الذين يتموتون اوريجانوس بالابداع
هم عديوا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الغامضة
التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النابغة المشهورين » .
اما هذا الكتاب الذي وضعه ديدميوس فلم يبق له اثر . ولما رأى من ديدميوس
المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع انحاء
العالم المتبدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيرروم الشهيران وكانا
حيثما في شرح الشباب لิตقاضيا المعلوم والمعرف في الاسكندرية على يد
هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب «بالاعمى البصائر»

وغرائب في مصر أم العجائب ان الرحمة والسلام لا يدومن طوبلا
فيها وهذا شأنها من قديم الزمان . وفي فبراير سنة ٣٥ قتل قسطنطس
في ثورة بداء بها مغيض طيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة
كلها بعد أخيه . وعلمون ان قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس
ويعرض بانفه عنه ولذلك داشر اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات
هذا خصوصاً وان الواشين ضده اخذوا ينحوه عليه ويذمون له الدسائس
يعزم جديداً . وفي شهر مايو سنة ٣٥٣ استشهد ارسال خمسة اساقفة وثلاثة
قسوس الى قسطنطينوس لاتهات براءته امامه ماعزي اليه سابقاً . وكان
مع هؤلاء الاساقفة سيرا بيون اسقف ثيوس (١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لا يغريب عن الذهان وجود مدینتين قد يعما بهذا الاسم في مصر ويؤخذان بعض استدلالات ان هاتين المدینتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤودين ان سيرا يون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فاذا صح ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام . اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياناً في ذلك الوقت فانهم كانوا يستدون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان باصنة موقنة كما كان الحال مع اوريجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما علمت . وقد كان سيرا يون هذا عالماً متضلعاماً وكاتباً ماهراً وصديقاً وفيما لاثاسيوس ولذاك ارسله مع من ارسله في هذهبعثة الى قسطنطينوس التي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اول الامر على اثاسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجعاً في اراس فاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثاسيوس . ولذي يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثر من عشرة عدا عن محاسين في ريني وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمحادلات بين اثاسيوس وجماعة آريوس . وكان قسطنطينوس يعد نفسه رأس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانحفل لذاته حق السلطة على بابوات واساقفة الملائكة باسرها وهي دعوى لم يدعها ابوه الاكبر ولا فكر فيها . وقد كتب اميانيوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها
 ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

ان الفلاح المصري في هاتيك الايام كان عاقلاً عارفاً غير المادة اكثر
من التلميذ المصري في هذه السنين . وهكذا جواب ارسله اوقيتيلوس
الفلاح الى أخيه سينيسيوس بينما كان هذا متغييراً في اينما مترجم هو وغيره
عن الحوارات نفسها بغاية الدقة والوضوح : -

« أخي العزيز »

نحن الآن نستيقظ من نومنا بكمرين بواسطة صهيل الخيول و خوار
الثيران وبعية الغنم والمعزى و نلتئم مشير الفلاحين معَا كأننا من عائلة
واحدة لا يشوب اجتماعات القوم المتعددين من التحاسد والتنافروالتباغض
بل يساعد الواحد من اقاربه في كل واجباته واعماله سواء في زرع الاراضي
وتغليفها أو في رعي فطuan الغنم و اسراب المعiz أو في صيد الظباء والاياتل
التي لا يمكن اقتناصها الا في الارياf و وسیع الخلاء . أما طعامنا فبسیط
خفيف هو خبز الشمير نلتذ من اكله ويمرىء جسمنا من غذائه ولا
نفرح باطاib الافاویه ونعد اصناف المآكـل على الخوان مما نظن
فيها تجمـة للمعدة . ولستنا لشرب سوى عصير الشمير الذي نأكله فنسوـغه
بعد كثرة الشغل فيمتضـ من اجسامنا الحرارة الشديدة التي نصـافـها في
أيام الصيف ولا نخـىـ غيرـها من انواع المشروبات المذهبـة للعقل المضـعـفة
للبصر المحطة للشرف الخربـة للجيـب . ولا تظنـ انـا نـاكـلـ
الـشـمـيرـ وـلـشـرـبـ عـصـيرـهـ لـضـيقـ ذاتـ يـدـنـاـ اوـ لـانـاـ محـرومـونـ

من المواد الأخرى بل اعلم ان عندنا مقاديرًا وافرة من القمح
 واكداً مكدة من الفواكه والاطيب اللاذية واعية مفعمة
 بقطر الشهاد ولبن الاغنام الذي نستدره منها ونأدم به ولا نخلب
 الابقار بل ترك لبها لفصيلها يغتني به ويقوى . أما احسن أكل
 تفتح له الشهية فهو ما نصطاده بآيدينا ونتعب بالحصول عليه . ولنا
 آلات طرب تلذ لسماعها ونظر وهي وطنية صرفة عبارة عن
 قصبة مزمار علاها الصداء لها نغمة خشنة فهي تتفع لأن يستعملها
 أحد أساتذتكم كعصا يؤدب بها تلامذة مدرسة افلاطون اذا لم يكن
 لكم ان تشجعوا من نغماتها ولا يحرك صوتها الجيش ساكن احساء .
 التي ترقى كثيراً فصارت لا تطرب من الذي يطرب منه الفلاح
 الساذج نظيرنا الذي له بعض ادوار بسيطة اختارها ارباب الطرب
 منا ليسهل لهم التوقيع على آلات بها وهي ادوار ليست على شيء من
 الرقة ولكنها تختص بمناجات الالباب القوية التي لا تخاف الضياع ولا
 تخشى الذئاب بل تنقض عليها وتقبض على ارقابها فتقتلها . وكثير من
 هذه الاغاني نسأ وشكراً للنعجة التي تلد توأمين ولا شجارتين التي تحمل
 ثمراً كثيراً وفيها ايضاً غزل بالحمر وباقى انواع المشروبات والانبذة . واكثر
 ما يكون من اغنياتنا تسبح حمد وطلب بركة الله على الانسان والنبات
 وكل عشب اخضر . أما عن الملك (أي الامبراطور) واصدقائه فليس لنا

شيء نقوله عنه سوى أننا نعرف بوجود ملك حاكم علينا ويدركنا
 بوجوده الحياة الذين يحيطون جمع اموال الخراج ولكننا لا نعرف من
 هو هذا الملك أو ما هو اسمه حتى ان البعض منا يظنون ان اغامنون
 بن اتريوس الذي اشتهر في حروب طروادة لا يزال مالكاً علينا الى
 الآت والذي حدى بهؤلاء البعض الى هذا الظن هو انهم سمعوا في
 طفولتهم انه يوجد ملك اسمه اغامنون فقالوا انه لا يزال متسلطاً علينا
 الى الان والى الابد . ولا يخطرن على بالك يا شقيقني ان هذا ناتج عن
 جهلانا او تقصير في معرفة حكامنا بل اننا قوم لا علاقتنا بهؤلاء الملوك
 والقياصرة ولا يهمنا من امرهم سوى العدل واجراء الاصاف بين الرعية
 فليس من الضروري معرفة اسم الملك او نظر رسمه ما دمنا جماعة سذجاً
 بسطاء القلوب حتى انك لتعجب جداً اذا قلت لك ان الكثيرين من
 الفلاحين الذين باعوا من العمر اشددها احياناً ما يسألونني عن المراكب وشكلها
 والقلوع وكيف توضع عليها وبأي كيفية تسير هذه الجواري في المياه السائلة
 فاشرح لهم ذلك ببيان وايضاح وقد يصدقون ويفهمون ولكنني اذا
 قلت لهم انه يوجد في البحر حيوانات حية متحركة يأكل كل منها الانسان
 ويعتني فقد لا يصدقون قولي ولا يعقلون كلامي بل يذهبون ان كل
 ما يأكل ومشرب لا يأتي الا من الارض التي هي ألم كل حي . ولما اتعبر
 معهم في البرهان على وجود سمك البحر اضطر ان أجبي لهم بحجة فيها

ماء وسمك من ارض مصر وافتتحها امامهم لاقناعهم بوجود هذه الاسماك في مياه البحار ولكنهم مع ذلك لا يقتنعون بهذا البرهان بل يقولون ان هذه الاسماك هي حيات واحناش سامة تجنبت بزعاف فصارت تعمق وتسبح وان عظامها لا بد وان تكون ملائى بالسم الزعاف كانياب الافاعي . وغريب أن رجلا يعتبر من انبه الفلاحين واعقلهم قال ان لا يسعه التصديق بوجود شيء يصلح للأكل والغذاء في المياه المالحة في الابحر سوى شيء من الضفادع والعلق الذي نجده في انبباب ماء الشرب التي لا يجسر حتى المعتوه على أكلها أو القرب منها »

اما جماعة الفلاحين الذين كانوا يستغلون في حقول سينيتوس فاكثرهم من العبيد الارقاء ورثتهم اباءه عن اجداده وورثهم هو عن الاباء وهم من ابناء البلاد كانوا يعاملون معاملة طيبة حتى كأنهم اولاد صاحب الارض وحدث في سنة ٣٩٧ ان الضرورة الجأت سينيتوس للذهب الى القسطنطينية لعمل هام يتعلق بمدينته وصالح بلاده فكث في اسطبول ثلاث سنوات كاملة قبل ان ينظر أحد من رجال البلاط الملكي اليه او يهتم باعماله وذلك لكثره ارتياكات الحكومة وخلل نظامها في هاتيك الايام (وهذه ايضاً) . وكان له صديق اسمه اورليان هو فيلسوف شهر له نفوذ قوي وتدخل متين في شؤون الملكة فساعد سينيتوس في اصر خطير هو ان صدر النطق الامبراطوري لسينيتوس هذا يان ياتي خطاباً على مسامع الامبراطور اركاديوس ورجال حاشيته وكبار عمال دولته

فاصاب هذا الامر مغماً في نفس سينيتوس الذي كان متعيناً جداً من
سير الاعمال في حكومة القسطنطينية ومستاء من الخطط الكثيرة التي
انتاب جسم هذه الحكومة ولذلك اختار موضوع خطابه هذه العبارة
« خطارة وظيفة الملك وواجباته نحو رعيته ». • اذا صحي ما نقله اليانا
الناقلون عن هذا الخطاب وما فيه من قوارص الكلم فهو يدل على
ما كان عند الامبراطور اركاديوس من سمو المدارك وشرف النفس
وحرية الفكر لانه صحي الى هذا الخطاب القاسي بكل اناة ولطف ولم
يتخلل من سهام الكلام الموجه اليه كما يفعل غيره من الملوك والاقيال
الذين يشقون على صماع آذانهم قول الحق فلم تظهر عليه بوادر الغضب
الكامنة في نفسه ونفس اسلافه من العنصر البيزنطي فسمع قول سينيتوس
بكل هدوء ورصانة حيث قال هذا في عرض خطابه المذكور : —

(اسمع يا جلاله الامبراطور واصبح لا قواي . أن ترفعك عن مقابلة
الناس وظننك ان الاختلاط بالرعية يخفيض من مقامك ويجعلك مساواً
لها — ان هذا الفكر او جد عندك مبدأ العزلة والانفراد حتى اصبحت
كسجين في قصرك لا تعرف شيئاً مما يجري في مملكتك ولا تقف على
أمر من الامور السائرة في حكومتك التي لو عرفتها لصررت اكثراً خبرة
واوسع دراية بشؤون دولتك مما انت عليه الان . بل خالفت القانون
ال الطبيعي ووضعت نصب عينيك المللزات النفسانية والمتبع بكل انواع السرور
التي تروق لك بغض النظر عن شعبك ورعايتها فلذلك كانت حياتك

حياة من يعيش ليأكل لا من يأكل ليعيش)

: وقد وضع سينيتوس مدة اقامته في القسطنطينية نبذة سياسية تحتوي على افكار عالية ومبادئ قوية في شكل رواية مصرية بقالب خيالي يختلي الالباب ذكر فيها كيفية الدسائس التي كان يدسها القائد جيناس ضد الامبراطور اورليانوس والمملكة باسرها . ولبراعة سينيتوس ومهارته نال من القسطنطينية المأرب الذي ذهب لقضاءه ومكث لاجله فيها كل هذه المدة الطويلة ثم عاد الى بلاده ومسقط رأسه وهو يشكر هذه السوانح التي اوجدت له اصدقاء كثيرين يركن اليهم ويثنى على العلم الذي كان سبباً في دفع شأنه وعلو مركته بين العالمين

ولكن ثغر الزمان لم يدم مفترأً لسينيتوس بل شاب صفو لياليه شابة كدر لسبب هجوم جماعة البدو والهمج على بلاده وكانوا يغدون اليها من صحراء ليبيا ويحيطون إلى مقاطعة بتاپوليس (مديرية الشرقية الآن) ويغزونها حتى صوروها قاعاً صفصفاً . وقد تماذوا في غيهم وعدوانهم كثيراً لعدم وجود جند يصد هجماتهم عن البلاد كما ان معظم سكان هذا الاقليم كانوا من العبيد الذين استرقهم زلاط اليونان قبل واستخدموهم للفلاحة كما ذكرنا فلم تبق فيهم قوة أو معرفة بالطرق الحربية ولم يكن سوى جماعة المسيحيين القلائل وقسوسهم الضعفاء الذين اعتقلوا سلاحهم وقاموا يكافحون للدفاع عن حوزة بلادهم بقدر ما يصل اليه جدهم ولعل هذا هو السبب الاكبر في ميل سينيتوس للديانة المسيحية وحبه لرجالتها

المخلصين وهو لم يكن يعرف شيئاً عنها حتى في مدة وجوده بالقسطنطينية
 وبعد أوبته منها . وقد كتب فيما بعد عن هؤلاء المسيحيين يقول : -
 « أني ابداء بشكر جماعة القسوس واتي على مسؤلهم وشجاعتهم
 وهم الذين اظهروا من البسالة وقوة الباس ما يحمدون عليه حتى انهم
 فاقوا الجنود المدرية الذين لما كسر لهم العدو عن ناب الغضب ولو
 الا دبار ولم يقفوا له في طريق ولكن هؤلاء الكهنة البواسل جمعوا
 شعبهم وبعد ان صلوا الله طالبين المعونة والنصر قاموا يذبون عن بريضة
 وطنهم ويدافعون عنه دفاع الاسود الكواسر . ومما يحمل ذكره
 في هذا المقام ان الاعداء تمحضوا في أخدود (واد ضيق) كثير الادغال
 والاحراش وساروا نحو البلاد دون أن يقابلهم جند يصد هجماتهم ولكن
 البطل المقدام فو سطس وهو شهاس ذكي الفؤاد اعترضهم في طريقهم وهو
 أغزل من كل سلاح وهجم على جندي من الاعداء مدعياً بمعادات القتال
 وآلات الفتاء فضربه بحجر في رأسه غاص في جسمه فالقاء على الأرض
 صريعًا ونزع عنه سلاحه وتقدم نحو القوم ينازفهم ويكافحهم حتى قتل
 كثيرين منهم وهكذا كان حال الآخرين من رجال الدين الذين اظهروا
 شجاعة وبسالة تستحق المكافأة الحسنة بل لو كنت ملكاً لوضعت
 على رأس كل منهم ناجماً من الذهب الابريز ولشررت اسمهم في طول
 البلاد وعرضها لأنهم من الرجال المعدودين الذين ابدوا شهامة ومقدرة
 يعجز عنها الاولون والآخرون حتى ظن أكثر العارفين ان اعداءنا مـ

يكونوا من الغزاة الاقوياء الذين يحاربون ويقاتلون بل هم قوم خطفة
سالبين يسهل الانتصار عليهم ورد كيدهم في نحورهم «
ولتكن مدافعة عدد قليل اعزى من المسيحيين الاشداء لم تكن
تعني فتيلا ضد جماعة من المهرج المتوحشين كثيرون ديدهم وزادت قوتهم
حتى اضروا بالبلاد ضرراً يتضح لك مقداره مما كتبه سينيتوس في
هذا الصدد حيث قال : -

(لقد الحق بنا هؤلاء العتاة خسارة جسيمة اذ احرقو الزرع
واهلكوا الضرع ونهبوا البلاد وسبوا النساء والاطفال وقتلوا الصغار
والرجال ولم يبقوا على احد وكانوا قبل اير تكون الشبان احياء ولكنهم عدلوا
عن ذلك لانه لم تكن عندهم جنود تكفي لحراسة الاسلاب والغناائم
وخوض معاهم القتال . كل هذا ولا تزال بارقة من الامل تضيء أمام
قلوبنا حتى صرنا نمكث في منازلنا منتظرين مجيء العساكر المنظمة
لانقادنا من مخالب هذا الموت الزوام ولكن التضحى لنا بعد ذلك ان
هذا الامل يعد ضرباً من الحق لأن النجوم اقرب لنا من قدمون جنودنا
ولم يبق علينا سوى ان نعقل البيض الصفاح ونستعد للحرب والكفاح
دفاعاً عن ابناءنا ونسائنا ووطننا العزيز . ولقد كتب هذا الجواب وانا
ممتطط صهوة جوادي لاني مشغول في مراقبة الجيش الذي جيشه ورتبته
من شبانا وشبان جيزاننا وصرت الآن اسير على الاعداء والامل رائدي
على ان كثيرين من الفتى يسيطرون ويتقاضون في الذود عن دمار

الوطن والأهل)

وكانت صعوبة هذا العمل تنطوي تحت عدم وجود الاسلحة
خصوصاً وأن أخاسينيروس لما بلغه خبر هذه الحرب كتب لأخيه كتاباً
شديد اللهجة يخبره فيه أن عمله هذا عرض لهمة خيانة الدولة لتجيشه
الجيوش وتعبئة الفيالق في وسط بلاد الحكومة وهو عمل تستأهله
القوة الحاكمة وتختفي عاقبته فرد سينيروس على أخيه يقول : —

(إن سذاجتك وبساطة قلبك وعدم بصرك في عواقب الأمور
اضررت بنا ضرراً عظيماً لأنك اعتقلا من الحصول على الأسلحة حتى اقترب
العدو منا وصار قاب قوسين أو أدنى وأخذ نهب ويسلب ويقتل ويذبح
مادام لا يوجد معنا جيش يدافع عنا ولا سلاح لدينا نصد به هذا المهاجم
القوي . فهل يصح لك بعد هذا كله أن تخطئنا وتقول أنه لا يجوز لأحد
من أفراد الرعية حمل الأسلحة وإن الحكومة تخضب وتنفاظ
من كل شخص يدافع عن نفسه . اتمنى أن أموت يوم أن انظر بلا دني
تسترد مجدها الطارف وتعيد إليها سطوها ورونقها . نعم اتمنى أموت يومئذ
قرير العين مرتاح البال على وطني الذي إليه أحن ونحوه تصبو النفس
ونطمئن الأبصار)

وقد كتب سينيروس بذلك إلى العلامة هيباشا في هذا الصدد يقول :
(إذا صدق قول هو ميرس الشاعر — « في الجحيم من يذكرك »)
على الآخرين فهو لا يصدق على أنا الذي مازلت اذكر العزيرة هيباشا

بين شفرات السيف وصليل بضم المهدن . وانني لا خاف على قاتلك ان
 يتتصدع اذا انا ذكرت لك ما اعانيه من حزن يقصم الظهور على بلادي
 اناخ عليها الدهر كل كله وما انا فيه من كآبة واسى على رجال كرام يجز
 العدو رؤوسهم بسيفه الصقيل كما يجز الجزاز صوف الغنم او كما يجز الجزاز
 رأس الكباش حتى صار الهواء الذي استنشقه ملاقاً بالروح الكريمة
 المتصاعدة من حيث القتلى واشلاء الموتى ولذلك صرت انتظر الموت
 لنفسي بين آونة واخرى وأرى كأن هذه الطيور الجوارح التي تحوم في
 الجو تأكل من جسدي بعد موتي كما هي الان تذق اجسام هؤلاء الموتى
 المساكين وتغلاً بطنها بها . كل هذا وانا لا ازال على ما انا عليه من الحب
 لوطنى والميل الى بلاد تضم رفات اجدادي الكرام والنفس في تحن الى
 ارض يحيى تربها بقایا اولئك الاباء الذين شادوا لذا صرخ المجد والفاخر
 فلنبرهن بأننا ابناءهم لا ان نعم جحيلهم علينا وعلى هذه البلاد باكمالها :
 فاذا ساعدنا الدهر وفزنا بالنصر تبعث اميال قابي من نحوك وتركت
 هذه البلاد وجيئتك يحملني اليك الشوق ويحمدوني حادي الود الصحيح
 والولاء الظاهر . فصبراً

وكانت النتيجة ان سينيتوس فاز بالنصر الذي كان يرجوه فعاد
 الاعداء ناكصين على اعقابهم وتمتت البلاد بالراحة والهدوء بعد طول
 الجهاد والعنااء . اما سينيتوس فوفي بوعده مع هيباشا وسار يحيى المطاليما
 الى الاسكندرية لزيارة هذه العالمة التي اشتهرت بجمال الوجه وكمال العقل

فحدث له في هذه المدينة حادث يستحق الذكر هو أن قلبه وقع في نفاح الحب لأنسفة مسيحية ومال إلى الاقتران بها فسعى جهده إلى اقناعها بذلك فرضيت وعقد لها البطريرك ثوفيلس عقد الزواج (مع أن سينيتوس لم يكن قد صار مسيحيّاً بعد) وكانت هذا البطريرك ورعايا بذلك الزواج الذي يقرب هذا النابغة إلى الديانة المسيحية ويوجد بينها وبين صديق هيباشا رباطاً متيناً لأنه يظهر أن العالمة هيباشا كانت في ذلك الوقت خصماً لدواء للبابا ثوفيلس كما كانت كذلك مع خلفه كيرلس ولم يعتنق سينيتوس الديانة المسيحية عند زواجه ولم تخمد نار محبته الطاهرة لعلمه هيباشا وقد كانت قرينته من صديقات هيباشا المسيحيات وفي الأربع سنوات التي تلت قرآن سينيتوس أخذت الديانة المسيحية تعمل في قلبه عملها المروف حتى اعتنقها بسرور وفرح لا يوصفان ولا غرور في أن القلب النقي والعقل الذي يقبلان هذه الديانة الطاهرة باسرع مما قبل الأرض الظائنة ماء المطر المتأخر

أما زواج سينيتوس فكان في سنة ٤٠٣ ومكت في الإسكندرية سنتين بعد زفافه وضع في أنهما فذاكة عن الرؤى والاحلام والفن أيضاً نبذة أباً فيها ما يعتقد هو في الديانة المسيحية وما يعتقد باقي المسيحيين فيها ولسبب هذا الاختلاف بينه وبينهم وقد جعل سينيتوس أهمية كبيرة للرؤى والاحلام وقال إن احلامه التي كان يراها في منامه كانت الرائد الوحيد له في اعماله أما النبذة الثانية فكتبتها ليرد بها على

الانتقاد الشديد الذي وجهه ضده فلاسفة الوثنيين ورهبان المسيحيين وليدفع عن نفسه ما رموه به من سفاهة الرأي وأعوجاج المبداء في كونه خالف ذلك الفكر الشائع في مصر بخصوص الرهبنة والتبتل حتى ان البعض يذهبون الى ان مبداء الرهبنة وتمثيلها في مصر كان السبب الوحيد في تأخير سينيسيوس عن اعتناق الديانة المسيحية من زمن مضى . ولما اكمل سينيسيوس وضع هذين النبذتين ارسلهما الى العلامة هيباشا القنة قد هما وتحصصهما فلما وقفت عليهما سرها ما فيهما من غزارة المادة وقومة الحجة و يؤخذ من الملحق الذي صنفه سينيسيوس لهاتين النبذتين انه صار مسيحيًا في أثناء الثلاث السنوات التي مكثها في وطنه بعد عودته من الاسكندرية ويحتمل ان عماده تم بعد زواجه بحوالي خمس سنوات

أما سينيسيوس هذا فكان شاعرًا بارعًا وناثرًا ماهرًا ظهرت نفحات تأثير الديانة المسيحية في افكاره فأثرت في شعره ونشره . ولما دجم الى بلاده سنة ٤٠٤ وجد انه قد عادت الى عترها ليس وان جماعة الغزاة المتوحشين عاودوا الهجوم على البلاد لأنهم سخروا بمحاكمها وهزاوا بضعف رأيه وخوار عن ينته فلم يكُن ثمت وقت لسينيسيوس يتمتع فيه بالسعادة العائلية أو يغوص بافكاره في لجج العلوم وبحارها فيستخرج منها ما يزري بالدرر الغوال فاعاد الكره على الاعداء حتى في جواباته وخطاباته لا صدقائه في الاسكندرية التي كنت لا تقرأ فيها سوى ذكر بيادر حرقـت وقطـعـان ثـبـتـ وـقـرـىـ سـلـبـتـ وـاصـبـحـ جـمـيعـ النـاسـ يـسـتـعـدـونـ لـلـقـتـالـ وـالـنـزالـ . أما

حاكم هذه المقاطعة قترك وظيفته وفر هارباً فرار الجبناء الانذال ففوضت
الحكومة الى سينيتوس امر الدفاع عن بطلومايس عاصمة اقليم بنتابوليس
وافعل في مهامه هذه فعلا يظهر لك مقداره من نصوص المكاتيب الآتية
حيث قال :-

(لما رأى الحاكم ان الخطر يتهدده انزل جميع نقوذه وأمواله في
السفينة ثم تبعها هو وأبحر الى حيث يأمن الشر واخذ يصدر لنا الاوامر
تباعاً بواسطة زورق صغير بان نظل مختبئين داخل جدران منازلنا وان
لا نراجح هذا العدو القوي ولا نعتدي عليه بل يكفي ان نتخذ خطة الدفاع
فقط والا فنجن مسؤلون عما يلحقنا من الضرر وجنا به خال من كل
لوم وتشريب . فكنا نقيم اربعة حراس في الليل يحرسون المدينة وتعلمنا
ان الخطر كل الخطر في غمض الاجفان ومل العيون نعماً وليعذرني
الاصدقاء في عدم المداومة على ارسال الخطابات اليهم لان وقني قصير
وهوذا أنا مشغول الان في تدبير طريقة اصنع بها منجيقاً يصب على
الاعداء صيداً من الحجارة ويرمي عليهم ادوات القتال على مسافة بعيدة
أما الخطة التي سرت عليها في امر الدفاع هذا فهي امتنعي متن
جوادي في دجى كل يوم واخرج لاستطلاع طلع هؤلاء الاصوص
الذين لا اسم لهم اعداء ولكنني أدعهم سلبية خاطفين لا يأتون شيئاً سوى
النهب وقتل الضعيف الذي لا سند له ولا عضد . فاذاجن الظلماد وادخلي
الليل سدوله خرجت في نفر من الشبان الاقوياء ودرنا حول التلال

والكثبان حتى يطمئن بالنساء وينهى آمنات طوارق الحدثان. وعندي
 الآت فرقـة من الجنـد كانوا قبل تعيـنـ حـاـكـمـاـ الحـالـيـ بـيـادـةـ رـأـبـةـ
 يرمون السـهـامـ من فوق ظـهـورـ الشـهـبـ المـطـهـمـةـ فـلـماـ تـعـيـنـ هـذـاـ الـوـالـيـ باـعـ
 خـيـولـهـمـ فـاصـبـحـواـ يـؤـدـونـ خـدـمـاتـهـمـ مـعـيـ ولاـ جـيـادـ مـعـهـمـ ولـكـنـهـمـ يـحـسـنـونـ
 دـمـيـ السـهـامـ الـتـيـ تـفـيـدـنـاـ كـثـيرـاـ فـيـ ردـ العـدـوـ عـنـ الـمـنـازـلـ وـصـدـهـ عـنـ الـنـهـرـ
 الـذـيـ نـشـرـبـ مـنـهـ لـاـنـاـ لـاـ نـجـدـ الـمـاءـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ . ولاـ يـحـوـجـنـيـ فـيـ هـذـهـ
 الـحـالـةـ سـوـىـ بـعـضـ دـجـالـ لـهـمـ صـفـاتـ الرـجـالـ الشـيـعـانـ فـبـعـوـنـةـ اللـهـ وـمـسـاعـدـةـ
 هـوـلـاءـ الـابـطـالـ اـضـمـنـ الـفـوزـ وـالـنـجـاحـ . اـمـاـ اـذـاـ كـانـ نـصـيـبـيـ الـمـوـتـ لـاـ جـلـ وـطـنـيـ
 فـلـاـ يـجـبـ عـلـيـ اـنـ اـجـزـعـ مـنـهـ وـلـاـ اـحـزـنـ عـلـىـ فـنـاءـ جـسـمـ يـقـولـ عـنـهـ جـمـاعـةـ
 الـفـلـاسـفـةـ اـنـ كـتـلـةـ لـحـمـ نـتـنـ اـنـ لـمـ يـأـتـ بـفـائـدـةـ لـبـنـيـ الـإـنـسـانـةـ وـلـكـنـ لـاـ يـوـمـنـيـ
 الـلـوـأـمـ اـذـاـ اـذـرـفـتـ الـدـمـعـ الـغـزـيرـ عـنـدـمـاـ اـذـكـرـ قـرـيـلـتـيـ وـوـلـدـيـ لـاـنـ
 الـاحـسـاسـ الـاـبـوـيـةـ اـسـرـ طـبـيـعـيـ لـمـ يـخـلـ مـنـهـ الـحـيـوانـ فـضـلـاـ عـنـ الـإـنـسـانـ)
 كـانـتـ النـتـيـجـةـ بـعـدـ هـذـاـ اـجـهـادـ اـنـ مـسـاعـيـ سـيـنـيـشـوـسـ قـوـرـنـتـ بـالـفـوزـ
 وـالـنـجـاحـ وـكـلـلتـ اـعـمـالـهـ بـاـكـلـيلـ الـظـفـرـ وـالـفـخرـ الـذـيـ يـنـالـهـ كـلـ خـادـمـ لـلـإـنـسـانـةـ
 سـاعـ فيـ صـالـحـ اـبـنـاءـ اـمـتـهـ منـ قـلـبـ مـخـاصـ وـضـمـيرـ طـيـبـ وـاتـهـيـ الـاـسـرـ
 بـعـزـلـ ذـلـكـ الـحـاـكـمـ الـجـيـانـ وـتـعـيـنـ بـدـلـهـ مـنـ الرـجـالـ الـاـقـوـيـاءـ الـقـادـرـينـ عـلـىـ
 صـدـ الغـزـاةـ وـخـفـضـ شـوـكـهـمـ وـكـرـقـوـهـمـ . وـوـحـيـنـتـ صـفـاـ الـجـوـلـسـيـنـيـشـوـسـ
 فـعـادـ إـلـىـ الـفـلـسـفـةـ وـابـحـاثـهـ وـأـنـكـ يـنـعـبـ عـلـىـ الـعـلـومـ وـيـسـعـ خـلـفـهـ بـعـزـمـهـ
 الـأـوـلـ وـكـانـ الرـجـلـ مـيـالـاـ إـلـىـ الـفـلـسـفـةـ وـالـتـفـقـهـ فـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ مـيـلـهـ إـلـىـ

العلوم الأخرى وهو ينادى في ذلك المبداء الذي سار عليه ناشئة بنتابوليس
في ذلك الحين من تفضيلهم العلوم والفنون على الفلسفة وفروعها وهكذا
ما كتبه سينيتوس في هذا الصدد : —

(اني لا ارى اثراً للفلسفة في ليبيا باكلها ولا اسمع لها صوتاً سوى صدى
صوتي الذي يرن في الآذان فان لم يشهد احد لي بهذه الاسبقية فان الله
جل شأنه يعلم اني باريت الاخرين في هذا المجال الفسيح لانه اعطاني عقلاً
نيراً هو صنع يديه . كذلك النجوم والكواكب تنظر الي من فوق
مفترقة مبتسمة لى لاني اعتنى باسمها وارقب حركاتها وارصد دورانها
وميلها في فضاء هذا الجو الواسع الذي ي Bhar الانظار ويغير العقول)

وقد سعى سينيتوس كثيراً في تنظيم رديف عسكري وطني في
مقاطعة بنتابوليس ولكنه لم يفلح ولم يقبل أحد رأيه لأن سياسة الدولة
الرومانية لم تكن تسمح للمصريين الكارهين سلطتها بالتجند وحمل
السلاح . وقد شرع سينيتوس ايضاً في مشروع مفيد هو ان يعهد بتعيين
حاكم مقاطعتهم الى والي مصر لا لديوان الامبراطور في القسطنطينية
وذلك لانه اتضح له بعد الاختبار الكبير ان تعيين الحاكم من قبل
الامبراطور يكون مجبلة للضرر ونبه انه لا يطمع احد بهذا المنصب في
بلاد بعيدة محفوفة بالمخاطر الدائمة وغزوات القوم المتوحشين سوى
رجل يكون غرضه الاول جمع المال والحصول على الثروة في مدة ولايته
التي هي عبارة عن التزام او استئجار هذه الولاية . وقد ضرب سينيتوس

مثلاً هو أن أحد حكام بنتابوليس جمع ثروته بطرق دنيئة قبيحة منها أنه فتح بيتاً لا ينبغي ذكره لهذا الفرض . وقد كان الناس يرسلون شكاوىهم تباعاً إلى القسطنطينية ولكن بدون فائدة واحياناً لا تصل هذه الشكاوى إلى ولاة الأمور لصعوبة المواصلات وبعد المسافة بين هذه المقاطعة وتلك المدينة الفاسدة مع أن أكثر البيوتات الشهيرة في قضاء بنتابوليس كان لها أقارب واصدقاء في الإسكندرية حيث يسهل التخاطب معهم وايصال طلباتهم إليهم لرفع حيف أو طلب انصاف

ومضى الزمن الطويل ولم يعبأ أحد من رجال بطانة الامبراطور بهذه الطلبات العادلة فهاج السكان وماجوا وسعوا في دس الدسائس ضد الدولة فاذعنـت هذه إلى مطالبـهم واستدعتـ الحـاكم العسكريـ الذي كانـ عليهمـ وعيـنتـ بـدهـ حـاكـماًـ اـسوـاءـ مـنهـ حالـاـ وارـداءـ خـصالـاـ كانـ مشـهـورـاـ فيـ الـولاـيـةـ باـكـلـهاـ بالـشـرـ وـالـفـسـادـ خـفـقـ جـمـيعـ اـفـرـادـ الرـعـيـةـ وـغـضـبـواـ مـنـ هـذـاـ الـظـلـمـ الـجـائـرـ وـقـامـواـ كـرـجـلـ واحدـ بـطـرـيقـةـ لـمـ تـكـنـ تـلـئـمـ مـنـهـمـ حـتـىـ كـادـواـ يـشـعـلـونـ جـذـوةـ ثـورـةـ فيـ الـبـلـادـ لـاـ تـخـمـدـ نـارـهـاـ إـلـاـ بـشـقـ الـأـنـفـسـ

ولا يخفى أنه مذ ما جلس قسطنطين على العرش الروماني صارت السلطة الرومانية في مصر تتسلل شيئاً فشيئاً من يد الامبراطور وعملاً له إلى يد البطريرك والأساقفة وأصبحت القوة الحقيقة في القطر المصري

في قبضة الاباء الروحبين بدل الولاية الزمنيين (١) وسبب ذلك بغض
المصريين للحكم الروماني حتى تطرفوا اخيراً وصاروا لا يخشون سطوة
هذه الدولة ولا يهتزون لهايتها ولا يهتمون لاصرها سوى في دفع الضريبة
ال السنوية المفروضة عليهم التي لم يدفعوها الا بعد تعب ومقاومة وتحكم
سلط الجباة في اجسادهم كما اشرنا الى ذلك قبلما داموا يدفعون
الضريبة و يؤدون جزية الحنطة المفروضة عليهم سنوياً الى القسطنطينية
فالديوان الامبراطوري لا يهمه من أمر مصر شيء ولا يعمل على مافيه
راحتها واصافها سوى انه كان يتميز غيظاً وحسداً من ازيداد سلطة
بابا الاسكندرية وامتداد نفوذه الادبي والروحي . كذا كان انسلاخ
السلطة من ايدي الحكام الى الاساقفة سارياً في جميع أنحاء المملكة على
الخط الذي سرى عليه في مصر وذلك لأن الوالي من هؤلاء الولاة لم
يكن يعرف شيئاً عن البلاد التي يحكمها ولم يكن يفكر في تقدمها وارتقائها

(١) في مدة حكم امبراطرة الروم كانت مصر بجزءاً الى ست مديريات يحكمها
ولاية من قبل الامبراطور يستمدون الاوامر من القسطنطينية وليس لاحد في مصر
حق الرئاسة عليهم . كذا كان الحياة الذين يجمعون اموال الخراج تحت سلطة
القسطنطينية رأساً ولا علاقة لهم مع ولاية مصر فتم قسمت مصر بذلك الى ثمانية
اقضية (١) طيبة العليا تتبعها ١١ مدينة (٢) طيبة السفلی ولها عشر مدائن بما فيها
الواحات البحريّة (سيوى) (٣) ليبا العليا أو قورينه (٤) ليبا السفلی (٥) اركاديما
(نسبة الى الامبراطور اركاديوس) (٦) نصف الدلتا الشرقي (٧) نصف الدلتا الغربي
(٨) من تل بسطة بديرية الشرقية لغاية البحر الاحمر

بل كانت علاقته معها كعلاقة المستأجر مع اجيره أو كعلاقة الغريب
 النازح مع المستوطنين فضلا عن ان الاساقفة كانوا دائمًا مصريين
 ينتخبون من ذات الابروشية التي يعيثون فيها ولذلك كان يحبهم شعبهم
 ويرضخ لشارتهم ويطيعهم طاعة تامة بحيث لا يخالفون لهم قولا ولا
 يسيرون على غير رأيهم. اما الاساقفة الذين اصلهم رهبان ورقاهم انسانيوس
 ونوفيلس فهم انهم لم يكونوا محبوبين كثيراً من شعبهم لجودهم وبلا فهم
 ولكنهم كانوا يملكون قلوب الرعية في ابروشياتهم بواسطة تقوتهم وعففهم
 ولأن بعضهم كان عارفاً بقشور من علوم المصريين القدماء وفلسفتهم فكانوا
 يظهرون امام الشعب بعظمة العالم العارف ويحدهون على البسطاء السذاج
 منهم فلم يكونوا يخرجون عن طاعتهم أو يرثون حاكا لهم غير هؤلاء
 الاساقفة فقط . والذي زاد انحراف الرعية عن الحاكم الروماني وبغضها
 له ما وجد في طبع هذا من الجشع والطمع وعدم المقدرة على ادارة امور
 البلاد بالحكمة والسداد حتى ان اهالي المديريه مثلًا كانوا كثيراً ما يهبون
 الى تغيير حاكمهم ويقع اختيارهم على رجل ينتخبونه ثم يتمرسون من البطريرك
 تعيينه اسقفاً عليهم ليحكمهم وليسو بهم . وكثيراً ما يكون في الابروشية
 اسقف يؤدي اعمالها ويدير حركتها ولكن لاتساعها وتعدد مدنهما يعمد
 بعض اهاليها الى تعيين اسقف آخر تعهد اليه اعمالهم فيلحوذون على البطريرك
 والاسقف الاصلی باجابة طلبهم ورسم الاسقف لهم وتحصيصه بابروشيه
 خاصة به وبهم او على الاقل تعيينه معاوناً للأسقف القديم

ولهذا السبب لم يعبأ سكان مقاطعة بنتابولييس بتعيين الوالي اندرونيكس حاكماً عليهم وذلك لأن مقاطعة بطلومايس التي كان لها حق السلطة الدينية على ابورشية بنتابولييس كانت بدون رئيس ديني فقسم الشعب على اختيار سينيروس اسقفاً ووالياً عليهم فلم يتوقف البطريرك ثيوفيلس في رسمة سينيروس اسقفاً ووالياً عليهم لانه كان راغباً في اعطاء هذه المنصب أكثر من رضى سينيروس به . وفي هذا الحين كتب سينيروس كتاباً مطولاً ارسله الى أخيه الذي كان مقيناً حينئذ في الاسكندرية واصاحه باطلاع البطريرك على خواه وهو يتضمن الشكر الكثير والثناء الافر على مواطنه الذين زادوه شرفاً باختيارهم اياه لهذا المنصب الخطير الذي شعر بعدم كفاءته له وعدم رغبته في هذه الوظيفة لاسباب ذكرها في الخطاب المذكور ناتي على مغزاها حيث قال : -

(اني اقسم او قاتي الى قسمين للرياضة والنزهة وللدرس والمطالعة ففي الوقت الذي اشتغل فيه بالدرس خصوصاً في الكتب الدينية انقطع عن أي عمل آخر وامض نفسي عن ممارسة أي شغل ولما اذهب للرياضة وتسليمة الخاطر اكون دجلاً ورعاً تقيناً والودع لا يهتم بالرياضة الجسدية ولا بما ينزع النفس ويسر الفواد كما ان العيون كلها تطلع نحوي لترى ما اذا كنت متمناً لواجباتي قائماً باعباء وظيفتي وويل لي اذا قصرت في امر . كذا تخبرني وظيفتي الدينية الى الابتعاد عن العزلة او الانقطاع للدرس والمطالعة بل التزم بمخالطة الناس وصرف كل اوقاتي معهم في التعليم والارشاد)

ولا انسى انني ساكون بمفردي مسؤولا عن كل شخص حاملا اقبال
جميع الناس وهذا عمل يحتاج رجلا نادر الصفات ثابت الجنان قوي العقل
والجسم ليقوم بشعائر هذه الامور الروحية بدون كلل أو ملل)

وفضلا عن هذه الاسباب السالف ذكرها كان يوجد سيبيان قويان
جدا يحملان سينيروس على الابتعاد عن هذه الوظيفة ورفضها بتاتا . ذلك
انك عرفت في الذي صر انه في مدة الأربعين سنة الاخيرة جرت العادة
بانتخاب الاساقفة من طفمية الرهبان وصار القس المتزوج محروما من
الترقية مثل هذه الوظائف . ولقد اعترض سينيروس على هذه القاعدة
اعتراضا ملئه الحجة القوية والبرهان الصحيح حيث قال .

(ان الله والناموس ويد البطريرك توفيس سلمتي امرأني التي اصرخ
جهارا انه لا توجد قوة في الكون غير الموت تقدر تفصلني عنها كما اني
لا اسير على مذهب ضماف العقول الذين يقولون ان ابتعدعنها وازورها
سريا كما يفعل الزناة الخاطئون فهذا العمل يخالف الانسانية والشرايع الاصحية
وعليه فسائل ملتصقا بقربيتي الى النهاية واطلب الى الله ان يرزقني منها
او لا دا اقياء يعبدونه وخدمونه)

هذا سبب من السببين اللذين بغضنا سينيروس في وظيفته الاسقفية
اما السبب الثاني فيختص بآرائه الدينية ومذهبه واعتقاده . فعلوم انه لم
يمض زمان طويل على صدوره سينيروس مسيحيانا كما انه تربى تربية وثنية
ورضع البيان فلسفة هذه الديانة وعلومها ولذلك كانت افكاره في بعض

للنقط الدينية لا تزال مرتبكة مضطربة مع انه عاهد نفسه عهداً متيناً
بعدم الخوض مع شعبه في المسائل اللاهوتية الغامضة قائلاً في نفسه ان
ما فائدة العامة من البحث في الامور الفلسفية المويصة ما دام ان الله سهل
المأخذ قريب الايمان به ومعرفته بامور بسيطة لا تحتاج للتنقية عن
اسرار والغواص تدهش العقل واللب ولذلك رغب في عدم ايجاد امر يشتم
منه سوء الفهم بيته وين البطريرك وكتب يقول :

(اني اذا دعيت لمنصب الاسقفية فلي كلة اقوالها لا استطيع كتمانها
وهي حقيقة يشهد على صحتها الله والناس ولا اخشى في قولها لومة لائم
لان الحق من عند الله الذي احب ان اكون امامه بلا لوم . ذلك اني
مغرم من نعومة اظفاري بمواد الرياضة والتسليةولي ميل شديد لاقتناء
الاسلحة الفاخرة واحراز الخيول الاصايل ومع ذلك فاني راض ان اترك
كل هذه الاشياء واتخل عنها ولو انه يسُؤني ان ارى كلاب الصيد التي لي
محجورة لا تصطاد ولا تطارد فريستها وان اترك سهامي واقواسي عرضة
للسم والسوس ينحرها ويأكلها ولكن هذه جميعها شيء تافه زائل لا يهمني
اذا اراد الله ان يستعملني آلة لمجد اسمه واصطباد الناس .)

وكما اني ابغض كل ما يشغل بالي ويتعب عقلي والكتابي مسنونه لذكر يس نفسي
لخدمة المسيح خدمة احتمل في سبيلها كل عناء وتعب الا اني لا استطيع ان اغض
نفسني من جهة العقائد ولا ان اقول ضد ما اضرم ولا اصرح لساني ان ينطق ضد الذي
في جنائي . وعليه قاني ارجو ان الاب ثوفيس المخترم يخبرني برأيه جهاراً من نجوي
وان يقول عني ما يعرفه في دون كتمان فاما ان يتركني وشأنني اعيش لنفسي باحذافني

الفلسفة واصولها أو يعطني ضراناً كافياً حتى لا يحاجأني أحد فيما بعد لاجل افهكاري
ويمحكم علي بالطرد من وظيفة الاسقف التي يختارني الشّعب لها)

ويظهر ان البطريرك ثوفيلوس سلك في هذا الامر مسلك الحكمة والتعقل خلاف
ما كان يفتقر منه قياساً على نهجه واندفاعه في مسألة الرهبان ويوحنا كريستم .
فإن هذا البطريرك منع ما عرف عنه من الغلطات المكثيرة كان عاقلاً خبيراً
رأى الفائدة العظمى التي تجثم من ادخال سينيروس ضمن الرعاية وينعم الشبهة الموجهة
ضده من انه شاع في ذلك الوقت ان له افكاراً تختلف نصوص الكتاب المقدس .
اما فيما يخص بامرأة سينيروس فان ثوفيلوس لم يجد ادنى اعتراض على زواجه هذا
لانه راي في مدى العشر سنوات الاخيرة الخطر الهائل الذي ينبع من الرهبنة
ومصالحها . وقبل ان يقر الرأي على امر ذهب سينيروس الى الاسكندرية يستشير
ثوفيلوس شخصياً في هذا الشأن وحينئذ شاع بين اهالي بنش ابوليس اشاعة انه اذا
رفض سينيروس احتجاب طلبه لم يقبل وظيفة الاسقفية فلا يمكنه الرجوع الى وطنه
والسكنى بين مواطنه

وتم الامر اخيراً واخبر سينيروس اسقفاً لبنش ابوليس سنة ٤١٠ . وعند تعيينه
ارسل جواباً في هذا المعنى الى اساقفة بعلوهايس ناقلي للك على مفرأه وهو .
(حيث ان الله جل وعلا اختارني لهذه الوظيفة طبقاً لازادته لا لارادتي فاني
اطلب منه بالحاج ان يهبني الصفات العالية حتى اسلك في هذه الوظيفة مسلكاً يرضيه
وان اعمل ما يطلبه مني . فانه لا يمكن القيام باعياً هذه المرتبة الخطيرة لاني رجل
ضعيف لا ملام لي الا بالفلاسفة العالمية ولا معرفة عندي سوى ما ثقلتنيه في حدايتي
من العلوم الوثنية ولكن اذا ساعدني الله واخذ يدي واهدي لما العمل العظيم عشت
عيشة اخدمه فيها وخدم كنيسته خدمة يطالعها من كل شخص وضع يده على المحركات
نظيري . وعليه فاني ارجوكم ايها القسوس ان ترفعوا ايديكم نحو العزة الالهية وتبتخلوا
الى الله العظيم وان تطابوا من شعبكم ان يصلوا اليكم من اجل الى الله لكي يساعدني
وياخذ يدي وينجح عملي . فاذا عصدي الله فاني اضع مركز الاسقفية هذا فوق كل
مركز آخر من نوعها وارفعها بمعونة القدير الى اعلى عالىين ،)

وقد قضى سينيتوس ثلاث سنوات في وظيفة الاسقفية ذاق فيها كل انواع العناء والتعب . فانه بعد عودته من الاسكندرية عند اتمام رسالته وحمد مقاطعة بطولمايس في هياج واضطراب ذلك لان الوالي اندرونيكس ارتكب فيها من الفظائع ما لا يحصى القلم فانه اضطهد شعب هذه المقاطعة الواقعة على حدود مصر بعيد عن سلطنة الولاية العظام دون ان يقترب هذا الشعب جرمًا بوجب اضطهاده وعذابه موى ان هذا الوالي الظالم كان يسعى في ابتزاز اموالهم وأخذ مقتنياتهم لنفسه وهذا هو سبب ما ارتكبه من القبائح والملائمة . وقد تفاقم الخطب جداً وذاق الناس مرارة العذاب المرعب الذي مكبه عليهم اندرونيكس فهربوا الى دار الاسقفية يطلبون لانفسهم ملجأً ومدافعاً يدرأ عنهم هذا الشر المرعب فقام سينيتوس وعنف الوالي على عقوله وشره وسعى جهده في حمله على الكتب عن هذه الفظائع ولكن الشعب نذمر وتخبر وظنوا ان سينيتوس زعيمهم ومقدمتهم لم يعبأ بهم ولم يلتفت لهم وكانت المصائب توالت تباعاً على رأس هذا الاسقف الهمام فمات ابنه الوحيد ولم يسمع الله لصلواته الحارة التي قدمها طالباً شفاؤه ففُتنَت سينيتوس واستولى عليه اليأس حتى انه عمد الى الانتحار ليخلاص من حياة ملوها الهم والكدر . وكان قبل هذا الوقت ارسل مكتوبًا شديد اللهجة الى القسطنطينية ليجتبي فيه على سلوك الوالي المذكور ولكن الشعب لم يمهله حتى يصل رد مكتوبه فشكل سينيتوس حينئذ مجتمعاً حافلا في الكنيسة الكبرى وأصدر فيه حكمًا بحرمان اندرونيكس والقى موعظة مؤثرة شرح فيها الذنوب والآثام التي ارتكبها هذا الوالي حتى اخطر ان يتخذ ضده ما اتخذه وختها بقوله

() بناء على ما اتااه اندرونيكس من الفظائع اصدرت كنيسة بطولمايس الامر الآتي الى جميع الكنائس في المسكونة وهو : لا يجب ان تفتح كنيسة او هيكل في وجه اندرونيكس وعائاته وثواس وعائلته وهو الذي كات الله شره هذا الوالي الظالم وساعدته في مظاهره ولتفعل جميع الابنية المقدسة في وجه هذين الشريرين فلا يدخلانها ولا يقبلان في عضوية كنيسة ابن الله . وكما ان الشيطان لا نصيبه له في ملكوت السموات فمكذا هذان الظالمان لا ينجانها با يطردان خارجاً حيث يكون البكاء وصرير الاسنان . وعليه فاني احذر جميع الناس من اي طبقة كانوا ان لا يساكنون هذين

الشريين ولا يحيى الظومنه ولا يواكبه عالمها كما اني انبه على الاساقفة ان لا يتمكلهون
معهم وهم احياء ولا يدفنونهم بعد موتهما . و اذا ارتا شخص ان يحيق هذالا ابر
لأنه صادر من كنيسة صغيرة حقيقة ككبيستا فيختلط بهذين الشقيين فليعلم انه
خالف ارادة الله الذي ارسل ابنه المسيح ليفتدي بهذه الـ كنيسة ونظيراتها بدمه
ويجعلها كنيسة واحدة في اته ولذلك نضطر ان نعامل هذا الشخص سواء كان
اسقفا او شماسا او علماانيا معامله اندرونيكس نفسه فلا ينجاس معه ولا نأكل من
اكله لانه يكون قد فضل اندرونيكس وثواس الشريرين علينا ولم يقبل حكمها)

فاما بلغ اندرونيكس خبر هذا الحكم وعرف انه على وشك النشر بين اساقفة
بنطاپوليس جاء الى سينيتوس مقرأ بذنبه تائبا عما اقترفه من الذنوب والآثام طالبا
فسخ هذا الحكم وابطاله ، فلم يعتمد سينيتوس على قول اندرونيكس ولم يشق بكلامه
انما اوقف نشر الحكم الى حينئذ اذا عرف هذا الوالي ان الحكم الذي صدر
ضده أصبح لغويا قد يعود الى ارتكاب الشرور التي نشاء عليها

واذ عرف سينيتوس ان الطبع غالب وان هذا الوالي العاشم لا يمكنه التنازل
عن عمله اتفذا عليه حكم الحرمان وكتب الى البطريرك ثوفيلوس يعلمه بذلك ويطلب
منه معاملة هذا الرجل بما يستحقه من الاغصاء والاحتقار

ولما اراح سينيتوس رعيته من ظلم هذا الظالم جال في هذا الاقليم يفتقد شعبه
ويؤاسيهم ووصل في سياحته الى قريتين وافتدين على حدود صحراه ليبيا وكانت
هاتان القرىتين قد انتخبتا اسقفا نشيطا عاملا في مدة حكم فالنس ليرد عنهم هجمانه
ويدفع عنهم اعوازه وكانتا قد طلبتا من البطريرك انناسيوس ان يكرسه لها ففعل
واختار هذا الاسقف النسيط بابروشية صغيرة تابعة في اعمالها لابروشية بنطاپوليس
وعند زيارته سينيتوش لهاتين القرىتين كان الاسقف المذكور قد انتقل الى رحمة
مولاه فطلب من ثوفيلوس ان ينتخب خلفا له . وحدث ان بولس اسقف ابروشية صغيرة
آخر اسماها اربشون كان معبوبا من الجميع فطلب اهالي القرىتين المذكورتين ان ينغيروا
الى ابروشيه دون ان ينتخبوا اسقفا جديدا لهم . وكان ملا جعهم سينيتوش وطلب منهم
اختيار خلف لاسقفهم المتوفي بدأ منهن الامور التالية التي نشرحها لك في السطور الآتية :
(عندما تكامل عدد الشعب الذي جمعه سينيتوش وطلب منه انتخاب اسقف

طرح الشعب كلهم انفسهم الى الارض واخذوا يتسلون الى البطريرك ثوفيلس كا لو كان حاضراً ويلامون منه بدموع ان يحييهم ويضيئهم الى هذا الاسقف الذي قالوا عنه وكانوا ينفعون ذلك بدون ترتيب او نظام بل ما كثت تسمع الا زفات تصاعد من افواه الرجال وشهيق يردد النساء وبكاء من الاطفال يلا الفضاء حزناً ومدعاً على كرمي اسقفهم المحبوب الذي اصبح خالياً منه بعد موته فلم يستطع سينيسيوس ترتيب هذا الجمجم الخبيط وحينئذ صرف الشعب بعد ان اخبرهم بالعوده الى هذا المكان بعد اربعة ايام فلما اجتمعوا في الاجل المضروب حدث ما حدث اولاً من الاختباط فاضطر سينيسيوس ان يكتب بالفصائل الى البطريرك ثوفيلس ويحييده على ما حدث ويطلب منه القول الفصل في هذا الامر)

ولله في القصة التالية اعظم دليل على صفات الاسقف بولس الممتازة التي جذبت اليه قلوب الشعب في انه كان وجلاً تقىً انشيطاً يقدّر يفيد اصدقائه ويضر مبغضيه اما هذه القصة فهي انه كان يوجد بقرب احدى القرىتين المذكورتين قبل اطلاق قصر قديم قاعدة على قمة كثيف كثير الحزون ولوهاد ، وكان هذا القصر قد ابى به ايدي الزلازل فقوضت بعض جدرانه وكان بعضها يصلح لان يكون حصناً منيعاً للقرى المجاورة له تدرأ به هجمات الاعداء في هاتيك الايام التي كثرت قلائلها واعظمت اضطراباتها حتى ان الشعب اضطر حينئذ ان يبحث عن حصن يكمن فيه عند تفاقم الخطوب حيث يكون في مأمن على الماشي والارزاق من غارات المتشحشين الذين كانوا لا يفتاؤن بغيرون ويحازبون . وكان هذا الكثيف والصرخ ملكاً لـ ديسفورس اسقف قرية اسمها دردانوس مجاورة لـ احدى القرىتين المذكورتين ولذا عجز بولس عن الحصول على هذا الحصن المنبع وعليه سار اليه بالقوة الحبرية ونصب في وسطه منضدة اخذها كمدفع وشرع في تكريس المكان ليكون ككنيسة وحينئذ صار هذا الحصن بمقتضى تكريسه ملكاً لـ بولس تابعاً لـ ابروشاته ولم يهد لـ احد حقاً ليتصرف فيه . ولما وقع الخلاف بين الفريقين بسبب هذه القلعة رفعوا الامر الى الاسقف الكبير اعني به سينيسيوس الذي لم يستحسن ما عمل ولكنه لم يعلن بطلان التكريس ولم يقل انه غير نافذ المفعول مع انه لم يشك في ذلك لانه قال ان ممارسة الفرائض الالهية وتكريس احد الاماكن لا يؤخذ منه ان هذا المكان المكرس يظل مقدساً الى الابد

والا كان جميع القصور التي قام فيها الصلوات والخدمات الدينية في ايام الحروب تبقى ككنائس بناء على هذا الرأي . ثم كتب فقرة في هذا المعنى يقول فيها : -

« اني من الناس الذين يفرقون بين الامور الدينية الصحيحة وبين الخرافات التي اعدها نوعاً من الرذيلة لها مسحة الفضيلة ويعدها العلم شكلان ثالثاً من اشكال الزندة والكفر كما اني لا اعتقاد بقداسة مكان وطهارته الا اذا اجريت فيه اعمال القدس والطهارة . فان الائيان المسيحي المتيين لا يقول بحمل الروح القدس في مكان بناء على تكريسه او تعمته بعض كلمات فيه ولكن الروح القدس يحل في الانفس الطاهرة والاجسام التي صارت هي اكل لله ولا يسكن المسيح وسطيئه عملت له هانيك الطقوس والرسوم تكريسه ولكنه يسكن بين اثنين او ثلاثة اجتماعاً باسمه ، وممنوم ان الروح القدس لا يحل وسط جماعة استولى عليهم الشناع والخناق واستفحلا يديهم روح النفار والنقار حتى اذا كان موجوداً في مكان دخلت فيه هذه الرذائل فلا شك ان روح الله يهرب منه ويفارقه . اذا فتكريس الابدية لا توجب طهارتها وقداستها بل تشير فقط على شخصيتها للعبادة »

وعلى هذا المبدأ القوي لم يسع الاسقف بواس الا التسليم لحكيم سينيسيوس وفاته مملوء من الملم والكدر ، اما ديسفورس فاظهر كرماً وهرؤة يمحى دان ويهد دان في انه قال باستعداده لعم كلما يزيل الخصم ويوجد السلام وعليه اشتراك منه بواس الكشيب والقصر الذي فوقه وزال الشقاق من بين الجماعات وصاروا جميعهم مسرورين فرحين ولم يمض وقت طويلاً على هذا الحال حتى استدعت الحكومة القائد الماهر الذي كانت قبائل المتوحشين تخشي بأسمه وحل محله قائد ضعيف جبان مهد الطرق بجماعة الغزاة بالهجوم على مقاطعة بنتا بواس كما كان الحال سابقاً . وقد كتب سينيسيوس في هذا المعنى يقول : -

« فرأيت في التواريخ ان مدناً وقرى لم يبق فيها سوى النساء والاطفال اسباب الخراب والدمار اللذين استواليها عليهما وقد شاهدت هذه الحالة في بلادنا بل اكثرا منها شرّاً لان الاعداء لم يتذمروا النساء الاولاد بل اخذذوهن غذية لهم وكانوا يبقوهن عذراً الى ان يكبروا فيرجعونهم لوطنهم ولكنهم كانوا يأتونه كاعداً بعد ان تشربت قلوبهم عداوته وبغضه حتى ان الشاب منهم كان يتألف الحقل الذي لا يبيه وهو لا يعلم انه له

فلو كان عندنا قائد ماهر لامكنا ان ننتقم لانه سنا من عدو دني، مهان انتهك حرمة
 الاشياء المقدسة عندنا ولم يترك مكاناً مقدساً الا وداسه برجليه الدنسين ولم يدع قبرا
 او حدث الا وبنشه نيشاً ولم يترك كنيسة الا واحرقها ودنس المذايحة المقدسة وأستعملها
 لاعيادهم ولائهم واخذ الاواني المقدسة ووضعها في هياكل الاصنام والشياطين فضلاً
 عن القلاع التي هدمها والماشی التي استناها والعقارب التي سلماها حتى أصبحت مقاطعة
 بنتابوليس خراباً لا يأوى اليها احد ولم يبق لي بلد اين اهرب اليه الا فور ينفه منقطع
 رأمي حيث ان نسيبي يتصل بهرقل بطل الابطال . ولكن لا اهرب ولا اترك بنتابوليس
 التي انا اسقف لها ولا افر من القبر الذي اقبر فيه هنا . اني اشعر ان المصيبة قريبة مني
 حتى ان دموعي فاضت وخفقتني الزفرات فالتصق اسايي بحنكي ولم اعد استطيع النطق
 حين افكرا بما حل ببيت الله وكنيسته وصرت في درجة الحيرة الشديدة حتى
 اذا ارتايت ان الخجو بنيمي الى جزيرة قريبة مني اعود فاغير فكري وامكث هنا ولم
 يبق عليَّ الا الاتجاه له بكل الله والتسك بقرني مذبحه حيث اسكن دموعي
 على ارضه واظل اقبل بابه ومحرابه واطلب من الله العجلة والمعونة ، از عيني جفافها
 النوم من كثرة القلق والاضطراب ولم تعد لي فرصة لالوسن فيها بطريق اجفافني لكثره
 اهتمامي بترتيب الحرس بالمناوته وبعد ان كدت اصرف ليلي في مراقبة النجوم والسيارات
 وعمل الارصاد الجوية اصبحت الان افخي ليلة بعد الاخرى في مراقبة العدو حتى اذا
 هبعت فليلاً ابغظتني الاحلام المرئية والمناظر الحيفة ومخال لي في المنام اني هارب او
 مسجون او محروم او مكبل بالقيود والاصناد او باعوني عبداً رقيقةاً وكثير ما كنت
 اقوم من نوبي مذعوراً لاني احلم بعد هذا كله اني هربت من عدوي الظالم بعد
 ان استغلت العسكري الذي كان يتولى حراستي . فلو ثبت لي ان الجزء المجاورة لنا
 حالية من مثل هذه المصائب كانت ذهبت اليها وارحت نفسي قليلاً من هذه المخاوف
 ولستني اخشى ان ينزل بي القدر المحتوم قبل ان استطيع الهروب اذ ان يوم الهالك
 اصبح قريباً ولم يبق عليَّ سوى الذهاب له بكل الله والاسجود لاممه تعالى ليرسل لنا
 المعونة والنجاة وقد عوانت على البقاء في هذه البلاد وعدم توک الكنائس وساضع امامي
 الاواني المقدسة واتسلق بها على اعمدة الكنائس وسابق فيها ما يقع في رمق ثم اموت
 مدافعاً عن بيت الله متها واجبائي لاني معين من قبل الله انقديم القربان على مذبحه

فلا غرو اذا جاء الوقت الذي فيه اقدم نفسي قرباناً على هيكله ولاشك في ان الله يرحم
شعبه اذا رأى ان مذبحه تخصب بدماء اسقفه الذي يظل اميناً له الى النفس الاخير»
وبعد ان انتهت هذه المخاوف مات ابن سينيروس الصغير وكانت امرأته وولدان
آخران قدمتا قبله في ظرف سنة واحدة فتراجعت الاحزان على هذا الاسقف المفضل
وقصمت المصائب ظهره فكتب جواباً لبياشا الشهيرة يقول فيه . - اما انا فقد اصبت
بمرض في الجسم نشاء عنه مرض في العقل والفكر لافت موت ابني وامرأتي اخناني
واسقمني فاصبحت واضحة اولادي مرسومة امام عيني اللتان ابيضتا من الحزن واست
انساحم حتى اسكن التراب نظيرهم اما امرأتي العزيزة فاني اقول لها :

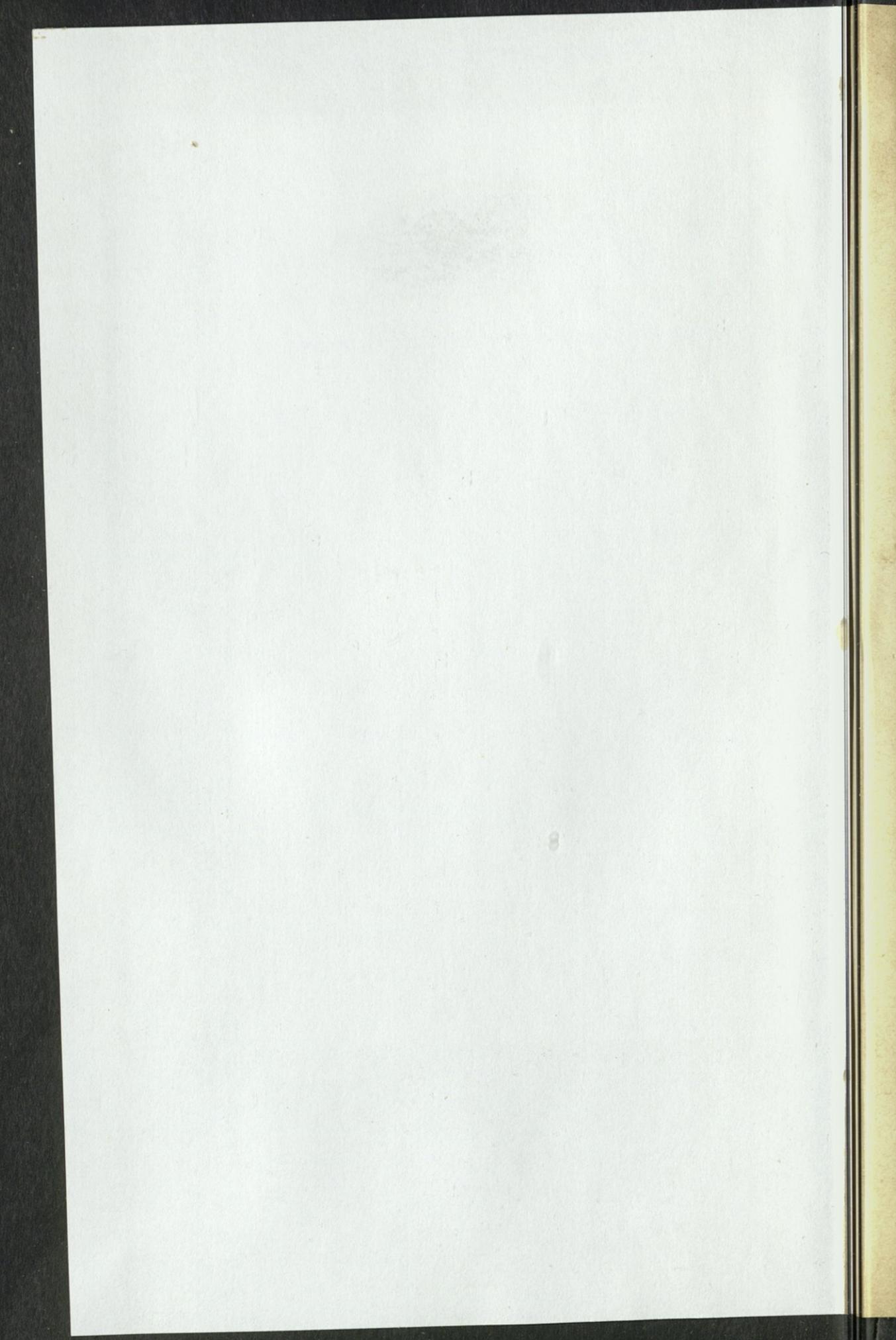
ابكيك ما بقيت حيati بعدكِ حتى اراكِ وдум عيني احرا

وقد قال بعضهم ان سينيروس اشتهر بـ مزايا لم تعرف عن غيره في انه كان جندياً
شجاعاً وسياسياً متضاماً وخطيباً مفوهاً وشاعراً مفلقاً وفيلسوفاً عالماً ومنطقياً بايغاً واسقفاً
ورعاً كما انه كان محبوباً مكرماً من الجميع . وفي نحو هذا الوقت تخرج البطريرك ثوفيلوس
وهو من اقوى واشهر البطاركة الذين جلسا على السدة البطريركية وهو اول من اطلق
على الامة المصرية اسم « الكنيسة القبطية » ثم خلفه بطريرك كان سارا على ذات الخطة
التي سار هو عليها حتى اوصلها الى درجة الاستقلال العقلي ولو انها لم تستقل
اسمهما وظلت في مصر مدة تحكم نفسها بواسطة اساقفتها وبطاركتها ولم تتدخل الحكومة
الامبراطورية في شؤونها مدة طيلة الا عند ظهور هرمة الهرطقة التي صرفة الامبراطور
بططف خوفاً من نتائجها

وقد اضاف توقياس بعض القوانين الى الكنيسة يحتوي احدها على ان الاكابر يosis
يجب ان يختارهم الا كايروس عند تعيينهم ويختارهم الاسقف وينتخبهم الشعب بعد تمام
رضائهم ورغبتهم . ومن غريب ما يحيى عن البطريرك ثوفيلوس انه قضى ايامه الاخيرة في
شغل منهك مضعف حتى اصبح هزيلاً ضئيلاً لدرجة اوجبت له الذهول والسبات الى
ان انتقل لرحمة مولاه في ١١٥ اكتوبر سنة ٤١٢

369
294
280.
432
1375





KELB LIBRARY

DATE DUE

AUB LIBRARIES

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00512650

